

إنسانيـات

الاغتيال الاقتصادى للأمم

اعترافات قرصان اقتصاد

جون بركنز

ترجمة ومراجعة: مصطفى الطنانى
د. عاطف معتمد
تقديم: د. شريف دلاور



الهيئة المصرية العامة للكتاب



الاغتيال الاقتصادى للأمم

إعترافات قرصان اقتصاد



تنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الاغتيال الاقتصادى للأمم

إعترافات قرصان اقتصاد

جون بركنز



بركنز، جون.
الاغتيال الاقتصادى للأمم: اعترافات قرصان اقتصاد/
جون بركنز، ترجمة ومراجعة: مصطفى الطنانى، عاطف
معتمد؛ تقديم شريف دلاور .ـ القاهرة: الهيئة المصرية
العامة للكتاب، ٢٠١٢.
٢٧٦ ص: ٢٤ سم(مكتبة الاسرة ، سلسلة إنسانيات).
تدمك ٢ـ ٢٤٢ ـ ٢٠٧ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
١ ـ الاقتصاد.
(ا) الطنانى، مصطفى (مترجم ومراجع).
(ب) معتمد، عاطف (مترجم ومراجع مشارك)
(جـ) دلاور، شريف (مقدم)
(د) العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٩٠٧٩ / ٢٠١٢
I.S.B.N 978- 977- 207-242-2
ديوى ٣٣٠

توطئة

مشروع له تاريخ

مشروع «القراءة للجميع» أى حلم توفير مكتبة لكل أسرة، سمعنا به أول مرة من رائدنا الكبير الراحل توفيق الحكيم.

وكان قد عبر عن ذلك فى حوار أجراه معه الكاتب الصحفى منير عامر فى مجلة «صباح الخير» مطلع ستينيات القرن الماضى، أى قبل خمسين عامًا من الآن.

كان الحكيم إذًا هو صاحب الحلم، وليس بوسع أحد آخر، أن يدعى غير ذلك.

وهو، جريًا على عادته الخلاقة فى مباشرة الأحلام، تمنى أن يأتى اليوم الذى يرى فيه جموعًا من الحمير النظيفة المطهمة، وهى تجر عربات الكارو الخشبية الصغيرة، تجوب الشوارع، وتتخذ مواقعها عند نواصى ميادين المحروسة، وباحات المدارس والجامعات، وهى محملة بالكتب الرائعة والميسورة، شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من حاملات الخضر وحبات الفاكهة.

ثم رحل الحكيم مكتفيا بحلمه.

وفى ثمانينيات القرن الماضى عاود شاعرنا الكبير الراحل صلاح عبد الصبور التذكير بهذا الحلم القديم، وفى التسعينيات من نفس القرن، تولى الدكتور سمير سرحان تنفيذه تحت رعاية السيدة زوجة الرئيس السابق. هكذا حظى المشروع بدعم مالى كبير، ساهمت فيه، ضمن من ساهم، جهات حكومية عدة، وخلال عقدين كاملين صدرت عنه مجموعة هائلة من الكتب، بينها مؤلفات ثمينة يجب أن نشكر كل من قاموا باختيارها، إلا أنه، للحقيقة ليس غير، حفل بكتب أخرى مراعاة لخاطر البعض، وترضية للآخر، ثم إن المشروع أنعش الكثير من متطلبات دور النشر، بل اصطنع بعضها أحيانًا.

وبعد ثورة ٢٥ يناير والتغيرات التى طرأت توقفت كل الجهات الداعمة لهذا المشروع الثقافى عن الوفاء بأى دعم كانت تحمست له عبر عقدين ماضيين، سواء كانت هذه الجهات من هنا، أو كانت من هناك.

ولم يكن أمام اللجنة إلا مضاعفة التدقيق فى كل عنوان تختار، وسيطر هاجس الإمكانات المحدودة التى أخبرتنا بها الهيئة فى كل آن.

والآن لم يبق إلا أن نقول بأن هذه اللجنة كانت وضعت لنفسها معيارًا موجزًا:

جودة الكتاب أولاً، ومدى تلبيته، أولاً أيضًا، لاحتياج قارئ شغوف بأن يعرف، ويستمتع، وأن ينمى إحساسه بالبشر، وبالعالم الذى يعيش فيه.

واللجنة لم تحد عن هذا المعيار أبدًا، لم تشغل نفسها لا بكاتب، ولا بدار نشر، ولا بأى نوع من أنواع الترضية أو الإنعاش، إن لم يكن بسبب التربية الحسنة، فهو بسبب من ضيق ذات اليد.

لقد انشغلنا طيلة الوقت بهذا القارئ الذى انشغل به قديمًا، مولانا الحكيم.

لا نزعم، طبعًا، أن اختياراتنا هى الأمثل، فاختيار كتاب تظنه جيدًا يعنى أنك تركت آخر هو الأفضل دائمًا، وهى مشكلة لن يكون لها من حل أبدًا. لماذا؟

لأنه ليس هناك أكثر من الكتب الرائعة، ميراث البشرية العظيم، والباقى.

رئيس اللجنة

إبراهيم أصلان

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

مقدمة الطبعة العربية

بقلم د. شريف دلاور

«جون بيركنز» خبير اقتصادي دولي جاءت اعترافاته في كتابه Confessions of an Economic Hit man، لتلقي الضوء على ممارسات نخبة رجال الأعمال والسياسة في الولايات المتحدة لبناء إمبراطورية عالمية تسيطر عليها «الكوربوروقراطية Corporatocracy» أي حكم منظومة الشركات الكبرى الأمريكية.

الدور:

يحدد «بيركنز» دوره- مثل أقرانه من صفوة الخبراء في الشركات الاستشارية الأمريكية الكبرى - في استخدام المنظمات المالية الدولية لخلق ظروف تؤدي إلى خضوع الدول النامية لهيمنة النخبة الأمريكية التي تدير الحكومة والشركات والبنوك، فالخبير يقوم بإعداد الدراسات التي بناءاً عليها توافق المنظمات المالية على تقديم قروض للدول الناميه المستهدفه بغرض تطوير البنية الأساسية وبناء محطات توليد الكهرباء والطرق والموانئ والمطارات والمدن الصناعية، بشرط قيام المكاتب الهندسية وشركات المقاولات الأمريكية بتنفيذ هذه المشروعات. وفي حقيقة الأمر فإن الأموال بهذه الطريقة لا تغادر الولايات المتحدة حيث تتحول ببساطة من حسابات بنوك واشنطن إلى حسابات شركات في نيويورك أو هيوستن أو سان فرانسيسكو، ورغم أن هذه الأموال تعود بشكل فوري إلى أعضاء في الكوربوروقراطية فإنه يبقى على الدولة المتلقية سداد أصل القرض والفوائد. أما المثير في اعترافات «بيركنز» فهو تأكيده بأن مقياس نجاح الخبير يتناسب طردياً مع حجم القرض بحيث يجبر المدين على التعثر بعد بضع سنوات! وعندئذ تفرض شروط الدائن التى تتنوع مثل الموافقة على تصويت ما في الأمم المتحدة أو السيطرة على موارد معينة في البلد المدين أو قبول تواجد عسكري به، وتبقى الدول النامية بعد ذلك كله مدينة بالأموال ولكن في ظل الهرم الرأسمالي التي تشكل أمريكا قمته حسب التلقين الذي يتلقاه الخبراء باعتباره واجباً وطنياً ومقدساً على حد قول «بيركنز».

الوسيلة:

يحدد «بيركنز» نماذج التنبؤ التي يستعين بها الخبير لدراسة تأثير استثمار مليارات الدولارات في بلد ما على النمو الاقتصادي المتوقع لسنوات قادمة ولتقويم المشروعات المقترحة، ويكشف الطابع المخادع للأرقام الجافة، فنمو الناتج الإجمالي القومي - على سبيل المثال - قد يكون نتيجة استفادة أقلية من المواطنين «النخبة» على حساب الأغلبية بحيث يزداد الثري ثراءً ويزداد الفقير فقراً. ورغم ذلك فإنه من الناحية الإحصائية البحتة يعتبر تقدماً اقتصادياً!

وفي هذا المقام يكشف «بيركنز» عن الجانب غير المرئي في خطة القروض والمشروعات، وهو تكوين مجموعة من العائلات الثرية ذات نفوذ اقتصادى وسياسى داخل الدولة المدينه تشكل إمتدادا للنخبة الأمريكية ليس بصفة التآمر، ولكن من خلال اعتناق نفس أفكار ومبادئ وأهداف النخبة الأمريكية، وبحيث ترتبط سعادة ورفاهية الأثرياء الجدد بالتبعية طويلة المدى للولايات المتحدة، رغم أن عبء القروض سيحرم الفقراء من الخدمات الاجتماعية لعقود قادمة، ويدلل «بيركنز» على ذلك بأن مديونية العالم الثالث وصلت إلى ٢,٥ تريليون دولار وأن خدمة هذه الديون بلغت 375 مليار دولار سنوياً في عام ٢٠٠٤، وهو رقم يفوق ما تنفقه كل دول العالم الثالث على الصحة والتعليم ويمثل ٢٠ ضعفاً لما تقدمه سنوياً الدول المتقدمة من مساعدات خارجية!

نموذج حي: الأكوادور

يعترف «بيركنز» بأنه وزملاءه توصلوا إلى دفع الأكوادور نحو الإفلاس، فخلال ثلاثة عقود ارتفع حد الفقر من ٥٠٪ إلى ٧٠٪ من السكان، وازدادت نسبة البطالة من ١٥٪ إلى ٧٠٪، وارتفع الدين العام من ٢٤٠ مليون دولار إلى ١٦ مليار دولار، وتخصص الأكوادور اليوم قرابة ٥٠٪ من ميزانيتها لسداد الديون! وأصبح الحل الوحيد أمام هذه الدولة لشراء ديونها هو بيع غاباتها إلى شركات البترول الأمريكية حيث يكشف «بيركنز» أن هذا الهدف كان السبب الرئيسي في التركيز على الأكوادور وإغراقها بالديون نظراً لكون مخزون غابات الأمازون من النفط يحتوي على احتياطي يعتقد أنه منافس للشرق الأوسط، واليوم فإن لكل مائة دولار من خام النفط يُستخرج من غابات الأكوادور تحصل الشركات الأمريكية على ٧٥ دولار منها مقابل ٢٥ دولار للإكوادور تذهب ٧٥٪ منها لسداد الديون الخارجية والمصروفات الحكومية وللدفاع، ويتبقى 2.5 دولار فقط للصحة والتعليم والبرامج الأخرى التي تستهدف دعم الفقراء!

غزو واغتيال: جواتيمالا وبنما

أنشئت شركة الفواكه المتحدة «يونايتد فروت» الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر، ونمت لتصبح من القوى المسيطرة على أمريكا الوسطى بما لها من مزارع كبرى في كولومبيا ونيكارجوا وكوستاريكا وجامايكا وسانت دومينجو وجواتيمالا وبنما. وفي الخمسينيات من القرن العشرين أنتخب «أربنز» رئيساً لجواتيمالا من خلال انتخابات حرة وديمقراطية تمت لأول مرة في هذا البلد وأعلن عن برنامج للإصلاح الزراعي يهدد مصالح شركة «يونايتد فروت» ويخلق سابقة خطيرة لها في المنطقة، وعليه قامت الشركة بحملة دعائية واسعة داخل الولايات المتحدة تركز على أن «أربنز» يعمل في إطار مؤامرة سوفيتية على أمريكا، وهكذا قامت الـ «سي. أي. إيه» في عام ١٩٥٤ بتدبير انقلاب على النظام المنتخب ديمقراطيا، وضرب الطيارون الأمريكيون العاصمة واستبدل «أربنز» بديكتاتور يميني متطرف هو الكولونيل «كارلوس أرماس» والذي ألغى على الفور الإصلاح الزراعي والضرائب على الاستثمار الأجنبي ونظام الاقتراع السري في الانتخابات، وأودع في السجون الآلاف

من المواطنين. وأما في «بنما» والتي حكمت لأكثر من نصف قرن بواسطة بعض العائلات الثرية ذات الصلات القوية بواشنطن، فإنها أيضاً نالت نصيبها من الغزو والاغتيال عندما تجرأ رئيسها «عمر توريخوس» على رفض الهيمنة الأمريكية والسير على درب «رولدوس» (الأستاذ الجامعي ورئيس الأكوادور الذي أراد فرض سيادة بلاده على مصادر النفط وطالة الاغتيال في حادث طائرة مدبر في ٢٤ مايو ١٩٨١) فنال نفس المصير في حادث طائرة أيضاً في ٣١ يوليو ١٩٨١ أي بعد شهرين فقط من موت «رولدوس»، وهكذا ينضم هؤلاء إلى قائمة طويلة من زعماء العالم الثالث مثل «مصدق» في إيران و «سلفادور اللندي» في تشيلي وغيرهم، ولكن غزو بنما، جاء بعد ذلك بسنوات وتحديداً في ٢٠ ديسمبر ١٩٨٩، وذلك بحجة القبض على «نورويجا» والذي ترأس بنما بعد «عمر توريخوس»، وكان «نورويجا» معروفاً بفساده وتجارته في المخدرات غير أن ذلك لم يكن مبرراً منطقياً لقيام أمريكا بغزو بنما الدولة الصغيرة التي لا يتعدى سكانها مليوني نسمة، فقامت بحرق أحياء من عاصمتها وقتلت الآلاف من الأطفال والمدنيين الأبرياء وشردوا سكانها، بينما كان بإمكان وكالة المخابرات الأمريكية بطرقها المعهودة اغتيال «نورويجا» في عقر داره، واستندت الولايات المتحدة في الغزو على مبدأ الرئيس «مونرو» الذي صدر عام ١٨٢٣ والذي يؤكد على حقوقها الخاصة في الأمريكتين والتي بمقتضاها يحق لها غزو أي بلد في أمريكا الوسطى والجنوبية، تعارض سياسات الولايات المتحدة. وفي النصف الثاني من القرن العشرين استغلت أمريكا التهديد الشيوعي وجعلته ذريعة لتطبيق هذا المبدأ على بقية دول العالم مثل فيتنام وغيرها!.

العراق ينقذ فنزويلا:

يقول «بيركنز» أن العراق ليس فقط هو النفط ولكن أيضاً المياه والموقع الاستراتيجي والسوق الواسعة للتكنولوجيا الأمريكية ولخبرتها الهندسية، ولقد بات واضحاً منذ عام ١٩٨٩ للنخبة الأمريكية التي ساندت صدام حسين في حربه ضد إيران أنه لن يسير في السيناريو الاقتصادي المرسوم له، وأما بالنسبة لفنزويلا فهي رابع مصدر للبترول في العالم وثالث مورد للولايات المتحدة، ولقد تأزمت الأمور في البلدين بالنسبة لأمريكا في نفس الوقت عندما قام «شافيز» بفرض سيطرة بلاده على البترول في ديسمبر ٢٠٠٢، وحاولت إدارة الرئيس بوش قلب «شافيز» إلا أنه عاد إلى الحكم بعد أقل من ٧٢ ساعة مستنداً إلى الجيش الذي وقف بجانب الشعب بخلاف «مصدق» في إيران، ولم تتمكن أمريكا من تكرار سيناريو إيران ١٩٥٣ في فنزويلا ٢٠٠٣، وجاء الغزو الأمريكي للعراق لينقذ فنزويلا حيث لم يكن بإمكان الإدارة الأمريكية شن الحرب على جبهات كلاً من أفغانستان والعراق وفنزويلا في نفس التوقيت.

خداع اللغة ولعبة الدولار:

يدعى «بيركنز» أنه والخبراء الاقتصاديون قاموا بتطويع اللغة لتغليف إستراتيجيتهم في النهب الاقتصادي، وذلك باستخدام مفاهيم مثل «الحكم الرشيد وتحرير التجارة وحقوق المستهلك»،

وبحيث لا تصبح السياسات الاقتصادية جيدة إلا من خلال منظور الشركات الكبرى، وأما الدول التي تقتنع بهذه المفاهيم فهي مطالبة بخصخصة الصحة والتعليم وخدمات المياه والكهرباء أي أن تبيعها للشركات الكبرى وهي مضطرة بعد ذلك إلى إلغاء الدعم وجميع القيود التجارية التي تحمي الأعمال الوطنية، بينما عليها القبول باستمرار أمريكا وشركائها من الدول الصناعية الكبرى فى تقديم الدعم لقطاعات أعمالها وفرض القيود لحماية صناعاتها!.

يرى «بيركنز» في النهاية أن هذه الإمبراطورية العالمية تعتمد على كون الدولار يلعب دور العملة القياسية الدولية، فالولايات المتحدة هي التي يحق لها طبع الدولار وبالتالي يمكنها تقديم القروض بهذه العملة مع إدراكها الكامل أن معظم الدول النامية لن تتمكن من سداد الديون، وحسب تفسير «بيركنز» فإن النخبة الأمريكية لا تريد بالفعل قيام الدول بالسداد، لأن ذلك هو السبيل إلى تحقيق أهدافها بعد ذلك من خلال مفاوضات سياسية واقتصادية وعسكرية، ويفترض «بيركنز» أن حرية طبع النقد الأمريكي دون أي غطاء هي التي تعطي لإستراتيجية النهب الاقتصادي قوتها، لأنها تعني الاستمرار في تقديم قروض بالدولار لن يتم سدادها!

الكربورقراطية: مزيد من التوضيح

يمكن تقسيم اعترافات «جون بيركنز» في كتابه إلى جزأين من حيث المضمون: الجزء الأول ويتناول تجربة «بيركنز» الشخصية في شركة MAIN والتي امتدت حتى عام ١٩٨٠، ويعتمد هذا الجزء على وقائع وأحداث فعلية عاشها المؤلف. وأما الجزء الثاني فيعتمد بدرجة أكبر على تحليلات وآراء «بيركنز» والتي تعتبر تفسيراً شخصياً في وصف أحداث ووقائع لم يكن هو طرفاً فيها، وفي كلتا الحالتين فإن المؤلف لم يوضح أصول ومفاهيم الكربورقراطية وعلاقتها بالشركة الأمريكية Corporate America وأنه لمن المفيد في هذا المقام وبعد العرض السابق للكتاب أن أتناول هذا الموضوع بشكل أكثر تفصيلاً لعله يُعين القارئ على الإلمام بشكل أفضل بمحتوى الكتاب الذي هو بين يديه.

يطلق مجازاً تعبير «الشركة الأمريكية Corporate America» على المنظمة المشتركة للشركات الأمريكية الكبرى والتي تشكل عصب اقتصاد الولايات المتحدة وقاعدتها الرئيسية لبناء مجتمع الرفاهة حسب المفاهيم التي أصلتها النخبة في وجدان الشعب الأمريكي على امتداد قرنين من الزمان مما دفع يوماً رئيس أكبر شركة لإنتاج السيارات إلى الجهر بالقول بأن «ما هو فى صالح جنرال موتور فهو فى صالح أمريكا» ويصعب الفصل بين أهداف هذه المنظومة ومجريات الأمور في الولايات المتحدة حيث بسطت المؤسسة الاقتصادية الأمريكية نفوذها على باقي المؤسسات الأخرى السياسية والعسكرية والمخابراتية والإعلامية، والتاريخ الحديث شاهد على مدى تعبير سياسات الولايات المتحدة عن مصالح أولئك الذين يتحكمون في الدولة، فأحداث إيران في الخمسينيات عند تولي «محمد مصدق» رئاسة الوزارة والانقلاب ضد سلفادور الليندي في السبعينات في تشيلي

وأنظمة الحكم الديكتاتورية في جمهورية الموز، وأخيراً محاولة قلب نظام حكم «شافيز» في فنزويلا، لهي دلالات قوية تمر بسرعة بذاكرة كل متابع عادي للأحداث العالمية، فالمصالح الخاصة لهذه الشركات هي بمثابة المصلحة العامة لأمريكا، مما جعل العمل السياسي ينحصر في التفاعل المستمر مع مجموعات المصالح الاقتصادية التي تنافس للسيطرة على الدولة، وتحول النظام السياسي الأمريكي إلى نظام للحزب الواحد ينقسم إلى جناحين «الجمهوري» و «الديمقراطي» يسيطر على كل منهما مجموعات متغيرة من قطاع الأعمال ويشتركان في التوجهات الرئيسية للأيديولوجيا الأمريكية، وأهمها شرط إسعاد وإرضاء من «يملكون البلد» (المستثمرين) حيث إنه دون تحقق ذلك سينال البؤس من باقي أفراد الشعب! وعليه فإن الخطر كل الخطر يكمن - بالنسبة للنظام الأمريكي القائم - في التهديد المتمثل في بروز بدائل أخرى من النماذج الاجتماعية لا تتمشى مع أسس هذا الفكر، وبالتالي رأت الحكومات الأمريكية المتتالية في ظهورهذه البدائل ذريعة تبرر استخدام سياسات الردع للدفاع عن النفس بما في ذلك التدخل العسكري، فمن خلال الإطار المفهومي الذى ترسخ والمحترم من الجميع، فإن أي اعتداء يبرر بسهولة للشعب الأمريكي على أنه دفاع عن النفس، واختلاف العالم مع سياسة الولايات المتحدة يعني ببساطة أن العالم هو المخطئ!

ولقد سمح تركيز سلطة اتخاذ القرار في أيدي القطاع الخاص - بالنسبة للدوائر المحورية للحياة الأمريكية - من تغيير مسار أي تحد رئيسي للامتيازات القائمة والقضاء عليه قبل أن يأخذ شكلاً أكثر قوة. واستخدمت آليات السوق لتوجيه وضبط الأفكار والمشاعر العامة بحيث إقتصر دور رجل الشارع على كونه مستهلكاً ومتفرجاً وليس مشاركاً، وحيث إن صوت الشعب يجب أن يسمع في المجتمعات الديمقراطية - وذلك بخلاف النظم الشمولية التي لا يهمها سوى طاعة المواطنين بصرف النظر عما يفكرون فيه - فلقد تمكن أصحاب المصالح الأمريكية من تجاوز هذه الإشكالية من خلال غسيل مخ مستمر يصبح فيه حديث المواطن العادي متمشياً تماماً مع مفاهيم النخبة الاقتصادية والسياسة، وهو ما عبّر عنه Edwards Barays بعملية «هندسة الموافقة The engineering of consent» فعمليات السيطرة على العقل العام الأمريكي تتم بشكل مستمر ومتكرر وتصل إلى ذروتها في فترات الأزمة بحيث يساق الشعب بشكل دائم إلى إدراك بأن الحرب لم تنته وبأن بلاده تحارب من أجل قضية نبيلة، ولا غرابة إذن أن يستخدم الرئيس الأسبق «ريجان» تعبير «إمبراطورية الشر» والرئيس «بوش» تعبير «محور الشر» للتأثير على المواطن العادي بألفاظ ذات مسحة دينية، وكما يساهم شركاء النخبة من المثقفين وقادة الرأي والفكر في تعبئة الرأي العام بجرعات منتظمة من البلاغة تتسم بالمغالاة ذاتها للحيلولة دون تحول أي فكر مستقل إلى فعل سياسي يهدد مبادئ النخبة المسيطرة، ويتطلب ذلك بالضرورة تركيزاً عالياً للملكية في مجال الإعلام «الميديا»، وكما أن الذين يتبوءون إدارة المؤسسات الإعلامية أو يكتسبون مكانتهم بصفتهم معلقين أو صحفيين ينتمون بحكم الوضع الاجتماعي والمالي لنفس النخبة المحظوظة ويشاركونها الامتيازات والتطلعات، ويعبرون بالتالي عن مصالح الطبقة التي ينتمون (أو سينتمون) إليها دون

حاجةً إلى توجيه أو وصاية فيما يقولون أو يكتبون، وهكذا يخدم نموذج الدعاية في الميديا أغراض الشركة الأمريكية والدولة، ويتحدد في تقرير وتحليل الأمور بشكل يساند المزايا القائمة ويحد من الحوار والمناقشة حول المفاهيم الأساسية للنخبة.

أما السياسة الأمريكية على المستوى الدولي فتندرج تحت مبدأ «الاحتواء Containment»، ويرى «Noam Chomsky» أن هذه السياسة الخارجية هي الوجه المقابل للسياسة الداخلية في صناعة الموافقة، وأن السياستين متكاملتان ومتشابكتان حيث يلزم تعبئة المواطنين بالداخل لدفع فاتورة سياسة الاحتواء الخارجية، وكما أن كل الأدلة تشير منذ الحرب العالمية الثانية إلى أن الهدف الرئيسي لسياسة الاحتواء هو إعطاء الطابع الدفاعي (إذا كان أعداء الديمقراطية ليسوا من الشيوعيين فهم من الإرهابيين!)، والغطاء الشرعي لمشروع أمريكا في إدارة العالم وبناء نظام عالمي تسيطر عليه الولايات المتحدة ويتم من خلاله نمو وازدهار الأعمال الأمريكية وتشكيل منظومة عالمية تتشكل من النخبة الحاكمة في جميع بلدان العالم تؤدي مكوناتها المختلفة مهاماً محددة لصالح «الشركة الأمريكية» سواء كمراكز تصنيع أو كأسواق استهلاك أو كمصادر للطاقة والمواد الخام.

ولقد هللت أبواق الدعاية الإعلامية والفكرية لانتصار النموذج الرأسمالي الأمريكي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وسقوط المعسكر الاشتراكي وذهبت إلى تمجيد هذا النموذج باعتباره الأوحد والأخير في تاريخ البشرية القادر على تحقيق رفاهة الإنسان (نهاية التاريخ: لفوكوياما)! فالرأسمالية اليابانية تتعثر نتيجة تدخل الدولة في توجيه المسار الاقتصادي، ونموذج دول جنوب شرق آسيا واجه أزمة ١٩٩٧ بسبب عدم صلاحية الحكومة « bad Governance » ولأسباب أخرى لم تذكر عندما كانت نفس آلة الدعاية تتحدث عن المعجزة الآسيوية، والنمور الآسيوية، كما أن النموذج الرأسمالي الأوروبي غير قادر على المنافسة والابتكار نتيجة إتباعه سياسات الضمان الاجتماعي وحماية حقوق القوى العاملة! ولقد تناسي المهللون للنظام الاقتصادي الأمريكي تدخل الدولة المستمر لمساندة قطاع الأعمال وخاصة منظومة الشركات الكبرى منذ أزمة الكساد الأعظم عام ١٩٢٩ وحتى تاريخه، ولقد نجحت الولايات المتحدة في تحقيق أعلى مستوى تاريخي من السيطرة السياسية والاقتصادية عندما كان معظم دول العالم المتقدم تحت الأنقاض بعد الحرب العالمية الثانية، وأعطت الأولوية المطلقة لاحتواء ألمانيا واليابان داخل نظام عالمي تتحكم فيه قطاعات مالية وصناعية مرتبطة مباشرة بمصالح «الشركة الأمريكية Corporate America» وكما فتح الباب على مصراعيه للاستثمار الأمريكي في أوروبا الغربية من خلال مشروع مارشال، وفي عام ١٩٧١ وعند ظهور بوادر تنافسية من أوروبا واليابان، أعلن الرئيس نيكسون عن السياسة الأمريكية الجديدة وذلك بحل النظام الاقتصادي العالمي القائم (نظام بريتون وودر) الذي أسس عقب الحرب العالمية الثانية والذي لعبت فيه الولايات المتحدة دور «المصرف العالمي» ولعب «الدولار» دور العملة العالمية الوحيدة والتي يتم تحويلها بسعر ثابت ٣٥ دولاراً لأونصة الذهب، ولقد كان رد نيكسون على اهتزاز الهيمنة الاقتصادية الأمريكية قاطعاً: «عندما تخسر عليك أن تغير من قواعد اللعبة» وقام نيكسون برفع غطاء الذهب

للدولار وأدي هذا التحلل من القواعد السابقة إلى نمو عشوائي للاقتصاد الدولي، والي تحقيق ميزة هائلة للمنظومة المالية والصناعية الأمريكية للتحرك عبر العالم دون أية قيود، وتوسعت أسواق المال العالمية نتيجة لذلك، وأيضاً نتيجة للتدفق الهائل للبترودولارات بعد ارتفاع أسعار النفط عام ١٩٧٤ ولبدايات ثورة الاتصالات والمعلومات التي يسرت سرعة انتقال الأموال، ولجأت المصارف العالمية المرتبطة بالمصالح الأمريكية إلى تشجيع اقتراض الدول مما أدى إلى أزمة القروض الدولية للعالم الثالث كما هو معروف، ولقد ساهم ارتفاع سعر النفط - والذي صاحبه أيضاً ارتفاع أسعار الفحم الأمريكي واليورانيوم والمنتجات الزراعية الأمريكية - في تحقيق أرباح طائلة للشركات الأمريكية والإنجليزية العاملة في مجال الطاقة وفي توجيه استثماراتها لاستخراج البترول من مناطق ألاسكا وبحر الشمال عالية التكلفة، وتمكنت الإدارة الأمريكية من التغلب على العجز الناجم عن فاتورة النفط المستورد عن طريق صادرات غير مسبوقة في مجال توريد السلاح للشرق الأوسط وبناء المشروعات العملاقة غير الإنتاجية في الخليج العربي بواسطة الشركات الأمريكية.

إن الأمثلة عديدة لهذا التشابك الأخطبوطي بين الإدارة الأمريكية والشركات الكبرى: من برنامج «الغذاء للسلام Food for peace» والذي حدد السناتور «هيوبرت هامفري» في ذلك الوقت أهدافه بدعم الشركات الزراعية الأمريكية من جهة وترسيخ اعتماد الآخرين على الغذاء الأمريكي من جهة أخرى، ومروراً بخطط ريجان لإنقاذ شركة كرايسلر للسيارات وبنك كونتنتال الينوي وتعويض المؤسسات المالية التي تضررت من فضيحة توظيف الأموال في أواخر الثمانينيات «S, L Scandal» وكل ذلك من أموال دافعي الضرائب الأمريكيين! وكما قام الرئيس بوش الأب - عند نهاية الحرب الباردة - بإنشاء ما يسمى «Center for defenes trade» لترويج بيع السلاح حول العالم، ونجح المركز في رفع مبيعات الشركات الأمريكية من السلاح من ١٢ مليار دولار في عام ١٩٨٩ إلى قرابة ٤٠ مليار دولار في عام ١٩٩١!

وتسعى الإدارة الأمريكية إلى تقسيم العالم إلى مناطق اقتصادية نوعية تخدم كل منها على حده أغراض الشركات الأمريكية (فنزويلا والمكسيك والخليج للنفط، أمريكا الوسطى والكاريبي للعمالة الرخيصة وتجميع المنتجات، الصين للاستهلاك ...)، وكما سعت من خلال مجموعة السبعة (ثمانية حاليا) دول الصناعية الكبرى وصندوق النقد والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية إلى إنشاء منظومة لحكم العالم بشكل غير مباشر أعطيت فيها للنخب السياسية ورجال الأعمال وقادة الرأي في العالم النامي حق المشاركة فيها والاستفادة منها بشرط الدفاع عن الليبرالية بالمفهوم الأمريكي، وطلب من أكثر من مائة دولة من العالم الثالث فتح أسواقها أمام الشركات متعددة الجنسيات والابتعاد عن السياسات المساندة للقطاع الاقتصادي الوطني تحت شعار «حرية التجارة» والذي كانت له آثار مدمرة على اقتصاديات الدول في أمريكا اللاتينية وهروب الأموال من روسيا والتي قدرت ما بين ١٤ إلى ١٩ مليار دولار في عام ١٩٩١ وحده. وعلى ازدياد حالات الفقر والاضطراب الاجتماعي في كل الدول التي أخذت بمبادئ اليمين المتطرف في فتح أسواق المال دون

قيود وبمبادئ الأصولية الاقتصادية «دعه يفعل - دعه يمر» والملفت للنظر أن الإدارة الأمريكية التي تطالب بسياسات للتجارة الحرة لم تطبق هي نفسها أيُّ من هذه السياسات في جميع مراحل التطور الاقتصادية الأمريكية، وكما أن كل حلفائها في الغرب والشرق لم يتبعوا أيٌّ من هذه التوجهات في تحقيق تقدمهم ونمو اقتصادهم، والغريب أن تقرير الأمم المتحدة الأخير - والذي يتناول تجربة ٨٠ دولة انتقلت إلى الديمقراطية - أثار العديد من التساؤلات والتعليقات حول عدم رضا الشعوب عن هذا التحول وكأن العيب هو في التطبيق الديمقراطي! بينما لم يذكر السبب الرئيسي للفشل ألا وهو السياسات الاقتصادية الليبرالية التي صاحبت التحول الديمقراطي في هذه الدول.

إن ما يريده النظام الأمريكي في حقيقة الأمر ليس هو التجارة الحرة؛ بل هو احتكار المستقبل لصالح منظمة «الشركة الأمريكية» في حرية دخول الأسواق واستغلال الموارد واحتكار التكنولوجيا والاستثمار والإنتاج العالمي، فهي تطالب لشركاتها بحقوق الملكية في مجال الدواء والزراعة (البذور، المبيدات ... الخ) والتي سيدفع ثمنها الفقراء في الدول النامية متجاهلة الأرباح التي تحققها شركاتها من خلال الحصول «مجاناً» على أسرار أدوية الأعشاب وطرق العلاج الطبيعية الأخرى التي تراكمت خبراتها لدى العالم النامي عبر مئات السنين، متناسية أن الدول المتقدمة لم تطبق نظم براءة الاختراع في مجال الدواء إلا حديثاً (إيطاليا في عام ١٩٨٢ واليابان في عام ١٩٧٦ وألمانيا في عام ١٩٦٦) بل إن الولايات المتحدة نفسها رفضت في القرن التاسع عشر دعاوي حقوق الملكية بحجة أنها ستعوق التطور الاقتصادي!.

ولا يقتصر ارتباط الدولة في أمريكا مع الشركات الكبرى على الجانب الاقتصادي، فهناك الجانب السياسي المرئي وغير المرئي، مثل تبادل أفراد النخبة المراكز العليا (ماكنمارا وشولترز وتشيني وغيرهما) في الدولة والشركات، ومثل مساندة الديكتاتوريات (سوهارتو - بارك - بنيوشيه - موبوتو ...) التي ارتبطت مصالحها بالشركات الأمريكية الكبرى، وعندما قضت الديكتاتورية في جنوب كوريا على الحركة الديمقراطية في عام ١٩٨٠ بادر الرئيس كارتر - بعد أيام معدودة - بإيفاد رئيس بنك التصدير والاستيراد الأمريكي إلى سول لطمأنة العسكر على المساندة الاقتصادية الأمريكية وصرف ٦٠٠ مليون دولار كقرض عاجل! هذا علاوة على التصدي المستمر لكل الأنظمة الوطنية التي يتعارض توجهها مع مبادئ الليبرالية للنخبة الأمريكية سالفة الذكر

مقدمة المؤلف

قراصنة الاقتصاد «Economic Hit men» أو اختصارا الـ EHM هم خبراء محترفون ذوو أجور مرتفعة، مهمتهم هى أن يسلبوا ملايين الدولارات بالغش والخداع من دول عديدة في سائر أنحاء العالم. يحولون المال من البنك الدولي، وهيئة المعونة الأمريكية (USAID) وغيرها من مؤسسات «المساعدة» الدولية، ليصبوه في خزائن الشركات الكبرى، وجيوب حفنة من العائلات الثرية التي تسيطر على الموارد الطبيعية للكرة الأرضية. وسائلهم لتحقيق ذلك تشمل اصطناع التقارير المالية، وتزوير الانتخابات، والرشوة، والابتزاز، والجنس، والقتل. يلعبون لعبة قديمة قدم عهد الإمبراطوريات لكنها تأخذ أبعادا جديدة ومخيفة في هذا الزمن... زمن العولمة.

كان ينبغي أن أدرك أني قرصان اقتصاد (E H M).

كتبت هذا الكلام عام ١٩٨٢، كبداية لمشروع كتاب كان عنوانه «ضمير قرصان اقتصادى»، كرّسته لتكريم رئيسي دولتين في أمريكا اللاتينية، هما خايمى رولدوس Jaime Roldos رئيس الإكوادور، وعمر توريخوس Omar Torrijos رئيس بنما. كانا من زبائني وكنت أحترمهما وأرى بينهما تقارباً وتشابهاً في الطباع. وقد لقيا حتفيهما في حادثين مروعين، وكانا مدبرين. فقد اغتيلا بسبب معارضتهما لتلك الشبكة الجهنمية من الشركات العملاقة والحكومات والبنوك التي تسعى لبناء إمبراطورية عالمية. وعندما فشلنا نحن قراصنة الاقتصاد في استمالة رولدوس وتوريخوس، تدخل فريق آخر من القراصنة، وهم ثعالب المخابرات المركزية الأمريكية CIA المعتمدين لديها، والذين كانوا دائما خلفنا، واستطاعوا تنفيذ المهمة.

أقنعني البعض أكثر من مرة بالتوقف عن كتابة هذا الكتاب، فقد شرعت فيه أربع مرات خلال العشرين سنة الماضية ، وفى كل مرة كان قراري يتأثر بأحداث العالم الجارية: الاجتياح الأمريكي لبنما عام ١٩٨٩، حرب الخليج الأولى، الصومال، ظهور أسامة بن لادن.

ومع ذلك، كان التهديد أو الرشوة هو ما يوقفني عن الكتابة كل مرة.

وفى عام ٢٠٠٣ قرأ رئيس دار نشر تمتلكها شركة عالمية كبيرة مسودة ما أصبح الآن «أعترافات قرصان اقتصادى»، ووصفها بأنها قصة مشوقة جديرة بأن تروى، ثم ابتسم ابتسامة حزينة وهو يهز رأسه، وقال لي إن رجال الإدارة العليا في شركته لن يسمحوا بها، لذلك فهو لا يستطيع أن يغامر بنشرها، ولكنه نصحني بأن أحولها إلى «عمل روائي» وبذلك - على حسب قوله - نستطيع تسويقها كعمل من طراز كتابات «جان لوكاريه أو جراهام جرين».

لكن هذا لم يكن خيالا روائيا، إنها هو قصة حياتي الحقيقية. وفيما بعد ساعدني ناشرٌ أكثر جرأة

على أن أروي حكايتي، ناشر لا يحكمه احتكار عالمي. ووافق على أن ينشرها.

هذه القصة يجب أن تروى، فنحن نعيش في زمن أزمات رهيبة، وفرص هائلة. وقصة هذا القرصان الاقتصادي بالذات، تروي كيف وصلنا إلى ما نحن عليه، ولماذا نواجه حاليا أزمات يصعب تخطيها ؟

هذه القصة يجب أن تروى لأننا من خلال إدراك أخطاء الماضي نستطيع استثمار فرص المستقبل بشكل أفضل. هذه القصة يجب أن تروى بسبب أحداث ١١ سبتمبر، كذلك حرب العراق الثانية، لأنه بالإضافة إلى الثلاثة آلاف شخص الذين ماتوا في ١١سبتمبر ٢٠٠١ على يد الإرهاب - هناك أربعة وعشرون ألفا ماتوا من المجاعات وتبعاتها. في الحقيقة هناك أربعة وعشرون ألفا يموتون كل يوم لأنهم لا يجدون من الطعام ما يسد رمقهم[1]. والأهم من هذا كله فإن هذه القصة يجب أن تروى، لأنه في هذا الوقت بالذات، ولأول مرة في التاريخ، هنالك أمة وحيدة لديها القدرة، والمال، والقوة لتغير كل هذا. إنها الأمة التي ولدت فيها، والأمة التي خدمت باسمها كقرصان اقتصاد. إنها الولايات المتحدة الأمريكية.

ما الذي جعلني أخيرا أتجاهل التهديدات والرشاوى؟

الإجابة المختصرة: هي أن ابنتي جيسيكا تخرجت من الجامعة وخرجت إلى العالم وعندما سألتها مؤخرا عن رأيها في نشر هذا الكتاب، وأطلعتها على مخاوفي، قالت لي: «لا تخف، لو أنهم استطاعوا النيل منك فإنني سأكمل الطريق من حيث وصلت، فنحن بحاجة للقيام بهذا العمل من أجل الأحفاد الذين آمل أن أنجبهم لك». كانت هذه هي الإجابة المختصرة.

أما الإجابة التفصيلية: فتعود إلى انتمائي لهذا البلد الذي نشأت فيه، وإلى حبي للمبادئ التي عبر عنها آباؤنا المؤسسون، وإلى ارتباطي العميق بالجمهورية الأمريكية التي تعد الجميع، في كل مكان، اليوم، بالحياة والحرية و السعادة، وتعود أيضا لتصميمي بعد ١١ سبتمبر على ألا أقف مكتوف اليدين، بينما هؤلاء القراصنة يحولون هذه الجمهورية إلى إمبراطورية تحكم الكرة الأرضية.

هذا هو الهيكل العام لقصتي ، أما التفاصيل فسيأتي ذكرها في الفصول التالية.

إنها قصة حقيقية، عشت كل دقائقها: المناظر، الناس، الأحاديث، والمشاعر التي أصفها. جميعها جزء من حياتي. إنها قصتي الشخصية، ومع ذلك فقد حدثت ضمن سياق أحداث العالم الكبير الذي شكل تاريخنا، ووصل بنا إلى ما نحن عليه اليوم، وكوّن أساس مستقبل أطفالنا، لقد بذلت كل جهدي كي أقدم هذه التجارب وهؤلاء البشر وهذه المحادثات بشكل دقيق. وعندما أناقش أحداثا تاريخية، أو أعيد كتابة محادثاتي مع أشخاص آخرين، أستعين في ذلك بأدوات كثيرة، منها الوثائق المنشورة، والسجلات والمذكرات الشخصية، والذكريات، سواء ذكرياتي أو ذكريات غيري ممن أسهموا في صنعها، والمسودات الخمسة التي كتبتها من قبل، ووقائع وأحداث تاريخية لمؤلفين آخرين، وأكثرها أهمية، تلك المنشورة حديثا، والتي تكشف عن معلومات، إما أنها كانت سرية في

السابق، أو غير متاحة. والمراجع المذكورة في الهوامش تسمح للقراء المهتمين بمتابعة هذه الموضوعات باستفاضة أكثر.

وقد سألني الناشر عما إذا كنا بالفعل نشير لأنفسنا بقراصنة الاقتصاد. فأكدت له ذلك، ولو أن الإشارة كانت بالأحرف الأولى EHM. في الواقع في ذلك اليوم من عام ١٩٧١ عندما بدأت العمل مع معلمتي كلودين، قالت لي: «مهمتي أن أشكلك لتكون قرصان اقتصاد. وهذا الأمر ينبغي ألا يعرفه أي شخص حتى زوجتك». ثم تحدثت بلهجة جادة وقالت: «وبمجرد أن تدخل هذا المجال فقد دخلت إلى الأبد». وبعد ذلك نادرا ما استخدمت اسمي كاملا بل كانت تستخدم الأحرف الأولى EHM.

كان دور كلودين مثالا مذهلا لما تنطوي عليه هذه المهنة من مناورات، كانت جميلة وذكية ومؤثرة بدرجة كبيرة، وقد أدركت نقاط ضعفي واستغلتها إلى أقصى الحدود. والطريقة التي كانت تمارس بها وظيفتها تدل على مدى المراوغة التي يتمتع بها العاملون داخل هذا النظام.

وصفت لي كلودين ما عليّ فعله دون مواربة. قالت لي إن مهمتي هي: «تشجيع زعماء العالم ليصبحوا جزءا من شبكة اتصالات واسعة تروج لمصالح الولايات المتحدة التجارية. وفي النهاية يقع هؤلاء القادة في شراك شبكة من الديون لنضمن خضوعهم لنا. وهكذا نستطيع الاعتماد عليهم كلما رغبنا في إشباع رغباتنا السياسية والاقتصادية والعسكرية. وفي المقابل يعضدون مكانتهم السياسية بإنشاء محطات توليد كهرباء، ومنشآت صناعية، ومطارات لمواطنيهم. وهكذا يغدو أصحاب شركات الإنشاءات الهندسية الأمريكية في ثراء فاحش».

والآن نرى نتائج هذا النظام تسري وتنتشر. فإن كبار الإداريين في أكثر شركاتنا احتراما يسخرون العمال بأجور العبيد، ويجعلونهم يعملون تحت ظروف غير إنسانية في ورش العبودية في آسيا. وتضخ شركات البترول السموم في أنهار الغابات الاستوائية، فتقتل الناس، والحيوانات، والزروع، وترتكب جرائم إبادة البشر في أراضي الحضارات القديمة. وأما الصناعات الدوائية فإنها تمتنع عن تقديم ما يتوجب عليها من الأدوية في هذه البقاع والتي قد تنقذ حياة ملايين الأفارقة المصابين بمرض الإيدز. وحتى في بلادنا الغنية الولايات المتحدة هنالك اثنا عشر مليون عائلة لا تعرف كيف تدبر وجبتها التالية[٢].

لقد تولدت من رحم هذا النظام احتكارات هائلة في صناعة الطاقة مثل شركة إنرون «Enron»، وفي صناعة المحاسبة مثل شركة أندرسون «Andersen».

إن نسبة دخل خُمس سكان العالم في البلاد الأكثر غنى إلى دخل خمس السكان في البلاد الأشد فقرا كانت (١ : ٣٠) في عام ١٩٦٠، وأصبحت هذه النسبة (١ : ٧٤) في عام ١٩٩٥[٣].

تنفق الولايات المتحدة أكثر من ٨٧ مليار دولار لتقود حربا في العراق، بينما تقدّر الأمم المتحدة أنه بأقل من نصف هذا المبلغ يمكننا تأمين المياه النظيفة، والتغذية الكافية، والخدمات

الصحية، والتعليم الأساسي لكل إنسان على وجه الأرض"[1]".

ثم نتساءل لماذا يهاجمنا الإرهابيون؟

قد يعزو بعضنا مشكلاتنا الراهنة إلى مؤامرة منظمة، أتمنى لو كان الأمر بهذه البساطة. حيث يمكن العثور على أفراد هذه المؤامرة وتقديمهم للعدالة.

على أية حال فإن هذا النظام يحمل بداخله عوامل انفجار أكثر خطورة من فكرة المؤامرة الخارجية. فهو ليس فقط مدفوعا بقوة مجموعة صغيرة من الرجال، بل أيضا من خلال خلق افكار زائفه وإضفاء القداسه عليها بمفهوم راسخ ويقيني كأنه إنجيل، وهو أن النمو الاقتصادي يفيد البشرية عامة، وأنه كلما زاد هذا النمو، ازداد انتفاع البشرية، ويترتب علي هذا تبعات منها، أن النخبه الحاكمه وأولئك الذين يجيدون اللعب في لهيب عملية التنمية الاقتصادية لهم المجد والمكافآت والثروة، وأما أولئك الذين ولدوا مهمشين فينبغي استغلالهم كعبيد .

وبالطبع هذا مفهوم خاطئ، فنحن نعلم أنه في بلاد كثيرة هناك قلة ضئيلة من الشعب هي التي تستفيد من النمو الاقتصادي، بينما ينتج هذا النمو ظروفا أكثر بؤسا للأغلبية.

ويتم تعزيز هذه النتيجة بترسيخ الاعتقاد أن قيادات الصناعة الذين يديرون هذا النظام يجب أن يتمتعوا بأوضاع متميزة، وهذا الاعتقاد يشكل أساسا لكثير من مشاكلنا الحالية، وقد يكون سببا في ازدهار نظريات المؤامرة، لأنه عندما يكافأ الرجال والنساء على الطمع والنهم، يصبح النهم باعثا خطيرا على الفساد.

فعندما تصل فكرة النهم لاستنفاد ثروات الأرض إلى مكانة تكاد تقترب من القداسة، عندما نعلّم أولادنا أن يقتدوا بأناس يعيشون حياة غير متوازنة، عندما نضع الأغلبية الساحقة من الشعب في موضع التابع الذليل لأقلية من الصفوة، فإننا نبحث عن المتاعب وسوف نحصل عليها.

ومن ناحية الكوربوقراطية «corporatocracy» التي هي منظومة الشركات والبنوك والحكومات مجتمعة، والتي تسعى لترسيخ فكر الإمبراطورية العالمية - فإنها تستخدم كل قوتها المالية والسياسية لتتأكد أن مؤسساتها من المدارس وقطاع الأعمال والإعلام تساند هذا المفهوم الزائف، وتوابعه. فقد أوصلونا إلى نقطة أصبحت فيها ثقافتنا العالمية آلة متوحشة تتطلب كميات متصاعدة من الوقود والصيانة، إلى حد أنها في النهاية ستستهلك كل ما تقع عليه العين، ولا يتبقى أمامها إلا التهام نفسها.

لايكون اعضاء الكوربوقراطية «corporatocracy» مؤامرة أو اتفاقا جنائيا ولكنهم يتبنون بعض القيم والأهداف المشتركة، وأهم وظيفة لهم هي الإبقاء على هذا النظام، وتوسيعه وتقويته. وأن يقدم لنا نسق حياة صانعي هذا النظام (عدتهم، عتادهم، قصورهم، يخوتهم، وطائراتهم الخاصة) كنموذج يحتذى لنسعى جميعا لأن نستهلك، ونستهلك، ونستهلك.

وتستغل هذه المجموعة كل فرصة لتقنعنا أن الأستهلاك هو واجبنا الحضاري، وأن نهب ثروات الأرض في صالح الاقتصاد، وبالتالي يخدم مصالحنا العليا. إن أناسا مثلي يتقاضون مرتبات

خيالية لترويج هذا النظام. فإذا فشلنا، يبدأ الثعالب في تكملة الطريق، وهم نوع مؤذٍ من رجال العمليات القذرة. أما إذا فشل هؤلاء فهنا تتدخل الجيوش.

هذا الكتاب، هو اعترافات رجل - وقتما كان قرصان اقتصاد - كان عضوا في مجموعة صغيرة نسبيا، والآن زاد عدد القراصنه الذين يتبخترون في ممرات مكاتب شركات مثل: مونسانتو، جنرال إلكتريك، نايكى، جنرال موتورز، وول مارت وتقريبا جميع الاحتكارات الكبيرة في العالم، وهم يؤدون أدوارا مشابهة وربما يحملون ألقابا ألطف.

إحقاقا للحق فإنني عندما أروي قصتي «اعترافات قرصان اقتصادي» أروي قصتهم أيضا.

إنها قصتكم كذلك، قصة عالمكم وعالمي، قصة أول إمبراطورية عالمية بحق. ويقول لنا التاريخ إننا ما لم نصحح مسار هذه القصة، ستنتهي حتما نهاية مفجعة.

لم يحدث إطلاقا أن استمرت إمبراطورية للأبد، فقد سقطت جميعها سقوطا مروعا، فهي تدمر ثقافات كثيرة في سباقها للسيطرة، ثم تسقط هي ذاتها. فلم يسبق لبلد أو مجموعة من البلدان أن استمرت أمدا طويلا في استغلالها لغيرها من الأمم.

لقدكتبت هذا الكتاب علنا نستفيق ونشرع فى تصحيح المسار الذى تتجه إليه الحضارة الأنسانية. فلا شك أنه حين يدرك اعداد متزايدة منا كيف تستغلنا الآلة الاقتصادية التي تخلق شهوه لا ترتوي لالتهام ثروات العالم، وتنتهي بأنظمة تحتضن العبودية، فإننا لن نتقبلها، بل سنعيد بناء دورنا في هذا العالم الذي تسبح أقليته في الغنى، وتغرق الأغلبية في الفقر والتلوث والعنف. ونكرس أنفسنا للإبحار باتجاه التعاطف الإنساني والديموقراطية وإقرار العدالة الاجتماعية للجميع.

إن الاعتراف بالمشكلة هو أول خطوة في طريق حلها، والاعتراف بالخطيئة هو بداية الخلاص. فليكن هذا الكتاب هو بداية خلاصنا، ليكن نبراسا يلهمنا الإخلاص في العمل، ويدفعنا أن نحقق حلمنا في بناء مجتمعات متوازنة أجتماعياً وجديرة بالأحترام.

ولولا الكثيرون الذين شاركتهم حياتهم والذين وصفتهم في الصفحات التالية لم يكن لهذا الكتاب أن يرى النور. إنني ممتن لهذه التجارب وتلك الدروس.

ومن بعدهم أشكر من شجعوني على أن أنشر هذا الكتاب وأروى قصتي هذه، وهم: ستيفن ريكشافن، بيل ولين تويست، آن كمب، آرت روفي. وأشخاص كثيرون أسهموا في رحلات وورش عمل جماعة «الحالمون بالتغيير»(*) خاصة مساعديّ أمثال إيف بروس، لين روبرتس - هيريك، مارى تندال. وونفريد زوجتي الرائعة وشريكة حياتي لمدة ٢٥ سنة، وابنتنا جيسيكا.

(*) جماعة الحالمون بالتغيير: هي جماعة مكرسة لتغيير وعى الأفراد والوعي العالمي لكي تلعب دورا ملهما لعديد من الأفعال التي تسهم في تغيير العالم ومنها مساعدة السكان الأصليين كما أنها تساعدهم في الحفاظ على القيم الثقافية لمجتمعاتهم وقد أسسها جون بيركنز.

أنني أدين بالشكر لكثير من الرجال والنساء الذين زودوني بآراء ومعلومات عن البنوك متعددة الجنسيات، والشركات الدولية، ومغزى التلميحات السياسية الخاصة ببلاد أخرى، مع شكر خاص إلى مايكل بن إيلى، سابرينا بولونيى، جوان جابرييل كاراسكو، خايمى جرانت، بول شو، وآخرون ممن يريدون أن يبقوا مجهولين، لكنهم يعرفون قدرهم عندي.

بمجرد انتهائي من كتابة المسودة لم يكتف ستيفن برسنتى ، مؤسس دار نشر بيريت كوهلر بالموافقة على نشرها في الحال، بل توفر عليها وقتا طويلا محررا مبدعا ليساعدني في إخراج هذا الكتاب بهذا الشكل. أقدم شكري العميق إلى ستيفن، وريتشارد بيرل الذي عرفني به، وكذلك نوفا براون وراندى فيات وآلن جونز وكريس لى وجنيفرليس ولورى بلوشود وجينى ويليامز الذين قرءوا المسودة وأبدوا ملاحظاتهم عليها. وإلى ديفيد كورتن الذي لم يسهم فقط في التحرير، بل ألزمني بتصحيحات كثيرة لأصل في كتابي إلى مستوى يرضي مثاليته.

وإلى وكيل أعمالي بول فيدوركو، وفاليرى بروستر الذي قام على تنسيق الكتاب، وتود مانزا مراجع الكتاب الذي عمل معي كمدقق لغوى وفيلسوف بشكل غير عادى.

وكلمة شكر خاصة إلى جيفان سيفاسوبرامانيان مدير التحرير لدار نشر بيريت كوهلر. وإلى كين لوبوف وريك ويلسون وماريا خيسوس آجيلو و بات أندرسون وماريتا كوك وميشال كراولى وروبن دونوفان وكريستين فرانز وتيفانى لى وكاثرين لينجرون وديان بلاننتر، وكل طاقم النشر الذين كانوا يدركون أهمية الحاجة إلى يقظة الضمير، والذين عملوا معى جاهدين من أجل جعل العالم مكانا أفضل.

وأود أن أشكر كل الذين عملوا معي في شركة مين «MAIN» رجالا ونساء، ولم يكونوا على علم بطبيعة الأدوار التي يلعبونها لمساعدة قراصنة الاقتصاد في تشكيل الإمبراطورية العالمية. وأخص بالشكر هؤلاء الذين عملوا تحت إمرتي، والذين سافرت برفقتهم إلى أماكن بعيدة وتقاسمنا لحظات ومشاعر ثرية. وأيضا إيهود سبرلينج صاحب دار نشر إينر ترادشينز انترناشيونال وموظفيه، وهو الناشر الذي نشر لي كتبي الأولى عن الثقافات الشعبية المحلية والمعتقدات الشامانية [المقدسة لظواهر الطبيعة]، وكذلك أشكر أصدقائي الأوفياء الذين وضعوني على الطريق ككاتب.

وعميق عرفاني بالجميل لرجال ونساء آووني في بيوتهم في الغابات والصحارى والجبال والأكواخ العائمة في قنوات جاكارتا. وفى حواري مدن لا تعد ولا تحصى حول العالم. وأشركوني في طعامهم وحياتهم وكانوا أعظم مصدر لإلهامي.

جون بيركنز

أغسطس ٢٠٠٤

تصدير

تمتد كويتو، عاصمة الإكوادور، عبر وادي بركاني، في جبال الإنديز على ارتفاع تسعة آلاف قدم، تلك المدينة التي أنشئت قبل قدوم كولومبس بوقت طويل اعتاد سكانها أن يشاهدوا الثلوج على القمم الجبلية المحيطة بهم، رغم أنهم يقطنون على بعد أميال قليلة من جنوب خط الاستواء.

أما مدينة شل التي تنخفض عن كويتو بثمانية آلاف قدم، فقد اقتطعت من غابات الأمازون و بنيت في الأساس لخدمة شركة البترول التي تحمل اسمها «شل». و يوجد بها أيضاً قاعدة عسكرية. وهي مدينة رطبة خانقة الحرارة، أغلب سكانها من الجنود، وعمال البترول، إضافة إلى السكان الأصليين من قبائل شوار وكيشوا الذين يمارسون الأعمال الشاقة والبغاء لخدمة عمال البترول.

وللسفر من مدينة إلى أخرى، يقطع الناس طرقا وعرة تخطف الأنفاس، ويقول سكان المنطقة أنك خلال تلك الرحلة سترى فصول السنة الأربعة في يوم واحد.

ورغم اجتيازي هذا الطريق مرارا، فلم أمل مناظره الخلابة. التلال الممتدة على أحد جانبيه، تقطعها بين وقت وآخر الشلالات المتدفقة، ومن الجانب الآخر تنحدر الأرض إلى هوة عميقة حيث يأخذ نهر باستازا (أحد روافد الأمازون) طريقه متعرجا إلى أدنى جبال الإنديز وهو يحمل مياهه من منطقة كوتوباكسى الجليدية (أحد أعلى براكين العالم النشطة) ليصب في المحيط الأطلسي على بعد ثلاثة آلاف ميل. وقد عُبد نهر باستازا في زمن قبائل الإنكا.

في عام ٢٠٠٣، غادرت كويتو بعربة سوبارو، قاصدا مدينة شل في مهمة تختلف بالكلية عن أي مهمة قبلت القيام بها. كنت آمل أن أنهي حربا ساعدت في إضرامها. مثل أمور أخرى كثيرة علينا - نحن قراصنة الاقتصاد - أن نتحمل مسئوليتها، إنها حرب مجهولة لمن هم خارج البلد التي تشهدها. كنت في طريقي للقاء رجال قبائل شوار وكيشوا وجيرانهم أشوار وزابارو وشويار. تلك القبائل التي قررت الوقوف بوجه شركات البترول الأمريكية، ومنعها من تدمير منازلهم وقراهم وأراضيهم حتى لو أدت هذه المواجهة إلى موتهم. فبالنسبة لهم هذه حرب من أجل حياة أبنائهم وخضاراتهم، أما بالنسبة لنا فهي حرب من أجل القوة والمال والموارد الطبيعية. وهي جزء من الصراع للسيطرة على العالم، وحلم حفنة من الرجال الشرهين بإمبراطورية عالمية[1].

إن ما نتقن صنعه نحن قراصنة الاقتصاد هو أن نبني إمبراطورية عالمية. فنحن نخبة من الرجال والنساء يستخدمون المنظمات المالية الدولية لخلق أوضاع تخضع الأمم الأخرى لاحتكار الكوربوقراطية (corporatocracy) التي تدير شركاتنا الكبيرة وحكومتنا وبنوكنا.

ومثل نظرائنا من رجال المافيا، نؤدي نحن قراصنة الاقتصاد بعض الخدمات، كمنح قروض لتنمية البنية التحتية، وبناء محطات لتوليد الكهرباء، ومد طرق رئيسة، وإنشاء موانئ ومطارات ومناطق صناعية. هذه القروض مشروطة بأن تتولى إدارة هذه المشروعات شركات إنشائية وهندسية من بلادنا. جوهر الأمر ألا يخرج القدر الأكبر من أموال القروض من الولايات المتحدة، بل تنتقل من مكاتب البنوك في واشنطن إلى مكاتب الشركات الهندسية في نيويورك أو هوستن أو سان فرانسيسكو.

ورغم أن المال يعود بشكل مباشر تقريبا إلى مانحي القروض وهم أعضاء منظمة الكوربوقراطية Corporatocracy، فإن البلد التي حصلت على هذه القروض عليها أن تردها مضافة إليها قيمة الفائدة.

ويحقق قرصان الاقتصاد أكبر نجاح عندما تكون القروض كبيرة لدرجة تضمن عجز الدولة المستدينة عن سداد ما عليها من ديون في ظرف سنوات قليلة. آنئذ نسلك سلوك المافيا ونطلب رطلا من اللحم مقابل الدين(*). وتتضمن قائمة طلباتنا واحدة أو أكثر من التالي: السيطرة على تصويت الدول في الأمم المتحدة، أو إنشاء قواعد عسكرية، أو الهيمنة على موارد الثروة كالبترول أو قناة بنما. بالطبع يبقى المستدين مثقلا بالدين؛ وبذلك يضاف بلداً آخر إلى إمبراطوريتنا العالمية.

بينما كنت أقود سيارتي من كويتو إلى شل، في ذلك اليوم المشمس من عام ٢٠٠٣ عدت بذاكرتي خمسة وثلاثين عاما للوراء، حين جئت للمرة الأولى إلى هذه البقعة من العالم. كنت قد قرأت أن الإكوادور تحتوى على أكثر من ثلاثين بركانا نشطا وحوالي ١٥٪ من أنواع الطيور في العالم، وآلاف من أنواع النباتات غير المصنفة رغم أنها لا تزيد في مساحتها عن مساحة ولاية نيفادا الأمريكية. وهي أرض حضارات كثيرة متفرقة، ويتكلم شعبها كثير من اللغات المختلفة بالإضافة إلى الأسبانية. وجدت هذه البلاد ساحرة، ودون شك مثيرة، لكن الكلمات التي تبادرت إلى ذهني عن هذه البلاد هي أنها نقية، ومسالمة.

تغيرت أمور كثيرة خلال خمسة وثلاثين عاما. ففي زيارتي الأولى عام ١٩٦٨، كانت شركة تكساكو قد اكتشفت لتوها وجود بترول في منطقة الأمازون في الإكوادور. أما اليوم فيمثل البترول ما يقرب من نصف صادرات هذه البلاد. فقد مُدت الأنابيب عبر جبال الإنديز عقب تلك الزيارة مباشرة، وتسبب هذا الخط في تسريب نصف مليون برميل من البترول إلى الغابات المطيرة، وهي

(*) إشارة إلى مسرحية شكسبير "تاجر البندقية" حيث اشترط المُرابي اليهودي شيلوك أن يقطع رطلاً من لحم المدين في حال عدم سداد الدين. (المراجع).

ضعف الكمية التي سربتها أكسون فالدز(*)[2]. واليوم يُمدُّ خط أنابيب بطول ثلاثمائة ميل، وتكلفة ١,٣ مليار دولار، يتولاه تحالف مالي ينظمه قراصنة الاقتصاد، من المتوقع أنه سيجعل من الإكوادور أحد أكبر عشر دول تزود الولايات المتحدة بالبترول[3]. لقد اختفت مساحات كبيرة من الغابات المطيرة، وكادت الفهود والببغاوات أن تنقرض، وأوشكت ثلاث حضارات محلية على الانهيار، وتحولت الأنهار القديمة إلى حفر متوهجة.

في هذه الأونة، بدأت شعوب هذه الحضارات المحلية حربها ضد هذا التعدى. فعلى سبيل المثال في ٧ مايو عام ٢٠٠٣ تقدم مجموعة من المحامين الأمريكيين يمثلون حوالي ثلاثين ألفا من الأهالي في الإكوادور، ورفعوا قضية تعويض بمليار دولار على شركة شيفرون تكساكو، وتؤكد القضية أنه بين عامي ١٩٧١ و١٩٩٢ كان هذا العملاق البترولي يلقى حوالي أربعة ملايين جالون يوميا من النفايات المسممة بالبترول والمعادن الثقيلة ومخلفات حيوانات قشرية في الأنهار وفي حفر في الأرض ، كما أن هذه الشركة تركت وراءها ٣٥٠ حفرة مكشوفة من المخلفات والتي مازالت تتسبب في مقتل البشر والحيوانات على حد سواء[4].

خارج نافذة سيارتي، كانت الغيوم الرطبة تأتي من الغابات وتصعد باتجاه وديان باستازا. كان العرق يبلل قميصي، وبدأت أشعر بالمغص في معدتي، ليس فقط من الحرارة الاستوائية ولا من الطريق المتعرج، بل لأنني أعلم الدور الذي لعبته في تخريب هذا البلد الجميل، كان تأثير هذا قد بدأ يظهر عليّ. فبسبب ما فعلته أنا وأمثالي من القراصنة ساءت حال الإكوادور كثيرا عما كانت عليه قبل أن نسحبها إلى معجزات الاقتصاد الحديث والبنوك والهندسة. فمنذ عام ١٩٧٠، وخلال الحقبة التي عرفت - تجاوزا- بمرحلة الازدهار البترولي ارتفعت نسبة الفقر من ٥٠ إلى ٧٠ بالمائة، وازدادت البطالة من ١٥ إلى ٧٠ بالمائة، وزادت الديون العامة من ٢٤٠ مليون دولار إلى ١٦ مليار دولار، في الوقت نفسه، تدنت حصة الطبقات الفقيرة من المصادر القومية من ٢٠ بالمائة إلى ٦ بالمائة[5].

للأسف، ليست الإكوادور استثناء، فتقريبا كل بلد وضعناه - نحن قراصنة الاقتصاد - تحت مظلة الإمبراطورية العالمية واجه المصير نفسه[6]. فمنذ عام ٢٠٠٤ بلغت ديون العالم الثالث أكثر من ٢,٥ ترليون دولار، كما يمثل عبء خدمة الديون أكثر من ٣٧٥ مليار دولار سنويا، وهو أكثر مما يمكن أن ينفقه العالم الثالث على الصحة والتعليم، وأكثر عشرين مرة مما تتلقاه البلاد النامية سنويا من معونات أجنبية. إن أكثر من نصف سكان العالم يعيش على أقل من دولارين في اليوم، وهو تقريبا المبلغ نفسه الذي يعيشون به منذ بداية السبعينيات. وفى الوقت نفسه، فإن ١٪ من الأسر في

(*) حادث تسرب البترول من الناقلة أكسون فالدز في مارس سنة ١٩٨٩ حيث تسرب منها ٢٥٤٧٠٠ برميل من الزيت في ولاية ألاسكا الأمريكية، وتسبب الحادث في مقتل ما لا يقل عن ٣٤ ألف طائر بحري و١٠ آلاف ثعلب بحري و١٦ حوتا. (المراجع)

العالم الثالث تحصل على (٧٠ إلى ٩٠) بالمائة من الثروات والممتلكات الخاصة في بلادهم، وتعتمد النسبة الحقيقية على طبيعة كل دولة[٧].

أبطأت السيارة عند وصولها إلى متجع بلدة بانوس الشهيرة بالحمامات الساخنة التي خلفتها الأنهار البركانية الجوفية التي تنحدر من جبل تانجوراجا النشط. التف الأطفال حولنا يبيعون لنا اللبان والكعك. ثم تركنا بانوس وراءنا. اختفت فجأة المناظر الخلابة عندما خرجت سيارتنا السوبارو مسرعة من مشاهد الجنة إلى مشهد عصري من «جحيم» دانتي.

ظهر سد ضخم في وسط النهركحائط هائل الحجم رمادي اللون. تبدو جسوره الخراسانية التي يتدفق الماء من خلالها في غير مكانها، غير طبيعية، وغير متجانسة مع المنظر العام. وبالطبع لم أندهش لرؤيتها؛ إذ كنت أعلم طوال الوقت أنها ستظهر فجأة ككمين خفي. لقد صادفتها مرات كثيرة من قبل، وأثنيت عليها سابقا، معتبرا إياها رمزا لإنجازات قراصنة الاقتصاد. ومع ذلك فقد سرت في بدني قشعريرة.

ذلك الحائط القبيح غير المتناسق هو السد الذي يصد تدفق نهر باستازا، ويحول مياهه من خلال أنفاق ضخمة محفورة بالجبل، فيحول الطاقة المائية إلى كهرباء. إنه مشروع شلالات أجويان لإنتاج ١٥٦ ميجا وات من الطاقة الكهرومائية. إنه يدعم الصناعات التي تجعل حفنة من أهل الإكوادور أغنياء، ويمثل مصدر آلام لا توصف للمزارعين والسكان الأصليين الذين يقطنون حول النهر، وليس سوى واحد من المشاريع التي نمت من خلال عملي وعمل غيري من قراصنة الاقتصاد. مثل هذه المشاريع هي التي جعلت الإكوادور عضوا في الإمبراطورية العالمية، وهي السبب الذي دفع قبائل الشيوار والكيشوا وجيرانهم يهددون بمحاربة شركات البترول.

وبسبب مشاريع قراصنة الاقتصاد، غرقت الإكوادور في الديون الخارجية، وأصبح عليها أن ترصد جزءا كبيرا من ميزانيتها لتسديد هذه الديون، بدلا من استخدام رأسمالها لمساعدة الملايين من مواطنيها المصنفين تحت خط الفقر المدقع. والطريقة الوحيدة التي تستطيع بها الإكوادور سداد هذه الديون الخارجية التي تكبلها، هي أن تبيع غاباتها لشركات البترول. في الواقع فإن أهم الأسباب التي جعلت قراصنة الاقتصاد يضعون أعينهم على الإكوادور تمثل في بحر البترول الذي تسبح فوقه منطقة الأمازون، والذي يعتقدون أنه ينافس حقول بترول الشرق الأوسط[٨]. والإمبراطورية العالمية تطلب رطلها من اللحم على شكل تنازلات في البترول.

وبعد ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ أصبحت هذه التنازلات ملحة ، عندما خشيت واشنطن توقف إمدادات البترول من الشرق الأوسط. علاوة على ذلك، انتخبت فنزويلا، مؤخرا - وهي ثالث مورد للبترول - «هوجو شافيز» رئيسا شعبيا لها، وقد أخذ الرجل موقفا قويا ضد ما أشار إليه

بوصفه الإمبريالية الأمريكية، وهدد بوقف بيع البترول للولايات المتحدة. لقد فشلنا نحن قراصنة الاقتصاد في العراق وفنزويلا، لكننا نجحنا في الإكوادور، والآن سنحلبها لآخر قطرة.

تعد الإكوادور نموذجا للبلاد التي أدخلها قراصنة الاقتصاد إلى حظيرة الاقتصاد السياسي. فمن بين كل مائة دولار من عائد المواد الخام المأخوذة من الغابات، تحصل شركات البترول على ٧٥ دولارا. أما الـ ٢٥ دولارا الباقية فتذهب ثلاثة أرباعها لسداد الديون الخارجية، ومعظم ما يتبقى يذهب لتغطية شئون الجيش وغيره من النفقات الحكومية، ويتبقى دولارين ونصف الدولار فقط لنفقات الصحة والتعليم، والبرامج التي تهدف لمساعدة الفقراء[٩]. وهكذا، فمن كل ١٠٠ دولار من ثمن البترول المستخرج من الأمازون لا ينال المواطنون المحتاجون منها إلا أقل من ثلاثة دولارات. هؤلاء المواطنون الذين تؤثر السدود والأنفاق وخطوط الأنابيب على حياتهم بشدة، والذين يموتون نتيجة نقص الطعام والماء الصالح للشرب.

كل هؤلاء الناس - ملايين في الإكوادور ومليارات حول العالم - إرهابيون محتملون، ليس لأنهم يؤمنون بالشيوعية، أو الفوضوية، أو لأنهم في حد ذاتهم أشرار، ولكن ببساطة لأنهم يائسون. وتساءلت وأنا أتطلع لهذا السد - مثلما تساءلت في أماكن أخرى كثيرة من العالم - متى سيتحرك هؤلاء الناس مثلما تحرك الأمريكيون ضد انجلترا في القرن السابع عشر، أو كما فعل سكان أمريكا اللاتينية ضد أسبانيا في بدايات القرن الثامن عشر؟

إن الدهاء الذي تتسم به هذه الإمبراطورية الحديثة يتجاوز كل ما صنعه الفرسان الرومان، والغزاة الأسبان، وقوى الاستعمار الأوروبي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فنحن - قراصنة الاقتصاد - على درجة عالية من الاحتراف، إذ إننا وعينا دروس التاريخ. نحن اليوم لا نحمل سيوفا، ولا نرتدي دروعا، أو ملابس تعزلنا عن غيرنا، ففي بلاد مثل الإكوادور ونيجيريا وإندونيسيا نرتدي ملابس كالتي يرتديها المدرسون المحليون وأصحاب المحال التجارية، وفى واشنطن وباريس نبدو مثل موظفي الحكومة والبنوك متواضعين وعاديين. نزور مواقع المشروعات، ونتسكع داخل القرى الفقيرة. نتظاهر بإنكار الذات، ونحدث الصحف المحلية عن الأعمال الإنسانية العظيمة التي نؤديها. نغطى طاولات مؤتمرات اللجان الحكومية بأوراقنا ومشاريعنا المالية، ونحاضر في كلية إدارة الأعمال في هارفارد عن عجائب المشروعات الاقتصادية الكبرى.

حققنا مكانة مرموقة في الحياة العامة، أو هكذا رسمنا صورة لأنفسنا وتقبلنا أنفسنا. بهذه الطريقة ينجح النظام. ونادرا ما نلجأ للخروج عن القانون، فالنظام نفسه مبني على خدعة، والنظام بشكل محدد يوصف بأنه قانوني.

على كل حال لو فشلنا، وهو أمر مستبعد، ستدخل الساحة فصيلة أكثر شرا، فصيلة ندعوها نحن قراصنة الاقتصاد «فصيلة الثعالب» هؤلاء هم رجال الأعمال القذرة الذين لا غنى عنهم لمن

يحكمون عبر التاريخ. إنهم دائما هناك، في الظل، وإذا ظهروا ستسقط رءوس رؤساء دول أو يموتون في «حوادث» عنيفة[10]. وإن حدث وفشل هؤلاء الثعالب - وهذا ما حدث في أفغانستان والعراق - ستعود النماذج القديمة للظهور على السطح؛ عندما يفشل الثعالب، فإن شبابا أمريكيين سيرسلون ليَقتلوا أو يُقتَلوا.

لدى مروري بذلك الوحش، ذلك الحائط الرمادي الضخم الجاثم فوق النهر، كنت أشعر بشدة بالعرق الذي بلل ثيابي والتقلص الذي قطع أمعائي. أغرقني شعوري بالذنب وأنا متجه مباشرة إلى الغابة للقاء الأهالي الذين عزموا على أن يحاربوا حتى آخر رجل لإيقاف هذه الإمبراطورية التي أسهمتُ أنا في بنائها.

كنت أسأل نفسي، كيف استطاع طفل نيوهامبشاير اللطيف أن يندمج في مثل هذه الأعمال القذرة؟!

الجزء الأول
١٩٦٣- ١٩٧١

الفصل الأول
مولد قرصان اقتصاد

كانت طفولتي عادية. فقد كنت طفلا وحيدا، ولدت في عائلة من الطبقة المتوسطة في عام ١٩٤٥. وكان أبواي من سلالة اليانكي Yankee من سكان نيو إنجلاند الأصليين منذ ثلاثة قرون، وقد عكست سلوكياتهم المتشددة، وأخلاقهم المتزمتة، والمخلصة للاتجاه الجمهوري، حقيقة أنهم أحفاد أصلاء لأسلافهم البيوريتانيين.

كان أبواي من أوائل من التحق بالجامعة من عائلتيهما، بفضل منحة دراسية، عملت أمي مدرسة لغة لاتينية في المدارس الثانوية، وشارك أبي في الحرب العالمية الثانية ضابطا برتبة ملازم في البحرية الأمريكية، وكان مسئولا عن حماية ناقلات البترول التجارية في المحيط الأطلسي. وعندما ولدت في هانوفر، نيوهامبشاير، كان يعالج في مستشفى في تكساس من كسر في الحوض. ولم أره إطلاقا حتى تجاوزت عامي الأول.

التحق بعدها بالعمل في وظيفة مدرس لغات في مدرسة تلتون، مدرسة داخلية للأولاد في ريف نيوهامبشاير. وكان حرم المدرسة يرتفع فوق تل وينظر بعظمة - أو بالأحرى بتعالى - نحو البلدة التي تحمل اسمه. وقد حددت هذه المدرسة الخاصة عدد تلاميذها بخمسين لكل مستوى - من الصف التاسع إلى الصف الثاني عشر - وكان أغلبهم أبناء عائلات غنية من بوينس إيريس وكاراكاس وبوسطن ونيويورك.

كانت عائلتي دائما في احتياج للمال، لكننا لم نكن نرى أنفسنا فقراء. فمع أن أساتذة المدرسة كانوا يتقاضون أجورا زهيدة، إلا أن كل احتياجاتنا كانت تصلنا بلا مقابل: الطعام والمسكن والتدفئة والماء، والعمال الذين يجزون الحشائش ويجرفون الثلج من أمام منزلنا. وبداية من عيد ميلادي الرابع بدأت أتناول طعامي في قاعة طعام المدرسة، وأجهز الكرات لفريق كرة القدم الذي كان أبي يدربه، وأناول المناشف للاعبين في غرفة الملابس.

جدير بالذكر أن المدرسين وزوجاتهم كانوا يشعرون بالتعالي على أبناء البلدة، وكان من المألوف أن أسمع والديَّ يتندران بأنهما أسياد المقاطعة، ويحكمان الفلاحين الأدنى مرتبة منهما وهما يقصدان بذلك أهل البلدة. كنت أدرك أن الأمر ينطوي على أكثر من مجرد مزحة.

كان أصدقائي في سنوات الدراسة الابتدائية والإعدادية ينتمون إلى تلك الطبقة من القرويين، ويعيشون في فقر شديد، فقد كانت أسرهم مزارعين معدمين أو حطابين أو طحانين. كانوا يتطلعون للمدرسين المقيمين على التل بنفوس يملؤها الحنق والغضب، وفي المقابل لم يشجع والدي اختلاطي مع فتيات البلدة اللواتي يدعوهن «وقحات» و«مستهترات». كنت أتقاسم الكتب والأقلام مع هؤلاء الفتيات منذ الصف الأول، وطوال سنوات الدراسة، وأحببت منهن ثلاث (آن وبرسيلا وجودي). كان من الصعب على أن أفهم وجهة نظر أسرتي، لكنني احترمت رغبتها.

في كل عام كنا نمضي أشهر الصيف الثلاثة التي يحصل فيها والدي على إجازته من العمل في كوخ بناه جدي عام ١٩٢١. كان محاطا بالغابات، وكنا في الليل نسمع صوت البوم وسباع الجبال، ولم يكن لدينا جيران، وكنت الطفل الوحيد في المكان. في السنوات المبكرة كنت أقضي اليوم متخيلا أن الأشجار فرسان المائدة المستديرة ونساء حزينات، أطلق عليهن اسم: آنا أو برسيلا أو جودي (كان الأمر يتوقف على من التي أحبها في تلك السنة). كانت عواطفي دون شك، بقوة عواطف لانسلوت نحو جنيفير(*) (Lancelot and Guunvere) وربما أكثر تحفظا.

وعندما بلغت الرابعة عشرة من عمري، تلقيت منحة دراسية إلى مدرسة تلتون. وبناء على رغبة والدي، ابتعدت عن أي شيء له صلة بالبلدة، ولم أر أصدقائي بعد ذلك نهائيا. وعندما كان رفاقي الجدد يذهبون إلى مساكنهم وبيوتهم الفاخرة لقضاء العطلة، كنت أبقي بمفردي على التل، كانت صديقاتهم من فتيات المجتمع الراقي، أما أنا فلم تكن لي صديقة. كل الفتيات اللاتي كنت أعرف عنهن التحرر. أسقطتهن من حسابي، وهن بدورهن نسوني. كنت وحيدا ومحبطا إحباطا شديدا.

كان والديَّ بارعي المناورة، فقد أكدوا لي أنني كنت محظوظا بحصولي على تلك الفرصة وأنني في يوم من الأيام سأكون ممتنا لهما. فسأجد الزوجة المناسبة، زوجة تتلائم مع مُثلي الأخلاقية العالية. ومع ذلك فكنت أغلي في داخلي. كنت أتوق إلى رفقة نسائية - إلى الجنس- وكانت فكرة «العاهرات» شديدة الإغراء.

ومع ذلك فبدلا من التمرد، كتمت غضبي، وعبرت عن إحباطاتي بالتفوق. كنت طالباً

(*) فارس من فرسان الملك آرثر الذي وقع في حب زوجة الملك وكان يشهد له بدوره العظيم في أنتصارات الملك ولكن لم تدم تلك الأنتصارات لمعرفة الملك بهذة العلاقه. (المراجع).

متفوقاً، وقائد فريقين من الفرق الرياضية، ومحرر مجلة المدرسة. كنت مصمما على التميز بين زملائي الأغنياء، لكي أترك تلتون إلى الأبد. في السنة الأخيرة من الدراسة، حصلت على منحة رياضية في جامعة براون، ومنحة تعليمية في جامعة ميدلبيري، وقد اخترت جامعة براون؛ أولا لأنني فضلت أن أكون رياضيا، ثم لأن جامعة براون تقع في واحدة من المدن المهمة. تخرجت أمي في جامعة ميدلبيري، وحصل والدي منها على الماجستير، رغم أن جامعة براون كانت من أهم جامعات الشمال الشرقي في الولايات المتحدة، لكنهما فضلا جامعة ميدلبيري.

سألني والدي: «ماذا ستفعل لو كسرت ساقك؟ بالتأكيد ستفقد منحة التفوق الرياضي. الأفضل أن تقبل المنحة الأكاديمية». فاستسلمت للأمر الواقع.

كانت ميدلبيري في نظري نسخة أكبر من تلتون، غير أنها تقع في ريف فيرمونت، بدلا من ريف هامبشاير. صحيح أنها كانت جامعة مختلطة لكني كنت فقيرا بينها معظم من حولي تقريبا أغنياء، وكان قد مر على أربع سنوات في مدرسة ليس فيها طالبات. كنت أفتقر للثقة في نفسي، وأشعر أنني من طبقة أقل، كنت تعيسا. طلبت من والدي أن يسمح لي بترك المدرسة أو بعام إجازة. أردت أن أنتقل إلى بوسطن وأتعلم عن شئون الحياة والنساء. لكنه حتى لم يصغ لي. وقال مستنكرا: «كيف أدعي قدرتي على إعداد أبناء غيري لدخول الجامعة، إذا كان ابني أنا شخصيا لا يريد ذلك؟».

بدأت أدرك أن الحياة سلسلة من المصادفات. وجل ما في استطاعتنا يتمثل في ردود أفعالنا وممارسة ما يطلقون عليه حرية الإرادة. واختياراتنا إنما تحكمها تقلبات القدر الذي يقرر من نكون. وهناك مصادفتان رئيستان حدثتا في ميدلبيري، شكلتا حياتي فيما بعد. أتت إحداهما على هيئة شاب إيراني، ابن جنرال يعمل مستشارا خاصا للشاه، والمصادفة الثانية كانت شابة جميلة اسمها آن، على اسم حبيبة طفولتي.

الأول وسأسميه فرهاد، كان لاعب كرة قدم محترف في روما. رياضي البنية، شعره أسود ومجعد، وعيونه بلون البندق، وكان ذو خلفية ثقافية وحضور طاغ جعلا منه شخصا لا يقاوم من النساء. كان على نقيضي في أمور كثيرة، وبذلت مجهودا كبيرا لكسب صداقته، وقد علمني أشياء كثيرة، ساعدتني فيما بعد. وكذلك التقيت آن، ومع أنها كانت على علاقة جدية بشاب آخر، فإنها أخذتني تحت جناحها، وقد كانت علاقتنا الأفلاطونية، أول علاقة حب حقيقية في حياتي.

شجعني فرهاد على الشرب وارتياد أماكن اللهو، وتجاهل والدي. توقفت عن الدرس والتحصيل بكامل إرادتي، وبيّتُّ النية على هجر الدراسة الأكاديمية انتقاما من أبي، فانخفضت تقديراتي وفقدت المنحة الدراسية، وفي منتصف السنة الثانية عزمت على ترك الجامعة. هددني أبي أن يتبرأ مني، وقد آزرني فرهاد في موقفي، فدخلت كالعاصفة إلى مكتب العميد، وتركت الجامعة. كانت هذه لحظة فاصلة في حياتي.

احتفلت أنا وفرهاد بليلتي الأخيرة في المدينة في بار صغير. حيث اتهمني مزارع مخمور ضخم الجثة بمغازلة زوجته، فسحبني من قدمي وأطاح بي نحو الحائط. وهنا تدخل فرهاد بيننا، وسحب سكينا، طعن به المزارع في خده، ثم جرني عبر الصالة نحو نافذة، حيث قفزنا فوق جدول صغير، وسرنا بجوار النهر حتى وصلنا إلى المدينة الجامعية.

وفي اليوم التالي، لدى استجوابنا من قبل الحرس الجامعي، كذبت وأنكرت أي علاقة لي بالحادثة، ومع ذلك فقد فصل فرهاد من الجامعة. وانتقلنا بعد ذلك إلى بوسطن وسكنا معا هناك. وحصلت على وظيفة مساعد شخصي لرئيس التحرير في مؤسسة هيرست، في جريدة «ساندي ادفرتايزر».

وفي نهاية ذلك العام ١٩٦٥ جُند الكثير من رفاقي في الجريدة، ولتفادي ذلك المصير، التحقت بكلية إدارة الأعمال بجامعة بوسطن، وفي ذلك الوقت كانت آن قد انفصلت عن صديقها القديم، وكانت كثيرا ما تأتي من ميدلبيري لزيارتي. رحبت باهتمامها بي. وقد تخرجت عام ١٩٦٧، بينما كان أمامي عام كامل لإنهاء دراستي في جامعة بوسطن، لكنها رفضت رفضا تاما الانتقال للعيش معي ما لم نتزوج. ورغم أني كنت أمازحها بشأن طلب الزواج وأصفه بأنه نوع من الابتزاز العاطفي فالحقيقة هي أنني كنت أشعر بالحنق تجاهه لما فيه من امتداد لمنظومة الأخلاقيات البالية التي يتبناها والدي. كنت أستمتع بصحبتها وأريد أن أبقي معها، فتزوجنا.

كان والد آن مهندسا لامعا، وضع تصميم نظام توجيه لنوع معين من الصواريخ، وكوفئ بمنصب مرموق في البحرية. وكان أعز أصدقائه رجلا تدعوه آن بالعم فرانك (ليس هذا اسمه الحقيقي)، وكان موظفا كبيرا بوكالة الأمن القومي NSA، وهي أقل مؤسسات المخابرات شهرة في البلاد، وأكثرها عددا.

وبعد زواجي بوقت قصير استدعيت للفحص الطبي في الجيش. اجتزت الفحص وهنا واجهت احتمالية الذهاب إلى فيتنام عند تخرجي. وقد أرقتني نفسيا فكرة القتال في جنوب شرق آسيا، مع أن الحرب كانت دائما تثير إعجابي. فقد نشأت على سماع حكايات عن جدودي المستوطنين الرواد - ومنهم توماس بين(*) وإيثان آلن - وقد زرت كل مواقع المعارك في نيو إنجلاند، ونيويورك، سواء منها الفرنسية أو الهندية، وحروب الثورة الأمريكية، وقرأت كل رواية تاريخية وقعت تحت يدي. في الواقع في بداية دخول قوات الجيش الخاصة جنوب شرق آسيا كنت متحمسا لتسجيل اسمي. ولكن عندما بدأ الإعلام ينشر فظائع وتناقضات سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، أحسست بتغير في عواطفي، وبدأت أتساءل في أي جهة كان سيقف جدي توماس باين. كنت متأكدا أنه سينضم إلى مليشيات الفيتناميين الفيتكونج.

(*) توماس بين كاتب إنجليزي هاجر إلى أمريكا إبان الثورة الأمريكية وكان يكتب مهاجما الاستعمار الإنجليزي ويحض على الثورة عليه.

أنقذني العم فرانك عندما أبلغني أن هناك وظيفة شاغرة في وكالة الأمن القومي NSA، تؤهل من يشغلها لتأجيل الخدمة العسكرية، وأجريت لي عدة اختبارات في الوكالة، من بينها اختبار على جهاز كشف الكذب. وقد قيل لي إن هذه الاختبارات هي التي ستحدد مدى صلاحيتي للعمل والتدريب في الوكالة. وفي حال صلاحيتي، سيكشف هذا الاختبار نقاط قوتي ونقاط ضعفي، و سيحدد ما ينبثق عنه من معلومات نوع العمل الذي سأصلح له في الوكالة. وقد شعرت أن موقفي من حرب فيتنام سيضمن عدم نجاحي في الاختبارات.

قلت في تلك الاختبارات إنني كأمريكي مخلص أرفض الحرب، وقد اندهشت أن الممتحن لم يسترسل في أسئلته حول هذا الموضوع. وبدلا من ذلك ركزوا على أمور أخرى، منها نشأتي، وسلوكي تجاه عائلتي، والعواطف التي تولدت من واقع أنني نشأت فقيرا أنتمي للمذهب البيوريتاني بين مجموعة من الطلبة الأغنياء الذين يسعون وراء ملذاتهم. وكذلك استطلعوا إحباطاتي لافتقادي في حياتي للمرأة والجنس والمال، وما نتج عن ذلك من عيشي في عالم من الأوهام والخيال. وقد ذهلت للاهتمام الذي أولوه لعلاقتي بفرهاد وتطوعي بالكذب على الحرس الجامعي كي أحميه.

في البداية تصورت أن كل هذه الأشياء التي بدت لي سلبية جدا ستعوق قبولي في الوظيفة. إلا أن استمرار تلك الاختبارات أوحي بخلاف ذلك. لم تمض سنوات كثيرة حتى أدركت أن تلك السلبيات من وجهة نظر وكالة الأمن القومي تعتبر بالفعل إيجابيات. فأمور مثل ولائي لوطني لم تسترع انتباههم بقدر الإحباطات التي واجهتها في حياتي، كغضبي من عائلتي وتعلقي بالنساء وطموحي أن أحيا حياة رغدة، كل هذا منحهم انطباعا أني سهل الإغواء. فتصميمي على التفوق بالدراسة والرياضة، وتمردي الشديد ضد إرادة والدي، وقدرتي على الانسجام مع الأجانب. وتطوعي بالكذب على البوليس، كل هذا كان نوعا من الصفات التي كانوا يرغبونها. وقد اكتشفت فيما بعد أن والد فرهاد كان يعمل مع المخابرات الأمريكية في إيران، وبالتالي فإن صداقتي مع فرهاد كانت نقطة فاصلة لصالحي.

بعد بضعة أسابيع من اختبارات وكالة الأمن القومي، قُبلت في الوظيفة وبدأت التمرين على فنون الجاسوسية، لأبدأ في ممارسة عملي بعد تخرجي في جامعة بوسطن بعد ذلك بعدة شهور. وعلي أية حال، قبل أن أقبل رسميا هذه الوظيفة، حضرت ندوة في جامعة بوسطن حاضر فيها مسئول تجنيد فيالق السلام Peace Corps [فيالق خدمة عامة]. وأهم ما يشجع على الانضمام لفيالق الخدمة العامة أنه يؤجل التجنيد الإجباري.

بدت مصادفة حضور هذه الندوة في حينها غير ذات أهمية، لكنها إحدي تلك المصادفات التي غيرت مجري حياتي. حدد المحاضر عددا من البلاد بحاجة ماسة إلى متطوعين. إحدى هذه البلاد، كانت منطقة غابات الأمازون، أوضح أن السكان الأصليين لازالو يعيشون كما عاش سكان أمريكا الشمالية الأصليين قبل مجيء الأوربيين.

طالما حلمت بالعيش مثل قبائل الأبناكي الذين كانوا يسكنون هامبشاير حين استقر أجدادي هناك. كنت اعرف أن ثمة دما آبناكيا يجري في عروقي. وأردت تعلم حكايات الغابات التي يعونها جيدا. بعد المحاضرة، اقتربت من المحاضر وسألته إن كان بإمكاني الخدمة في الأمازون. فأكد لي أن هناك حاجة كبيرة للمتطوعين في ذلك المكان، وأن فرصتي ممتازة. فاتصلت بالعم فرانك.

ولدهشتي، شجعني العم فرانك على الانضمام لفيالق السلام، وأسر لي أن الأمازون أصبحت منطقة جذب وخاصة بعد سقوط هانوي، وهو ما كان في ذلك الوقت معلومة مؤكدة لرجل في مثل موقعه. قال لي إنها منطقة وفيرة بالبترول، سنحتاج عملاء أكفاء؛ أشخاصا قادرين على فهم أهل البلاد. وأكد لي أن العمل مع فيالق السلام سيمدني بخلفية ممتازة للتدريب، وحثني على إتقان اللغة الإسبانية وبعض اللهجات المحلية. وضحك ضحكة خافتة وهو يكمل قائلا: «قد ينتهي بك المطاف بالعمل مع شركة خاصة بدلا من العمل مع الحكومة».

لم أفهم مغزى كلامه وقتها. فقد كانوا يعدونني للتحول من جاسوس إلى قرصان اقتصاد، على الرغم من أني لم أكن قد سمعت هذا التعبير من قبل، ولم أسمعه لمدة سنوات عديدة فيما بعد. لم يخطر ببالي أن هناك مئات من النساء والرجال منتشرون حول العالم يعملون لحساب شركات استشارية وغيرها من الشركات الخاصة، ورغم أنهم لا يتلقون مليما واحدا من أي وكالة حكومية، فإنهم يخدمون مصالح الإمبراطورية. ولم يخطر ببالي حينها أن هناك نمطا من هؤلاء الأشخاص يحملون ألقابا لطيفة سيصل تعدادهم لآلاف في نهاية القرن العشرين، وأنني سألعب دورا مؤثرا في توجيه هذا الجيش المتطرد.

وتقدمت بطلب وظيفة في فيالق السلام أنا وآن وطلبت أن أذهب إلى الأمازون. وعندما وصل خطاب القبول، شعرت في بادئ الأمر بخيبة أمل. فقد قالت الرسالة إننا سنرسل إلى الإكوادور.

قلت في نفسي: لا، لقد طلبت الأمازون، وليس أفريقيا. ذهبت إلى الأطلس لأفتش عن الإكوادور، وعندما لم أجدها في القارة الأفريقية. نظرت في الفهرس فوجدتها في أمريكا اللاتينية. ورأيت في الخريطة أن فروع النهر التي تنبع من القمم الثلجية لجبال الإنديز تكون الرافد الرئيس لنهر الأمازون العظيم.

وقد أكدت لي قراءات أخرى أن غابات الإكوادور كانت منذ الأزل من أجمل بقاع العالم، وأن السكان المحليين مازالوا يعيشون كما كانوا منذ قرون.

إذن فقد قُبلنا في فيالق السلام.

أكملنا، آن وأنا، تدريبات فيالق السلام في جنوب كاليفورنيا، واتجهنا إلى الإكوادور في سبتمبر عام ١٩٦٨، عشنا في الأمازون مع الأهالي ، الذين تشبه طريقة حياتهم حياة سكان أمريكا الشمالية

قبل دخول المستعمرين، وعملنا أيضا في جبال الإنديز مع سلالة الإنكا. كان مكانا في العالم لم أحلم أنه موجود. حتى ذلك الحين، كان أبناء أمريكا اللاتينية الوحيدون الذين عرفتهم هم الطلبة الأغنياء الذين درَّس لهم أبي في المدرسة الثانوية.

وجدت نفسي متعاطفا مع هؤلاء السكان الأصليين الذين يعيشون على الصيد والزراعة. شعرت بنوع من القرابة تجاههم، فهُم بشكل أو بآخر يذكرونني بأبناء بلدتي الفقراء.

ذات يوم هبطت طائرة في مهبط الطائرات الصغير في قريتنا، ونـزل منها رجل يرتدي ملابس رجال الأعمال، يدعي إينار جريف، وكان نائب رئيس في شركة شاس.ت. مين Chas.T. Main. شركة استشارات دولية، تحرص على ألا تلفت النظر لنشاطها، وكانت تعد دراسات لتقرر إذا ما كان مجديا للبنك الدولي أن يقرض الإكوادور وجيرانها مليارات الدولارات لبناء سدود هيدروكهربائية، وغيرها من مشاريع البنية التحتية أم لا.

كان إينار أيضا «كولونيل احتياطي» في الجيش الأمريكي American Army Reserve.

بدأ يتكلم معي عن فوائد العمل مع شركة مثل مين Main، وعندما قلت له إنني قبل عملي مع فيالق السلام كنت قبلت العمل في الـNSA، وأفكر الآن في العودة إليهم، قال لي إنه يعمل أحيانا كحلقة اتصال مع الـ NSA.

ونظر لي نظرة جعلتني أشك بأن جزءا من مهمته كان تقدير إمكانياتي. والآن، حين أفكر بالأمر أعتقد أنه كان يريد أن يعرف إلى أين وصلت، وكيف أصبحت، وبالتالي قدرتي على تحمل العيش في مجتمعات يجدها أكثر الأمريكيين الشماليين مجتمعات عدائية.

قضينا حوالي يومين في الإكوادور، وبعد ذلك أصبحنا نتراسل، وطلب مني أن أرسل له تقارير تقويم اقتصادي للإكوادور. كان عندي آلة كاتبة صغيرة، وكنت أحب الكتابة، فسعدت بتلبية هذا الطلب، وفي خلال سنة أرسلت لإينار خمس عشرة رسالة على الأقل. احتوت هذه الرسائل تحليلا مستقبليا للتطور السياسي والاقتصادي للإكوادور. وقدرت مدى الإحباطات التي تنمو داخل المجتمعات المحلية، وهم يكافحون لمواجهة شركات البترول، ووكالات التنمية الدولية، والمحاولات الأخرى لتحديثهم.

عندما انتهت مهمتي مع فيالق السلام، دعاني إينار إلى مقابلة في مكاتب مين Main ببوسطن. وخلال لقائنا الخاص ركز إينار على أن العمل الرئيس لـ مين، هو الأعمال الهندسية، لكن عميلهم الأكبر، وهو البنك الدولي World Bank قد بدأ يصر على أن يكون ضمن العاملين رجال اقتصاد، ليقدموا توقعات اقتصادية ممكن استخدامها في تقويم الإمكانيات، وحجم المشروعات الهندسية.

وقد أسر لي أنه قد استخدم ثلاثة اقتصاديين، ذوي مؤهلات عالية، شهادات خبرة لا غبار عليها، اثنان بدرجة ماجستير، وواحد بدرجة دكتوراه، ومع ذلك فشلوا في مهمتهم.

قال إينار: «لم يستطع أي منهم أن يتعامل مع فكرة إعطاء توقعات اقتصادية في بلاد ليس فيها إحصائيات من الممكن الاعتماد عليها».

واستطرد قائلا إنه بجانب هذا، فإنهم جميعا وجدوا صعوبة في تنفيذ بنود عقودهم، التي كانت تتطلب منهم السفر إلى أماكن بعيدة في بلاد مثل الإكوادور، إندونيسيا، إيران ومصر، لمقابلة قيادات محلية، وإعداد تقويم شخصي عن النمو الاقتصادي في تلك المناطق. لقد أصيب أحد هؤلاء الاقتصاديين الثلاثة بانهيار عصبي في قرية نائية في بنما، وقد رافقه البوليس البنمي إلى المطار ليضعه في طائرة تعيده إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

«إن الرسائل التي أرسلتها تدل على أنك لا ترفض أن تقحم نفسك في قلب الأحداث لترى الأمور حتى لو لم تكن المعلومات متوافرة بما يكفي. وعندما أرى ظروف معيشتك في الإكوادور، أتاكد أنك تستطيع أن تعيش في أي مكان». وقال لي إنه طرد واحدا من هؤلاء الاقتصاديين الثلاثة وأنه على استعداد لطرد الاثنين الآخرين، لو قبلت أنا الوظيفة. وهكذا فإن وظيفة اقتصادي في مين MAIN عرضت علي في يناير عام ١٩٧١. حيث كنت يومها في السادسة والعشرين من عمري - العمر الذهبي - حيث لم أعد مطلوبا للتجنيد.

استشرت عائلة آن، فشجعوني على قبول الوظيفة، وأعتقد أن هذا أيضا كان اتجاه العم فرانك، وتذكرت عندما قال لي إن الأمر قد ينتهي بي إلى العمل في شركة خاصة.

لم يكن هناك أي شيء واضح، لكنني لم أشك لحظة في أن توظيفي في مين MAIN، كان نتيجة ترتيبات العم فرانك منذ ثلاث سنوات، هذا بجانب تجاربي في الإكوادور، ورغبتي في الكتابة عن الأوضاع الاقتصادية والسياسية للبلاد. ولأسابيع عديدة انتابني إحساس بالغرور، فقد حصلت فقط على درجة البكالوريوس من جامعة بوسطن، التي لم يكن من الممكن أن تضمن منصب رجل اقتصاد في شركة بهذه الأهمية. كنت على يقين بأن كثيرا من زملائي الذين لم يجندوا، وذهبوا ليحصلوا على درجات علمية أفضل، سيشعرون بالغيرة، وتصورت نفسي كعميل سري خطير، يذهب إلى بلاد غريبة، ويتمدد بجانب أحواض سباحة بالفنادق الضخمة، محاطا بنساء جميلات يرتدين البيكيني، وبأيديهن كئوس المارتيني.

ومع أن هذا كان خيالا، فقد اكتشفت فيما بعد أنه كان يحوي شيئا من الواقع.

لقد تعاقد معي إينار بصفتي اقتصاديا، لكنني علمت فيما بعد أن وظيفتي كانت أبعد من ذلك، وأنها أقرب مما كنت أظن لمهمة جيمس بوند.

الفصل الثاني
معا حتى النهاية

بلغة قانونية، فإنه يمكن أن تسمي مين MAIN شركة ذات ملكية مغلقة (closely held corporation). وبالتقريب فإن ٥٪ من موظفيها الألفين، يملكون الشركة، وكان هؤلاء يسمون شركاء، أو زملاء. ومكانتهم كانت مطمعا للجميع، إذ لم تكن لهم سلطة التحكم في الجميع فقط، وإنما كانوا هم الذين يصنعون الثروات الكبيرة.

كان التكتم صفتهم المميزة، فقد كانوا يتعاملون مع رؤساء دول، وغيرهم من الموظفين الكبار الذين يتوقعون من مستشاريهم، كما يتوقعون من محاميهم وأطبائهم النفسيين أن يلتزموا بقانون الكتمان.

كان الكلام مع الصحافة ممنوعا. لم يكن مسموحا به، وبالتالي لم يكن أحد خارج نطاق شركة MAIN يسمع بنا. مع أن الكثيرين كانوا يعرفون أشياء كثيرة عن منافسينا. مثل آرثر د. ليتل، ستون وبستر، براون وروت، وهوليبرتون وبكتل Arthur D. Little, Stone & Webster, Brown & Root, Halliburton, and Bechtel..

وأستعمل هنا كلمة منافسين بشكل موسع، لأن شركة MAIN كانت في ملعب وحدها، فأغلب موظفينا المهنيين كانوا مهندسين، ومع ذلك فإننا لم نملك أي معدات، ولم نبن حتى حظيرة للتخزين، كان أغلب الذين في شركة MAIN عسكريين سابقين، ومع ذلك فلم نتعاقد مع وزارة الدفاع (department of defense)، أو نقدم أي خدمات عسكرية. كانت طريقة عملنا شيئا مختلفا عن المألوف، بحيث إنني خلال الأشهر الأولى لي في العمل لم أكن أعرف ماذا نفعل، علمت فقط أن أول مهمة لي ستكون في إندونيسيا، وسأكون جزءا من فريق مكون من أحد عشر رجلا، سيضعون خطة شاملة للطاقة في جزيرة جاوة.

وقد علمت أن إينار والآخرين الذين ناقشوا معي متطلبات وظيفتي، كانوا يتوقون إلى إقناعي بأن اقتصاد جزيرة جاوة سوف يزدهر، وأنني لو أردت أن أبرز نفسي كمحلل اقتصادي جيد (وبالتالي أرشح للترقية) فعليّ أن أقدم تصورا يمثل هذا التوقع. كان إينار يحب أن يقول: «من واقع الخريطة»، وكان يحوم بأصابعه في الهواء، ثم يدفعها نحو رأسه «اقتصاد يحلق كالطائر».

كان إينار يسافر في رحلات تستغرق يومين أو ثلاثة فقط، لم يكن أحد يتكلم عنها، أو يبدو أن لا أحد كان يعلم إلى أين يذهب. وعندما يكون في مكتبه يدعوني للجلوس معه واحتساء القهوة. كان يسأل عن آن، وعن شقتنا الجديدة، والقطة التي جلبناها معنا من الإكوادور. وقد أصبحت أكثر جرأة بعدما عرفته أكثر، وحاولت أن أعرف أشياء عنه، وعن الأمور المطلوبة مني في وظيفتي، لكنني لم أتلق إجابات مرضية، كان بارعا في المراوغة.

ذات مرة، في مناسبة من هذه المناسبات، نظر إليّ نظرة غريبة، وقال: «لا داعي للقلق فإننا نعقد عليك أمالا كبيرة، لقد كنت في واشنطن منذ أمد قريب...» واسترسل في الكلام «على كل حال، أنت تعلم أن لدينا مشروعا كبيرا في الكويت، ومازال لديك وقت قبل أن تسافر إلى إندونيسيا، وأعتقد أنه من المفيد أن تستغل بعض وقتك بالقراءة عن الكويت. في مكتبة بوسطن العامة كثير من المصادر، ويمكننا أن نهيء لك استعمال مكتبات معهد ماستشويس للتكنولوجيا وجامعة هارفارد».

قضيت بعدها أوقاتا طويلة في تلك المكتبات، وخاصة في مكتبة بوسطن العامة، التي كانت قريبة من مكتبي، ومن شقتي الواقعة في باك باي Back Bay ببوسطن. مما جعلني على معرفة بأحوال الكويت، وبكتب كثيرة عن الإحصائيات الاقتصادية التي تنشرها الأمم المتحدة، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، كنت أعلم أنهم ينتظرون مني أن أقدم نموذج اقتصاد قياسي لإندونيسيا، وجاوة، وقررت أن أبدأ بعمل نموذج للكويت.

لكن الشهادة الجامعية التي حصلت عليها لم تكن تؤهلني لأن أكون محلل اقتصاد قياسي ولذلك قضيت وقتا طويلا محاولا إتقان دراسة هذا الموضوع.

ووصلت إلى حد أنني سجلت نفسي لدراسة مادتين في هذا التخصص، وفي أثناء ذلك اكتشفت أن الإحصاءات يمكن أن تستغل لاستخراج مصفوفات متعددة من النتائج من بينها ما قد يثبت بالحجة ميول المحلل.

كانت مين MAIN شركة ذكورية، ففي عام ١٩٧١ كان هناك أربع نساء فقط في الوظائف الفنية، لكن في المقابل كان هناك مئتا امرأة موزعات بين أقسام السكرتارية الخاصة، حيث كان لكل نائب رئيس ومدير فرع سكرتيرة، والسكرتارية العامة كانت تخدم الجميع. وصرت معتادا على هذه التفرقة بين الرجل والمرأة في مناصب الشركة، بحيث إنني ذهلت يوما بما حدث في قسم المراجع بمكتبة بوسطن. حين جاءت سمراء جذابة، وجلست على كرسي حول الطاولة. بدت أنيقة وزاهية في تايير العمل الأخضر الداكن، واستنتجت أنها أكبر مني ببضع سنوات، لكنني تفاديت النظر إليها وحاولت ألا أبدي اهتماما. وبعد دقائق، ودون كلمة، مررت نحوي كتابا مفتوحا، وكان يحتوي على جدول معلومات كنت أبحث عنها تخص الكويت. وقدمت لي بطاقة باسمها «كلودين مارتن» ووظيفتها «مستشار خاص لشركة شاس.ت.مين». ونظرت إلى عينيها الخضراوين، فمدت لي يدها.

قالت لي «لقد كلفت أن أساعد في تدريبك». لم أكن لأصدق أن هذا يحدث لي.

وبدأنا في اليوم التالي، التقينا بشقة كلودين الكائنة في شارع بيكون، بعيدا عن مكاتب شركة مين بعدة مبان. وفي أول ساعة من اللقاء، شرحت لي أن مركزي الوظيفي حساس، وأن علينا أن نبقي كل شيء سريا للغاية. أخبرتني أنه لم يحدد لي أحد وظيفتي تحديدا دقيقا لأنه ليس مسموحا لأحد أن يفعل ذلك سواها. ثم أعلمتني أن مهمتها هي تدريبي على أن أكون قرصان اقتصاد Economic Hit Man.

أيقظ داخلي ذلك الاسم تحديدا حلمي القديم بالتآمر والجاسوسية. أدهشتني الضحكة التي انطلقت مني. ابتسمت كلودين وأكدت لي أن من أسباب استخدامهم لذلك التعبير إشاعة روح المرح.

ثم سألتني: «أليس هذا أفضل من أخذ الأمور بجدية وتجهم؟».

اعترفت لها بجهلي بدور القرصان الاقتصادي.

ضحكت وقالت: «لست وحدك. نحن نوع خاص من البشر، نعمل في مجال قذر. لا يمكن لأحد أن يعرف بانغماسك في هذا الشأن، حتى زوجتك».

ثم تحولت للجد: «سأكون صريحة معك، وسأعلمك كل ما أستطيعه خلال الأسابيع القادمة. وهنا عليك أن تختار. لكن اختيارك سيكون نهائيا. لأنك إذا دخلت فقد دخلت للأبد».

بعد ذلك نادرا ما كانت تستخدم كامل التعبير ولكن كانت تستخدم الحروف الأولى EHM. لقد كنا ببساطة قراصنة اقتصاد EHM.

وقد عرفت الآن ما لم أكن أعرفه في حينه. إن كلودين قد استغلت نقاط ضعفي التي استنتجتها من التقرير الذي وصلها من الـ NSA. ولا أعرف بالتحديد من الذي زودها بالمعلومات. هل هو إينار، أم NSA، أم شئون العاملين في MAIN، أم غيرهم. كل ما أعرفه أنها استخدمته بمهارة.

كانت مناورتها للسيطرة على خليطا من الإغراء الجسدي، والتلاعب اللفظي، الذي أعد خصيصا من أجلي، لكنه يتجانس أيضا مع الإجراءات القياسية الفعالة التي رأيتها فيما بعد تستخدم في أعمال كثيرة عندما يكون الرهان بصدد صفقات كبيرة، والضغط من أجل إنهائها على أشده.

كانت تعلم منذ البداية أنني لن أغامر بزواجي فأفشي نشاطاتنا السرية. وكانت شديدة القسوة في وصفها الجانب المظلم للأشياء التي يتوقعونها مني. لم تكن لدي فكرة عمن يدفع لها راتبها، ولو أنه لم يكن لدي أية سبب للشك في أن شركة MAIN هي من يدفعه، كما تشير بطاقتها، كنت ساذجا وفزعا ومبهورا، بحيث لم تخطر ببالي هذه الأسئلة التي أراها الآن واضحة، وعادية.

أخبرتني كلودين أن هناك هدفين أساسين لعملي، الأول: اختلاق مبررات للقروض الدولية

الكبيرة التي ستعيد ضخ المال إلى MAIN، وشركات أمريكية أخرى مثل Beachtel Halliburton ,
Stone &Webster and Brown &Root من خلال مشروعات هندسية وإنشائية ضخمة.

الثاني: العمل على إفلاس تلك البلاد التي أخذت تلك القروض (بعد أن تكون قد سددت ديونها لشركة MAIN ولسائر المتعاقدين الأمريكيين، طبعا) بحيث تبقى هذه البلاد مدينة لمدينيها إلى الأبد، وتصبح أهدافا سهلة عندما تدعو الحاجة إلى خدمات تشمل إنشاء قواعد عسكرية، أو تصويت في الأمم المتحدة، أو اتخاذها منفذا إلى البترول، والموارد الطبيعية الأخرى.

فوظيفتي كما قالت، هي التنبؤ بالتأثيرات التي يحدثها توظيف مليارات الدولارات في بلد ما، وعلي وجه التحديد أن أقدم دراسات مستقبلية تستعرض النمو الاقتصادي على مدى عشرين إلى خمسة وعشرين عاما، ثم تقويم مدى تأثير المشروعات المختلفة على هذا النمو الاقتصادي.

على سبيل المثال، إذا اتخذ قرار بإقراض بلد ما - مليار دولار - لإقناع قادته بعدم التعاون مع الاتحاد السوفيتي، فعلي أن أقارن بين مزايا استثمار هذه الأموال في محطات كهرباء، واستثمارها في بناء شبكات طرق سكك حديدية، أو في نظم اتصالات. وأحيانا يخطرونني أن هذا البلد مقدم لها عرض لشراء نظم حديثة لتوليد الكهرباء، وعليه فإنه يقع على عاتقي أن أبرهن على أن هذا النظام سينتج نموا اقتصاديا يبرر حجم الاقتراض.

وفي كل الحالات فإن العامل الحاكم هنا هو الناتج الإجمالي القومي (GNP) ويفوز المشروع الذي ينتج أعلى معدل نمو سنوي للـ GNP.

ولو كان هناك مشروع واحد فقط، فعلي أن أبرهن على أن تنفيذه سيأتي بزيادة هائلة في معدل الـGNP.

العنصر الخفي في كل هذه المشروعات، هو أنها صممت من أجل خلق أرباح طائلة لشركات المقاولات، ولإضفاء السعادة على حفنة من العائلات الغنية ذات النفوذ في البلاد المتلقية للقروض. بينما ترسخ هذه المشروعات للتبعية الاقتصادية، وبالتالي الولاء السياسي من هذه الحكومات في جميع أنحاء العالم. وكلما ازدادت قيمة القرض، كان أفضل.

والحقيقة التي لا تؤخذ في الحسبان، أن عبء خدمة قرض كهذا سيحرم الفقراء في هذه البلاد من الخدمات الصحية والتعليمية وخدمات اجتماعية أخرى على مدى عقود كثيرة قادمة.

وقد ناقشت مع كلودين بصراحة، طبيعة الـ GNP الخادعة، مثلا فإن نمو GNP قد يتحقق حتى لو صب في مصلحة شخص واحد فقط، فرد يمتلك شركة مرافق حتى لو كانت أغلبية السكان تقع تحت عبء الديون، فالأغنياء يزدادون ثراء، والفقراء يزدادون فقرا، ولكن من الناحية الإحصائية، فإن هذا الوضع يسجل كنمو اقتصادي.

وككل مواطني الولايات المتحدة فإن أغلب موظفي MAIN يؤمنون أننا نمن على البلاد الأخرى عندما نبني فيها محطات توليد طاقة كهربية وطرقا وموانئ. فقد علمتنا مدارسنا أن ننظر إلى كل أفعالنا على أنها إيثار للآخر. ولسنين طويلة كنت أسمع تعليقات من مثل «لو كانوا سيحرقون العلم الأمريكي، ويتظاهرون ضد سفاراتنا، لماذا لا نخرج من بلدهم اللعينة، ونتركهم يتمرغون في بؤسهم؟».

والذين يطلقون تلك التعليقات يحملون شهادات علمية، ولا يدركون أننا ننشئ سفارات حول العالم لخدمة مصالحنا، والتي أصبحت تعني في النصف الثاني للقرن العشرين تحويل الجمهورية الأمريكية إلى إمبراطورية عالمية. ورغم الشهادات التي يحملونها فإنهم لم يتعلموا، وهم على الدرجة نفسها من الجهل التي كان عليها المستعمرون الأوائل في بدايات القرن الثامن عشر، والذين آمنوا أن الهنود الذين كانوا يدافعون عن أرضهم هم خدام الشيطان.

بعد بضعة أشهر، سأذهب إلى جزيرة جاوة في إندونيسيا التي يصفونها بأنها أكثر المناطق اكتظاظا بالسكان على وجه الأرض. وتصادف أن تكون إندونيسيا بلدا إسلاميا غنيا بالبترول ومرتعا للنشاط الشيوعي.

«إنها قطعة الدومينو التالية لفيتنام» هكذا وصفتها كلودين.

«يجب أن نكسب الإندونيسيين، إذ إنهم لو انضموا للكتلة الشيوعية... حسنا...» ومرت بأصابعها على رقبتها ثم ابتسمت «دعنا نقُل إنك بحاجة لإعداد توقعات اقتصادية متفائلة، وكيف ستنمو وتزدهر بعد أن تبني كل محطات توليد الكهرباء، وخطوط التوزيع. فهذا سيبرر لهيئة المعونة الأمريكية USAID، والبنوك الدولية القروض التي تمنحها، وستكافأ مكافأة جيدة طبعا، ثم يكون باستطاعتك الانتقال إلى مشروعات أخرى في أماكن ساحرة حول العالم الذي سيغدو شراؤه في متناولك».

استطردت لتنذرني أن عملي سيكون صعبا. «سيلاحقك خبراء البنوك. فإن مهمتهم هي خرق ثقوب في توقعاتك. هذه هي مهنتهم، وهذا ما يتقاضون عليه رواتبهم، أن يظهروك بمظهر سيئ، وأن يظهروا هم بمظهر جيد».

ذات يوم ذكرت لي كلودين إن فريق شركة MAIN الذي أرسل إلى جاوة يشمل عشرة أشخاص غيري. وسألت إذا كان جميعهم يتلقون النوع نفسه من التدريب الذي تلقيته. فأكدت لي أنهم لم يتلقوا مثل هذا التدريب. «إنهم مهندسون، يصممون محطات الكهرباء، وخطوط النقل والتوزيع، والموانئ البحرية، وطرقا لتوصيل الوقود. أنت من تتنبأ بالمستقبل، فتوقعاتك هي التي تقرر حجم الأنظمة التي سيصممونها، وحجم القروض. كما ترى، فأنت مفتاح العمل كله».

في كل مرة كنت أغادر فيها شقة كلودين، كنت أتساءل هل أنا على صواب فيما أفعله؟ فشيء ما داخلي جعلني أشك في ذلك. لكن إخفاقات الماضي كانت تطاردني وكان يبدو لي أن شركة MAIN تعطيني كل ما ينقصني في حياتي، لكنني كنت أعود وأسأل نفسي هل كان توم بين Tom Pain سيوافق على ما أفعله؟

وفي النهاية أقنعت نفسي أنني عندما أزداد علما بالأشياء، وأمر بتجارب أكثر، فسأستطيع فضحها فيما بعد بشكل أفضل من التبرير التقليدي الذي نلجأ له، «التغيير من الداخل».

وعندما بحت بأفكاري لكلودين، نظرت إلى نظرة مرتبكة، وقالت: «لا تكن سخيفا فإنك عندما تدخل، فلن تستطيع الخروج، ويجب أن تتخذ قرارك قبل أن تتورط أكثر». فهمت ما قالته، وقد أرعبني. وبعد أن ذهبت، تجولت في شارع كومونويلث، واتجهت نحو شارع دارتموث، وأقنعت نفسي أنني الاستثناء في هذه المهمة.

بعد عدة شهور، جلست أنا وكلودين عصرا على نافذة نراقب الثلج يتساقط فوق شارع بيكون، وقالت لي: «نحن ناد صغير خاص، ونتقاضى أجورا كبيرة لنخدع بلادا كثيرة في أنحاء العالم، وننهب منها مليارات الدولارات. وجزء كبير من مهمتك هو إقناع قادة العالم بأن يصبحوا جزءا من شبكة واسعة تروج لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية التجارية، وفي النهاية فإن هؤلاء القادة سيصبحون مكبلين بسلسلة من الديون تضمن ولاءهم، فنستطيع أن نطلب منهم ما نريد، ومتى نريد، من أجل إشباع حاجاتنا السياسية والاقتصادية والعسكرية، وبالمقابل فإن هؤلاء القادة سيدعمون مكانتهم السياسية بأن يوفروا لشعوبهم المنشآت الصناعية، ومصانع الطاقة، والمطارات. في الوقت نفسه يصبح أصحاب شركات البناء والهندسة الأمريكيين، أكثر ثراء».

في تلك الأمسية، وفي منزل كلودين المتناسق، ونحن جالسان بهدوء أمام النافذة بينما الثلوج تتساقط في الخارج، تعلمت تاريخ المهنة التي كنت على وشك الدخول فيها. شرحت كلودين كيف نرى من خلال التاريخ، أن الإمبراطوريات كانت تبني على القوة العسكرية، أو على التهديد بها. ولكن في نهاية الحرب العالمية الثانية، وظهور الاتحاد السوفيتي وشبح المحرقة الذرية، أصبحت الحلول العسكرية تنذر بخطر فادح.

وقد حانت ساعة اتخاذ القرار في عام ١٩٥١، عندما تمردت إيران على شركة بترول بريطانية كانت تستغل موارد إيران الطبيعية وشعبها. كانت تلك الشركة أهم شركات مؤسسة برتش بتروليم British Petroleum التي تدعي اليوم B.P.، وردا على هذا الاستغلال، أعلن رئيس الوزراء الإيراني المحبوب جماهيريا، والمنتخب ديمقراطيا (ورجل مجلة تايم لعام ١٩٥١) محمد مصدق - تأميم أصول البترول الإيراني، وجن جنون بريطانيا، ولجأت للولايات المتحدة حليفتها في الحرب العالمية

الثانية لمساعدتها، لكن الدولتين تخوفتا من اللجوء للحل العسكري، لأن هذا سيستفز الاتحاد السوفيتي ويجعله يتخذ موقفا مساندا لإيران.

وبدلا من إرسال البحرية الأمريكية (المارينز)، أرسل على وجه السرعة عميل المخابرات المركزية الأمريكية «كيرميت روزفلت» Kermit Roosevelt حفيد «تيودور روزفلت».

وقد أدى دوره بمهارة شديدة، واستطاع أن يكسب الناس بالرشاوى والتهديدات، ثم حرضهم على تنظيم أعمال شغب في الشوارع، والسير في مظاهرات عنيفة، أدت إلى خلق انطباع بأن مصدق ليس رجلا محبوبا، وغير كفء. وفي النهاية سقط مصدق، وأمضى بقية حياته في الإقامة الجبرية. وأصبح صديق أمريكا الشاه محمد رضا الديكتاتور الذي لا يقاوم.

لقد وضع روزفلت حجر الأساس لمهنة جديدة، هي تلك المهنة التي سأدخلها[1]، لقد أعاد روزفلت تشكيل تاريخ الشرق الأوسط عندما أذاب جميع الإستراتيجيات العتيقة المتبعة في بناء الإمبراطوريات. وقد تزامن هذا مع بداية استخدام استراتيجة «الحرب المحدودة» التي نتج عنها إذلال أمريكا في كوريا وفيتنام.

وفي عام ١٩٦٨، العام الذي أجريت فيه المقابلة لشغل وظيفتي مع NSA، أصبح من الواضح، أن على الولايات المتحدة - لو كانت تنوي تحقيق حلمها في إمبراطورية عالمية كما تخيلها رؤساء مثل جونسون ونيكسون - أن تلجأ لطرق مستوحاة من مثال روزفلت في إيران.

وكان هذا هو الطريق الوحيد لقهر السوفيت دون اللجوء لحرب نووية.

كان هناك مشكلة واحدة. كان كيرميت روزفلت موظفا في المخابرات المركزية الأمريكية CIA. فلو ألقي القبض عليه لكانت النتائج مروعة. لقد نظم أول عملية أمريكية أسقطت نظام حكومة أجنبية، وكانت هناك إمكانية أن يتبع هذا النظام نظم أخرى، لكنه كان من الضروري إيجاد طريقة للدخول في الموضوع دون الإشارة إلى واشنطن. ولحسن حظ المخططين فإن عام ١٩٦٠ قد شهد شكلا آخر من الثورة تمثل في تقوية الشركات الدولية والمؤسسات متعددة الجنسيات، مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. وكان الأخير مموَّلا مبدئيا من الولايات المتحدة وحلفائها الأوربيين. ونمت علاقة تكافلية بين الحكومات والشركات والمؤسسات متعددة الجنسيات.

وفي الوقت الذي انتظمت فيه بمدرسة إدارة الأعمال بجامعة بوسطن، كان هناك حل للمشكلة التي كانت قد واجهت روزفلت إذا انكشف أمر عميل للمخابرات المركزية الأمريكية.

فإن وكالات الاستخبارات الأمريكية، بما فيها NSA ستحدد مواصفات شخصية الـEHM المحتمل، وعندئذ يمكنهم توظيفه لدى الشركات الدولية. هذا الـ EHM لن يتسلم مرتبه من الحكومة، لكنه يتقاضاه من القطاع الخاص. ونتيجة ذلك، فعندما ينكشف أمره فلن تكون مشكلة

سياسة دولة، وإنما ستبدو كأنها صراع بين شركات. بالإضافة إلى أن الشركات التي وظفته، رغم أنها مدعومة من الوكالات الحكومية وأشقائها البنوك المتعددة الجنسيات (بأموال دافعي الضرائب) فإنها بعيدة عن مسائلة الكونجرس ومراقبة الشعب، ومحاطة بمستويا حماية قانونية متعددة، مثل قوانين حماية التجارة الدولية، وحماية العلامة التجارية، وقوانين حرية المعلومات[٢].

أتمت كلودين كلامها قائلة: «وهكذا ترى أننا الجيل التالي لتقاليد عظيمة، بدأت عندما كنت أنت في السنة الأولى الابتدائية».

الفصل الثالث

إندونيسيا: دروس لقرصان الاقتصاد

بالإضافة لانكبابي على التحصيل واستيعاب مهنتي الجديدة، قضيت كذلك الكثير من الوقت في قراءة كتب عن إندونيسيا. فقد نصحتني كلودين قائلة: «كلما ازددت معرفة بالبلد الذي ستعمل فيه قبل ذهابك إليه - ازداد عملك هناك سهولة» وقد اخذت كلامها بجدية.

أبحر كولومبوس في عام ١٤٩٢ يحاول الوصول إلى إندونيسيا، وكانت تعرف في ذلك الوقت بجزر التوابل. وكانت تعد خلال فترة الاستعمار بمثابة كنز أثمن من الأمريكتين. كانت جزيرة جاوة بأقمشتها القشيبة وتوابلها الأسطورية وممالكها الثرية لا تمثل جوهرة التاج فحسب بل أيضا بؤرة الصدام العنيف بين المغامرين الأسبان والهولنديين والبرتغاليين والبريطانيين.

خرجت هولندا منتصرة في عام ١٧٥٠. لكن رغم سيطرة الهولنديين على جزيرة جاوة فقد تطلب منهم الأمر ما يربو على ١٥٠ عاما حتى تمكنوا من إخضاع الجزر النائية.

عندما غزا اليابانيون إندونيسيا في الحرب العالمية الثانية لم تبد القوات الهولندية الكثير من المقاومة. ونتيجة لذلك عاني الإندونيسيون بشدة، وخاصة سكان جزيرة جاوة. على أثر استسلام اليابانيين ظهر على أرض الواقع قائد ذو شخصية ساحرة يدعي سوكارنو وأعلن الاستقلال. انقضت أربعة أعوام في القتال الذي انتهي تماما في ٢٧ ديسمبر ١٩٤٩ حين أزال الهولنديون علم بلادهم وأعادوا السلطة لشعب لم يعرف على مدى قرون ثلاثة شيئا سوى المعاناة والقهر. وأصبح سوكارنو أول رئيس لهذه الجمهورية الجديدة.

أثبتت الأيام أن حكم إندونيسيا أصعب بكثير من مقاومة الهولنديين. كان هناك ما يقرب من ١٧,٥٠٠ جزيرة غير متجانسة مثل قدور تغلي بالعصبية القبلية والثقافات المختلفة وعشرات اللغات واللهجات المحلية والمجموعات العرقية التي انطوت علاقتها ببعضها البعض على مدى قرون على العداء الشديد. كان الصراع مستديما ووحشيا واستطاع سوكارنو تهدئة الأمور. في عام ١٩٦٠ أوقف عمل البرلمان وفي عام ١٩٦٣ أطلق على نفسه رئيس الدولة مدى الحياة. أنشأ أحلافا

مرتبطة بالحكومات الشيوعية في كل أنحاء العالم مقابل تجهيز الجيش وتدريبه. أرسل إلى ماليزيا قوات عسكرية إندونيسية مجهزة بأسلحة روسية في محاولة لنشر الشيوعية في منطقة جنوب شرق آسيا، ولاقى في ذلك استحسانا من قادة الدول الاشتراكية.

في عام ١٩٦٥ أرسيت قواعد المعارضة، واندلع انقلاب، نجا سوكارنو من الاغتيال فقط بفضل سرعة بديهة عشيقته. كثير من قادة جيشه وضباطه وحلفائه المقربين كانوا أقل حظا. وكانت تلك الأحداث تثير ذكريات الأحداث المشابهة في إيران في عام ١٩٥٣. في النهاية كان الحزب الشيوعي هو المسئول عما آلت إليه الأمور، وخاصة أولئك المنشقون الذين تحالفوا مع الصين. قدر عدد ضحايا المجازر التي أشعل الجيش شرارتها بما بين ثلاثمائة إلى خمسمائة ألف قتيل. واعتلى القائد الأعلى للقوات المسلحة الجنرال سوهارتو منصب رئيس الدولة في عام ١٩٦٨.

في عام ١٩٧١ اشتد عزم الولايات المتحدة الأمريكية على استمالة إندونيسيا لإبعادها عن الكتلة الشيوعية. حيث إن نتائج الحرب الفيتنامية لم تكن قد حسمت بعد. بدأ الرئيس نيكسون سلسلة من سحب القوات في صيف عام ١٩٦٩، وبدأت استراتيجية أمريكا في نهج منظور أكثر عالمية. ركزت تلك الاستراتيجية على منع سقوط بلد تلو الآخر في براثن الحكم الشيوعي، وقد ركزت على بلدين، كانت إندونيسيا أكثرهما أهمية بحكم موقعها في تلك المنطقة. وكان مشروع الكهرباء الخاص بشركة «مين» جزءا من خطة شاملة لتأكيد السيطرة الأمريكية في جنوب شرق آسيا.كانت اقتراحات السياسة الخارجية للولايات المتحدة أن يخدم سوهارتو مصالح واشنطن بنفس طريقة شاه إيران. أملت الولايات المتحدة أيضا أن يقوم شعب إندونيسيا بأداء يؤخذ بعين الاعتبار من البلاد الأخرى في المنطقة وكنموذج يحتذي به.

أسست واشنطن جزءا من استراتيجيتها على فرضية أن ذلك الفوز في إندونيسيا قد يحدث أثرا إيجابيا في أرجاء العالم الإسلامي، خاصة في الشرق الأوسط الملتهب. وإن لم يكن هذا الباعث كافيا فإن إندونيسيا لديها بترول. لم يكن هناك من يثق تماما في مقدار أو جودة مخزونها. لكن علماء الجيولوجيا الذين يعملون في شركات البترول كانوا مفعمين بالحماس حول الإمكانيات المحتملة.

ازددت إثارة وأنا أستغرق في قراءة كتب في مكتبة بوسطن العامة بدأت أتخيل المغامرات التي تنتظرني في الأيام المقبلة.

وبدأت توديع نمط الحياة الشاق كمتطوع في فيالق السلام وأستقبل حياة أكثر رغدا ورفاهية كموظف في شركة مين. بل إن الوقت الذي قضيته مع كلودين مثّل في حد ذاته حلما من أحلامي، بدا الأمر أكثر روعة من أن يصدق، واجتاحني شعور عميق بالراحة كطالب قضي عمره في مدرسة داخلية وتحرر أخيرا منها. وهناك أمر آخر كان يحدث في حياتي: لم نعد أنا وآن على وفاق معا. ظننت أنها ربما شعرت أنني أعيش حياتين مختلفتين. بررت الأمر معتبرا إياه نتيجة منطقية لاستيائي في المقام

الأول من دفعها لي للزواج منها. ولم أعبأ كثيرا بأنها رعتني ودعمتني في التحديات التي مررنا بها في مهمتنا في فيالق السلام في الإكوادور، فمازلت أراها استمرارا لنموذج خضوعي لنـزوات والدي. بالطبع عندما أعود للوراء وأتأملها أتأكد أن علاقتي بكلودين كانت عاملا أساسيا في ذلك. لم أستطع أن أخبر آن بذلك، لكنها شعرت به. على أية حال قررنا أن يعيش كل منا في شقة منفصلة.

ذات يوم في عام ١٩٧١، قبل حوالي أسبوع من رحيلي إلى إندونيسيا حسب التاريخ المحدد، وصلت إلى شقة كلودين فوجدت مائدة الطعام الصغيرة مصطفة بكمية من الجبن والخبز وزجاجة نبيذ «بوجوليه» الذي يصنع في مدينة بوجوليه في فرنسا، رفعت كلودين كأسها وشربت نخبي.

ثم ابتسمت وقالت: «لقد فعلتها»، لكنها بدت لي غير صادقة إلى حد ما وهي تكمل قائلة: «أنت الآن واحد منّا».

ظللنا نثرثر في موضوعات مختلفة لمدة نصف ساعة أو ما يقرب، وعندما أوشكنا على نهاية الزجاجة، حدجتني بنظرة لم أرها في عينيها من قبل. وقالت في صوت صارم: «لا تخبر أي شخص عن لقائنا هذا إطلاقا. لن أغفر لك أبدا لو فعلت، وسأنكر أنني التقيت بك بالمرة». حملقت في. ربما تكون تلك هي المرة الوحيدة التي شعرت أنها تهددني. ثم ضحكت ضحكة باردة وأكملت قائلة: «الكلام عن علاقتنا قد يجعل حياتك في خطر».

كنت مصعوقا وشعرت بالرعب. لكن فيما بعد في أثناء سيري عائدا إلى المبنى الرئيسي لشركة «مين»، سلمت بمهارة الخطة. فحقيقة الأمر أن كل الأوقات التي قضيناها معا، قضيناها في شقتها. لم يكن هناك دليل على علاقتنا، ولا يوجد أي شخص من موظفي شركة «مين» متورط في هذه العلاقة بأي شكل من الأشكال. أيضا هناك جزء مني كان يقدر أمانتها، فهي لم تخدعني بالطريقة التي خدعت بها والدي بشأن التحاقي بمدرسة تلتون Tilton أو ميدليبري Middlebury.

الفصل الرابع
حماية بلد من الشيوعية

كانت مخيلتي تموج بصور رومانسية عن إندونيسيا، ذلك البلد الذي سأعيش فيه الشهور الثلاثة المقبلة. بعض الكتب التي قرأتها شاهدت فيها صورا لنساء جميلات يرتدين «سارنج»(*) ملونا بألوان فاقعة، وصور راقصات عاريات من بالي وكذلك صورا لشامانات(**) ينفخون في النار، وصورا لمحاربين يجدفون في زوارق الكانو الطويلة الضيقة المصنوعة من جذوع أشجار مفرغة، تسبح على مياه بلون الزمرد الأخضر تحت براكين يتصاعد منها الدخان. أما ما أدهشني بشكل خاص فهو مجموعة صور لسفن ضخمة مهيبة، كان يستخدمها في القرون الماضية قراصنة «بوجي» سيئو السمعة.

رأيت هذه الجزر التي كانت تثير الرعب في نفوس البحارة الأوروبيين الأوائل حتى أنهم كانوا إذا عادوا إلى بيوتهم يخيفون أطفالهم قائلين: «كونوا مهذبين وإلا سيختطفكم رجال بوجي الأشرار». أثارت هذه الصور في روحي انفعالات شتى عن تاريخ هذا البلد وأساطيره العجيبة من آلهة غاضبة، وتنانين كومودور، وسلاطين القبائل. حكايات قديمة موغلة في الزمن قبل ميلاد السيد المسيح، استطاعت أن تعبر جبال آسيا والصحاري الفارسية، وعبر البحر الأبيض المتوسط لتغرس نفسها في عمق وعينا الجمعي، حتى أسماء جزرها الأسطورية (جاوة، سومطرة، بورناي، سولاويسي) تغرق في أجمل بقعه من خيالنا. إنها أرض التصوف الغامض والأسطورة والجمال المثير، إنها كنز مراوغ يبحث عنه العالم لكن لم يصل إليه حتى كولومبوس. أميرة يتودد إليها العشاق ويغازلونها لكنها لم تمنح نفسها لا لأسبانيا ولا لهولندا ولا البرتغال ولا اليابان، ظلت محض خيال وحلم.

كانت آمالي عظيمة، ربما في عظم آمال المستكشفين الكبار مثل كولومبوس، ومثله كان يجب

(*) وهو عبارة عن تنورة ملونة حول الخصر يرتديها النساء والرجال في إندونيسيا وماليزيا وجزر المحيط الهادي.

(**) الشامان فرد من المجتمعات القبلية يعمل على التوسط بين العالم المرئي وعالم الأرواح اللامرئية ويمارس السحر أو الشعوذة للعلاج والعرافة والسيطرة على الظواهر الطبيعية.

على أن أكبح جماح خيالاتي. ربما كان على أن أدرك أن ما يلمع في نهاية طريقنا ليس دائما هو ما تصورناه في البداية. بدت لي إندونيسيا أرض السحر والعجائب، ورغم ذلك خاب أملي في أجد بها علاجا لما تعانيه نفسي من آلام.

في الواقع، صدمتني الأيام الأولى التي قضيتها في جاكارتا عاصمة إندونيسيا بجوها الحار الرطب في صيف عام ١٩٧١. بالطبع لم يغب الجمال عن المشهد؛ تلك الفاتنات اللاتي يتهادين في السارنج الملون، والحدائق المورقة متوهجة بالزهور الإستوائية، وراقصات بالي المثيرات، والركاب جالسون أمام سائق «الدراجة الأجرة» الملونة بألوان قوس قزح، وقصور المستعمرين الهولنديين، ومساجد ذات مآذن وأبراج.

كان القبح حاضرا على الجانب المأساوي من المدينة؛ مرضي الجذام يتسولون بمد ما تبقى من أطرافهم التي أكلها المرض، وفتيات صغيرات يعرضن أجسادهن مقابل حفنة من نقود. القنوات التي حفرها الهولنديون وكانت في يوم ما مشهدا رائعا صارت الآن كبالوعات قذرة. عائلات بأكملها تعيش في البيوت الحقيرة المغطاة بالورق المقوي في صفوف دميمة قذرة، تمتد بطول ضفاف القنوات الداكنة، تحيط بها الروائح الكريهة وأصوات أبواق السيارات.

بدت مدينة ممتزجة بالجمال والقبح، بالأناقة والسوقية، بالروحانيات والفحش. تلك هي جاكارتا، حيث تناضل رائحة نباتات القرنفل دائمة الخضرة وبراعم أزهار الأوركيديا ضد النتن المنبعث من قاع المدينة.

لم يكن هذا الفقر غريبا عليّ؛ فبعض زملائي في الدراسة في هامبشاير كانوا يعيشون في أكواخ مغطاة بورق غليظ مكسو بالقار ليقيها من المطر، ويأتون للمدرسة مرتدين معاطف خفيفة وأحذية رياضية مهترئة في أقصى أيام الشتاء برودة، وتنبعث من أجسادهم التي بعُد عهدها بالاستحمام رائحة يختلط فيها العرق القديم والغائط. وقد عشت في أكواخ من الطين مع فلاحي جبال الإنديز الذين لا يزيد طعامهم عن القمح الجاف والبطاطس، وحيث يبدو للمرء أحيانا أن احتمالات وفاة الوليد الجديد تقارب احتمالات مولده. نعم رأيت الفقر، لكن من وجهة نظري لا شيء يقارن بفقر جاكارتا.

بالطبع سكن فريقنا في أفضل فنادق المدينة في إحدي الضواحي، في فندق إنتركونتننتال إندونيسيا الذي تمتلكه شركة الطيران الأمريكية بان أمريكان Pan American، وهو على طراز سلسلة فنادق إنتركونتننتال المنتشرة حول العالم والدرجة نفسها، فندق يرضي ذائقة الأجانب الأثرياء، وخاصة المديرين التنفيذيين لشركات البترول وعائلاتهم. وفي مساء اليوم الأول لنا في الفندق، دعانا شارلي إيلينجورث Charlie Illingworth مدير مشروعنا لتناول العشاء في مطعم أنيق في أعلي طابق في الفندق.

كان تشارلي خبيرا في أصول الحرب، كرّس معظم وقت فراغه لقراءة كتب التاريخ والروايات التاريخية التي تحكي عن القواد العسكريين العظام والمعارك الحربية. كان نموذجا للجندي المؤيد لحرب فيتنام دون مشاركة فعلية فيها. تلك الليلة، كان كعادته يرتدي بنطالا من اللون الكاكي وقميصا بأكمام قصيرة من اللون نفسه وعلى كتفيه رتبته العسكرية. رحب بنا، ثم أشعل سيجارا، وقال وهو يتنهد رافعا يده بزجاجة الشمبانيا: «نخب الحياة السعيدة». شاركناه النخب «نخب الحياة السعيدة» ورنت الكئوس عاليا. غلّفه دخان السيجار. حلق تشارلي حول القاعة وقال وهو يهز رأسه مؤكدا ما يقوله: «سيدللوننا هنا حتى التخمة. سيعتني بنا الإندونيسيون عناية فائقة وكذلك سيعتني بنا العاملون في السفارة الأمريكية. لكن لا تنسوا أننا بصدد مهمة يجب أن ننجزها» وخفض بصره ناظرا إلى حفنة بطاقات بها ملاحظات وأكمل: «نعم، نحن هنا لتطوير خطة أساسية لكهرباء جزيرة جاوة، البلد الأكثر ازدحاما بالسكان في العالم. لكن هذا ليس أكثر من مجرد قمم صغيرة لجبل الجليد المختفي».

اكتست تعبيراته سمت الجدية، ذكرني بجورج س. سكوت(*) وهو يلعب دور الجنرال باتون، أحد أبطال تشارلي المفضلين، قال: «نحن هنا لن ندخر وسعا في إنقاذ هذا البلد من مخالب الشيوعية. كما تعرفون، عانت إندونيسيا تاريخا مأساويا طويلا. والآن، حانت الساعة التي ترغب فيها في مساعدة نفسها على الانطلاق لتضع قدمها في القرن العشرين، إنها على المحك مرة أخرى. وتكمن مسئوليتنا في التأكد من أن إندونيسيا لن تقع تحت أقدام جيرانها الشماليين مثل فيتنام وكمبوديا ولاوس. إن إتاحة استخدام الكهرباء لجميع سكانها هو أساس إنجاح هذه المهمة. ذاك أن استخدام الكهرباء كوقود ومصدر للطاقة يعلو على أي عامل سواه في خطورته وأهميته للتأكيد على سيادة الرأسمالية والديمقراطية في هذا البلد، باستثناء عامل مهم آخر مثل البترول».

عند ذكره البترول نفث دخان سيجاره، ثم التقط بطاقتين من بطاقات الملاحظات التي أمامه وأكمل: «نحن جميعا نعلم إلى أي مدى تعتمد بلادنا على البترول. ويمكن لإندونيسيا أن تكون ذات فائدة كبيرة في هذا الشأن. لذلك حين تبدأون في العمل على إنجاز هذه الخطة الرئيسة. برجاء بذل كل ما في وسعكم للتأكد أن صناعة البترول وكل الصناعات المرتبطة بها مثل شركات الملاحة والموانئ وخطوط الأنابيب وشركات التعمير والبناء ستحصل على كل ما تحتاجه من الطاقة الكهربائية خلال السنوات الخمس والعشرين التي تستغرقها الخطة».

(*) جورج كامبل سكوت (١٨ أكتوبر ١٩٢٧ - ٢٢ سبتمبر ١٩٩٩) كان ممثلا ومنتجا في السينما والمسرح، وكان معروفا بجائزة الأوسكار التي حصل عليها عن تمثيله لدور الجنرال جورج س. باتون الصغير في فيلم باتون، وأيضا أداؤه المتقن لدور جورج باك تورجيدسون في فيلم المخرج ستانلي كوبريك «دكتور سترانجلوف : أو كيف أكف عن قلقي وحبي للقنابل». (المراجع).

رفع عينيه عن بطاقات الملاحظات، ونظر نحوي مباشرة وقال: « أن يكون خطؤك بالزيادة أفضل من أن يكون بالنقص. لا أظنك تريد أن تخضب يديك بدماء الأطفال الإندونيسيين أو حتى أطفالنا الأمريكيين. ولا تريد لهم أن يحيوا تحت المطرقة والمنجل أو تحت علم الصين الأحمر!».

دخلت إلى فراشي تلك الليلة آمنا في رفاهية جناح فاخر في الفندق، وجالت بخاطري صورة كلودين. طاردتني مناقشاتها حول الديون الأجنبية. حاولت تهدئة نفسي بتذكر الدروس التي تعلمتها في محاضرات علم الاقتصاد في كلية الاقتصاد. في نهاية الأمر، قلت لنفسي، أنا هنا لمساعدة إندونيسيا على الخروج من حيز الاقتصاد المتخلف المنتمي للقرون الوسطى وأن تأخذ مكانها في عالم الاقتصاد المعاصر. لكني أدركت أنني في الصباح سأرى من نافذتي عبر رفاهية حدائق الفندق وحمامات السباحة - تلك الأكواخ الحقيرة المنتشرة على بعد أميال من ذلك المشهد، وأعلم أن فيها رضّعا يموتون جوعا أو لعدم وجود المياه النقية، ومثلهم أيضا أطفال وراشدون يعانون أمراضا فتاكة ويعيشون فقرا مرعبا.

ظللت أتقلب في فراشي، وجدت أنه من الاستحالة إنكار أن تشارلي وجميع أفراد فريقنا موجودون هنا لأسباب أنانية شخصية. كنا نناصر السياسة الخارجية للولايات المتحدة ومصالح الشركات المتعددة الجنسيات، مدفوعين بالجشع الذي يمحو أية رغبة في تحسين ظروف حياة الأغلبية الساحقة من المواطنين الإندونيسيين. قفزت في ذهني كلمة كروبوقراطية corporatocracy. لم أكن واثقا مما إذا كنت سمعتها من قبل أم أنني اخترعتها من تلقاء نفسي؟ لكنها بدت قادرة على أن تصف بدقة شديدة النخبة الجديدة التي قررت السعي للسيطرة على كوكب الأرض.

إنها منظومة متماسكة من أشخاص معدودين لهم أهداف مشتركة، وأعضاء هذه المنظومة يتنقلون بسهولة بين عضوية مجالس إدارات الشركات الضخمة والمناصب الحكومية. صدمت عندما تذكرت أن رئيس البنك الدولي الحالي روبرت مكنمار، يعد نموذجا مثاليا لذلك. فقد انتقل من منصبه كرئيس لشركة سيارات فورد إلى وزير الدفاع في عهدي الرئيس كنيدي والرئيس جونسون، والآن يقف على رأس أكبر مؤسسة مالية في العالم.

راعني كذلك أن أفطن إلى أن أساتذتي في الجامعة لم يكونوا على فهم صائب لطبيعة علم الاقتصاد الشامل، ذلك أنه في كثير من الأحوال لا تسفر عمليات تقوية الاقتصاد وتنميته إلا عن إثراء أولئك القلة من الأشخاص الذين يتربعون فوق قمة الهرم الأكثر ثراء في العالم، بينما لا تقدم شيئا لأولئك المطمورين في القاع سوى أن تدفعهم لمزيد من الفقر. فإنه في الحقيقة، ينبثق عن تشجيع وانتشار الرأسمالية نظام شبيه بنظام المجتمعات الإقطاعية في القرون الوسطى. إذا علم بهذا أي من أساتذتي فلن يعترف به؛ ربما لأن الشركات الكبرى ومن يديرونها يدعمون تلك الكليات ماديا. بلا أدنى شك، فإن كشف هذه الحقيقة قد يكلف هؤلاء الأساتذة وظائفهم، تماما مثلما قد يكلفني أنا أيضا وظيفتي.

ظلت هذه الأفكار تقلق مضجعي طوال الليالي التي قضيتها في فندق إنتركونتنتال في إندونيسيا. في نهاية الأمر، حاولت أن أجد لنفسي مبررا في أن طريقي لم يكن ممهداً فقد شققت طريقي وكافحت كفاحا مريرا بداية من بلدتي الصغيرة نيوهامبشاير ثم المدرسة الإعدادية وإفلاتي من التجنيد وحدوث كل ذلك من خلال مجموعة من الصدف والعمل الشاق في آن واحد، فأوجدت لنفسي مكانا في حياة كريمة. وارتحت لفكرة أنني أقوم بأعمال محترمة من وجهة نظر الثقافة التي أنتمي إليها. وكنت في طريقي إلى أن أصبح رجل اقتصاد ناجحا ومحترما. كنت أفعل ما أعدتني له كلية الاقتصاد التي درست فيها. كنت أساعد في تنمية نموذج اعتمدته أفضل عقول في العالم.

ومع ذلك، فغالبا ما كنت أواسي نفسي كل ليلة وآخذ عليها عهدا أن أكشف الحقيقة يوم ما. أحاول بعدها أن أغالب الأرق بالقراءة، فأقرأ روايات لويس لامور عن رعاة البقر في الغرب الأمريكي.

الفصل الخامس
عقد مع الشيطان

قضي فريقنا المكون من أحد عشر رجلا ستة أيام في جاكارتا لتسجيل أسمائنا في السفارة الأمريكية، ومقابلة موظفين مختلفين وتنسيق العمل بيننا والاسترخاء أمام حمام السباحة. دهشت لعدد الأمريكيين الذين يقيمون في فندق إنتر ـ كونتننتال، وسعدت سعادة بالغة برؤية الشابات الجميلات زوجات موظفي شركات البترول الأمريكية وشركات البناء والتعمير - يمضين نهارهن في حمام السباحة وأمسياتهن في أحد المطاعم الستة الأنيقة داخل الفندق وخارجه.

ثم نقل تشارلي فريقنا إلى مدينة باندونج الجبلية. كان الطقس ألطف والفقر أقل وضوحا أمام العين، ومجالات اللهو والتسلية أقل. أقمنا في استراحة حكومية للضيوف تعرف باسم ويزما Wisma، كانت مكتملة الخدمات من حيث وجود مدير وطاه وبستاني وطاقم من الخدم. بنيت هذه الاستراحة أثناء فترة الاستعمار الهولندي، كانت وقتها ملجأ. كانت شرفتها الواسعة تواجه مزارع الشاي الممتدة فوق التلال الدائرية وفوق منحدرات جبال جاوة البركانية. وبالإضافة للمسكن، أعطونا أحد عشرة سيارة تويوتا، بكل سيارة سائق ومترجم، وحصلنا على عضوية نادي باندونج للجولف والراكيت، ومكاتب للعمل في الجناح الإداري في المركز الرئيسي المحلي لشركة الكهرباء الحكومية (PLN).

بالنسبة لي تضمنت الأيام الأولى من إقامتي في باندونج سلسلة من اللقاءات مع تشارلي وهاوارد باركر، كان هاوارد في السبعين من العمر، وقد تقاعد من منصب كبير خبراء تقدير الأحمال الكهربائية في محطات الكهرباء في نيو إنجلاند. ويعمل الآن في تقدير كميات الطاقة الكهربائية التي تحتاجها جزيرة جاوة لخمس وعشرين سنة قادمة، بالإضافة لتقسيم هذا الحمل المتوقع على المدن والمناطق المختلفة.

ولأن الاحتياجات الكهربائية ترتبط ارتباطا وثيقا بالنمو الاقتصادي، تعتمد تقديراته على تنبؤاتي الاقتصادية. أما بقية الفريق الذي يعمل معي فعليه تطوير الخطة الرئيسة بناء على هذه التقديرات، واختيار وتصميم محطات الكهرباء وخطوط نقل الطاقة وتوزيعها، وكذا شبكات توزيع

الغاز والبترول بطريقة تتوافق مع تصميماتنا وبأقصى كفاية ممكنة. راح تشارلي طوال مقابلاتنا يؤكد على أهمية مهمتي، ويواصل تذكيري بإلحاح بضرورة أن أكون شديد التفاؤل في تقديراتي. لقد كانت كلودين على حق، فمفتاح الخطة الرئيسة برمتها في يدي.

ثم أعلمني تشارلي أن الأسابيع القليلة الأولى هنا لا تخرج عن حيز جمع المعلومات.

كنا نجلس أنا وهو وهاوارد على مقاعد كبيرة من نبات الروتان الاستوائي في مكتبه الخاص الفخم. كانت الحوائط مزخرفة بقماش مطبوع برسوم وصور تحكي حكايات ملحمية من نصوص هندوسية قديمة. أخذ تشارلي ينفث دخان سيجاره الضخم، ويقول: «على المهندسين تقديم صورة تفصيلية عن النظام الكهربائي الحالي وإمكانيات الملاحة والطرق والسكك الحديدية، كل هذه الأمور». ثم أشار بسيجاره نحوي وأكمل: «عليك أن تتصرف بسرعة؛ فمع نهاية الشهر الأول سيحتاج هاوارد أن يحصل على فكرة جيدة واضحة عن كل ما يتعلق بالمنجزات الاقتصادية التي ستحدث عندما يبدأ العمل في نظام توزيع شبكات الكهرباء الجديد. أما مع نهاية الشهر الثاني فسيحتاج للمزيد من التفاصيل عن مناطق توزيع الكهرباء. الشهر الأخير سيكون عن سد الثغرات الموجودة في الخطة. كل الأمور ستعرض للفحص والمناقشة بمنتهى الجدية. سنضع جميعنا رءوسنا معا. لذلك، ليكن كل منا متأكدا تماما أنه على دراية بكل المعلومات التي يحتاجها قبل أن ينتهي اجتماعنا هذا. «إلى الأمام» هذا شعاري ولا مجال على الإطلاق للعودة للوراء».

بدا هوارد ودودا مثل الجد، لكنه بلا ريب كان عجوزا عاني خيبات أمل كثيرة وخدعته الحياة. فهو لم يصل لرئاسة نظام الكهرباء في نيوإنجلاند، ولذا يشعر بالإحباط العميق جراء ذلك. راح يكرر على مسامعي قوله: «لقد تجاهلوني لأني رفضت أسلوب الشركة في العمل». أصر على تقديم استقالته ولم يستطع تحمل البقاء في المنزل مع زوجته دون عمل، .فقبل هذه الوظيفة الاستشارية مع شركة «مين». كانت هذه مهمته الثانية معهم، ولقد حذرني منه إينار وتشارلي. ووصفاه بأنه عنيد، ووضيع، وحاقد.

مع مرور الأيام، أصبح هوارد واحدا من أكثر أساتذتي حكمة، رغم أنه لم يكن من النوع الذي كنت مستعدا لوجوده في حياتي في ذلك الوقت. فلم يسبق له أن تلقى ذلك النوع من التدريب الذي تلقيته من كلودين. أظنهم اعتبروه أسنَّ من أن يتلقي ذلك التدريب أو ربما أعند. أو ربما خططوا لإبقائه لفترة مؤقتة، لحين أن يتمكنوا من اصطياد شخص آخر أقدر على العمل المستمر مثلي. وما توقعوه من أن هوارد سيشكل لهم مشكلة - قد تحقق بالفعل. أدرك هوارد الموقف بوضوح والدور الذي يريدونه أن يلعبه، ورفض أن يعامل كقطعة شطرنج.

كانت كل الصفات التي اعتاد إينار وتشارلي أن ينعتوه بها صفات حقيقية، لكن على الأقل، كان بعض عناده ينبع من التزامه نحو ذاته بألا يتحول إلى خادم لهم. أشك في أنه سمع من قبل عن

مصطلح قرصان اقتصاد، لكنه كان على علم أنهم ينوون استخدامه لترويج شكل من أشكال الإمبريالية التي يرفضها.

انفرد بي جانبا عقب أحد الاجتماعات مع تشارلي. كان يضع على أذنه سماعة لضعاف السمع ويعبث بأصابعه في علبتها الصغيرة التي وضعها تحت قميصه ليتحكم في درجة الصوت.

قال وهو يحاول خفض صوته: «هذا سر بيني وبينك، سيحاولون إقناعك أن هذه الشركة ستكبر بسرعة صاروخية. إن تشارلي قاسي القلب لا يرحم، لا تدعه ينل منك». كنا نقف أمام نافذة مكتبنا المشترك، ننظر إلى القناة الآسنة الممتدة خلف مبنى شركة الكهرباء الحكومية. كانت هناك امرأة شابة تسبح في مياهها الموحلة، تحاول الاحتشام بلف رداء السارونج حول جسدها شبه العاري.

بعثت في كلماته إحساسا بالضياع، لكنها منحتني الرغبة في إقناعه بأن تشارلي على صواب. علاوة على ذلك، فإن مستقبلي المهني يتوقف على إرضاء رؤسائي في شركة «مين».

قلت له وعيناي معلقتان على المرأة التي تسبح في القناة مؤكد أن هذه الشركة ستلمع وتزدهر: «فقط انظر لما يحدث حولك». كان من الواضح أنه لا يري المشهد الماثل أمامنا، فتمتم: «هكذا إذن أنت في جانبهم. أليس كذلك؟».

استحوذت على انتباهي حركة صادرة من القناة حيث نزل رجل إلى الضفة وخلع بنطاله وجلس القرفصاء على حافة المياه ليقضي حاجته. رأته المرأة التي تسبح في مياه القناة لكنها لم تبال به، وواصلت سباحتها. التفت عن النافذة ونظرت مباشرة إلى هوارد: «لقد رأيت أماكن كثيرة في العالم. ربما أبدو لك صغير السن، لكني عدت منذ فترة قريبة من أمريكا الجنوبية بعدما قضيت فيها ثلاث سنوات. وأعرف تماما ما الذي يمكن أن يحدث لدى اكتشاف البترول. إذ ذاك تتغير الأمور بسرعة».

قال ساخرا مني: «أنا أيضا لسنوات طويلة رأيت أماكن كثيرة في العالم. سأقول لك شيئا أيها الشاب. أنا لا أقلل من شأن اكتشافات البترول التي تتحدث عنها وكل تلك الأمور المشابهة. لكني أقوم بتقدير أحمال الكهرباء طوال حياتي؛ في فترات الكساد الاقتصادي وفي الحرب العالمية الثانية، في السراء والضراء على السواء. رأيت بعيني ما فعله شق طريق رقم ١٢٨ لبوسطن الذي يطلقون عليه معجزة ماساشوستس. وأستطيع أن أقول وأنا واثق من كلامي أنه لا توجد أحمال كهربية تزيد بنسبة أكبر من سبعة إلى تسعة في المائة في السنة لأية فترة منتظمة، وذلك على أعلى تقدير؛ فنسبة ستة في المائة أكثر منطقية».

حملقت فيه. داخلني شعور بأنه على صواب، لكني شعرت أنني في موقف دفاعي. وأدركت ضرورة أن أقنعه بوجهة نظري، لأن ضميري كان يصرخ مطالبا بتبرير.

«هوارد هذه ليست بوسطن. هذا بلد لا يتوافر لأحد فيه استخدام الكهرباء. الأمور هنا مختلفة».

دار على عقبيه ولوح بيده كما لو كان يريد أن يدفعني من أمامه.

قال مزمجرا بغضب شديد: «هيا انطلق، بع نفسك. أنا لا أقلل من قدر اكتشافاتك». دفع مقعده من وراء مكتبه بسرعة وغضب وسقط فيه. «سأعد تقديراتي للأحمال الكهربية بناء على ما أعتقده، وليس بناء على دراسات اقتصادية مستندة إلى وعود فارغة» التقط قلمه الرصاص وبدأ يخربش به كيفما اتفق على مجموعة أوراق.

كان ذلك بمثابة نوع من التحدي لا يمكنني تجاهله. خطوت ناحيته ووقفت أمام مكتبه: «ستبدو غبيا إذا طابقت اكتشافاتي ما يتوقعه الجميع؛ طفرة اقتصادية تفوق الطفرة الاقتصادية في كاليفورنيا إبان حمي استخراج الذهب، وأنت تقدر أحمال الكهرباء بنسبة تقارب احتياجات بوسطن في الستينيات».

ألقي بالقلم من يده وحملق في قائلا: «بلا ضميرا هذا هو جوهر الأمر. أنتم جميعا بلا ضمير» لوح بذراعه نحو المكاتب الأخرى وراء الجدران: «لقد بعتم أنفسكم للشيطان. أنتم متوروطون في هذه الأمور بسبب المال. والآن...» وتظاهر بالابتسام ثم مد يده تحت قميصه وأكمل: «سأطفئ السماعة وأعود لعملي».

صُدمت حتى النخاع. خطوت بعنف خارج الحجرة متجها نحو مكتب تشارلي. توقفت في منتصف الطريق، غير واثق من رغبتي في القيام بما أنوي فعله. وبدلا من ذلك، درت على عقبي وهبطت الدرج، خارجا من المبنى.

في رحاب ضوء الغروب، كانت المرأة الشابة تستعد للخروج من القناة، وقد أحكمت رداء السارونج على جسدها. واختفي الرجل الذي كان يقضي حاجته. وظل بعض الصبية يلعبون في القناة، يثرون المياه ويتدافعون. تقف في القناة امرأة عجوز تصل المياه حتى ركبتيها، تنظف أسنانها، وأخري تغسل ثيابها. أحسست بغصة في حلقي. جلست على لوح أسمتي محطم، محاولا تجاهل ما يتصاعد إلى أنفي من نتن ينبعث من القناة. قاومت بشدة لأمنع نفسي من البكاء، أردت أن أكتشف سبب هذا الشعور بالبؤس الذي انتابني.

ظل صدى كلمات هوارد يتردد في ذهني مرات ومرات: «أنتم متوروطون في هذه الأمور بسبب المال». لقد أصاب مني وترا ملتهبا.

استمر الصبية يرش بعضهم البعض بالماء، تملأ أصواتهم السعيدة الفضاء. تساءلت ما الذي يمكنني فعله؟ ماذا ينقصني لأكون مرتاح البال مثلهم؟ عذبني السؤال وأنا جالس هناك أرقبهم يمرحون في براءتهم السعيدة، ومن الواضح أنهم غير واعين لما قد يصيبهم نتيجة لهوهم في ذلك الماء النتن.

ثمة رجل عجوز أحدب الظهر يتوكأ على عصا ملتوية عرّج نحو ضفة القناة. توقف وراح يرقب الصبية، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة خالية من الأسنان.

ربما أستطيع أن أبوح بدخيلة نفسي لهوارد وأثق به، ربما نستطيع معا الوصول لحل. شعرت في الحال بإحساس من الراحة، فالتقطت حصاة صغيرة وألقيت بها في القناة، وعندما هدأت رقرقة المياه، شعرت بالخفة والنشاط. أعرف أنني ليس بمقدوري أن أبوح له بشيء، فهوارد عجوز لديه إحباطات، وقد أضاع بالفعل فرصا كانت لتحقق له إنجازات في مستقبله المهني، ومن المؤكد أنه لن يحيد عن مساره الآن. أما أنا فمازلت شابا، في البدايات فقط، ومن المؤكد بالطبع أنني لا أريد أن أنتهي مثل نهايته.

ظللت أحملق في ماء هذه القناة العفنة، تراءت لمخيلتي مرة أخرى مدرسة هامبشاير الإعدادية على التل، حيث كنت أمضي عطلاتي وحيدا بينما غيري من الأولاد يخرجون إلى الحفلات يلتقون فيها بالفتيات. سرى داخلي ببطء شعور بالأسى. مرة أخرى، ليس لدي من أبوح له بدخيلة نفسي.

تلك الليلة رقدت في فراشي، وفكرت كثيرا في الأشخاص الذين مروا بحياتي: هوارد، تشارلي، كلودين، آن، إينار، العم فرانك. وسألت نفسي: كيف كانت ستسير حياتي إن لم ألتق بهؤلاء الأشخاص؟ وأين كان سينتهي بي المآل؟ ليس في إندونيسيا بالطبع، هذا أمر مؤكد. تساءلت أيضا عن مستقبلي، إلى أين كانت ستمضي بي الحياة؟ تأملت القرار الذي أنا بصدده. لقد أعلنها لنا تشارلي صراحة أن نأتي له أنا وهوارد بمعدل نمو لا يقل عن ١٧٪ سنويا. أي نوع من التقديرات يمكن أن أقدمها له؟

فجأة جالت بذهني خاطرة هدأت من سكينة روحي. لماذا غابت عني تلك الفكرة؟ فالقرارا ليس قراري ألبتة. هوارد قال إنه سيفعل ما يراه صوابا، بغض النظر عن نتائجي. إذن، أستطيع إرضاء رؤسائي بتوقعات اقتصادية كبيرة وعليه هو أن يتخذ ما يشاء من قرارات، لن يتطلب عملي أي مجهود خاص بالخطة الرئيسة. فالجميع يؤكدون على أهمية دوري، لكنهم مخطئون. انزاح عن كاهلي عبء كبير. ورحت في سبات عميق.

بعد مضي عدة أيام، سقط هوارد مريضا بفعل حمى قاسية. أخذناه بسرعة إلى مستشفى إرسالية كاثوليكية. وصف له الأطباء الدواء ونصحوه بضرورة عودته بسرعة إلى الولايات المتحدة. أكد هوارد أن لديه بالفعل كل المعلومات التي يحتاجها وأنه يستطيع بسهولة إكمال تقديرات أحمال الكهرباء من بوسطن.

كانت كلماته قبل أن يسافر مجرد تكرار لتحذيره السابق. قال: «لا حاجة بكم لتلفيق الأرقام، فلن أشارك في تلك الخدعة، أيا كان ما تدّعونه من معجزات النمو الاقتصادي!».

الجزء الثاني

١٩٧١ - ١٩٧٥

الفصل السادس

دوري كباحث

نصت عقودنا مع الحكومة الإندونيسية وبنك التنمية الآسيوي وهيئة المعونة الأمريكية على أن يزور أحد أفراد فريقنا كل مراكز الإسكان الكبرى في المناطق التي تشملها الخطة الرئيسة. قررت أن أنجز هذه المهمة بنفسي. كما قال تشارلي: «لقد استطعت أن تعيش في الأمازون وتستطيع التعامل مع الحشرات والثعابين والمياه الملوثة».

زرت عديدا من الأماكن الجميلة وبصحبتي السائق والمترجم، وأقمت في أماكن موحشة وسيئة للغاية. التقيت برجال الأعمال والسياسيين المحليين واستمعت لآرائهم حول إمكانيات النمو الاقتصادي.

ومع ذلك فقد وجدت معظمهم مترددين في إعطائي معلومات. بدوا مرعوبين من مظهري. قالوا لي بالحرف الواحد إنني ينبغي أن أراجع رؤساءهم ووكالاتهم الحكومية من خلال مراكزهم الرئيسة في جاكارتا. ارتبت أحيانا في وجود مؤامرة تحاك ضدي.

كانت هذه الرحلات قصيرة، عادة لا تتجاوز يومين أو ثلاثة. كنت أعود بين الرحلة والأخرى إلى الويزما في باندونج. كان لدى السيدة التي تدير شئون المنزل ولد يصغرني بأعوام قليلة. اسمه رازمون، لكن الجميع عدا أمه كانوا ينادونه رازي. كان طالبا في كلية الاقتصاد في جامعة محلية، سرعان ما ابدي اهتمامه بعملي. في الواقع، شككت أنه ربما كان يتقرب مني طلبا لوظيفة. بدأ أيضا يعلمني لهجة ملايو وهي اللغة الرسمية في إندونيسيا.

بعدما حصلت إندونيسيا على استقلالها عن الاستعمار الهولندي وضع الرئيس سوكارنو في مقدمة اهتماماته بشئون البلاد إيجاد لغة سهلة التعليم. فهناك أكثر من ثلاثمائة وخمسين لهجة يتحدث بها المواطنون في تلك الجزر[١]، وقد أدرك سوكارنو أن بلاده في حاجة لمفردات مشتركة لتوحيد

الناس في كل هذه الجزر الكثيرة والثقافات المتعددة. جند لهذا الأمر فريقا علميا متخصصا في علم اللغات، وأسفرت جهودهم عن أن اللهجة الملاوية هي الأكثر نجاحا ويتحدث بها سكان الأرخبيل الغربي لجزيرة ملايو، وتتميز بتجنب كثير من التغيير في زمن الفعل والأفعال الشاذة وغير ذلك من الصعوبات والتعقيدات التي تتسم بها معظم اللغات الأخرى هناك.

في بدايات السبعينات من القرن العشرين كان أغلب الإندونيسيين يتحدثون بها، رغم أنهم استمروا في اعتمادهم على اللغة الجاوية وغيرها من اللهجات المحلية الأخرى داخل مجموعاتهم الصغيرة. كان رازي معلما ممتازا ذا حس فكاهي. ومقارنة بلغة شوار shuar أو حتى الإسبانية، كانت لغة الملايو سهلة.

كان لدى رازي دراجة نارية وقد تحمس لتعريفي بمدينته وأهله: «سأريك جانبا من إندونيسيا لم تره من قبل» هكذا وعدني ذات مساء وألح في طلبه أن أركب وراءه.

مررنا بعرض لعرائس خيال الظل، وموسيقيين يعزفون على الآت موسيقية تراثية، وأشخاص ينفخون في النار، وأشخاص يمارسون ألعابا سحرية، وباعة في الشوارع يبيعون كل ما يخطر ببالك، من الكاسيت الأمريكي المهرب إلى التحف النادرة المصنوعة يدويا ومحليا. في النهاية وصلنا إلى مقهى صغير يعج بالشباب والشابات، يرتدون ملابس وقبعات ويصففون شعورهم على طراز فريق البيتلز الموسيقي في نهاية الستينيات من القرن العشرين، ومع ذلك، فكلهم إندونيسيون بلا أدنى ريب. قدمني رازي إلى مجموعة ملتفة حول مائدة وجلسنا معهم.

كانوا جميعا يتحدثون الإنجليزية، مع تفاوت درجة إتقانهم لها، لكنهم قدروا محاولاتي في تعلم اللغة الملاوية وشجعوها. تحدثوا في هذا بصراحة وسألوني لماذا لا يتعلم الأمريكيون لغتهم، لم يكن لدي إجابة، ولم أستطع أن أفسر لهم لماذا أنا الأمريكي الوحيد أو الأوروبي الذي ذهب إلى هذا الجانب من المدينة، رغم وجود كثير منهم في نادي الجولف والراكيت والمطاعم الأنيقة، والسينمات والمسارح، ومراكز السوق عالية المستوى.

كانت ليلة لا تنسى. عاملني رازي وأصحابه كواحد منهم. استمتعت بإحساسي بالنشاط والخفة والسعادة الكبيرة بوجودي بينهم في هذا الجزء من مدينتهم، وبطعامهم وموسيقاهم، ورائحة سجائرهم التي يفوح منها عبير القرنفل، وغيرها من الروائح الطيبة التي تشكل جزءا من حياتهم، والنكات والضحك الذي تبادلناه معا. كان الأمر كأنها فيالق السلام تحوطني من جديد، ووجدت نفسي أتساءل لماذا فكرت في السفر في الدرجة الأولى فأعزل نفسي عن أناس مثل هؤلاء؟؟

مع مضي الليل ازداد اهتمامهم بمعرفة أفكاري عن بلادهم وعن الحرب التي خاضتها بلادي ضد فيتنام، كانوا جميعا مرعوبين مما اشاروا إليه بوصفه «غزو غير شرعي» وشعروا بالراحة عندما اكتشفوا أنني أشاركهم مشاعرهم.

عدت ورازي للاستراحة التي أقيم فيها وكان الوقت متأخرا والظلام يسود المكان. شكرته كثيرا لدعوتي إلى عالمه، وشكرني على اندماجي مع أصدقائه. وتواعدنا أن نكرر هذه الزيارة مرة أخرى. تعانقنا، وتوجه كل منا إلى حجرته.

أثارت تلك التجربة مع رازي شهيتي لقضاء المزيد من الوقت بعيدا عن فريق شركة «مين». في الصباح التالي، كان من المقرر عقد اجتماع بيني وبين تشارلي وأخبرته أن مساعي لجمع البيانات من الموظفين المحليين باء بالفشل وأصابني بالإحباط. علاوة على ذلك، معظم البيانات التي أحتاجها لتساعدني في القيام بالتوقعات الاقتصادية يمكن العثور عليها فقط في المكاتب الحكومية في جاكارتا. واتفقنا أنا وتشارلي على أنني في حاجة لقضاء أسبوع أو أسبوعين في جاكارتا.

أبدى تعاطفه معي، لاضطراري لمغادرة باندونج والذهاب إلى العاصمة بجوها المشبع بالرطوبة، وتظاهرت بعدم الرغبة في الذهاب للعاصمة. بينما كنت بيني وبين نفسي متحمسا لهذه الفرصة التي سأخلو فيها بنفسي، وأكتشف جاكارتا وأقيم في فندق إنتركونتنتال إندونيسيا الأنيق.

مع ذلك، عندما عدت لجاكارتا مرة أخرى اكتشفت أنني أرى الحياة الآن من منظور مختلف. أحدثت تلك الليلة التي قضيتها مع رازي والشباب الإندونيسيين وكذلك طوافي في أجزاء مختلفة من البلاد - تغييرا في داخلي. وجدت أنني انظر إلى رفاقي من الأمريكيين نظرة مختلفة، ما عدت أرى زوجاتهم الشابات شديدات الحسن. حلقات السلسلة الحديدية التي تحيط بحمام السباحة والقضبان الحديدية خارج نوافذ الطوابق السفلية، التي بالكاد لاحظتها قبل ذلك، كل هذه الأشياء تبدو كئيبة، حتى الطعام في مطاعم الفندق الأنيقة بدا لي بلا طعم.

أدركت أيضا في أثناء لقاءاتي مع رجال الأعمال والسياسيين ذلك المكر والدهاء في طريقة معاملتهم لي. لم أستوعب هذا من قبل، لكنني الآن أرى الكثيرين منهم ممتعضين من وجودي. على سبيل المثال، عندما يقدمني أحدهم للآخر، فإنهم يستخدمون غالبا تعبيرات من اللغة الملاوية والتي وفقا لترجمتي تعني المحقق أو الباحث. لذلك تحاشيت عن عمد أن أكشف معرفتي بلغتهم، حتى المترجم الخاص بي لم يعرف أكثر من أنني استطيع فهم مجموعة تعبيرات دارجة، وغالبا ما كنت أرجع بعد مغادرتهم إلى قاموس «ملاوي - إنجليزي».

هل كانت تلك التعبيرات المستخدمة لوصفي مجرد تطابق في اللغة يحدث مصادفة؟ أم تفسير خاطئ لقاموسي؟ حاولت إقناع نفسي أن الأمر كذلك. ومع ذلك كلما قضيت وقتا مع أولئك الأشخاص ازددت اقتناعا بأنني أتطفل عليهم، ذلك أنهم صدر لهم أمر من شخص ما بالتعاون معي، ولم يعد أمامهم من مجال للاختيار سوى الإذعان للأمر. لم تكن لدي أية فكرة عما إذا كان هذا الأمر مسئولا حكوميا أم صاحب بنك أم جنرالا من الجيش، أو حتى إذا كانت السفارة الأمريكية هي التي أصدرت هذا الأمر. كل ما عرفته أنه رغم حُسن استقبالي في مكاتبهم، ودعوتي إلى شرب

الشاي، وإجابتهم عن أسئلتي بطريقة مهذبة، وترحيبهم كل الترحاب ظاهريا بوجودي - فتحت السطح ثمة ظلال للتسليم بأمر لا مفر منه وللشعور بالضغينة.

الأمر الذي جعلني أتساءل، عن مدى صدق إجاباتهم عن أسئلتي وعن مدى صحة المعلومات التي يقدمونها لي. على سبيل المثال، لم يكن يسمح لي بدخول مكتب أحدهم ولقائه بصحبة المترجم الذي يترجم لي، فعلينا أولا أن نرتب موعدا للمقابلة، ذلك في حد ذاته ليس أمرا غريبا، غير أنه يستنفد وقتا كبيرا. ذلك أن أجهزة التليفون نادرا ما تعمل، لذلك نضطر للذهاب بالسيارة في شوارع مزدحمة، كثيرة الانعطافات والالتواءات لدرجة أن الوصول لمبنى يبعد عنا عدة مبان ربما يستغرق ساعة. وعندما نصل إليه، يطلب منا ملء استمارات كثيرة. في النهاية، يظهر لي سكرتير مهذب، وعلى وجهه تلك الابتسامة المجاملة التي يشتهر بها أهل جاكارتا، ويسألني عن نوع المعلومات التي أريدها، ثم يحدد موعدا للقاء.

في كل الأحوال، كان يحدد موعد اللقاء هذا على الأقل بعد عدة أيام، وعندما يحين أخيرا يناولونني ملفا به مادة معدة. أعطاني أصحاب المصانع خططا لمدة خمس أو عشر سنوات، وأعطاني أصحاب البنوك مخططات وجداول بيانية، وأمدني المسئولون الحكوميون بقوائم للمشروعات التي توشك أن تدخل حيز التنفيذ لتصبح محركات للنمو الاقتصادي. كل ما أمدني به أولئك الأشخاص من مسئولين ماليين وحكوميين، وكل ما قالوه خلال لقاءاتي بهم، كان يشير إلى أن جاوة تقيم موازناتها ربما لتحقق أكبر نمو اقتصادي عرفته من قبل. ولم يشكك ولو شخص واحد في الدلالات المتفائلة لهذه الإحصاءات ولا قدم لي ما يناقضها. ومع ذلك، عندما اتجهت قاصدا باندونج، وجدت نفسي أتساءل عن كل ما عايشته. شيء ما كان يقلقني بشدة، فقد كان كل ما فعلته في إندونيسيا يشبه اللعبة أكثر مما يشبه الحقيقة. كان الأمر كما لو كنا نمارس لعبة البوكر وقد أخفينا أوراق اللعب ولم نستطع أن نتبادل الثقة، أو أن يؤثر أحدنا الآخر بالحصول على معلومات موثوق فيها. مع ذلك، كانت هذه اللعبة جادة تماما، وسيؤثر ما ستسفر عنها في ملايين الأشخاص لعقود مقبلة.

الفصل السابع
محاكمة الحضارة

قال رازي بابتسامة تملأ وجهه: «سآخذك إلى دالانج، إنه أعظم أساتذة مسرح العرائس في إندونيسيا»، كان من الواضح أنه سعيد لعودتي إليه من باندونج. «هذه الليلة هناك واحد من أهم مخرجي مسرح العرائس في مدينتنا».

قاد دراجته النارية وأنا خلفه عبر أجزاء من مدينته لم أكن أعرف بوجودها، ورغم امتلاء مناطق كبيرة منها ببيوت جاوة التقليدية التي يطلق عليها اسم كامبونج، وهي تبدو كأنها نسخ مصغرة جدا من المعابد ومسقوفة بالبلاط الصغير، وأصحابها فقراء - فإنني بدأت أدرك أننا ابتعدنا كثيرا عن البيوت الفخمة التي بناها الاستعمار الهولندي ومباني الحكومة.

كان من الواضح أن سكان هذه المنطقة فقراء، ومع ذلك فهم يشعرون بالفخر الشديد بأنفسهم. يرتدون ملابس بالية، لكن سارونجاتهم المزركشة نظيفة، وبلوزاتهم ملونة بألوان فاقعة، يعتمرون قبعات من القش ذات حواف عريضة. حيثما حللنا كنا نقابل بالترحيب والابتسامات والضحكات، وحين وقفنا اندفع الأطفال ليلمسوني ويتحسسوا قماش بنطالي الجينز. اقتربت فتاة صغيرة وغرزت في شعري عنقودا من أزهار الياسمين الهندي العطر.

تركنا الدراجة على الرصيف قرب المسرح، حيث اجتمع مئات من البشر، بعضهم وقوفا، وآخرون يجلسون على مقاعد نقّالة. كان الليل صافيا وجميلا. رغم أننا كنا في قلب أقدم منطقة سكنية في باندونج، لم يكن هناك مصابيح في الشوارع، لذلك انعكس ضوء النجوم مشعا فوق رءوسنا. كان الهواء معبأ بروائح الخشب المحترق والفستق ونبات القرنفل.

اختفى رازي داخل هذا الحشد من الناس، لكنه سرعان ما عاد بصحبة بعض الشباب الذين التقينا بهم في المقهى. قدموا لي شايا ساخنا وبعض الكعك وطعام الساتي وهو عبارة عن قطع صغيرة جدا من اللحم المطهو في زيت الفستق. ولابد أنني بدى علي التردد في تناول هذا الساتي، فأشارت واحدة من النسوة إلى نار صغيرة وقالت ضاحكة: «إنه لحم طازج، لقد طهوناه الآن».

ثم بدأت الموسيقا تنساب من آلة الجامالونج السحرية المغرقة في الخيال، التي تبعث أصواتا

تشبه أجراس المعابد. همس رازي في أذني: «الدالانج يعزف الموسيقا بنفسه. ويصنع أيضا كل العرائس ويتحدث بأصواتها جميعا وبلغات متعددة. سنترجم لك ما يقوله».

كان عرضا مشوقا، يجمع بين الأساطير التراثية والأحداث المعاصرة. عرفت فيما بعد أن الدالانج هو الشامان الذي يؤدي عرضه في حالة تتغشاه بين الصحو والمنام. كان لديه أكثر من مائة دمية وكان يتحدث عن كل واحدة بصوت مختلف. كانت ليلة لن أنساها أبدا، ليلة أثرت في حياتي بعد ذلك.

بعد عرض مختارات كلاسيكية من النصوص القديمة من الرامايانا، قدم الدالانج دميه تصور ريتشارد نيكسون، تشبهه تماما بأنفه الكبير وفكه المتدلي. كانت الدمية التي تمثل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية يرتدي ملابس العم سام، على هيئة علم أمريكا بنجومه وخطوطه. كانت معه دمية أخرى ترتدي حلة مخططة من ثلاث قطع. تحمل الدمية الثانية في يدها دلوا مزخرفا برسم الدولارات. واستخدمت الدمية يدها الثانية في التلويح بعلم أمريكي على رأس الدمية التي تمثل نيكسون كما لو خادما يهوي على رأس سيده.

ظهرت خلف الدميتين خريطة للشرق الأوسط والشرق الأدنى، وقد علقت البلاد المختلفة بخطاطيف في المواضع المناسبة لأماكنها. سرعان ما اقترب نيكسون من الخريطة، رفع فيتنام من الخطاف ووضعها في فمه. صرخ بكلمات ما ترجموها لي هكذا: «مُرة. زبالة. لا نريد المزيد من هذا» ثم ألقى بها في جيبه. واستمر يفعل الأمر نفسه مع البلاد الأخرى.

على أية حال، أدهشني أن اختياراته التالية لم تشمل البلاد التي يسيطر عليها في جنوب شرق آسيا، بل على العكس كانت كل البلاد من دول الشرق الأوسط كفلسطين والكويت والسعودية والعراق وسوريا وإيران بعد ذلك تحول إلى باكستان وأفغانستان. كل مرة تصرخ دمية نيكسون ببعض الجمل المزعجة قبل أن تسقط الدولة في الدلو، وفي كل مرة يتفوه بكلمات قدح وذم ضد الإسلام: «المسلمين الكلاب، وحوش محمد، المسلمين الشياطين».

سيطر الحماس على الجماهير بشدة، كان يزداد حدة مع كل بلد جديد يضيفه إلى دلوه. تنازعتهم نوبات من الضحك والمفاجأة والغضب. انتابني في لحظات إحساس أنهم يستمدون شعورهم بالسخط من لغة عارض العرائس. كذلك شعرت بالخوف، فنهضت مغادرا دار العرض، ولما كنت أطول منهم جميعا بما يستلفت الانتباه، خشيت أن يوجهوا غضبهم نحوي. ثم قال نيكسون شيئا ما أفزعني حتى كاد يشيب رأسي حين ترجمه لي رازي:

«اعط هذا للبنك الدولي. وانظر إن كان سيفيدنا ببعض الأموال من إندونيسيا» ورفع إندونيسيا من على الخريطة وأسقطها في الدلو، لكن في تلك اللحظة تماما وثبت دمية من الظل تمثل رجلا إندونيسيا، يرتدي قميصا مشجرا وبنطالا فضفاضا باللون الكاكي ويضع علامة مع اسمه من

الواضح أنها طبعت عليه. فسّر لي رازي الأمر على أنها شخصية سياسية من باندونج. قفزت هذه الدمية تماما بين نيكسون والرجل صاحب الدلو وأمسكت بيده وصاحت: «توقف! إندونيسيا مستقلة».

صفقت الجماهير استحسانا. ثم رفع رجل الدلو علمه وألقاه مثل رمح على الشخص الإندونيسي، الذي ترنح ومات ميتة دراماتيكية وصاحت الجماهير صيحات ازدراء واستهجان واحتقار وتعالى الصياح بينهم وهم يلوحون بقبضات ايديهم. كان هناك نيكسون ورجل الدلو ينظران إلينا. انحنيا وغادرا المسرح.

قلت لرازي: «أظنني يجب أن أرحل».

وضع يده على كتفي ليحميني وقال: «لا بأس. ليس لديهم شيء شخصي ضدك» لكني لم أكن واثقا من ذلك.

فيما بعد عدنا للمقهي. أكد لي رازي والآخرون أنهم لم يكونوا على علم أنه سيقدم مشهدا هزليا عن نيكسون والبنك الدولي. قال شاب من بينهم معلقا: «لن تعرف أبدا ما يمكن أن يعرضه محرك العرائس».

تساءلت بصوت عال عما إذا كان هذا المشهد قد قدم على شرف وجودي، ضحك أحدهم وقال إنني مغرور بدرجة كبيرة، وأضاف وهو يربت على ظهري بمودة: «مثل كل الأمريكيين».

قال الرجل الجالس بجواري: «الإندونيسيون لديهم وعي شديد بالسياسة، ألا يذهب الأمريكيون إلى مثل هذه العروض؟».

كانت هناك شابة جميلة، وهي طالبة في كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية، جلست إلى المائدة أمامي، سألتني: «لكنك تعمل في البنك الدولي. أليس كذلك؟».

أخبرتها أن مهمتي الحالية خاصة ببنك التنمية الآسيوي وهيئة المعونة الأمريكية قالت: «أليسوا في الحقيقة كلهم سواء؟» ولم تنتظر إجابة: «أليس ذلك شبيها بالعرض الذي رأيناه الليلة؟ ألا تنظر حكومتك إلى إندونيسيا وغيرها من البلاد كما لو كانوا عنقودا من... ».

كانت تبحث عن الكلمة المناسبة. ساعدها واحد من أصدقائها: «العنب».

«تماما، عنقود عنب. يمكنك أن تلتقطه وأن تختار ما يحلو لك. تحتفظ بإنجلترا. تأكل الصين. تلقي بإندونيسيا».

أضافت امرأة أخرى: «بعدما تأخذ كل بترولنا».

حاولت أن أدافع عن نفسي، لكني كنت غير مؤهل للرد. أردت أن أتفاخر بذهابي لهذا الجزء من البلدة وبقائي لمشاهدة عرض كامل ضد الولايات المتحدة الأمريكية، ذلك العرض الذي كان

من المحتمل أن أفسره على أنه إهانة شخصية. أردتهم أن يدركوا شجاعة ما فعلته، وأن يعرفوا أنني العضو الوحيد من فريقي الذي اهتم بتعلم اللغة المالاوية، والوحيد الذي لديه الرغبة في استيعاب حضارتهم. أردت أن أوضح أنني كنت الأجنبي الوحيد الذي حضر هذا العرض. لكنني قررت أنه من الأفضل أن أكون أكثر حكمة في التعامل مع الأمر، وألا أتحدث في أي شيء من هذا. بل بدلا من ذلك حاولت أن أدفعهم لتغيير موضوع الحوار، سألتهم لماذا في رأيهم اختار الدالانج البلاد الإسلامية، عدا فيتنام.

ضحكت طالبة اللغة الإنجليزية الجميلة، وقالت: «لأن هذه هي الخطة». تدخل أحد الحاضرين في الحديث قائلا: «فيتنام مجرد خطوة على الطريق مثلما كانت هولندا بالنسبة للنازيين. موقع جيد للتقدم إلى هدف معين».

واصلت الشابة كلامها: «الهدف الحقيقي هو العالم الإسلامي».

لم أستطع تفويت هذه الجملة دون إجابة، فاعترضت قائلا: «مؤكد أنك لا تعتقدين أن الولايات المتحدة الأمريكية ضد الإسلام». فسألت: «حقا! منذ متى؟! أنت في حاجة لقراءة أحد مؤرخيكم، إنه بريطاني واسمه توينبي. تنبأ في الخمسينيات أن الحرب الحقيقية في القرن القادم لن تكون بين الشيوعيين والرأسماليين بل بين المسيحيين والمسلمين».

قلت مصعوقا: «آرنولد توينبي قال ذلك؟».

«نعم. اقرأ كتاب محاكمة الحضارة وكتاب العالم والغرب»

سألت: «لكن ما الذي يدعو لمثل هذا العداء الشديد بين المسلمين والمسيحيين؟».

تبادلوا النظرات حول المائدة. ويبدو أنهم اكتشفوا أنه من الصعب تصديق أنني سألت بالفعل مثل هذا السؤال الأحمق.

قالت ببطء، كما لو كانت تخاطب شخصا بطيء الفهم أو ضعيف السمع: «لأن الغرب وخاصة تحت قيادة أمريكا قد قرر أن يسيطر على كل العالم، لكي يصبح أكبر إمبراطورية في التاريخ. إنهم بالفعل قريبون جدا من تحقيق ذلك، فحاليا يقف الاتحاد السوفيتي في طريقها، لكن السوفيت لن يصمدوا. استطاع توينبي أن يتنبأ بذلك. فليس لديهم دين، ولا إيمان، ولا جوهر وراء أيديولوجيتهم. والتاريخ يبرهن أن روح الإيمان والاعتقاد بوجود قوى غيبية أمر ضروري. نحن المسلمين لدينا هذا الإيمان أكثر من أية أمة أخرى في العالم، وأكثر حتى من المسيحين، لذلك نحن ننتظر. وستنمو قوتنا وتكبر».

قاطعها أحد الرجال مؤيدا لرأيها: «سنأخذ وقتنا. ثم ننقض مثل الحية».

كبحت نفسي بصعوبة وقلت: «يالها من فكرة مروعة. ما الذي يمكننا أن نفعله لتغيير هذا؟».

نظرت طالبة اللغة الإنجليزية في عيني مباشرة وقالت: «أن تكفوا عن جشعكم وأنانيتكم. أن تدركوا أن هناك في العالم أمورا أكثر أهمية من بيوتكم الكبيرة ومتاجركم الخرافية، هناك أناس يموتون جوعا، وأنتم لا يشغلكم سوى البترول من أجل سياراتكم، هناك أطفال رضع يموتون عطشا وأنتم تبحثون عن مجلات الأزياء من أجل أحدث الصيحات في عالم الموضة، هناك أمم مثل أمتنا غارقة في الفقر، وشعوبكم لا تسمع حتى صرخاتنا طلبا للنجدة. لقد صممتم آذانكم عن أصوات هؤلاء الذين يحاولون أن يخبروكم عن هذه الأمور، نعتموهم بأنهم راديكاليون أو شيوعيون. ينبغي أن تفتحوا قلوبكم للفقراء والمسحوقين، بدلا من أن تدفعوهم أكثر نحو الفقر والعبودية. لم يعد هناك الكثير من الوقت، إذا لم تتغيروا ستحححكمون على أنفسكم بالهلاك».

بعد مضي عدة أيام، قُتل رجل السياسة المعروف في باندونج - الذي وقفت الدمية التي تمثله لنيكسون وقتلتها دمية رجل الدلو - على يد سائق سيارة تمكن من الهرب بعد ارتكاب الحادث.

الفصل الثامن
يسوع، رؤية مختلفة

ظلت ذكرى ذلك الدالانج لا تفارق مخيلتي، وكذلك كلمات طالبة اللغة الإنجليزية الجميلة. قذفتني تلك الليلة في باندونج إلى مستوى جديد من التفكير والشعور. بينما لم أتجاهل تماما تلميحاتهم لما نفعله في إندونيسيا، إلا أن ردود أفعالي باتت محكومة بمشاعري، وكنت عادة قادرا على تهدئة مشاعري بالركون للعقل وعبرة التاريخ والحتمية البيولوجية. لذلك بررت تورطنا في هذه الأمور كجزء من وضعنا الاجتماعي، وأقنعت نفسي أن إينار وتشارلي وبقية أفراد فريقنا كانوا يتصرفون ببساطة كما يتصرف الرجال عادة؛ يعتنون بأنفسهم وبعائلاتهم. ومع ذلك فإن نقاشي مع هؤلاء الشباب الإندونيسيين دفعني لرؤية جانب آخر من القضية.

أدركت من خلال عيونهم أن المدخل الأناني إلى السياسة الخارجية لم يعد يخدم ولا يحمي أجيال المستقبل. لا يعدو الأمر أن يكون قصر نظر، مثل التقارير السنوية التي تقدمها الشركات الكبيرة والاستراتيجيات التي يختارها الساسة الذين يصوغون تلك السياسة الخارجية.

وكما تكشف لي الأمر، كانت المعلومات التي أحتاجها للتوقعات الاقتصادية تتطلب كثيرا من الزيارات لجاكارتا. فقررت الاستفادة بقضاء وقتي منفردا هناك لتأمل هذه الأمور والكتابة عنها. طفت في شوارع تلك المدينة، مددت يدي بالنقود للمتسولين، وسعيت للحديث مع المجذومين والعاهرات وأولاد الشوارع المشاكسين.

في الوقت ذاته، رحت افكر مليا في طبيعة المساعدات الأجنبية، وأدركت الدور الصحيح الذي تلعبه الدول المتقدمة؛ كما يقال في البنك الدولي) في تخفيف الفقر والبؤس في الدول النامية (الأقل تقدما كما يقال في البنك الدولي. بدأت أشك فيما إذا كانت المساعدات الأجنبية أمرا حقيقيا وغير زائف أم أنها مجرد نوع من الجشع وخدمة المصالح الشخصية؟

حقيقة، بدأت أتساءل عما إذا كانت مثل هذه المساعدات قد خرجت في أي وقت من الأوقات عن حيز إيثار الذات، وإذا لم تكن كذلك فهل يمكن أن تتغير. كنت واثقا أن بلادا مثل بلادي

ستؤدي دورا فاصلا في مساعدة مرضى وجوعى العالم، لكني واثق بالدرجة نفسها من أن هذا - وإن حدث أصلا - ليس هو الدافع الأصلي لتدخلنا في شئون تلك البلاد.

كنت أعود دائما لسؤال واحد أساسي: إذا كانت حقيقة المساعدات الأجنبية هي الإمبريالية، فهل هذا خطأ؟ غالبا كنت أجد نفسي أحسد أشخاصا مثل تشارلي يؤمنون بعمق بنظامنا ويريدون زَج بقية بلاد العالم فيه. انتابني الشك حول قدرة الثروات المحدودة بالسماح لكل بلاد العالم أن تحيا في حياة مترفة كالتي يحياها شعب الولايات المتحدة، في حين أنه حتى في الولايات المتحدة ذاتها هناك ملايين من المواطنين يعيشون في فقر. بالإضافة لذلك، لم يكن واضحا تماما في ذهني أن تلك الشعوب في البلاد الأخرى تريد بالفعل أن تحيا مثلنا، فالإحصائيات المعتمدة لدينا عن العنف والبطالة والإيذاء الجسدي المترتب على تعاطي المخدرات، والطلاق والجريمة، كل هذا يشير إلى أنه رغم أن مجتمعنا من أغنى المجتمعات في التاريخ إلا أن هذا لا ينفي أبدا أنه من أقل المجتمعات إحساسا بالسعادة، فلماذا نريد من الآخرين أن يحاكونا؟

ربما حذرتني كلودين من كل هذه الأمور. لم أعد واثقا مما كانت تحاول أن تقوله لي. على أية حال، لندع الجدل العقلاني جانبا، فقد أضحي الآن واضحا أن أيام براءتي قد ولت. كتبت في مفكرتي:

هل ثمة شخص بريء في الولايات المتحدة؟ رغم أن أولئك المتربعين على قمة الهرم الاقتصادي يحصلون على معظم الأموال، فإن الملايين منا يعتمدون في معيشتهم - بشكل مباشر أو غير مباشر - على استغلال شعوب البلاد النامية. فالموارد الطبيعية والعمالة الرخيصة التي تزود كل أنشطتنا ومشروعاتنا التجارية تقريبا، تأتي من أماكن مثل إندونيسيا، وأهل إندونيسيا أنفسهم لا يجنون منها إلا عائدا بائسا للغاية. تضمن القروض التي تمنحها المساعدات الأجنبية بقاء أطفال اليوم وأحفادهم رهينة لاحتياجات ومطالب أصحاب القروض. وسيكون عليهم السماح لشركاتنا العملاقة بأن تخرب وتدمر ثرواتهم الطبيعية وأن يشقوا طريقهم في التعليم والصحة وغير ذلك من الخدمات الاجتماعية فقط ليتمكنوا من سداد تلك القروض. الحقيقة أن شركاتنا قد حصلت بالفعل على معظم هذه الأموال لتبني بها مجمعات صناعية ومطارات ومحطات توليد كهرباء.

لم تتغير هذه المعادلة كثيرا. هل التحجج بعدم معرفة معظم الأمريكيين بهذه الأمور يبرئ ذمتهم؟ هل هم مضللين؟ نعم، لكنهم ليسوا أبرياء.

بالطبع، اضطررت لمواجهة حقيقة كوني الآن محسوبا ضمن هؤلاء الذين يتعمدون التظاهر بعدم المعرفة.

كانت فكرة الحرب العالمية المقدسة فكرة مزعجة، لكني كلما أمعنت التفكير فيها، ازددت اقتناعا باحتمالات حدوثها. على أية حال، بدا لي أنه لن يكون جهادا من المسلمين ضد المسيحيين بقدر ما سيكون جهادا من البلاد النامية ضد البلاد المتقدمة، وإن كان من الممكن أن يبدؤه المسلمون.

نعد نحن البلاد المتقدمة المستفيدين الحقيقين من الموارد والثروات الطبيعية، أما الشعوب في البلاد النامية فهم الذين يمدونا بهذه الموارد. إنه النظام الإقطاعي التجاري نفسه يسود العالم مرة أخرى، وقد أرسي ليسهِّل سيطرة هؤلاء الذين يمتلكون القوة لكن ليست لديهم موارد طبيعية تكفيهم على أولئك الذين يمتلكون الموارد وتعوزهم القوة التي تحمي مواردهم.

لم تكن لدي نسخة من كتاب توينبي، لكني أعرف من التاريخ ما يكفي لاستيعاب أن أصحاب الموارد والثروات الذين يتعرضون للاستغلال منذ وقت طويل سيتمردون ويقاومون أولئك الذين يحصلون عليها منهم. في نهاية الأمر كان علي فقط أن أعود إلى الثورة الأمريكية وتوم بين كنموذج شارح لذلك. تذكرت أن بريطانيا بررت الضرائب التي تحصل عليها بادعاء أن إنجلترا تقدم المساعدات للمستعمرين في صورة حماية عسكرية ضد الفرنسيين والهنود. في حين أن المستعمرين كان لهم تفسير آخر.

أما ما قدمه توم بين لمواطنيه في كتابه الرائع «*الحس السليم*» ***Common Sense*** فهو جوهر ما أشار إليه أصدقائي الشباب الإندونيسيون بأنه الفكرة والإيمان بعدل القوة الإلهية ودين يؤمن بالحرية والمساواة، تلك الفكرة التي كانت تنافي تماما فكرة الحكم الملكي البريطاني ونظمه الطبقية التي تؤمن بالنخب الحاكمه وسيطرتها.

ما قدمه المسلمون شبيه بذلك: الإيمان بقوى غيبية والاعتقاد أن البلاد المتقدمة ليس لها أي حق في قهر واستغلال باقي بلاد العالم. مثلما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية قبل وأثناء الثورة، حيث كان المدنيون مسلحين ومستعدين للقتال في أية لحظة، هكذا يهدد المسلمون بالقتال في سبيل حقوقهم، وأيضا مثلما فعل البريطانيون في سبعينيات القرن الثامن عشر، لكننا اعتبرناهم إرهابيين. يبدو أن التاريخ يعيد نفسه.

تساءلت أي عالم يمكن أن نحيا فيه إذا أنفقت الولايات المتحدة وحلفاؤها كل الأموال على الحروب الاستعمارية، مثل حربها ضد فيتنام، أو أبادت العالم بتجويعه؟ وكيف سيكون الأمر لو أنها جعلت من التعليم والرعاية الصحية الأساسية أمرا متاحا لكل الشعوب بما فيها بلادنا؟ وتساءلت كيف سيكون تأثير ذلك على أجيال المستقبل إذا اهتممنا بتخفيف أسباب البؤس وحماية الحدود

الفاصلة والغابات وغيرها من المناطق الطبيعية التي تؤمن الحصول على مياه نقية وهواء نقي والأشياء التي تغذي أرواحنا - اهتمامنا نفسه بالأشياء التي تغذي أجسادنا؟

لا أصدق أن الآباء المؤسسين لبلادنا أفراد المؤتمر الدستوري الأمريكي لعام ١٧٨٧ - قد تصوروا أن حق الحياة والحرية والسعادة وجد فقط من أجل الأمريكيين، ولماذا ننفذ الآن استراتيجيات تروج للقيم الإمبريالية التي كنا نحاربها؟

في آخر ليلة قضيتها في إندونيسيا، استيقظت من حلم، جلست في فراشي، وأضأت المصباح. انتابني شعور أن هناك شخصا كان معي في الحجرة. جلت ببصري في أثاث فندق إنتركونتننتال الذي ألفته عيناي، الأقمشة المطرزة بالرسوم والصور وعرائس خيال الظل تتدلى من الحوائط. ثم عاودني الحلم.

رأيت السيد المسيح واقفا أمامي. بدا يسوع نفسه الذي كنت أحدثه كل ليلة عندما كنت صبيا صغيرا أطلعه على أفكاري بعدما أنتهي من صلواتي المعتادة. فيما عدا أن يسوع الذي كنت أعرفه في طفولتي كان أبيض البشرة وأشقر الشعر، بينما هذا المسيح الواقف أمامي شعره أسود مجعد وبشرته داكنة. انحنى ورفع شيئا من على كتفه. توقعت أن يكون صليبا. لكن بدلا من ذلك رأيته رافعا محورا حديديا لسيارة تتدلى منه العجلتين، يظهر فوق رأسه مكونا هالة معدنية. ويتساقط منه الشحم على جبينه مثل الدم. عدل من وضعه، نظر في عيني وقال: «إذا عدتُ الآن ستراني في شكل مختلف». سألته: «لماذا؟» فأجابني: «لأن العالم تغير».

نظرت في الساعة فعرفت أننا نقترب من الفجر. وعرفت كذلك أنني لن أستطيع النوم مرة أخرى، فارتديت ملابسي، وأخذت المصعد إلى البهو الخالي، ثم تجولت بين الحدائق حول حمام السباحة. كان القمر ساطعا، ورائحة أزهار الأوركيديا تملأ الهواء. جلست على أريكة طويلة من تلك التي بلا ظهر وبها متكأ لرأس وتساءلت عما أفعله في هذا المكان، لماذا توالت أحداث حياتي بهذا الشكل لتأخذني إلى هذا الفريق، لماذا إندونيسيا؟ أدركت أن حياتي قد تغيرت، لكن لم أكن أدرك وقتها كم سيكون هذا التغير حادا.

تقابلت أنا وآن في باريس في طريقي للعودة لبلادي، حاولنا أن نتصالح، لكن حتى في أثناء هذه العطلة الفرنسية، استمر الشجار بيننا. رغم كثير من اللحظات المتفردة والجميلة، لكني أعتقد أن كلانا أدرك أن تاريخنا الطويل من السخط والغضب كان عقبة كأداء. بالإضافة لذلك، كان هناك الكثير الذي لا أستطيع أن أبوح لها به. الشخص الوحيد الذي أستطيع مشاركته مثل هذه الأمور هي كلودين، وكنت أفكر فيها باستمرار. وصلت بنا الطائرة أنا وآن إلى مطار لوجان في بوسطن واستقل كل منا سيارة أجرة إلى شقته المنفصلة في منطقة باك باي في بوسطن.

الفصل التاسع
فرصة العمر

كان الاختبار الحقيقي بشأن إندونيسيا ينتظرني في شركة «مين» فأول شيء فعلته في الصباح أن ذهبت إلى مركز الإدارة الرئيسي، وأثناء وقوفي في المصعد مع كثير من العاملين الآخرين علمت أن ماك هول رئيس شركة «مين» الغامض الذي تجاوز الثمانين من عمره قد رشح إينار لرئاسة مكتب أوريجون بولاية بورتلاند، ونتيجة لذلك أبلغت رسميا أن رئيسي المباشر هو برونو زامبوتي.

كان يطلق عليه «الثعلب الفضي» بسبب لون شعره وقدراته الخارقة في التغلب على جميع خصومه بالدهاء والحيلة.

كان لبرونو وسامة كاري جرانت نفسها. وكان بليغا فصيح اللسان، وحاصل على شهادتين في الهندسة وإدارة الأعمال، وعلى دراية جيدة بعلوم الاقتصاد ونائب الرئيس المسئول عن قسم القوى الكهربية ومعظم مشروعاتنا الدولية. كان كذلك المرشح المتوقع لتولي منصب رئيس الشركة عندما يتقاعد أستاذه الخاص العجوز جاك دوبر. كنت مثل معظم العاملين في شركة «مين» أفزع وأرتعب من شخصية برونو زامبوتي.

قبل موعد الغداء بلحظات استدعوني لمكتب برونو. وبعد حديث ودي حول مهمة إندونيسيا، قال شيئا جعلني أقفز إلى حافة المقعد.

«سأفصل هوارد باركر. لسنا في حاجة للخوض في التفاصيل أكثر من أنه فقد تواصله مع الواقع والحقائق» كانت ابتسامته متكدرة وغير مريحة عندما نقر بأصابعه على رزمة من الأوراق على مكتبه وقال: «نسبة ٨٪ في السنة. ذاك هو تقديره للأحمال الكهربائية. هل تصدق ذلك؟ في بلد مثل إندونيسيا بكل هذه الإمكانيات!».

خفتت ابتسامته ونظر مباشرة في عيني وقال: «أخبرني تشارلي إيلينجورث أن توقعاتك الاقتصادية صائبة ودقيقة وستبرر معدل زيادة الأحمال بين ١٧ إلى ٢٠٪. هل هذا صحيح؟». أكدت له أن هذا صحيح.

نهض من مكانه ومد يده لي وقال: «تهنئتي. لقد حصلت على ترقية».

ربما كان من المفترض أن أخرج من عنده بصحبة زملائي العاملين في شركة «مين» قاصدا مطعما فاخرا للاحتفال بهذه الترقية، أو حتى بمفردي. لكن واقع الأمر أن عقلي كان مشغولا بالتفكير في كلودين. كنت أموت شوقا لإخبارها بالترقية التي حصلت عليها وأن أحكي لها كل ما مررت به في إندونيسيا. لقد سبق وحذرتني ألا أتصل بها من خارج البلاد، وقد التزمت بذلك ولم أتصل بها. الآن خاب أملي عندما اتصلت بها ووجدت رقم هاتفها خارج الخدمة، ولم أكن أعرف لها رقما آخر. ذهبت أبحث عنها.

وجدت شابا وفتاة يسكنان مكانها في الشقة. ورغم أنه كان وقت الغداء فأظن أنني أيقظتهما من النوم، ومن الواضح أنهما تضايقا مني، وأخبراني أنهما لا يعرفان أي شيء عن كلودين. زرت مكتب سمسار العقارات مدعيا أنني ابن خالتها. لكن ملفاتهم أكدت أنهم لم يؤجروا لشخص بهذا الاسم، كان عقد الشقة التي تسكنها موثقا باسم رجل طلب عدم إعلان اسمه لأي شخص يطلب ذلك. عدت مرة أخرى إلى مكتب شركة «مين» الرئيسي، وحتي هناك أيضا لم أجد اسمها مسجلا في مكتب شئون العاملين سوي أنهم أخبروني فقط بوجود ملف باسمها بعنوان «استشارة خاصة» وليس من حقي الاطلاع عليه.

بعد الظهيرة، كنت منهكا خائر العزم، وبالإضافة لكل هذا انتابتني حالة فقدان توازن بسبب دوار السفر وتغير ساعتي البيولوجية. عدت إلى شقتي الفارغة. شعرت أنني وحيد ومعزول لدرجة اليأس. بدت ترقيتي الوظيفية لا معني لها، أو أسوأ من ذلك بدا لي أنها علامة على قبولي أن أبيع نفسي. القيت بنفسي على السرير، غارقا في يأسي. لقد استغلتني كلودين ثم تخلصت مني. قررت الا أستسلم لعذاباتي، حبست مشاعري داخلي وأغلقت عليها الأبواب. تمددت فوق السرير أحملق في الجدران العارية لساعات طوال.

أخيرا، استطعت أن أجمع شتات نفسي. نهضت. تجرعت زجاجة بيرة ثم هشمتها فوق المائدة. حملقت في الشارع عبر النافذة. أخذت انظر لأبعد مدى. ظننت أنني رأيتها تسير صوب شقتي. جريت نحو الباب ثم عدت إلى النافذة لألقي نظرة أخرى. كانت المرأة قد اقتربت. استطعت أن أدقق النظر فيها وأري أنها امرأة جذابة وذكرتني مشيتها بمشية كلودين، لكنها لم تكن هي. سقط قلبي مني، وتحولت مشاعري من الغضب والبغض إلى الخوف.

برقت صورة كلودين أمامي تترنح وتسقط في وابل من الرصاص، وتسقط صريعة عملية اغتيال. تخلصت من هذه الصورة وابتلعت قرصي منوّم، وظللت أحتسي البيرة حتى أنام.

في الصباح التالي، استيقظت من غيبوبتي على اتصال هاتفي من قسم شئون العاملين في شركة «مين»، كان لوك مورمينو، رئيس القسم يؤكد تفهمه لحاجتي للراحة، لكنه يرجوني للحضور في ذلك المساء.

قال: «أخبار طيبة، حدث أفضل شيء يعوضك عما فاتك».

أطعت أمر الاستدعاء وعرفت أن برونو كان أكثر من صادق في الوفاء بوعده والالتزام بكلمته معي. فلم أحصل فقط على ترقية وظيفية لأعمل مكان هوارد، بل أيضا منحوني، علاوة على ذلك، لقب كبير اقتصاديين. أبهجتني هذه الأخبار قليلا.

لم أعمل بعد الظهر وتجولت على شاطئ نهر تشارلز ومعي علبة بيرة. وبينما كنت جالسا هناك أشاهد القوارب وأعاني من صداع شديد بسبب الطيران لمسافة طويلة بالإضافة للشرب، أقنعت نفسي أن كلودين قد أتمت مهمتها وانتقلت للمهمة التالية.

وقد كانت دوما تؤكد على ضرورة السرية. ربما تتصل بي هاتفيا. إن مورمينو على صواب. هدأ شعوري بفقدان التوازن والقلق.

في الأسابيع التالية، حاولت أن أنحي أفكاري حول كلودين جانبا. وركزت اهتمامي على كتابة تقرير عن الاقتصاد الإندونيسي ومراجعة تقديرات هوارد في الأحمال الكهربية. اكتشفت نمط الدراسة التي يريدها رؤسائي. يتطلب الزيادة في الأحمال الكهربائية نسبة ١٩٪ في السنة لمدة اثنتي عشرة سنة بعد إتمام النظام الجديد، يتم تخفيضها إلى ١٧٪ لمدة ثماني سنوات، ثم تثبت على ١٥٪ لما تبقي من الخمس والعشرين سنة وهي إجمالي فترة المشروع بأكمله.

عرضت النتائج التي وصلت إليها في اجتماع رسمي مع وكالات الإقراض الدولية. طرح عليّ فريق خبراء تلك الوكالات بعض الأسئلة التفصيلية بلا رحمة، تحولت مشاعري إلى نوع من العزم المستنفر، لا يختلف كثيرا عن العزم الذي دفعني للتميز بدلا من التمرد أثناء دراستي بالمدرسة الإعدادية. مع ذلك ظلت ذكرى كلودين تحوم حولي.

عندما كان يعذبني أحد الشباب المتأنقين العاملين بالاقتصاد ويسعي للبروز على السطح ليصنع لنفسه اسما في بنك التنمية الآسيوي باستجواباته التفصيلية بشكل مطرد طوال فترة ما بعد الظهيرة - تذكرت النصائح التي نصحتني بها كلودين حين كنا نجلس في شقتها في شارع بيكون منذ عدة شهور.

سألتني مرة: «من باستطاعته أن يرى المستقبل لمدة خمس وعشرين سنة قادمة؟ إن تقديراتك لا تختلف عن تقديراتهم. لكن الثقة بالنفس التي تظهرها هي مربط الفرس».

أقنعت نفسي أنني خبير، مذكرا نفسي أنني مررت بخبرات وتجارب عملية وحياتية في تلك البلاد النامية أكبر من كثير ممن يتجاوز عمرهم ضعف عمري ويجلسون الآن يقوّمون عملي ويحكمون عليه. لقد عشت في الأمازون وسافرت إلى أجزاء من جزيرة جاوة لم تتح زيارتها لشخص آخر، وحصلت على دراسات مكثفة مخصصة للمديرين التنفيذيين في أدق تفاصيل علم الاقتصاد القياسي،

إنني من الجيل الجديد من الدارسين الأذكياء المتخصصين في علوم الإحصاء، الذين يؤلهون علم الاقتصاد القياسي والذين جذبوا انتباه روبرت مكنمارا رئيس البنك الدولي المتأنق والرئيس السابق لشركة سيارات فورد، ووزير الدفاع في عهد جون كينيدي. هنا رجل بني سمعته بالأرقام، وبنظرية الاحتمالات، وبالنماذج الرياضية - وأظن - بالتظاهر بالشجاعة المتوهمة لدى من له ذات متضخمة.

حاولت أن أحاكي كلا من مكنمارا وبرونو رئيس الشركة. استخدمت أسلوب الأول في الحديث وحاولت تقليد الثاني وهو يزهو بنفسه، وحقيبة الأوراق تتأرجح في الهواء. تطلعت للوراء، وتساءلت عن هدفي من كل هذا. في الحقيقة كانت كل خبراتي محدودة للغاية، لكني عوضت ما ينقصني من التدريب والمعرفة بالغطرسة والجرأة.

وقد أفلح الأمر. ففي نهاية المطاف، دبج فريق الخبراء تقاريري بموافقتهم.

خلال الأشهر التالية، حضرت اجتماعات في مدن عديدة مثل طهران وكراكاس وجواتيمالا ولندن وفينا وواشنطن وغيرها من البلاد المتقدمة. التقيت بشخصيات شهيرة، من بينها شاه إيران والرؤساء السابقين لبلاد كثيرة، وروبرت مكنمارا نفسه. تماما مثل العالم الذي كنت أعيش فيه عندما كنت في المدرسة الإعدادية، كان عالما من الرجال فقط. كنت مندهشا لتأثير لقبي الجديد ونجاحاتي الجديدة مع وكالات الإقراض الدولية في تغيير نظرة الآخرين نحوي.

في البداية، كان انتباهي كله مركزا على حقي في الاختيار وحريتي. بدأت أتأمل نفسي كما لو كنت ساحر الملك آرثر الذي يلوح بعصاه السحرية فوق البلاد فيجعلها فجأة تضيء، وتزدهر الصناعات كالأزهار اليانعة. ثم تحررت من الوهم وتساءلت عن ماهية دوافعي ودوافع كل الأشخاص الذين أعمل برفقتهم. بدا أنه لن يفيد كثيرا بريق المنصب أو الحصول على درجة الدكتوراه للمساعدة على فهم المأزق الذي يعيش فيه المصابون بالجذام بجوار مجاري الصرف الصحي القذرة في جاكارتا، وشككت في أن البراعة في التلاعب بالإحصاءات تمكن المرء من رؤية المستقبل والتنبؤ به. كلما ازددت معرفة بأولئك الذين يصنعون القرارات التي تشكل العالم ازددت ريبة حول قدراتهم وأغراضهم الحقيقية. نظرت إلى الوجوه حول مائدة الاجتماعات ووجدت نفسي في صراع شديد أحاول جاهدا قمع غضبي.

في النهاية، تغير أيضا هذا المنظور، وبدأت أفهم أن معظم هؤلاء الرجال يعتقدون أنهم يفعلون الصواب. كانوا مقتنعين مثل تشارلي أن الشيوعية والإرهاب قوي شريرة أكثر من اقتناعهم بردود الأفعال المتوقعة إزاء القرارات التي اتخذوها هم وأسلافهم، وأن عليهم واجبا نحو بلادهم ونحو أولادهم ونحو الله حتى يهدي العالم للاقتناع بمذهب الرأسمالية. وهم كذلك متشبثون بمبدأ البقاء للأصلح، وبدلا من الشعور بالامتنان والاستمتاع بالثروات الطائلة والتحول إلى طبقة متميزة وعدم المعاناة من النشأة في أكواخ من الكرتون - يعملون على ضمان توريث هذه الثروات لذريتهم.

ظللت أتأرجح بين رؤية مثل هؤلاء الأشخاص كأنهم متآمرين حقيقيين يكونون مجموعة مترابطة لها الأهداف نفسها للسيطرة على العالم. ومع ذلك مع مرور الوقت بدأت أشبههم بأصحاب المزارع الجنوبيين قبل الحرب الأهلية. كانوا مجموعة من الأفراد انضموا معا في منظمة رخوة، جمعتهم المعتقدات المشتركة والاهتمام بالذات، ورؤيتهم كمجموعة خاصة يلتقون في أماكن منعزلة تجمعهم أهداف شريرة.

نشأ أولئك الزراع المستبدون بين العبيد والخدم، معتقدين أن من حقهم الاحتفاظ بهؤلاء العبيد، وأنهم بذلك يهدونهم إلى دين أسيادهم وأسلوب حياتهم. وحتى لو كانوا يرفضون الرق نظريا إلا أنهم سوغوه لأنفسهم على غرار توماس جيفرسون بوصفها ضرورة لا غنى عنها وأن انهيار نظام الرق سيؤدي إلى فوضى اجتماعية واقتصادية. إن حكام العالم أعضاء الكوربوقراطية يفكرون بهذه الطريقة نفسها.

بدأت كذلك أتساءل عمن يستفيد من الحرب والإنتاج الواسع للأسلحة وعمن يستفيد من وضع السدود على الأنهار وتخريب البيئة الطبيعية والثقافة في بلاده. بدأت أنظر إلى أولئك الذين ينتفعون حين يموت مئات الآف بسبب نقص الغذاء وتلوث مياه الشرب أو حتى الأمراض البسيطة التي يمكن علاجها. أدركت ببطء أنه على المدى البعيد لا يستفيد أحد لكن على المدى القريب يبدو أن أولئك القابعين على قمة الهرم - أنا ورؤسائي - ينتفعون على الأقل ماديا.

وهذا بدوره استدعي أسئلة أخرى، لماذا يستمر هذا الوضع؟ لماذا يصمد كل هذا الزمن؟ هل تكمن الإجابة ببساطة في المثل الشعبي القديم «الحق هو القوة» وأن أولئك الذين يمتلكون القوة يخلدون هذا النظام؟

لا يبدو من المنطق أن نقول إن القوة بمفردها تسمح باستمرار هذا الوضع. فالقول بأن القوة تصنع الحق فرضية تفسد الكثير. شعرت أنه لابد من وجود قوة أكثر ضغطا في العمل هنا. تذكرت أحد أساتذتي في كلية الاقتصاد، وهو رجل من شمال الهند، كان يحاضر حول المصادر الطبيعية المحدودة، وعن حاجة الإنسان للتنمية بشكل متواصل، وعن مبدأ رق العمالة. وطبقا لأقوال هذا الأستاذ، كل الأنظمة الرأسمالية الناجحة تنطوي على ترتيب هرمي مزود بقيود صلبة وقاسية من السلطة والسيطرة، تشمل حفنة من الأفراد يتربعون على أعلى قمة هذا الهرم وفي يدهم الأوامر المتسلسلة من أعلى لأسفل لتابعيهم وجيش ضخم من العمال في القاعدة، الذين من الممكن حسب المصطلحات الاقتصادية أن يصنفوا كعبيد.

في النهاية اقتنعت أننا نشجع هذا النظام لأن الكوربوقراطية أقنعتنا أن الله منحنا الحق أن نضع قلة من الأفراد على أعلي قمة هذا الهرم الرأسمالي وأن نصدر نظامنا هذا لبلاد العالم أجمعين.

بالطبع، لسنا أول من فعل هذا. فإن قائمة ممارسي هذا النظام موغلة في القدم، من الإمبراطوريات

القديمة مثل شمال أفريقيا والشرق الأوسط وآسيا، وتشق طريقها عبر إيران واليونان وروما وحملات الحروب الصليبية، وكل بناة الإمبراطوريات الأوروبيين في عصر ما بعد كريستوفر كولومبوس. هذا الدافع الإمبريالي كان موجودا واستمر في الوجود ليكون سبب معظم الحروب والتلوث والمجاعات والتفرقة العنصرية والإبادات الجماعية المنظمة. وظهر كذلك في تبعات خطيرة في شكل وضمير مواطني تلك الإمبراطوريات، ونتجت عنه الأمراض الاجتماعية وكذلك نتجت عنه مواقف رأينا فيها الحضارات الغنية في تاريخ الانسانية تبتلى بأعلى نسب الانتحار والإيذاء الجسدي المتسبب عن تعاطي المخدرات والعنف.

تمعنت في تأمل الأسئلة، لكني تجنبت مواجهة طبيعة دوري أنا شخصيا في كل هذا. حاولت أن أفكر في نفسي ليس كواحد من أعضاء قراصنة الاقتصاد EHM لكن بوصفي كبير خبراء الاقتصاد. بدا الأمر شديد المنطقية والشرعية، وإذا احتجت لأي تأكيد يمكنني أن انظر إلى أصول دخلي؛ كانت كلها من شركة «مين» وهي شركة خاصة. ولم يدخل جيبي مليم واحد من وكالة الأمن القومي NSA ولا غيرها من الوكالات الحكومية. وهكذا اقتنعت، تقريبا.

ذات مساء، استدعاني برونو في مكتبه. سار خلف مقعدي وربت على كتفي وقال في صوت ناعم كصوت القطط: «لقد قمت بعمل رائع، ولكي نظهر لك تقديرنا، سنمنحك فرصة العمر، شيء يحصل عليه قليل من الرجال، حتى في ضعف عمرك».

الفصل العاشر

رئيس وبطل بنما

في الهزيع الأخير من إحدي ليالي أبريل عام ١٩٧٢ هبطت من الطائرة في مطار توكمن الدولي بينما، أثناء فيضان استوائي. وكما هو معتاد في تلك الأيام، ركبت سيارة أجرة مع مديرين تنفيذيين آخرين، ولأنني أتحدث الأسبانية انتهى بي المطاف في المقعد الأمامي بجوار السائق. رحت أحلق في شرود من وراء زجاج السيارة عبر الأمطار، أضاءت أضواء السيارة الأمامية صورة رجل وسيم مطبوعة على ملصق إعلاني، له حواجب ظاهرة وعيون براقة. وقبعته ذات الحواف العريضة مائلة بشكل أنيق من أحد جانبيها إلى أعلى. تعرفت فيه على بطل بنما المعاصر عمر توريخوس.

أعددت نفسي لهذه الرحلة بطريقتي المعتادة فزرت قسم المراجع في مكتبة بوسطن العامة. عرفت أن أحد أسباب شعبية توريخوس بين شعبه أنه مدافع حازم عن حق بنما في الاستقلال ومطالبته بالسيطرة على قناة بنما. كان مصمما على أن قيادته لبلده تستدعي تفادي الوقوع في بعض السقطات الشائنة كما حدث في مراحل تاريخية سابقة.

كانت بنما جزءا من كولومبيا عندما قرر المهندس الفرنسي فرديناند ديليسبس الذي أشرف على بناء قناة السويس - بناء قناة عبر برزخ أمريكا الوسطي، ليربط بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادي. بداية منذ عام ١٨٨١ قام الفرنسيون بمجهود خارق وواجهوا الكارثة تلو الأخرى. أخيرا في عام ١٨٨٩، انتهي المشروع بكارثة مالية لكن هذا الفشل ألهم تيودور روزفلت حلما.

في أثناء الأعوام الأولى من القرن العشرين طالبت الولايات المتحدة بتوقيع كولومبيا على معاهدة تحويل البرزخ لإشراف اتحاد شركات «أمريكا الشمالية». لكن كولومبيا رفضت.

في عام ١٩٠٣ أرسل الرئيس الأمريكي روزفلت أسطول ناشفيل الحربي. هبط الجنود هناك وقبضوا على قواد الميليشيا المحلية وقتلوهم، وأعلنوا بنما دولة مستقلة. ونصبوا حكومة شكلية عميلة، وتم التوقيع على معاهدة القناة الأولى، التي منحت الشرعية لوجود منطقة أمريكية على جانبي الطريق المائي مستقبلا، وللتدخل الأمريكي العسكري، ومنحت واشنطن سيطرة فعلية على تلك الدولة المشكلة حديثا والتي يقال إنها مستقلة.

تكمن المفارقة في أن من وقع تلك المعاهدة هما وزير الخارجية الأمريكي والمهندس الفرنسي فيليب بونو فاريللا، الذي كان عضوا في فريق العمل الأساسي إبان المحاولة الفرنسية لشق القناة ، لكن هذه المعاهدة لم يوقعها بنميٌّ واحد. بطبيعة الأمور، أجبرت بنما على أن تنفصل عن كولومبيا كي تخدم أغراض الولايات المتحدة، وبتأمل ما حدث نجد أن تلك هي البداية المتوقعة لاتفاق عقد بين الأمريكيين ورجل فرنسي[1].

ظلت بنما ما يربو على نصف قرن تحكمها حكومة الأقلية المكونة من العائلات الثرية التي تربطها علاقات وثيقة مع واشنطن. كانوا يمثلون ديكتاتورية الجناح اليميني الذين يتبنوا أي معايير يرونها ضرورية للتأكد من أن بلادهم تشجع مصالح الولايات المتحدة مما يعني إجهاض أية حركة شعبية توحي بالاشتراكية. دعموا كذلك وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «CIA» ووكالة الأمن القومي الأمريكي «NSA» في أنشطتها ضد الشيوعية في كافة أنحاء النصف الغربي من الكرة الأرضية ، كما ساعدوا شركات التجارة الأمريكية الضخمة مثل إستاندرد أويل للبترول التي يمتلكها روكفلر، وشركة الفواكه المتحدة يونيتد فروت (التي باعها جورج بوش). كان واضحا أن تلك الحكومات لم تكن تستشعر أنه يمكن ترويج مصالح الولايات المتحدة بتحسين أوضاع الشعب الذي يعيش في فقر مدقع أو تقديم رعاية لؤلئك الذين يعملون كالعبيد لدى شركات الزراعة والاقتصاد الضخمة.

نالت العائلات التي تحكم بنما مكافأة جيدة مقابل دعمها للسياسة الأمريكية، وتدخلت القوات العسكرية الأمريكية في شئونها الداخلية عشرات المرات خلال الفترة الواقعة بين إعلان بنما دولة مستقلة وعام ١٩٦٨ . على أية حال، في ذلك العام، بينما كنت لاأزال أعمل متطوعا في فيالق السلام في الإكوادور، تغير مسار التاريخ البنمي فجأة. حدث انقلاب أطاح بأرنولفو آرياس، وهو الأخير في سلسلة متعاقبة من الحكام الديكتاتوريين، وبعدها تولى عمر توريخوس الحكم، رغم أنه لم يشارك مشاركة فعالة في ذلك الانقلاب[2].

كان عمر توريخوس يتمتع بتقدير من الطبقة المتوسطة واحترام الطبقات الفقيرة من شعب بنما.كان هو نفسه قد نشأ في بلدة ريفية في سانتياجو، وكان والداه يعملان بالتدريس. شق طريقه بنجاح من خلال انضمامه لضباط الحرس الوطني، وهي وحدة بنما العسكرية الرئيسة والمؤسسة التي تمتعت بدعم متزايد من الفقراء خلال الستينيات. أكسبه اهتمامه بالفقراء والمهمشين سمعة طيبة. كان يسير في شوارعها المكدسة بالأكواخ، ويعقد الاجتماعات في أحيائهم الفقيرة التي لا يجرؤ رجال السياسة على دخولها، ويساعد العاطلين في العثور على عمل، وكثيرا ما تبرع بالأموال القليلة التي يملكها للعائلات المنكوبة بالأمراض والمآسي[3].

تجاوز حبه للحياة وتعاطفه مع الناس حدود بنما. اتهم توريخوس بتحويل بلاده إلى مأوى

للفارين من الاضطهاد وبلد يمنح حق اللجوء السياسي للاجئين السياسين على جميع أصنافهم؛ بداية من أشد اليساريين عداوة لبينوشيه في شيلي إلى الميليشيات اليمينية المناهضة لعصابات كاسترو. كثير من الناس كانوا يرون فيه رسول سلام، تلك السمعة التي أكسبته تأييد وتشجيع نصف سكان الكرة الأرضية. وقد طور أيضا سمعته كقائد كرس نفسه لحل الخلافات بين الأحزاب المتشاحنة التي كانت تعاني شقاقا في كثير من دول أمريكا اللاتينية مثل هندوراس، جواتيمالا، السلفادور، نيكاراجوا، كوبا، كولومبيا، بيرو، الأرجنتين، شيلي، باراجواي.

قدمت دولته الصغيرة ذات المليوني نسمة نموذجا للإصلاح الاجتماعي ومصدرا لإلهام قواد العالم على تنوعهم؛ مثل نقابات العمال التي خططت لتفتيت الاتحاد السوفيتي والقادة العسكريين المسلمين مثل معمر القذافي في ليبيا[1].

في ليلتي الأولى في بنما حينما أوقفتنا إشارة المرور، ظهرت صورة توريخوس. تجاهلت الضجة الصادرة عن ماسحات الزجاج الأمامي للسيارة، فقد تأثرت بهذا الرجل وبابتسامته المطلة من الملصق الإعلاني. كان وسيما، ذا شخصية قيادية قوية وشجاعا.

عرفت من خلال الساعات التي أقمتها في مكتبة بوسطن العامة أنه لم يتخل أبدا عن معتقداته، فلأول مرة في تاريخها لم تعد بنما دمية في يد واشنطن أو أي يد أخرى. لم يستسلم توريخوس أبدا للإغراءات التي عرضتها موسكو أو بكين، كان يؤمن بالإصلاح الاجتماعي ومساعدة الذين ولدوا فقراء، لكنه لم يؤيد الشيوعية، على عكس كاسترو. كان توريخوس مصمما على كسب الحرية من الولايات المتحدة دون تحالف مع أعدائها.

عثرت بالصدفة على مقال بجريدة مهملة على أحد أرفف مكتبة بوسطن العامة تثني على توريخوس بوصفه رجلا كان بمقدوره تغيير تاريخ الأمريكتين وتحويل مساره نحو اتجاه يغاير سعي الولايات المتحدة للهيمنة طويلة الأمد. يستشهد كاتب المقال بداية بالمبدأ الذي ساد الأمريكيين في أربعينيات القرن التاسع عشر، والقائل بأن غزو أمريكا الشمالية كان قدرا محتوما، لأن الله - وليس البشر - قد قضي بهلاك الهنود والغابات وقطعان الماشية، وجفاف المستنقعات وتدفق مجاري الأنهار، وأن تنمية أي اقتصاد يعتمد على استمرار استغلال العمال والمصادر الطبيعية.

جعلني ذلك المقال أتأمل موقف بلادي تجاه العالم، فقد اتخذ مبدأ مونرو الذي أعلنه الرئيس جيمس مونرو في ١٨٢٣ - ذريعة للتأكيد على أحقية الولايات المتحدة الأمريكية في التوسع في نصف الكرة الأرضية وذلك لتتمكن من السير إلى آفاق أوسع في خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر، وذلك أيضا لدعم الدعوة إلى أن للولايات المتحدة حقوقا خاصة في غزو أية دولة في أمريكا الجنوبية أو أمريكا الوسطي ترفض مساندة سياسات الولايات المتحدة الأمريكية.

أما تيدي روزفلت فقد استغل مبدأ مونرو لتبرير تدخل الولايات المتحدة في شئون جمهورية

الدومنيكان وفي فنزويلا، وأثناء نزع بنما عن كولومبيا. كما اعتمد رؤساء الولايات المتحدة اللاحقون ومن أهمهم تافت وويلسون وفرانكلين روزفلت على هذا المبدأ في ممارسة أنشطة واشنطن التوسعية في كل من أمريكا الشمالية والجنوبية والوسطى في نهاية الحرب العالمية الثانية. وأخيرا في النصف الثاني من القرن العشرين استغلت الولايات المتحدة الخطر الشيوعي لتطبيق مبدأ مونرو على مدى أوسع ليشمل دولا أخرى حول العالم مثل فيتنام وإندونيسيا(٥).

والآن يبدو أن ثمة رجلا وحيدا يقف في طريق واشنطن. أعرف أنه ليس أول من فعل ذلك، فقواد مثل كاسترو واللندي فعلوا ذلك من قبله، لكن توريخوس هو الوحيد الذي يفعل ذلك خارج عالم الأيديولوجية الشيوعية ودون أن يصف حركته بأنها ثورة. إنه يقول ببساطة إن بنما لها حقوقها الشرعية الخاصة في أن تمارس سلطاتها التامة المطلقة على شعبها وعلى أراضيها، وعلي مسطحاتها المائية التي تمر خلال أراضيها، وأن هذه الحقوق نافذة وسارية المفعول وأنها منحة إلهية كالتي تتمتع بها الولايات المتحدة.

اعترض كذلك توريخوس على وجود مدرسة الأمريكتين والقيادة الجنوبية لمركز تدريب عمليات المناطق الحارة التابعة للجيش الأمريكي، وكلاهما في منطقة القناة. ولسنوات عديدة كانت الولايات المتحدة الأمريكية وقواتها المسلحة تدعو ديكتاتوري أمريكا اللاتينية ورؤساءها ليرسلوا أبناءهم وقوادهم العسكريين لهذه المؤسسات، وهي الأكبر والأفضل تجهيزا خارج نطاق أمريكا الشمالية. هناك تعلموا مهارات التحقيقات الرسمية والعمليات الحربية السرية كما تعلموا المناورات العسكرية التي قد يحتاجونها في محاربة الشيوعية وحماية مواردهم الخاصة وموارد شركات البترول وغيرها من الشركات الخاصة. وقد حظوا كذلك بفرصة الاقتراب من كبار ضباط الولايات المتحدة.

كانت هذه المؤسسات مثار كراهية شعوب أمريكا اللاتينية فيما عدا القلة الثرية التي تنتفع منها. كان معروفا أنهم يدربون فرق الموت المتطرفة والجلادين الذين حولوا بلادا كثيرة إلى أنظمة ديكتاتورية. أعلنها توريخوس واضحة أنه لا يريد إقامة مراكز للتدريب في بنما، وأنه يرى أن منطقة القناة ضمن حدود بلاده(٦).

شعرت برعشة تسري في بدني لدى رؤيتي صورة الجنرال الوسيم على الملصق الإعلاني وقراءة التعليق أسفل وجهه «الحرية هدف عمر. لم تخترع بعد الآلة التي تستطيع قتل الأهداف النبيلة!». اعتراني هاجس بأن قصة بنما في القرن العشرين أبعد من أن تصل لنهايتها بعد، وأنه على توريخوس أن يتوقع أياما صعبة بل حتي مأساوية.

ضربت الرياح الاستوائية زجاج السيارة الامامي، وتحولت الإشارة الضوئية للون الأخضر، أطلق السائق بوق سيارته. فكرت في موقفي. لقد أرسلوني لبنما لإنهاء مفاوضات ما سوف يصبح

أول خطة رئيسة شاملة للتنمية الحقيقية. تلك الخطة التي ستفتح للبنك الدولي وبنك التنمية الأمريكي وهيئة المعونة الأمريكية USAID مجالات لاستثمارات بمليارات الدولارات في قطاعات الطاقة ووسائل المواصلات والزراعة في هذا البلد الصغير شديد الأهمية.

بالطبع كان الأمر ينطوي على خدعة، ووسيلة لجعل بنما ترزح تحت الديون وهكذا تعود مرة أخرى لتصبح دمية في يد الولايات المتحدة. حين تحركت السيارة الأجرة أثناء الليل، انفجر داخلي شعور بالذنب منطلقا كالوميض، لكنني كبحت جماحه. ما الذي يعنيني في الأمر؟ لقد انحدرت للهاوية في جزيرة جاوة، بعت نفسي، والآن بمقدوري أن أخلق فرصة العمر. بإمكاني أن أكون ثريا ومشهورا وذا نفوذ في لمح البصر.

في اليوم التالي، أرسلت لي الحكومة البنمية رجلا ليعرفني بالأماكن. كان اسمه فيدل، وقد انجلبت له في التو. كان طويل القامة ونحيلا ووطنيا يعتز ببلاده. حارب جده الأكبر إلى جانب بوليفار للحصول على الاستقلال من الاستعمار الأسباني. أخبرته أنني أنا أيضا من نسل توم بين وقد سعدت حين علمت أن فيدل قرأ كتاب «الحس السليم» بالأسبانية وكان يتحدث الإنجليزية، لكنه حين اكتشف أنني أتقن لغة بلاده إتقانا شديدا غلبته مشاعره وقال: «كثير من أبناء بلدك يعيشون هنا سنوات طويلة ولا يزعجون أنفسهم بتعلمها».

أخذني فيدل في نزهة بسيارته إلى منطقة مزدهرة وملفتة للأنظار بثرائها، وقد أطلق عليها «بنما الجديدة». في أثناء مرورنا بناطحات السحاب الحديثة المبنية بالزجاج والحديد، شرح لي أن بنما لديها من البنوك الدولية أكثر من أية دولة أخرى جنوب ريو جراندي Rio Grande.

قال: «غالبا ما نطلق عليها سويسرا الأمريكتين، فنحن لا نسأل العملاء سوى أسئلة قليلة للغاية».

قبيل الغروب، بينما الشمس توشك أن تلامس المحيط الهادئ، اتجهنا لطريق يسير بمحاذاة حدود الخليج. وهناك رأينا صفا طويلا من السفن الراسية. سألت فيدل عما إذا كانت هناك مشكلة في القناة.

لكنه أجابني ضاحكا: «إنها هكذا دائما، صفوف من السفن تنتظر دورها. نصفها إما قادم من اليابان أو ذاهب إليها. أكثر حتى من سفن الولايات المتحدة». «أعترف أن هذا جديد علي».

قال: «لست مندهشا، فأبناء أمريكا الشمالية لا يعرفون الكثير عن بقية العالم».

توقفنا في حديقة جميلة، مليئة بنباتات مزهرة مورقة تفترش أطلالا قديمة يبدو أنها كانت لقلعة بنيت هنا لتحمي المدينة من غزو القراصنة الإنجليز. وكانت هناك عائلة تستعد لقضاء نزهة المساء في هذا المكان: أب وأم وابن وابنة وشيخ يبدو أنه جد الأطفال. اعتراني شعور مفاجئ بتمني سكينة كتلك التي تشمل هؤلاء الأشخاص الخمسة. عندما مررنا بهم، ابتسم لنا الزوجان ولوحا محيين إيانا

بالإنجليزية. سألتهم هل هم سياح، فضحكوا واقترب منا الرجل وقال شارحا بفخر: «أنا أمثل الجيل الثالث في منطقة القناة. جاء جدي هنا بعد إنشائها بثلاث سنوات. كان يعمل سائقا على واحدة من الجرارات التي تجر السفن عبر الهاويس» وأشار إلى الرجل العجوز الذي كان منهمكا في مساعدة الأطفال في تجهيز المائدة وقال: «والدي كان مهندسا وأنا أعمل مثله».

عادت المرأة لمساعدة حميها وأطفالها. كانت الشمس تغرق وراءهم في المياه الزرقاء في مشهد جميل يشبه قصيدة رعوية، ذكرني برسوم مونيه. سألت الرجل إن كانوا أمريكيين؟ فحدجني بنظرة شك وقال: «بالطبع. فمنطقة القناة أرض أمريكية». أتى الولد ليخبر أباه أن الطعام جاهز. فسألته: «هل سيمثل ابنك الجيل الرابع؟».

ضم الرجل كفيه معا متضرعا ورفعهما نحو السماء وقال: «أصلي للرب القدير كل يوم أن يحظي ابني بفرصة العيش في هذه المنطقة الرائعة». ثم خفض يديه وحملق مباشرة في فيدل وقال: «آمل فقط أن تبقي تحت قبضتنا خمسين سنة أخرى. فذلك الطاغية توريخوس يثير المتاعب. إنه رجل خطير».

تملكتني رغبة أن أكلمه بالإسبانية فقلت: «إلى اللقاء. أتمنى أن تحظى أنت وعائلتك بوقت طيب هنا، وأن تتعلم الكثير من ثقافة بنما».

رمقني باشمئزاز وقال: «أنا لا أتحدث لغتهم» ثم استدار بحركة مفاجئة نحو عائلته والطعام على مائدتهم.

اقترب مني فيدل وأحاط كتفي بذراعه وضغطها بشدة وقال: «أشكرك».

عندما عدنا للمدينة، قادنا فيدل عبر منطقة وصفها بالحي الفقير القذر. قال: «إنها ليست أسوأ مكان لدينا. لكنك ستشم رائحتها».

كانت الأكواخ الخشبية والحفر المليئة بالماء الراكد تملأ الشوارع، فتلك المنازل الهشة تمنحك انطباعا بأنها قوارب محطمة غارقة في بالوعة مجاري. ملأت رائحة العفونة ومياه المجاري سيارتنا. وراح الأطفال ببطونهم المتفخة يجرون وراء السيارة طول الطريق. حين تبطئ السيارة، كانوا يحتشدون ناحيتي وينادونني «يا عم» متسولين طلبا للنقود. ذكرني هذا بجاكارتا.

كانت الرسوم والنقوش تغطي كثيرا من الجدران. قليل منها يصور ذلك الرسم المعهود لقلبين بداخلهما خربشة لاسمين، لكن معظم النقوش الجدارية كانت عبارات ونداءات تعبر عن الكره للولايات المتحدة: «عودوا لدياركم أيها الأمريكيون الشماليون»، «كفوا عن التغوط في قناتنا»، «أيها العم سام يا سيد العبيد»، «قولوا لنيكسون إن بنما ليست فيتنام». أما العبارة التي ارتجف لها قلبي أكثر من غيرها، ومع ذلك رحت أقرؤها: «الموت في سبيل الحرية هو الطريق للمسيح». وبين كل هذه العبارات كان المكان ممتلئا بملصقات صور عمر توريخوس.

قال فيدل: «والآن إلى الجانب الآخر، فلدي أوراق رسمية تخول لي دخوله، أما أنت فبالطبع مواطن أمريكي، وهكذا بإمكاننا أن نذهب هناك». ودخل بنا منطقة القناة التي تسبح تحت سماء أرجوانية. لم تكن فكرتي المسبقة عن المكان كافية لوصف رفاهيته حيث كان يزخر بمبانٍ بيضاء ضخمة، ومروج مشذبة، وبيوت مترفة، وملاعب جولف، ومتاجر، ومسارح...

قال: «في الحقيقة، كل ما تراه هنا هو أمريكي الملكية؛ الأسواق التجارية وصالونات الحلاقة وصالونات التجميل والمطاعم، فكل شيء معفى تماما من الضرائب والقوانين البنمية. هناك سبعة ملاعب جولف سعة كل منها ثمانية عشرة حفرة، ومكاتب بريد الولايات المتحدة تنتشر في كل مكان، ومحاكم الولايات المتحدة ومدارسها. حقيقة إنها دولة داخل الدولة.

قلت: «يالها من وقاحة!».

حدق فيدل في كما لو كان يقومني، ثم قال موافقا: «نعم، إنها حقا كلمة مناسبة. وعلاوة على ذلك...» وأشار وراءه نحو المدينة: «متوسط دخل الفرد أقل من ألف دولار في السنة، وتصل نسبة البطالة إلى ثلاثين في المائة. بالطبع، هناك، في تلك الأكواخ السكنية الحقيرة التي زرناها منذ قليل من لا يصل دخله حتى لتلك الدولارات الألف، بل من الصعب أن تجد واحدا منهم لديه وظيفة».

قلت: «وما العمل؟».

التفت إلي ونظر لي نظرة تحول فيها الغضب إلى حزن وهز رأسه وقال: «ماذا بأيدينا أن نفعل؟ لست أدري، لكني سأقول لك هذا: إن توريخوس يحاول جاهدا».

«أعتقد أن محاولاته ستقضي على حياته، لكنه على يقين أنه يمنح أقصي ما يستطيع. إنه رجل سيحارب من أجل شعبه».

ابتسم فيدل ونحن في سبيلنا للخروج من منطقة القناة وقال: «هل تحب الرقص؟». ودون أن ينتظر إجابتي قال: «هيا بنا نتناول العشاء، ثم أريك بعد ذلك جزءا آخر من بنما».

الفصل الثاني عشر
جنود وبقايا

بعدما تناولنا شرائح اللحم الشهية واحتسينا البيرة المثلجة، غادرنا المطعم واتجهنا إلى شارع مظلم. نصحني فيدل ألا أسير في هذه المنطقة بمفردي: «إذا أتيت إلى هنا، دع «التاكسي» يوصلك حتى الباب الخارجي» وأشار مكملا: «هنا تماما، وراء السياج تقع منطقة القناة».

ظل يقود السيارة حتى وصلنا إلى مكان فسيح مليء بالسيارات. بالكاد وجد ركنا صغيرا يركن فيه السيارة. جرى نحونا رجل عجوز يعرج، فخرج فيدل من السيارة وربت على ظهره، ثم مسح برفق على «رفرف» السيارة وقال وهو يمنحه ورقة نقدية: «اعتن بها جيدا. إنها كزوجتي».

سرنا على رصيف صغير للمشاة خارج الباب الكبير وفجأة وجدنا أنفسنا في شارع غارق في وميض أضواء النيون. كان هناك صبيان يستبقان ويلوح أحدهما للآخر بعصي ويصدران أصواتا مثل أصوات طلقات الرصاص. اصطدم أحدهما بفيدل. كانت رأس الولد تصل بالكاد لفخذ فيدل. توقف الصبي الصغير وأخذ يتراجع وهو يقول لاهثا بالأسبانية: «آسف يا سيدي».

وضع فيدل يديه على كتفي الصبي وقال: «لم يحدث شيء أيها الرجل. لكن أخبرني، ما الذي كنت تصوب نحوه أنت وصديقك؟».

أسرع الصبي الآخر بالاقتراب منا. ووضع ذراعه حول الأول يحميه، وقال مفسرا: «إنه شقيقي. نحن آسفان». ضحك فيدل ضحكة رقيقة وقال: «لا بأس. إنه لم يصبني. فقط كنت أسأله عما تصوبان نحوه أيها الشابان. أظنني اعتدت في صباي أن ألعب اللعبة نفسها».

حملق الصبيان أحدهما في عيني الآخر، وابتسم أكبرهما وقال: «إننا نصوب على الجنرال الأمريكي القذر الذي حاول اغتصاب أمنا، سوف أعيده إلى حيث جاء».

اختلس فيدل نظرة نحوي وقال: «ومن أين جاء؟».

– من بلاده، في الولايات المتحدة.

– هل والدتك تعمل هنا؟

- هناك. وأشار الصبيان إلى مكان مضاء بالنيون في آخر الشارع. «إنها تعمل ساقية في تلك الحانة».

منح فيدل كل منهما قطعة نقدية وقال لهما: «لكن احذرا... ابتعدا عن الأماكن المظلمة».

- نعم بالطبع يا سيدي، نشكرك. وانطلقا.

شرح لي فيدل الأمر أثناء سيرنا بأن النساء البنميات ممنوعات قانونيا من العمل في الدعارة. «إنهن يخدمن على البار ويرقصن، لكنهن لا يستطعن بيع أجسادهن. هذا متروك للنساء الأجنبيات».

دخلنا البار فاستقبلنا بأغنية أمريكية شعبية. استغرقت لحظة لأتأقلم مع المكان. كان هناك جنديان أمريكيان مفتولا العضلات يقفان قرب الباب، يحيطان ذراعيهما بشريط يشير إلى أنهما شرطة عسكرية.

قادني فيدل عبر البار، ثم رأيت المسرح. كانت هناك ثلاث راقصات عاريات تماما إلا من غطاء على الرأس. إحداهن ترتدي كاب جندي والأخرى بيريه أخضر وثالثهن قبعة رعاة الأبقار. كن مثيرات بشكل ملحوظ وكن يضحكن. بدا أنهن يؤدين لعبة بينهن، كما لو كن يرقصن في مسابقة.

كانت الموسيقا والطريقة التي يرقصن بها والمسرح... كل شيء يجعلك تظن نفسك في صالة ديسكو في بوسطن، عدا أنهن عاريات.

أخذنا طريقنا عبر مجموعة من الشباب الذين يتحدثون الإنجليزية ورغم أنهم كانوا يرتدون قمصانا وسراويل جينز، فإن قصة شعورهم جعلتهم يبدون كأنهم جنودا من قاعدة منطقة القناة العسكرية. ربت فيدل على كتف إحدى الساقيات. فالتفتت خلفها وصاحت صيحة سعادة، وألقت بذراعيها حوله. راقب مجموعة الشباب ما يحدث باهتمام، وكل منهم يحملق في الآخر باستنكار، تساءلت بيني وبين نفسي عما إذا كان مبدأ حقوق الولايات المتحدة قد شمل أيضا نساء بنما.

قادتنا الساقية إلى ركن، وضعت لنا فيه طاولة صغيرة ومقعدين.

حين جلسنا هناك، تبادل فيدل التحيات باللغة الأسبانية مع شابين يجلسان على طاولة بجوارنا. على عكس الجنود، كان هذان الشابان يرتديان قمصانا قصيرة الأكمام مطبوعة بالرسوم وسراويل فضفاضة. عادت الساقية ومعها زجاجتي بيرة، وربت فيدل على مؤخرتها وهي تستدير لتغادرنا. ابتسمت وألقت له بقبلة. نظرت حولي وشعرت بالارتياح حين اكتشفت أن أولئك الشباب الواقفين قرب البار قد كفوا عن مراقبتنا، لأنهم يركزون اهتمامهم على الراقصات.

كان غالبية الزبائن من الجنود الذين يتحدثون الإنجليزية، وكان هناك آخرون، مثل الشابين الجالسين بجوارنا، من الواضح أنهم بنميون. وذلك باد للعيان لتميزهم بشعورهم التي لم تتعرض لقصة شعر عسكرية، ولأنهم لا يرتدون قمصانا وسراويل جينز. قليل منهم جلسوا حول الموائد،

وآخرون اتكئوا على الحوائط، وبدا عليهم الانتباه الشديد واليقظة، مثل الكلاب الأسكتلندية الضخمة التي تحرس قطعان الماشية.

بدأت النسوة في التسكع حول الموائد. كنّ دائبات الحركة والتنقل، يجلسن على ركب الزبائن ويصحن في الساقيات ويرقصن ويدرن حول أنفسهن ويغنين ثم يدرن فوق المسرح.كن يرتدين تنورات ضيقة وبلوزات وسراويل جينز، وأثواب ضيقة وأحذية بكعوب عالية. كانت إحداهن ترتدي ثوبا طويلا فضفاضا وطرحة طويلة على رأسها من العصر الفيكتوري، وأخرى لم تكن ترتدي أكثر من مايوه بيكيني. كان واضحا أن الأكثر جمالا فقط هي التي تستطيع البقاء والاستمرار هنا. تعجبت من عدد تلك النسوة اللاتي وجدن طريقهن إلى بنما وتساءلت في يأس عما دفعهن لهذا الطريق؟

قلت لفيدل بصوت يعلو على صوت الموسيقا: «هل كلهن من بلدان أخرى؟» أومأ برأسه مجيبا، وقال مشيرا للساقيات: «فيما عداهن. إنهن بنميات».

- من أي بلد قدمن؟
- هندوراس، السلفادور، نيكاراجوا، جواتيمالا.
- البلدان المجاورة.
- ليس تماما، فكوستاريكا وكولومبيا أقرب إلينا.

أتت الساقية التي قادتنا إلى هذه المائدة وجلست على ركبة فيدل. دلك ظهرها برقة.

قال: «كلاريسا. من فضلك أخبري صديقي الأمريكي، لماذا تركن بلادهن». وأومأ برأسه تجاه المسرح. كانت هناك ثلاث فتيات جديدات يلقفن القبعات من الأخريات اللاتي قفزن وبدأن يرتدين ملابسهن. تغيرت الموسيقا إلى موسيقا السالسا وهي الرقصة المشهورة في أمريكا اللاتينية، ومع بدء الرقص أخذت الراقصات الجديدات يسقطن ملابسهن مع الإيقاع.

مدت كلاريسا يدها اليمني وقالت: «سعدت بلقائك» ثم نهضت وتناولت الزجاجات الفارغة وأكملت: «إجابة على سؤال فيدل، تلك الفتيات جئنا هنا هربا من الوحشية. سأحضر لكما زجاجات بيرة أخرى».

بعدما ذهبت كلاريسا، التفت إلى فيدل وقلت له: «هكذا الأمر إذن، يأتين من أجل الدولارات».

قال: «هذا صحيح. لكن لماذا تأتي الكثيرات من بلدان تحت سيطرة الحكم الديكتاتوري الفاشستي؟».

عدت انظر للمسرح. كانت ثلاثتهن يضحكن ضحكات خافتة ويتقاذفن كاب البحار كأنه

كرة. نظرت في عيني فيدل وسألته: «أنت لا تمزح. أليس كذلك؟» قال بجدية: «لا. أتمنى لو كنت أمزح، لكن معظم هؤلاء الفتيات فقدن عائلاتهن من آباء أو أشقاء، وأزواج أو أحباب. لقد نشأن مصاحبات للعذاب والموت. الرقص والدعارة ليسا أسوأ ما مررن به في حياتهن. هنا بمقدورهن جمع الكثير من المال، ثم يبدأن حياتهن من جديد في مكان آخر، يشترين متجرا صغيرا أو يفتحن مقهى».

قطع حوارَنا ضجيج وجلبة عند البار. رأيت ساقية تلكم واحدا من الجنود بقبضة يدها، فأمسك بها وبدأ يلوي رسغها. صرخت وسقطت على ركبتيها. ضحك وصاح على رفاقه. ضحكوا جميعا. حاولت أن تضربه بيدها الأخرى فلواها أكثر. تلوي وجهها من الألم.

ظل رجال الشرطة العسكرية عند الباب، يراقبون ما يحدث في هدوء. وثب فيدل مسرعا متجها نحو البار. لكن أحد الشابين الجالسين على المائدة المجاورة لنا مد يده وأوقفه قائلا: «اهدأ يا أخي. إنريك سيسيطر على الموقف».

خرج من الظلال قرب المسرح رجل بنمي طويل ورشيق، كان يتحرك بخفة كالقط وسيطر على الجندي في سرعة خاطفة، فطوق حلقه بيد بينما سكب على رأسه كوبا من الماء باليد الأخرى. تسللت الساقية مبتعدة. كثير من البنميين الذين كانوا يتسكعون بجوار الحوائط شكلوا شبه دائرة حول إنريك الطويل الذي تمثلت وظيفته في كونه «البلطجي» الذي يطرد المشاغبين من الحانة ويسيطر علي هدوء المكان. رفع الجندي على البار وقال شيئا لم أتبينه، ثم رفع صوته وتحدث بالإنجليزية ببطء، بصوت أعلا من صوت الموسيقا بما يكفي ليسمعه جميع الحاضرين في المكان.

«الساقيات محظورات عليكم أيها الشباب، ولن تلمسوا الأخريات قبل أن تدفعوا أجورهن».

وأخيرا تدخل رجلان من الشرطة العسكرية في الحدث. فاقتربا من كتلة تجمهر البنميين الواقفين وقالا:

«سنأخذه من هنا يا إنريك».

أنـزل الفتوة الجندي إلى الأرض وضغط ضغطة أخيرة على رقبته حتى لوي رقبته إلى الخلف و قال له إنريك: «هل تفهمني؟» ولم يتلقَّ جوابا أكثر من همهمة أنين خافت: «حسنا». دفع الجندي إلى الحارسين وقال لهما: «أخرجاه من هنا».

الفصل الثالث عشر
محادثات مع الجنرال

هذه الدعوة لم تكن متوقعة نهائيا. ذات صباح خلال زيارتي نفسها لبنما في عام ١٩٧٢، كنت جالسا في مكتبي في شركة الكهرباء البنمية التي تمتلكها الحكومة. كنت منهمكا في قراءة بيانات إحصائية حين تقدم رجل وطرق بلطف على زجاج باب مكتبي المفتوح. دعوته للدخول. اعتذر بشكل دمث عن إزعاجي وإخراجي من عالم الأرقام. عرفني بنفسه بأنه السائق الخاص للجنرال وقال إنه أتي ليصطحبني للقاء الجنرال في أحد بيوته الصغيرة ذات الطابق الواحد.

بعد ساعة، كنت أجلس على مائدة واحدة مع الجنرال عمر توريخوس. كان يرتدي ثيابا غير رسمية، على النمط البنمي عبارة عن سروال كاكي وقميص بأكمام قصيرة وأزرار من الأمام، بلون أزرق فاتح مختلط بلون أخضر رقيق.

كان طويلا وذا بنية رياضية ووسيما. ومما يثير الدهشة أنه بدا مسترخيا بالنسبة لرجل يحمل على عاتقه كل تلك المسئوليات. كانت هناك خصلة شعر سوداء ساقطة على جبهته البارزة.

سألني عن آخر رحلاتي إلى إندونيسيا وجواتيمالا وإيران. كان مفتونا بهذه البلاد الثلاثة، لكنه بدا أكثر اهتماما بشكل شخصي بملك إيران الشاه محمد رضا بهلوي. تولى الشاه السلطة في عام ١٩٤١، بعدما أسقط البريطانيون والسوفيت والده من الحكم، حين اتهموه بالتعاون مع هتلر[1].

سألني توريخوس قائلا: «هل تتصور أنه جزء من خطة خلع والده من العرش؟».

رئيس دولة بنما يعرف الكثير عن تاريخ هذه البلاد البعيدة.

تحدثنا عما حدث عام ١٩٥١ وكيف انقلبت المائدة على الشاه، وكيف دفعه رئيس وزرائه محمد مصدق إلى المنفى. كان توريخوس يعرف مثلما يعرف معظم العالم أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) هم الذين صنفوا رئيس الوزراء بأنه شيوعي وأن تلك الخطوة ساعدت على إعادة الشاه لمنصبه السابق. مع ذلك لم يكن يعرف - أو على الأقل لم يذكر - تلك الأمور التي حدثتني عنها كلودين عن مناورات كيرميت روزفلت البارعة وحقيقة أن هذا الحدث كان بداية عهد جديد في الإمبراطورية، وأنه الفتيل الذي أضرم النار التي دمرت الإمبراطورية العالمية.

وواصل توريخوس حديثه قائلا: «بعدما استعاد الشاه عرشه استهل نشاطه بسلسلة من البرامج الثورية التي تهدف لتنمية المجالات الصناعية ودخول إيران إلى العصر الحديث».

سألته كيف استطاع الإلمام بكل هذا الكم من التاريخ عن إيران. قال: «لقد جعلته موضوعي الأساسي. أنا لا أشغل نفسي كثيرا بسياسات الشاه مثل قبوله إسقاط والده ورضاه أن يصبح دمية في يد رجال الـCIA، جل ما يعنيني من أمره أنه قام بإصلاحات جيدة من أجل بلاده. ربما أتعلم منه شيئا إذا ظل في مقعد الحكم.

- هل تظن أنه لن يبقى؟

- أعداؤه نافذون.

- ولديه كذلك حراس مسلحون من أفضل رجال الحراسة في العالم.

رمقني توريخوس بنظرة ساخرة: «إن لشرطته السرية (سافاك SAVAK) سمعة السفاحين بقسوة قلوبهم. وذلك يعوقه عن كسب كثير من الأصدقاء. إنه لن يستمر طويلا». صمت ودار بعينيه في المكان ثم أكمل: «حراس مسلحون؟ أنا شخصيا لدي بعضهم». أشار إلى الباب وأكمل مرة أخرى: «هل تعتقد أنهم قادرون على حماية حياتي إذا أرادت بلادك التخلص مني؟».

سألته إذا كان يعتقد في إمكانية حدوث ذلك. رفع حاجبه بطريقة جعلتني أشعر أنني أحمق لطرحي مثل هذا السؤال. وقال: «نحن نملك القناة، والقناة أكبر بكثير من شركات أربينز وشركة الفواكه المتحدة - يونيتد فروت».

كنت قد درست شئون جواتيمالا، لذلك فهمت ما يرمي إليه توريخوس، فشركة الفواكه المتحدة رفعت قدر سياسة ذلك البلد ليتكافأ مع قدر قناة بنما. هذه الشركة أنشئت في أواخر القرن التاسع عشر، وسرعان ما تنامت لتصبح واحدة من أكبر الشركات ذات النفوذ في أمريكا الوسطى. في بدايات الخمسينيات من القرن العشرين، اقتضت حتمية الإصلاح اختيار جاكوبو آربينز رئيسا لجواتيمالا في انتخابات جذبت انتباه نصف الكرة الأرضية باعتبارها نموذجا يحتذى لممارسة الديمقراطية. في وقت كان فيه أقل من نسبة ٣٪ من سكان جواتيمالا يمتلكون ٧٠٪ من الأراضي الزراعية. وعد آربينز بمساعدة الفقراء على شق طريقهم للتمتع بحياة إنسانية كريمة وإنهاء المجاعات وبعد انتهاء عملية الانتخابات طبق بالفعل برنامج إصلاح شامل لجميع الأراضي.

قال توريخوس: «كل الفقراء والطبقات المتوسطة في كل أنحاء أمريكا اللاتينية أثنوا على أربينز، أنا شخصيا رأيت فيه واحدا من أبطالي. لكننا مع ذلك حبسنا أنفاسنا. كنا نعرف أن شركة الفواكه المتحدة تعارض هذه المعايير، ذلك أنها واحدة من أكبر الشركات المالكة للأراضي في جواتيمالا، وأكثرها ظلما وجورا. كانت تمتلك أيضا مساحات زراعية كبيرة في كولومبيا وكوستاريكا

وكوبا وجامايكا وسانتودومينجو، وهنا في بنما كذلك. لم يكن بوسعهم السماح لآربينز بنشر أفكاره بيننا».

كنت أعرف بقية القصة: «فإن شركة الفواكه المتحدة روجت لحملة شعبية كبيرة في الولايات المتحدة، بهدف إقناع الشعب الأمريكي والكونجرس أن آربينز جزء من مخطط روسي وأن جواتيمالا بلد محكوم سياسيا واقتصاديا من قبل السوفيت. في عام ١٩٥٤ نسق رجال الـ CIA ضربة قاضية فقد ضربت الطائرات الأمريكية مدينة جواتيمالا بالقنابل وأطيح بآربينز الذي اختير من خلال انتخابات ديمقراطية، واستبدلوا به الكولونيل كارلوس كاستيلو آرماس، الدكتاتور السفاك الذي لا يعرف قلبه الرحمة.

دانت الحكومة الجديدة بكل شيء لشركة الفواكه المتحدة. وتعبيرا عن امتنانها ألغت عمليات إصلاح الأرض، وأسقطت الضرائب عن الفوائد والأرباح المستحقة على المستثمرين الأجانب، وأبطلت حق الانتخاب، وسجنت الآلاف من المواطنين، وكان التعذيب مصير كل من تجرأ على معارضة كاستيلو. تتبع المؤرخون ذلك العنف والإرهاب الذي تفشى في جواتيمالا معظم ما تبقى من القرن، والتحالف - الذي لم يكن سرا - بين شركة الفواكه المتحدة ورجال الـCIA، والجيش الجواتيمالي تحت سيطرة الكولونيل الدكتاتور[٢].

واصل توريخوس كلامه قائلا: «وهكذا اغتيل آربينز اغتيالا سياسيا وشخصيا». صمت لحظة وتجهم وجهه وهو يقول: «كيف انطلت قذارات الـCIA على الشعب الأمريكي؟ فعقلي لم يقبلها بسهولة. الجيش هنا هو شعبي، وهم لن يغتالوني سياسيا» ثم ابتسم وقال: «على رجال الـ CIA أن يغتالوني بأنفسهم».

ظللنا صامتين لدقائق قليلة، كل منا غارق في أفكاره، قطع توريخوس الصمت يسألني: «هل تعرف من يمتلك شركة الفواكه المتحدة؟».

- شركة زاباتا للبترول وجورج بوش وسفيرنا في الأمم المتحدة.

انحنى للأمام وخفض صوته وقال: «رجل طموح. والآن أنا أقف ضد أصدقائه في بكتل».

روعني كلامه هذا، بكتل أكبر شركة هندسية عالمية، ودائمة التعاون في مشروعات مين MAIN . فيما يتعلق بالخطة الرئيسة التي تخص بنما، كنت أظن أنها واحدة من أكبر منافسينا.

«ماذا تقصد؟».

«نحن في سبيلنا لتشييد قناة جديدة، قناة على مستوى ماء البحر دون هاويس. يمكنها استيعاب سفن أكبر. قد يهتم اليابانيون بتمويلها».

«إنهم يمثلون الأكثرية من مجمل مستخدمي القناة».

«مؤكد. بالطبع إذا منحونا التمويل المالي سيتولون عملية الإنشاء».

صدمت لهذا القول، وقلت له: «وهذا سيضع شركة بكتل خارج المنافسة».

قال: «إنها أكبر عملية إنشائية في التاريخ الحديث» صمت ثم أكمل: «إن شركة بكتل تربطها علاقات وثيقة بنيكسون وفورد وبوش وبطانتهم». (بوش سفير في الأمم المتحدة، وفورد زعيم الأقلية في مجلس النواب ورئيس المؤتمر القومي للحزب الجمهوري، وجميعهم معروفون لتوريجوس كمراكز قوى في الحزب الجمهوري). «قيل لي إن عائلة بكتل تسحب الخيوط من الحزب الجمهوري».

أصابني هذا الحديث بعدم ارتياح. كنت واحدا من الأشخاص الذين عملوا على استمرار النظام الذي يستخف به الآن، وأنا واثق أنه على علم بذلك. بدت الآن مهمتي في أن أقنعه بقبول القروض الدولية مقابل تشغيل شركات الهندسة وشركات البناء الأمريكية - تصطدم بحائط مهول. قررت مواجهته مباشرة.

سألته: «سيادة الجنرال لماذا دعوتني للقائك هنا؟».

تطلع في ساعته وابتسم وقال: «نعم، حان الوقت لنبدأ عملنا. إن بنما تحتاج لمساعدتك. أنا أحتاج لمساعدتك».

صعقني بكلامه هذا. «مساعدتي؟! ماذا بوسعي أن أقدمه لك؟».

قال: «نحن سنستعيد القناة. لكن هذا ليس كافيا». ثم استرخي في مقعده وأكمل:

«لكننا نريد أن يكون أداؤنا نموذجيا. لابد أن نوضح أننا نهتم بمصالح فقرائنا ولابد أن ندرأ أي شك في أن هدفنا من كسب استقلالنا لا تمليه علينا روسيا أو الصين أو كوبا. علينا أن نثبت للعالم أن بنما دولة عقلانية. وأننا لا نقف ضد الولايات المتحدة بل نقف في صف حقوق الفقراء».

وضع ساقا فوق الأخرى. وأكمل: «ولكي نفعل ذلك نحتاج لبناء قاعدة اقتصادية لا مثيل لها في هذا النصف من الكرة الأرضية. إذا كان الأمر يتعلق بالكهرباء، فنعم. لكنها تلك الكهرباء التي تصل إلى أفقر فقرائنا وبسعر مدعم. الأمر ذاته ينطبق على وسائل المواصلات والاتصالات. وينطبق خاصة على الزراعة. كل هذا يتطلب مالا وهو بالطبع مالكم، مال البنك الدولي وبنك التنمية الأمريكي.

مرة أخرى، انحنى للأمام، ووضع عينيه في عينيّ وقال: «أدرك أن شركتكم تريد المزيد من العمل وعادة يتم ذلك بتضخيم حجم المشروعات: توسيع الطرق السريعة، زيادة المساحات الزراعية، تعميق الموانئ. إلا أن هذه المرة الأمر مختلف.

قدموا أفضل ما عندكم لشعبي، وسأقدم لكم كل العمل الذي تريدونه.

كان ما اقترحه غير متوقع بالمرة، لكنه صدمني وأثار اهتمامي في الوقت نفسه. إنه بالتأكيد يفند

كل ما تعلمته في MAIN ومن المؤكد أنه يعرف أن لعبة المساعدة الأجنبية لعبة مخادعة، كان عليه أن يعرف ذلك. فقد صنعت لتجعله ثريا، وتثقل كاهل بلاده بالديون. حيث ستصبح بنما تحت رحمة الولايات المتحدة ومجموعة شركاتها الاقتصادية. وتظل أمريكا اللاتينية مقيدة في مبدأ أحقية الولايات المتحدة في التوسع وأن ترضخ لواشنطن وول ستريت. كنت واثقا أنه يعرف أن هذا النظام مبني على فرضية أن كل أصحاب النفوذ فاسدون، وأن قراره هذا إن لم ينفذ لمصالحه الشخصية فقط فسينظر إليه بوصفه تهديدا، وشكل جديد من لعبة الدومينو التي تتساقط متسلسلة وفي النهاية ينهار النظام كله.

نظرت عبر مائدة القهوة إلى هذا الرجل الذي من المؤكد أنه يفهم أنه يتمتع بقوة فريدة وشديدة الخصوصية بسبب القناة ، وأن ذلك وضعه في موقف قلق بشكل خاص. كان ينبغي عليه أن يكون حريصا. فهو بالفعل قد رسخ وضعه زعيما بين زعماء الدول النامية. لو أنه فعل مثل بطله آربينز، فقرر أن يتخذ موقفا، فسيشهد العالم كيف سيكون رد فعل القائمين على الشركات العالمية؟ وكيف سيكون رد فعل حكومة الولايات المتحدة على وجه الخصوص؟ فالقتل هو المصير الوحيد للأبطال في تاريخ أمريكا اللاتينية.

كنت أعرف كذلك أنني انظر الآن إلى رجل يدحض كل التبريرات التي رتبتها لأفعالي. مؤكد أن لهذا الرجل نصيبه من الأخطاء الشخصية، لكنه ليس قرصانا، وليس هنري مورجان أو فرانسيس دراك؛ أولئك القراصنة الذين استخدموا المراسيم الملكية المزورة لإضفاء الشرعية على قرصنتهم على السفن أو بضائعها. فحدثت نفسي أن صوره المعلقة في الشوارع لا تعبر عن هذه الحنكة السياسية «الحرية هدف عمر، لم تخترع بعد الآلة التي تستطيع قتل الأهداف النبيلة»! ألم يكتب توم بين شيئا شبيها بهذا؟

ومع ذلك رحت أتساءل؛ ربما لا تموت الأهداف النبيلة، لكن ماذا عن الرجال الذين يقفون وراءها؟ شي جيفارا، آربينز، الليندي. وهو ما استدعي سؤالا آخر: ماذا بوسعي أن أقول إن كان توريخوس يسعى لدور الشهيد؟

حينما انصرفت، كان كل منا يفهم جيدا أن MAIN ستوقع عقد الخطة الرئيسة، وعلي أن أتأكد من مسايرة ذلك للعرض الذي عرضه توريخوس.

الفصل الرابع عشر
فترة جديدة ومشئومة في التاريخ الاقتصادي

وفقا لمنصبي كمسئول اقتصادي - لم تقتصر مسئوليتي على قسم معين في MAIN ولا على الدراسات التي نجريها في كل أنحاء العالم، وإنما شملت واجبات منصبي أن أكون على دراية فنية بكل الاتجاهات والنظريات الاقتصادية الراهنة. وكانت بدايات سبعينيات القرن العشرين تمثل فترة تحولات خطيرة في اقتصاد العالم.

ففي الستينيات، كونت مجموعة بلدان اتحادا للدول المنتجة للبترول، عرف باسم «منظمة الأوبك»، والتي نشأت كرد فعل على تنامي نفوذ شركات تكرير البترول الكبيرة.

كان لإيران دور كبير في تأسيس «أوبك»، رغم أن الشاه كان يدين بمنصبه - وربما حياته - لتدخل الولايات المتحدة إلى جانبه سرا أثناء صراعه مع مصدق. ربما لأن الشاه كان يعلم ذلك، فقد أدرك بذكائه أن المائدة قد تنقلب عليه في أية لحظة.

شاركه رؤساء دول البترول الغنية الأخرى هذا الإدراك وشاركوه أيضا جنون العظمة. بل أدركوا كذلك أن شركات البترول الكبيرة المعروفة باسم «الشقيقات السبع» كانت تتعاون لتخفض أسعار البترول وبناء عليه ينخفض الإيراد الذي تتحصل عليه البلاد المنتجة للبترول بهدف أن تزيد الشركات السبع من أرباحها. وهكذا تأسست منظمة الأوبك للدفاع عن مصالحها وللرد على مناورات الشركات الصناعية.

حدث كل هذا في بدايات سبعينيات القرن العشرين، حين استطاعت منظمة الأوبك أن تجعل الشركات الصناعية العملاقة تركع على ركبها. وقامت بسلسلة من الأداءات المتفق عليها جماعيا انتهت عام ١٩٧٣ بذلك الحظر الذي بلغ ذروته في صورة طوابير السيارات التي تنتظر دورها للتموين في محطات البنزين في الولايات المتحدة، مهددة بوقوع كارثة تفوق فترة الكساد الاقتصادي الكبرى. كان ذلك بمثابة صدمة شاملة لبلاد العالم المتقدمة، وخطر جسيم قليلون من بدأوا يستوعبونه.

حدثت أزمة حظر البترول في أسوأ وقت للولايات المتحدة، كانت تعيش فيه تخبطا سياسيا وفكريا، فالجنود عائدون من حرب فاشلة في فيتنام والرئيس بوشك أن يستقيل من منصبه. لم تكن متاعب نيكسون تنحصر فقط في شرق آسيا أو فضيحة ووتر جيت. فقد قطع مسافة كبيرة إلى القمة

في وقت يعد عتبة حقبة تاريخية جديدة في سياسة العالم واقتصاده. في ذلك الوقت بدا أن «البلدان الصغيرة» بما فيها دول الأوبك - صارت لها اليد العليا في السيطرة على الأمور.

كنت مفتونا بأحداث العالم، واتسعت رقعة تعاملاتي - وبالتالي موارد دخلي - لتشمل مجموعة الشركات الاقتصادية، ومع ذلك هناك جزء خفي داخلي يستمتع بمراقبة رؤسائي يتخذون مواقعهم. أظن أن ذلك خفف من إحساسي بالذنب. رأيت ظل «توماس بين» يقف في الصفوف الجانبية يهتف لمجموعة الأوبك.

لم يكن لأحد منا وقتها أن يدرك جميع التداعيات المترتبة على هذا الحظر في وقت حدوثه. بالطبع كان لكل منا نظرياته، لكننا لم نستطع فهم ما أصبح بعد ذلك جليا وواضحا، فقد أدركنا فيما بعد أن معدلات التنمية الاقتصادية بعد أزمة البترول انخفضت للنصف عما كانت عليه في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، صاحب ذلك تضخم مالي أكبر مما سبق. فتلك التنمية التي حدثت كانت مختلفة في بنيتها الاقتصادية والسياسية ولم توفر الكثير من فرص العمل، وهكذا زاد معدل البطالة. وأكثر من هذا حدث انهيار في النظام المالي الدولي، أجهز على الجميع، فعصف بالاقتصاد الدولي وبشبكة معدلات التبادل الاقتصادي الثابتة. كان انهيارا جوهريا لم يحدث منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

في ذلك الوقت، أصبحت أنا وأصدقائي نناقش هذه الأمور ونحن نتناول غداءنا أو نحتسي البيرة بعد أوقات العمل. بعض هؤلاء الأشخاص كانوا يعملون تحت رئاستي، فطاقم العمل معي يضم رجالا ونساء على درجة عالية من الذكاء، وأغلبهم من الشباب متحرري الفكر إلى حد بعيد، على الأقل بالنسبة للمستويات التقليدية. آخرون كانوا يعملون مديرين تنفيذيين في الصناعات الثقيلة في بوسطن أو أساتذة في الكليات المحلية. وأحدهم كان مساعدا لأحد شيوخ الكونجرس. اتسمت تلك اللقاءات بالود و البعد عن الرسميات، كانت أحيانا تضم عددا قليلا منا لا يتجاوز شخصين، وأحيانا أخرى يتجاوز عددنا عشرة أفراد. كانت دائما لقاءات صاخبة ومثيرة.

عندما أعود بذاكرتي لتلك المناقشات، أشعر بالحرج من ذلك الزهو الذي كان يملؤني آنذاك. كنت أعرف أمورا لا يمكنني البوح بها لهم. فحينما كان أصدقائي يتباهون أحيانا بانتماءاتهم الوظيفية وعلاقاتهم ببيكون هيل(*) أو واشنطن أو درجاتهم العلمية من دكتوراه وأستاذية - كنت أرد عليهم بدوري كخبير اقتصادي لإحدي الشركات الاستشارية الكبري متفاخرا بسفري حول العالم في الدرجة الأولى، لكن لم يكن بمقدوري مناقشة لقاءاتي الشخصية الخاصة مع رجال مثل توريخوس، أو مناقشة أمور أعرفها عن الطرق التي نتحكم بها في شئون الدول في كل القارات. وفي النهاية، وجدت نفسي حائرا بين الزهو والإحباط.

(*) مبنى مجلسي النواب والشيوخ.

حين كنا نتحدث عن قوة «البلدان الصغيرة» كان على أن أمسك بزمام نفسي بدرجة كبيرة. فقد كنت على دراية بأمور لا يمكن لأحدهم بأي حال أن يلم بها، ذلك أن مجموعة الشركات الاقتصادية الكبرى ورجال عصاباتها من قراصنة الاقتصاد وثعالب المخابرات المتظرين في خلفية الأحداث لن يسمحوا إطلاقا لـ«البلدان الصغيرة» بالسيطرة على الأمور. لم يكن بوسعي حتى أن أسرف في طرح أمثلة من قبيل آربينز ومصدق، والمثل الأكثر معاصرة في عام ١٩٧٣، حينها أطاحت الـ CIA بسلفادور الليندي رئيس شيلي الذي وصل للحكم عن طريق الانتخابات الديمقراطية.

كنت في الواقع أدرك أن قبضة الإمبراطورية العالمية تـزداد قوة رغم ظهور مجموعة الأوبك ورغم المؤشرات التي أوحت بدور مستقبلي فاعل لهذه المنظمة، أو هكذا ظننت وقتها.

كانت حواراتنا تركز غالبا على أوجه التشابه بين بدايات السبعينيات والثلاثينيات من القرن العشرين. فقد أبرزت الثلاثينيات حدا فاصلا أساسيا في الاقتصاد العالمي وطريقة دراسته وتحليله واستيعابه. فتح ذلك العقد الباب للاقتصاد الكينـزي وللنظرية القائلة إن على الحكومة أن تلعب دورا رئيسا في تنظيم الأسواق وتوفير الخدمات العامة مثل الصحة والتعويض المالي للعمال العاطلين، وغير ذلك من الخدمات الاجتماعية. كنا نبتعد عن الفرضية القديمة بأن السوق تنظم ذاتها بذاتها وأن تدخلات الدولة يجب أن تكون في أضيق الحدود.

تسبب الكساد في ظهور نظرية «البرنامج الجديد New Deal» وظهور السياسات التي روجت لتنظيم الاقتصاد، وأدى لتحكم الحكومة في الاقتصاد، ولترشيد الإنفاق عبر التطبيق الواسع للموازنات المالية. علاوة على ذلك، أدى الكساد الاقتصادي والحرب العالمية الثانية إلى خلق مؤسسات مثل البنك الدولي وصندوق النقد لدولي واتفاقية الجات.

كانت ستينيات القرن العشرين عقدا محوريا في تلك الفترة وفي عملية التحول من الكلاسيكية الجديدة إلى الاقتصاد الكينـزي. حدث ذلك في عهد كل من كيندي وجونسون وربما يكون الرجل الأكثر نفوذا هو روبرت مكنمارا.

كان مكنمارا الحاضر الغائب في مناقشات مجموعاتنا. كنا جميعا نعرف بأمر صعوده السريع للقمة مثل الشهاب، من مجرد مدير تخطيط إلى محلل مالي في شركة سيارات فورد في عام ١٩٤٩ إلى منصب رئيس الشركة شخصيا في ١٩٦٠، وهو أول رئيس للشركة يختارونه من خارج عائلة فورد. بعد ذلك بوقت قصير عينه كيندي وزيرا للدفاع.

أصبح مكنمارا مدافعا قويا عن الاقتصاد الكينـزي، مستخدما نماذج حسابية ودراسات إحصائية لتحديد عدد أفراد القوات المسلحة وتخصيص الأموال اللازمة واستراتيجيات أخرى إبان حرب فيتنام. وأصبح دفاعه عن «القيادة الجريئة» أسلوبا يتبعه مديرو الإدارات الحكومية وكذلك رؤساء الشركات. شكل هذا الدفاع أساسا لمدخل فلسفي جديد لعلم الإدارة في أكبر كليات الاقتصاد في الدولة، وأدى أخيرا إلى وجود سلالة جديدة من رؤساء مجالس الادارات الذين من

المفترض أن يكونوا رأس الحرية نحو الإمبراطورية العالمية[1].

حين كنا نجلس حول المائدة نناقش ما يجري في العالم من أحداث، كنا مفتونين بشكل خاص بدور مكنمارا رئيسا للبنك الدولي، تلك الوظيفة التي قبلها بسرعة بعد تركه منصبه وزيرا للدفاع. مع ذلك، كان أصدقائي يركزون على حقيقة أنه يرمز للرابطة المعروفة بين الجيش والصناعة. فقد تقلد أعلى منصب في شركة كبيرة وتقلد منصبا في وزارات الحكومة، والآن يتربع على عرش رئاسة البنك الأكثر نفوذا في العالم. كان مثل ذلك الإخلال الواضح في الفصل بين السلطات يثير رعب الكثيرين منهم، ويمكن القول إنني كنت الوحيد بينهم الذي لم يفاجأ بذلك. أدرك الآن أن إسهام روبرت مكنمارا الأكبر والأكثر شرا في التاريخ هو الاحتيال على البنك الدولي وجعله وسيلة للإمبراطورية العالمية بمقياس لم يشهده أحد من قبل.

وكذلك أرسي سابقة تحتذى بقدرته على التنقل بين السلطات المختلفة المكونة لمجموعة الكوربوقراطية لتتناغم مع من يأتي بعده. على سبيل المثال: جورج شولتز الذي كان وزيرا للخزانة ورئيس مجلس السياسة الاقتصادية في عهد نيكسون، عمل رئيسا لشركة بكتل Bechtel، ثم صار وزير الخارجية في عهد ريجان. وكاسبر وينبيرجر الذي كان نائب رئيس شركة بكتل والمجلس العام، ثم أصبح فيما بعد وزير الدفاع في عهد ريجان. وريتشارد هيلمز الذي عمل قائدا لـCIA في عهد جونسون ثم أصبح سفيرا للولايات المتحدة في إيران في عهد نيكسون. أما ريتشارد تشيني الذي خدم وزيرا للدفاع في عهد جورج بوش، ثم رئيسا لشركة هوليبيرتون Halliburton، ثم خدم نائبا للرئيس في عهد جورج بوش - فقد بدأ حياته مؤسسا لمجموعة شركات زاباتا للبترول Zapata Prtroeum Corp،، وعُين سفيرا للولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة في عهد الرئيس نيكسون وفورد، وكذلك كان رئيسا لـCIA في عهد فورد.

عندما أرجع بذاكرتي، أندهش لبراءة تلك الأيام. كنا لا نزال نعمل على أصعدة عديدة وفق الأساليب القديمة لبناء الإمبراطورية. هدانا كيرمت روزفلت سبيلا أفضل عندما أطاح برجل إيران الديمقراطي(*) ووضع مكانه مستبدا طاغية(**). كان الكثير مما ننجزه نحن قراصنة الاقتصاد من مشروعاتنا في أماكن مثل إندونيسيا والإكوادور وحتي فيتنام - مثالا مذهلا على سهولة انزلاقنا نحو الأساليب القديمة.

لكي نغير هذا الأسلوب اقتضي الأمر التعامل مع المملكة العربية السعودية؛ العضو الأهم في منظمة الأوبك.

(*) يقصد مصدق رئيس وزراء إيران.

(**) شاه إيران رضا بهلوي.

الفصل الخامس عشر
المملكة العربية السعودية وعمليات غسيل الأموال

في عام ١٩٧٤، أراني أحد دبلوماسي المملكة العربية السعودية صورا فوتوغرافية للرياض عاصمة بلاده، ومن ضمنها صور لقطيع من الأغنام يرعى بين أكوام القمامة خارج مبنى حكومي. حين سألت ذلك الدبلوماسي عنها، صدمتني إجابته حين قال لي إنها وسيلة التخلص من القمامة.

قال: «لا يمكن لمواطن سعودي كريم الأصل أن يجمع القمامة. نحن نتركها لقطعان الأغنام والماشية».

أغنام! في عاصمة أكبر مملكة بترول في العالم. بدا لي أمرا لا يصدق.

في ذلك الوقت، كنت واحدا من مجموعة مستشارين، في بداية عملنا لوضع تصور لإيجاد حل للتغلب على أزمة البترول. ألهمتني تلك الأغنام كيفية استنباط ذلك الحل، آخذا في الحسبان معدل التطور في المملكة العربية السعودية عبر القرون الثلاث السابقة.

فتاريخ المملكة العربية السعودية مليء بالعنف والتطرف الديني. ففي القرن الثامن عشر وحد القائد العسكري المحلي محمد بن سعود القوات تحت لواء حركة دينية أصولية تمثلت في المذهب الوهابي. كان اتحادا قويا، وخلال القرنين التاليين غزت عائلة سعود وحلفاؤها الوهابيون معظم أراضي شبه الجزيرة العربية، بما فيها الأماكن الإسلامية المقدسة، مكة والمدينة.

عكس المجتمع السعودي أصولية مؤسسيه وساده اتجاه متشدد تبنى التفسيرات الحرفية للنصوص القرآنية، فتكفلت هيئة الأمر بالمعروف بإلزام الناس بأداء الصلاة لأوقاتها خمس مرات يوميا، وألزمت المرأة بتغطية جسدها من الرأس حتى أخمص القدمين. كان العقاب لمرتكب الجرائم صارماً، وأصبح من المعتاد رؤية الإعدام والرجم علنا. عندما زرت الرياض للمرة الأولى، دهشت حين قال لي السائق إنني أستطيع أن أترك كاميرتي وحقيبتي وحتي حافظة نقودي في مكان مكشوف في السيارة ونتركها قرب السوق دون أن نغلقها.

قال: «هنا لا يفكر أحد في السرقة. فاللصوص تقطع أيديهم».

فيما بعد في ذلك اليوم، سألني إذا كنت أحب أن أزور ذلك الميدان الشهير المسمي «ساحة

الاعدام» وأشاهد قطع الرءوس (الأحكام التي فرضها اتباع المذهب الوهابي التي نعتبرها تـزمتا دينيا جعلت الشوارع آمنة تماماً من اللصوص من خلال فرض أقصى أشكال العقاب البدني على منتهكي القوانين) واعتذرت عن الدعوة.

كانت المرجعية الدينية للقرار السياسي والاقتصادي السعودي وراء قرارها السياسي بقطع البترول عن الغرب مما صدم العالم الغربي. في السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ يوم «عيد الغفران» أكبر العطلات قدسية عند اليهود - أطلقت مصر وسوريا هجماتها المتزامنة على إسرائيل. كان ذلك بداية حرب أكتوبر؛ رابع الحروب العربية الإسرائيلية وأكثرها فداحة، تلك الحرب التي تركت أكبر الأثر على العالم.

ضغط الرئيس المصري السادات على الملك فيصل ملك السعودية للثأر من الولايات المتحدة ردا على دعمها لإسرائيل باستخدام ما أشار إليه السادات بـ«سلاح البترول». في ١٦ أكتوبر أعلنت إيران ودول الخليج الخمسة بما فيها السعودية زيادة سعر البترول بنسبة ٧٠٪.

اجتمع وزراء البترول في مدينة الكويت وتباحثوا في اتخاذ قرارات أكثر تشدداً، فكان ممثل العراق متحمسا جدا للنيل من الولايات المتحدة، فدعا ممثلي الدول العربية الآخرين لتأميم المؤسسات التجارية الأمريكية في العالم العربي، وفرض حظر كامل لبيع البترول للولايات المتحدة، وكل الدول الأخرى الصديقة لإسرائيل، واسترداد الأموال العربية من كل البنوك الأمريكية. وأوضح لهم أن المدخرات العربية في البنوك الأمريكية شديدة الأهمية، وأن هذا الفعل قد يسفر عنه أزمة مالية ليست أقل من أزمة عام ١٩٢٩.

رفض الوزراء العرب الآخرون الموافقة على مثل هذه الخطة الراديكالية، لكن في ١٧ أكتوبر قرروا التحرك للأمام بالمزيد من الحظر المحدود، الذي بدأ بتخفيض الإنتاج بنسبة ٥٪ كل شهر حتى تجاب طلباتهم السياسية. واتفقوا على حتمية عقاب الولايات المتحدة لمساندتها لإسرائيل وبناء عليه لابد أن تلقي أقسى حظر من الممكن أن يفرض ضدها. وأعلنت كثير من البلدان التي حضرت هذا اللقاء أنها ستخفض الإنتاج إلى نسبة ١٠٪ بدلا من ٥٪.

في ١٩ أكتوبر، طلب الرئيس نيكسون من الكونجرس مبلغ ٢,٢ مليار دولار مساعدة لإسرائيل. في اليوم التالي، فرضت المملكة العربية السعودية وغيرها من البلاد العربية المنتجة للبترول حظرا كاملا على سفن البترول المتجهة للولايات المتحدة[1].

انتهى حظر بيع البترول في ١٨ مارس عام ١٩٧٤. كانت فترة الحظر قصيرة لكن ذات تأثير هائل. فقد ارتفع سعر بترول السعودية من ١,٣٩ دولار للبرميل في أول يناير عام ١٩٧٠ إلى ٨,٣٢ في أول يناير عام ١٩٧٤[2]. أما رجال السياسة والإدارة الحكومية فلم ينسوا إطلاقا الدروس التي تعلموها منذ بداية السبعينيات من القرن العشرين وحتى وسطها. على المدى البعيد أدت

صدمة تلك الشهور القليلة إلى تقوية الكوربوقراطية Corporatocracy، واتحاد أعمدتها الثلاثة (الشركات الكبرى والبنوك الدولية والحكومة) كما لم يحدث من قبل. ذلك الاتحاد الذي قُدِّر له الاستمرار.

أسفر الحظر عن مواقف وتغيرات سياسية شديدة الأهمية في دلالتها. فقد أيقنت وول ستريت وواشنطن أنه من غير الممكن التسامح مع مثل ذلك الحظر مرة أخرى. كانت حماية مصادر إمدادنا بالبترول تمثل دوما أولوية تحولت بعد عام ١٩٧٣ إلى هاجس. رفع الحظر مكانة السعودية كلاعب في عالم السياسة ودفع واشنطن لإدراك الأهمية الاستراتيجية للمملكة العربية السعودية على الاقتصاد الأمريكي. أكثر من هذا، شجعت الولايات المتحدة قيادات الكوربوقراطية Corporatocracy للبحث الحثيث عن سبل لاستعادة أمريكا لأموالها المدفوعة في البترول مرة أخرى، والتفكير الجاد في استغلال واقع نقص الهياكل الإدارية والتأسيسية التي تُمكن حكومة السعودية من إدارة ثروتها الكبيرة إدارة صحيحة.

أما بالنسبة للمملكة العربية السعودية، فإن العائدات الإضافية التي حصلت عليها من ارتفاع سعر البترول كانت نعمة أكثر شبها بالنقمة. فقد امتلأت خزائن الدولة بمليارات الدولارات، ومع ذلك، أدت إلى تقويض بعض المعتقدات الدينية الوهابية الصارمة. سافر أثرياء السعودية حول العالم والتحقوا بالمدارس والجامعات في أوروبا والولايات المتحدة، اشتروا سيارات فارهة وأثثوا منازلهم على الطرز الغربية. حل شكل جديد من الانغماس الدنيوي بدلا من المعتقدات الدينية المحافظة. قدمت هذه النزعة الاستهلاكية الحل للمخاوف المتعلقة بتكرار أزمة حظر البترول مستقبلاً.

بدأت واشنطن (تقريبا بعد نهاية عملية الحظر مباشرة) التفاوض مع السعوديين، فعرضت عليهم مقايضة المساعدة التقنية والمعدات والتدريبات العسكرية وفرصة للنهوض ببلدهم لتلحق بركب القرن العشرين مقابل دولارات البترول، وأهم من ذلك مقابل ضمان عدم تكرار حظر البترول مطلقا. أسفرت المفاوضات عن إنشاء وكالة التنمية الأكثر غرابة في التاريخ، وهي اللجنة الأمريكية السعودية للتعاون الاقتصادي التي اشتهرت اختصارا بـJECOR، ابتدعت تلك اللجنة مفهوما جديدا في برامج المساعدة الأجنبية المتعارف عليها، فهي تعتمد على الأموال السعودية لتمويل الشركات الأمريكية في بناء المملكة العربية السعودية!!

رغم أن الإدارة كلها والمسئولية المالية عهد بها لوزارة الخزانة الأمريكية - كانت هذه اللجنة المشتركة تتمتع باستقلالية بلا حدود. في النهاية أنفقت سنويا مليارات الدولارات في فترة تجاوزت خمسة وعشرين عاما، دون رقابة من الكونجرس. لأن الموضوع لم يكن به أموال حكومية أمريكية، فلم يكن للكونجرس أية سلطة للتدخل في الأمر، رغم دور وزارة الخزانة كوسيط.

درس ديفيد هولدين وريتشارد جونز وثيقة اللجنة الأمريكية السعودية للتعاون الاقتصادي

JECOR دراسة مستفيضة وعلقا عليها بقولها: «إنها الاتفاقية الأغرب من نوعها في تاريخ الولايات المتحدة مع بلد نامٍ. رغم أنها توسع من إمكانيات تدخل الولايات المتحدة في المملكة، وتقوي مفهوم المصالح المشتركة بين البلدين»[٣].

في مرحلة مبكرة لجأت وزارة الخزانة للاستعانة بشركة MAIN كاستشاري. استدعيت وقيل لي إن وظيفتي ستكون شديدة الحساسية وأن كل ما سأفعله وأعلمه عن العمل على درجه عالية من السرية. ومن خلال موقعي الذي مكنني من إلقاء نظرة شاملة، بدا لي الأمر بمثابة واجهة للتستر على عمل محظور. في تلك الأثناء صور لي الأمر كما لو أن شركة MAIN هي المؤسسة الاستشارية الرئيسة في العملية، لكني أدركت فيما بعد أننا لم نكن بمفردنا بل كانت هناك حاجة لخبرات عدة شركات استشارية أخرى.

ولأن كل شيء كان يتم في سرية كاملة، لم يشركوني في حضور الجلسات الاستشارية لوزارة الخزانة مع غيري من المستشارين، وعليه لم أكن على ثقة بمدى أهمية دوري في الترتيبات لهذه الصفقة غير المسبوقة. علمت أن الترتيبات قد أرست معايير جديدة لقراصنة الاقتصاد وابتكرت وسائل جديدة تساعد على توسيع إمبراطورية الكوربوقراطية بدلاً من الطرائق القديمة. وأعرف كذلك أنهم تبنوا معظم السيناريوهات التي أسفرت عنها الدراسات التي قمت بها، وأن MAIN كوفئت بواحد من أكبر العقود وأربحها في المملكة العربية السعودية، وقد حصلت على مكافأة كبيرة ذلك العام.

كانت وظيفتي تنحصر في التنبؤ بما قد يحدث في المملكة العربية السعودية إذا استثمرت مبالغ طائلة في الإنفاق على تطوير البنية التحتية، وخطط إنفاق تلك المبالغ. باختصار، طلب مني تطبيق قدراتي الإبداعية بأقصى ما أستطيع في تبرير استنزاف مئات الملايين من الدولارات من اقتصاد السعودية، بشرط إدراج شركات الهندسة والبناء الأمريكية. أمرت أن أنجز بهذه الأمور بنفسي ولا أعتمد على طاقم العمل الذي يعمل معي، وعزلوني في قاعة تعلو القسم الذي كنت أعمل فيه بعدة طوابق، وأخبرت أن المهمة التي كلفت بها تتعلق بالأمن القومي الأمريكي ومن المحتمل أن تدر على شركة MAIN ربحا ماليا كبيرا.

فهمت بالطبع أن الهدف الأساسي هنا ليس - كالمعتاد - أن نثقل كاهل هذا البلد بالديون التي لن يستطيع سدادها، بل الأحرى إيجاد طرق تضمن إعادة أكبر نسبة من الدولارات المدفوعة في البترول مرة أخرى للولايات المتحدة. علينا في هذه العملية أن نجر المملكة العربية السعودية إلى هذا الطريق وأن نجعل اقتصادها يزداد تشابكا وخضوعا لمصالحنا، وباستغلالنا لاقتصادها سيزداد تقليدها للأسلوب الغربي وبناء عليه يزداد ميلها وتبعيتها لنظامنا.

بمجرد ما بدأت في تنفيذ المهام المكلف بها، أدركت أن الأغنام التي تجوب شوارع الرياض هي أحد مفاتيح الحل، فقد كانت هي العامل المحرج للمواطنين السعوديين الذين يسافرون كثيرا حول

العالم متنقلين من مكان فخم لآخر، تلك الأغنام يجب أن تستبدل بشيء أكثر ملائمة لهذه المملكة الصحراوية التي تتلمس طريقها للعالم المعاصر. وأدركت كذلك أن رجال الاقتصاد القائمين على منظمة الأوبك يؤكدون على حاجة البلاد المنتجة للبترول لإنتاج المزيد من المشتقات البترولية لتعظيم القيمة المضافة بدلا من تصدير البترول خاما فقط، كان رجال الاقتصاد يحثون تلك البلاد على تطوير صناعة البترول الذي يستخرجونه لاستخدامه في إنتاج مشتقات من البترول يستطيعون بيعها لبقية بلاد العالم بسعر أعلي مما يحصلون عليه عن بيع البترول الخام.

وبهذا الإدراك انفتح الباب لاستراتيجية تؤدي لأن يربح الجميع، وبالطبع كان موضوع الأغنام مجرد نقطة بداية. وعليه فإنه يمكن إنفاق عوائد البترول في استقدام شركات أمريكية لجمع القمامة والتخلص منها بأحدث الطرق التكنولوجية بدلاً من الأغنام كما هو حادث الآن وهو ما سيجعل السعوديين فخورين بهذه النقلة الحضارية.

عدت أفكر في الأغنام كطرف من معادلة يمكن تطبيقها على معظم القطاعات الاقتصادية الأخرى في المملكة، وصفة للنجاح في عيون العائلة المالكة، ووزارة الخزانة الأمريكية ورؤسائي في MAIN طبقاً لهذه المعادلة ستصبح الأموال مخصصة للتركيز على انشاء قطاع صناعي يقوم بتحويل البترول الخام إلى منتجات صالحة للتصدير. وعليه فستنشأ في الصحراء مجمعات لصناعة البتروكيماويات تحيطها مناطق صناعية وعمرانية ضخمة.

من الطبيعي لمثل هذه الخطة أن تتطلب كذلك إقامة محطات توليد طاقة كهربائية تصل قدراتها إلى آلاف الميجاواط وخطوط للنقل والتوزيع، والطرق السريعة وخطوط أنابيب البترول وشبكات الاتصال، ووسائل مواصلات متضمنة مطارات جديدة وتحسين الموانئ، والاستعانة بعدد كبير من الأفراد للصناعات الخدمية، والبنية التحتية الأساسية لإدارة كل هذه المشاريع.

كان لدينا جميعا طموحات كبيرة بأن هذه الخطة ستسفر عن نموذج لما ينبغي أن تكون عليه الأشياء في بقية بلاد العالم. وسيجوب السعوديون العالم متغنين بحمدنا وشكرنا.

قد يدعون الزعماء من بلاد أخرى عديدة ليأتوا ويشهدوا المعجزات التي حققناها لهم، أولئك الزعماء سيطلبون منا آنذاك مساعدتهم بتقديم خطط مشابهة للنهوض ببلادهم، وفي معظم الأحوال ستكون بلادا غير أعضاء في منظمة الأوبك، وسيعمل البنك الدولي أو غيره على ترتيبات تثقل كاهلهم بالديون لتمويل تلك الخطط. وهكذا نؤدي أداء جيدا لصالح الإمبراطورية العالمية.

حين كنت أقلب الأمر على وجوهه، تذكرت الأغنام، ورن صدى كلمات السائق في أذني: «لا يمكن لمواطن سعودي كريم الأصل أن يجمع القمامة».

سمعت هذا المعني مرارا وتكرارا في سياقات مختلفة، كان جليا للعيان أن السعوديين ليس

لديهم النية في أن يعمل مواطنوهم في الأعمال الوضيعة، سواء العمل في المرافق الصناعية أو في المقاولات أو أية مشروعات أخرى مشابهة. وذلك لعدة أسباب؛ فعدد السكان قليل لدرجة لا تسمح بتوفير العمالة الكافية لهذه المشروعات. علاوة على ذلك، أخذ أمراء آل سعود على أنفسهم عهدا بمنح مواطنيهم فرصة للتعليم، ومستوى معيشيا لا تتناسب معه تلك الأعمال اليدوية. ربما يستعينون بآخرين، أما هم فليس لديهم أية نية أو دافع للعمل في المصانع والمقاولات.

بناء على ذلك، فإنه من الضروري استقدام العمالة من بلدان أخرى؛ بلدان تتوافر فيها العمالة الرخيصة حيث يحتاج أفرادها للعمل. إذا أمكن، قد نستعين بعمال من بلدان الشرق الأوسط أو البلدان الإسلامية الأخرى، مثل مصر وفلسطين وباكستان واليمن.

هذه النظرة للأمور تخلق مجالات متعددة لفرص التنمية. فستكون هناك حاجة ماسة لبناء مساكن لهؤلاء العمال، إضافة إلى المرافق الأخرى مثل الأسواق الكبيرة، والمستشفيات والمطافئ وأقسام الشرطة، وخطط لمعالجة المياه والمجاري والكهرباء والاتصالات ووسائل النقل. في الواقع، ستكون النتيجة النهائية خلق مدن حديثة في مكان لم يكن أكثر من مجرد صحراء جرداء. هنا، أيضا، فرصة استخدام أحدث التقنيات العلمية مثل محطات تحلية المياه وأنظمة الميكرويف ومنشآت للعناية الصحية، وتكنولوجيا الكومبيوتر. كانت المملكة العربية السعودية هي فردوس العاملين في التخطيط الاقتصادي و الإنشاءات الهندسية فهي تمثل لهم فرصة لا تتكرر في التاريخ.

دولة متخلفة تماما تمتلك عمليا ثروات مالية لا حدود لها، ورغبة في اللحاق بركب العصر الحديث من أوسع أبوابه وأسرعها.

ينبغي أن أعترف أنني استمتعت بهذا العمل جدا، فلم تكن هناك معلومات كافية متاحة لا في المملكة العربية السعودية ولا حتى في مكتبة بوسطن العامة ولا في أي مكان آخر - تمكنني من استخدام نماذج الاقتصاد القياسي. في الواقع فإن ضخامة الأعمال المتوقعة (التحول السريع الشامل لأمة بأكملها بدرجة صعود لم يشهدها أحد من قبل) تجعل وجود أية بيانات قديمة بلا قيمة.

ومن ناحية أخرى، لم أكن مطالبا في هذه المرحلة بتقديم تحليلات كمية، فببساطة أعملت الخيال ووضعت هذه التصورات في تقارير تتحدث عن مستقبل مزدهر لهذه المملكة.

كانت هناك بالطبع قواعد ومعادلات قياسية لحساب بعض التكاليف مثل كلفة توليد واحد ميجاواط من الكهرباء، ومد ميل واحد من الطرق الطويلة وكذلك تكلفة مياه الشرب، والصرف الصحي والإسكان والطعام والخدمات العامة لكل فرد من العمال الذين ستستقدمهم المملكة. لم يكن ضروريا أن أنقح هذه التقديرات أو أصل لنتائج نهائية، كانت وظيفتي ببساطة أن أصف سلسلة من الخطط (أو بعبارة أدق رؤيتي) لما يمكن أن تكون عليه الأمور، وأن أصل إلى تقديرات غير تفصيلية للتكاليف المتوقعة لها.

كان علي دائما أن آخذ في الحسبان الأهداف الحقيقية، مثل رفع النفقات إلى الحد الأقصى لصالح الشركات الأمريكية وزيادة تبعية المملكة العربية السعودية للولايات المتحدة.

لم أستغرق وقتا طويلا حتى أدركت أن الأمرين يسيران معا على خطين متوازيين، فكل خطط المشروعات الجديدة تقريبا ستتطلب صيانة مستمرة وعمليات تحديث من فترة لأخرى، وخاصة أنها مشروعات على درجة عالية من التقنية المعقدة لضمان تولي الشركات الأمريكية التي نفذتها عمليات الصيانة والتحديث. في الواقع، كنت كلما تقدمت في التخطيط أعد قائمتين لكل مشروع أخطط له؛ القائمة الأولى تضم التصميمات الهندسية المختلفة وعقود المقاولات التي نتوقعها، والقائمة الأخرى تضم عقود الصيانة والإدارة طويلة الأمد. صار متوقعا أن تربح كل من شركة MAIN وشركات بكتل وبراون آند رووت وهوليبرتون وستون آند وبستر والعديد من شركات الهندسة والمقاولات الأمريكية أرباحا طائلة على مدى عقود مقبلة.

بالإضافة للبعد الاقتصادي، كانت هناك أحبولة أخرى من شأنها جعل المملكة العربية السعودية تابعة لنا، لكن بطريقة جد مختلفة. ذلك أن تحديث مملكة البترول الغنية سيتبعها مجموعة من الأفعال وردود الأفعال. على سبيل المثال، سيثير ذلك التحديث حفيظة المسلمين المحافظين، كما ستستشعر اسرائيل وغيرها من الدول المجاورة تهديدا.

إضافة إلى ذلك فإن التطور الاقتصادي للمملكة سوف يستتبعه في الغالب نمو صناعة أخرى، ألا وهي صناعة أمن شبه الجزيرة العربية، فالشركات المدنية المتخصصة في الصناعات العسكرية والهيئات الصناعية التابعة للجيش الأمريكي سوف تتوقع عقودا سخية وكذلك عقود صيانة و إدارة طويلة الأجل. ووجود مثل تلك الشركات والفنيين سيتطلب مرحلة أخرى من مشروعات الهندسة والبناء، بما في ذلك المطارات والقواعد العسكرية وإدارات الموارد البشرية، وكل مشروعات البنية التحتية المرتبطة بمثل هذه المرافق.

أرسلت تقاريري في مظاريف مختومة ومغلقة عبر البريد الإداري مخاطبا «السيد مدير مشروعات وزارة الخزانة». كنت ألتقي على فترات متباعدة اثنين من أعضاء فريقنا؛ نائب رئيس MAIN ورئيسي المباشر. ولأنه ليس لدينا اسم رسمي لهذا المشروع الذي لا يزال قيد البحث والدراسة، ولم يصبح بعد جزءا من JECOR كنا نهمس إليه مشيرين بقولنا SAMA وهو اختصار مزدوج المعني، في الواقع كنا نشير به إلى عمليات غسيل أموال المملكة العربية السعودية Saudi Arabian Money Laundering AFFAIR، وفي الوقت نفسه كان اختصار للبنك المركزي السعودي الذي يسمونه الوكالة المالية للمملكة العربية السعودية Saudi Arabian Monetary Agency أو سما SAMA.

أحيانا كان ينضم إلينا ممثل وزارة الخزانة. كنت أطرح بعض الأسئلة أثناء هذه الاجتماعات. بشكل أساسي، كنت أقدم وصفا تقريريا لعملي، وأرد على تعليقاتهم، وأوافق على أداء ما يطلب مني.

كان نواب الرؤساء وممثلو وزارة الخزانة بشكل خاص متأثرين بأفكاري الخاصة بالاتفاقيات طويلة الأجل بشأن الخدمات والإدارة. مما حفز واحدا من نواب الرؤساء أن يبتكر جملة جديدة طالما استخدمناها فيما بعد، مشيرا إلى المملكة بأنها «البقرة التي يمكن أن نحلبها حتى بلوغنا سن التقاعد» بالنسبة لي كانت تلك الجملة تستحضر في ذهني صور الأغنام وليس الأبقار.

أدركت خلال هذه الاجتماعات أن كثيرا من منافسينا ضالعين في أعمال مشابهة، وأننا في نهاية المطاف سنكافأ جميعا على مجهوداتنا بعقود سخية مربحة. افترضت أن شركة MAIN والشركات الأخرى تحملت نفقات صغيرة حتى تستدرجهم إلى الحلبة. فسجلت الشركات تلك النفقات بما في ذلك رواتبنا على انها مصروفات إدارية ولم تحملها على نفقات تلك الدراسات المبدئية للمشروعات. كان مثل هذا التصرف معتادا تماما في مرحلة الإعداد للبحث والتطوير والاقتراحات لمعظم المشروعات. في هذه الحالة تجاوز الاستثمار الأولي بالطبع المعدلات الطبيعية، لكن نواب رؤساء تلك الشركات بدوا مقتنعين لأقصى درجة بأننا سنستطيع استرداد ما أنفقناه.

رغم علمنا أن منافسينا يفعلون ما نفعل، افترضنا جميعا أن هناك عملا يكفي الجميع. كنت واثقا ان العقود التي سنحصل عليها ستلقى قبول وزارة الخزانة وأن تلك الشركات الاستشارية التي قدمت الحلول التي ستُنفذ ستحصل على أفضل العقود. أخذت الأمر على عاتقي بوصفه تحديا شخصيا لخلق سيناريوهات مختلفة حتى نستطيع الوصول لمرحلة الحصول على عقود التصميم والبناء. كان نجمي يتألق في صعود سريع في MAIN. وسيضمن لي كوني اللاعب الأساسي في سما SAMA المزيد من الصعود إذا نجحنا في إنجاز التعاقد.

خلال اجتماعاتنا، كنا نناقش صراحة احتمال أن سما SAMA وعملية JECOR بأكملها سترسي سوابق جديدة. فقد أبرزت مدخلا جديدا لخلق عمل مربح في دول ليست مضطرة أن توقع نفسها تحت طائلة الديون للبنوك العالمية. خطر في الذهن بسرعة دولتان مثل إيران والعراق بوصفهما أمثلة لمثل تلك الدول. علاوة على ذلك وأخذا للطبيعة الإنسانية في الحسبان - شعرنا أنه من المحتمل أن يحذوا زعماء هذه الدول حذو المملكة العربية السعودية.

بدأ الشك يساورني في أن حظر بيع البترول في عام ١٩٧٣ لم يكن شرا كله، إذ سينتهي المطاف بمنح شركات الهندسة والبناء الأمريكية أرباحا كبيرة غير متوقعة، مما سيساعد على المدى الأبعد في تمهيد السبيل نحو الإمبراطورية العالمية.

عملت في تلك المرحلة التحضيرية لمدة ثماني شهور (رغم أن الأمر لم يكن ليستغرق أكثر من عدة أيام من العمل الجاد) معزولا في غرفة الاجتماعات أو شقتي التي تطل على متنزه بوسطن العام. أما طاقم العمل الذي يعمل معي فقد كلفوا بمهام أخرى، وأدوها على أكمل وجه دون الرجوع إلي، وذلك رغم أنني كنت أتابعهم بين حين وآخر.

بمرور الوقت تقلصت السرية المحيطة بعملنا. أدرك كثيرون أن ثمة شيئا كبيرا يتعلق بالمملكة العربية السعودية في سبيله للظهور على أرض الواقع. ازدادت الإثارة والتشويق وانتشرت الشائعات والأقاويل. أصبح نواب رؤساء الشركات وممثلو وزارة الخزانة أكثر صراحة إلى حد ما، وأعتقد أن ذلك لأنهم هم أنفسهم اصبحوا على دراية بالمزيد من المعلومات مثل تفاصيل الخطة البسيطة التي برزت على السطح.

تحت غطاء هذه الخطة المتطورة تدريجيا، أرادت واشنطن أن يتعهد السعوديون بضمان إمدادهم بالبترول وأن تكون الأسعار في مستويات قد تتذبذب لكن في حدود مقبولة للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها. فإذا هددت البلاد الأخرى مثل إيران أو العراق أو إندونيسيا أو فنزويلا بمنع بيع البترول لنا، فإن المملكة العربية السعودية ستزيد من إنتاجها لسد النقص .

ببساطة عندما تدرك الدول الأخرى أن السعودية ستفعل ذلك ستشعر بالإحباط وترتدع على المدى الطويل عن مجرد التفكير في منع البيع. مقابل هذا الضمان، ستمنح واشنطن لبيت آل سعود صفقة مغرية؛ إذ إنها ستلتزم بدعمهم سياسيا دعما لا نظير له، ودعمهم عسكريا عند الضرورة. وبذلك تؤمن لهم استمرارهم في الحكم.

كان من الصعب على بيت آل سعود رفض تلك الصفقة، بموقعهم الجغرافي ونقص القوة العسكرية، وخشية تعرضها للهجوم من جيران مثل إيران وسوريا والعراق، وبطبيعة الأمر إسرائيل. بناء على ذلك، ستستخدم واشنطن تلك الميزة في فرض شرط آخر، شرط سيتطلب إعادة تعريف دور EHM في العالم ويعمل به بعد ذلك كنموذج يحتذي ويطبق في غيرها من الدول، كالعراق مثلا.

بالنظر لما حدث أجد أحيانا صعوبة في فهم قبول المملكة العربية السعودية لذلك الشرط. مؤكد أن بقية العالم العربي ومجموعة الأوبك وغيرها من الدول الإسلامية فزعت لدى علمها بشروط هذه الصفقة والطريقة التي أذعن بها بيت آل سعود لطلبات واشنطن.

كان هذا الشرط يقضي أن تضع المملكة العربية السعودية دخلها من البترول تحت يد الحكومة الأمريكية مقابل حماية أمنها. بمعني أوضح، ستنفق وزارة الخزانة الأمريكية الفوائد البنكية لتلك الأموال بطرق تمكن المملكة العربية السعودية من الخروج من مجتمع القرون الوسطي واللحاق بركب العصر الحديث والعالم الصناعي. بكلمات أخرى، ستدفع المملكة للشركات الأمريكية أرباح عائد بيع البترول والتي تزيد عن مليارات الدولارات - لإنجاز تصوراتي (ومن المحتمل كذلك تصورات بعض منافسي)، لتحويل المملكة العربية السعودية إلى قوة صناعية حديثة. ستعيننا وزارة الخزانة الأمريكية بها على أن يدفع السعوديون رواتبنا في عمليات إنشاء مشروعات البنية التحتية أوحتي إنشاء مدن كاملة في أنحاء شبه الجزيرة العربية.

رغم أن السعوديين احتفظوا بحقهم في إبداء الرأي في طبيعة تلك المشروعات، فالحقيقة أن فيالق من الأجانب (أغلبهم كفرة في عيون المسلمين) حددت الشكل المستقبلي والبنية الاقتصادية لشبه الجزيرة العربية. والمفارقة أن ذلك سيتم في مملكة مؤسسة على مبادئ الوهابية المحافظة وتدير شئونها وفقا لهذه المبادئ منذ عدة قرون. ورغم أن الأمور بدت في ظاهرها تمثل نوعا ما من التعارض مع مذهبهم الوهابي المتشدد لكن آل سعود شعروا بضعف البدائل المتاحة أمامهم تحت وطأة هذه الظروف والضغوط السياسية والعسكرية التي مارستها واشنطن.

من منظورنا، بدت إمكانية الأرباح الهائلة غير محدودة. كانت صفقة رابحة جدا وإمعانا في نجاحها لم يتوجب علينا الحصول على موافقة الكونجرس، تلك الموافقة التي لا تحبذ الشركات الكبيرة مثل «بكتل» و«مين» البحث عنها، تلك الشركات التي تفضل عدم فتح ملفاتها أو إطلاع أي شخص على أسرارها. لخص توماس ويبان - الصحفي السابق والأستاذ المساعد في معهد الشرق الأوسط - ببلاغة نقاط هذه الصفقة كالتالي:

> *«إن السعوديين قوم يسبحون في المال، وسيوردون مئات الملايين من الدولارات إلى وزارة الخزانة، التي ستحتجز هذه الدولارات في البنوك لحين الحاجة إليها للدفع للموردين أو الموظفين. سيضمن هذا النظام تدوير أموال السعوديين للعمل في الاقتصاد الأمريكي مرة أخرى. أيضا يؤكد أن ينفذ مديرو اللجنة المشتركة أي مشروعات يوافق السعوديون عليها دون الحاجة لموافقة الكونجرس»*[1].

استغرق جمع المعلومات عن السكان من أجل هذه «المقاولة» التاريخية وقتا أقل مما يتوقع أي شخص. على أية حال، كان علينا بعد ذلك وضع تصور لخطوات التنفيذ، ولنبدأ في تحريك الأمور أرسل مبعوث حكومي فوق العادة من أرفع مستوى إلى المملكة العربية السعودية، وهي مهمة على أعلى درجة من السرية، لم أعرف إطلاقا من هو على وجه التحديد، لكنني أعتقد أن ذلك المبعوث كان هنري كسينجر.

أيا من كان ذلك المبعوث، كانت مهمته الأولى أن يذكر العائلة المالكة بما حدث لجارتهم إيران عندما حاول مصدق طرد شركات البترول البريطانية، ثانيا أن يحدد خطة جذابة بحيث لا يستطيعون رفضها، في الواقع، أن ينقل للسعوديين ضمنيا عدم وجود بدائل لديهم. لاشك أنه تركهم بذلك الانطباع الواضح بأنهم إما يقبلون عرضنا ومن ثم يكــون ضمانا بأننا سنساندهم ونحميهم كحكام، إما يرفضون ويذهبون في طريق مصدق. حين عاد المبعوث إلى واشنطن، جلب معه رسالة فحواها أن السعوديين استجابوا لطلبات الولايات المتحدة.

كانت هناك عقبة واحدة صغيرة. أنه علينا إقناع اللاعبين الأساسيين في الحكومة السعودية،

قالوا لنا إن هذا موضوع عائلي. فالمملكة العربية السعودية ليست دولة ديمقراطية، ومع ذلك، يبدو أنه داخل بيت آل سعود يعملون وفق رأي الأغلبية.

في عام ١٩٧٥، كلفوني بالحوار مع واحد من هؤلاء اللاعبين الأساسيين. كنت أعرفه دوما باعتباره الأمير «و. W». و ذلك رغم أنني لم أكن على يقين إن كان هو ولي العهد أم لا. كانت مهمتي إقناعه أن موضوع غسيل أموال المملكة العربية السعودية سيعود بالنفع على البلاد وعليه شخصيا بالمثل.

لم يكن الأمر بالبساطة التي توقعتها في البداية. فالأمير «و. W» أعلن عن نفسه كوهابي ملتزم وأصر أنه لا يريد أن يرى بلاده تسير على درب النمط الغربي في التجارة. وصرح كذلك أنه يعي جيدا الطبيعة المغرية لاقتراحاتنا. قال إننا نبغي الأهداف نفسها التي ابتغاها الصليبيون منذ ألف عام مضت وهي نصرنة العالم العربي.

حقيقة، كان على صواب بدرجة ما في ذلك الشأن. في رأي الشخصي أن الفرق بين الصليبيين وبيننا فرق نسبي. فقد صرح كاثوليك العصور الوسطي الأوربيون أن غرضهم إنقاذ المسلمين من عذاب المطهر. أما نحن فقد أعلننا أننا نريد مساعدة السعوديين على المعاصرة والتحديث. بينما الحقيقة كما أعتقد أن الصليبيين شأنهم شأن مجموعة الاقتصاديين الكوربوقراطين corporatocracy كانوا يبحثون أولا عن توسيع إمبراطوريتهم.

وإذا نحينا جانبا المعتقدات الدينية، فإن الأمير«و. W» لديه نقطة ضعف وحيدة تتمثل في ضعفه تجاه الحسناوات الشقراوات. ومما يبعث على السخرية أن أنوه أن هذه الصورة النمطية تعد مجحفة للسعوديين- فمن الواجب على أن أذكر أن الأمير «و. W» كان الرجل الوحيد بين كثير من السعوديين الذين عرفتهم الذي لديه هذه الميول إزاء الحسناوات، أو على الأقل، الوحيد الذي صارحني بها. وقد لعب ذلك دورا كبيرا في وضع أساس هذه الصفقة، وبيّنت إلى أي مدى يمكن أن أذهب لكي اتم مهمتي.

الفصل السادس عشر
التستر على أسامة بن لادن وتمويله

منذ البداية، أعلن الأمير «و. W» أنه يتوقع في أي وقت يزورني فيه في بوسطن أن يأتنس برفقة امرأة من النوع الذي يفضله، وأنه يتوقع منها أن تقوم بدور أكبر من مجرد الدور البسيط للمرافقة. لكنه بالتأكيد لا يريد مرافقة محترفة ممن يستدعين بالتليفون، حتى لا يصادفها هو أو أي من أفراد عائلته في الشارع أو في حفلات الكوكتيل. تم لقائي بالأمير «و. W» في سرية تامة، مما سهل علي تلبية طلباته.

كانت «سالي» شقراء زرقاء العينين جميلة، تعيش في منطقة بوسطن. وزوجها يعمل طيارا في شركة يونيتد للطيران United Airlines، ويسافر كثيرا سواء بحكم وظيفته أو بدونها، دون محاولة منه لإخفاء خياناته الزوجية.

كانت سالي متساهلة تجاه علاقات زوجها النسائية، فهي حريصة على الراتب الذي يحصل عليه من وظيفته والشقة الفخمة التي تعيش فيها في حي راق من أحياء بوسطن، والامتيازات التي تتمتع بها زوجة الطيار آنذاك. وكانت منذ عقد سابق تنتمي لمجموعة من الهيبز وقد اعتادت على ممارسة العلاقات الجنسية مع أي شخص دون تمييز، وقد وجدت أن فكرة مصدر سري للدخل فكرة جذابة، ومن هنا وافقت على منح الأمير «و. W» فرصة بشرط أن يتحدد مستقبل العلاقة بناء على سلوكه ومعاملته معها.

ولحسن حظي، نجح كل منهما في إرضاء رغبات الآخر.

مثل موضوع الأمير «و. W» وسالي فصلا ثانويا من قضية غسيل أموال المملكة العربية السعودية، فقد تسبب لي في بعض المشاكل. إذ إن شركة مين MAIN تحظر على العاملين بها منعا باتا أى ممارسات غير مشروعة قانونا، كنت بهذا الشكل أعمل قوادا وهو نشاط خارج على القانون في ولاية ماساشوستس، أما المشكلة الرئيسة التي ظهرت على السطح فهي كيف ندفع مقابل خدمات سالي.

من حسن الحظ كان قسم الحسابات يمنحني حرية كبيرة في بند نفقاتي. فقد كنت أوزع الإكراميات على الجميع واستطعت إقناع السقاة في بعض أفخم المطاعم في بوسطن بإعطائي فواتير على بياض، في تلك الفترة كان الموظفون يدونون فيها الفواتير وليس أجهزة الكمبيوتر كما هو الحال الآن.

مع مرور الوقت أصبح الأمير أكثر جرأة معي، وفي النهاية أراد مني ترتيب سفر سالي لتعيش معه في جناحه الخاص في المملكة العربية السعودية. ولم يكن هذا طلبا غريبا تلك الأيام، فقد كانت تجارة الفتيات تجارة رائجة بين بعض بلدان أوروبا والشرق الأوسط. كن يمنحن عقودا لفترة محدودة من الوقت، وعند انتهاء هذه الفترة يعدن لأوطانهن بحسابات بنكية كبيرة جدا.

لخص روبرت بير (وهو مسؤول ادارة العمليات في الـCIA لمدة عشرين عاما ومتخصص في شئون الشرق الأوسط) الأمر بقوله:

> *«في بدايات سبعينيات القرن العشرين، حين بدأ تدفق أموال البترول، بدأ أصحاب المشروعات اللبنانيون بتهريب العاهرات للمملكة من أجل الأمراء... ولأن أفراد الأسرة المالكة لا يعرفون كيف يرصدون أرقام الوارد والمنصرف من حساباتهم البنكية، فقد أدى ذلك إلى ثراء اللبنانيين ثراء فاحشا»*[1].

كنت معتادا على مثل هذه المواقف، بل أيضا كنت أعرف أشخاصا يمكنهم ترتيب مثل هذه الأمور. ومع ذلك، بالنسبة لي شخصيا، كانت هناك عقبتان ضخمتان: سالي وعملية الدفع. كنت واثقا أن سالي لن توافق على مغادرة بوسطن والانتقال إلى بيت في الصحراء في الشرق الأوسط. الأمر الثاني كان واضحا جدا أنه لا يمكن الحصول على فواتير على بياض من المطاعم تغطي كل هذه النفقات.

تولى الأمير «و. W» تذليل العقبة الثانية وأكد لي أنه ينوي أن يدفع بنفسه أجر عشيقته، كان كل المطلوب مني هو إجراء الترتيبات. أيضا منحني راحة كبيرة حين أفضي لي بمكنون نفسه، بأن سالي التي ستذهب للمملكة العربية السعودية ليس شرطا أن تكون هي المرأة نفسها التي رافقته في الولايات المتحدة. اتصلت هاتفيا بالعديد من أصدقائي الذين على علاقة بأشخاص لبنانيين ممن يقومون بإجراء هذه العقود في لندن وأمستردام و في غضون أسبوعين وقعت سالي البديلة على العقد.

كان الأمير «و. W» شخصا معقدا، وكانت سالي تشبع رغباته الجسدية، ولأنني ساعدته في هذا الشأن أولاني ثقته، ومع ذلك لم أتمكن على الإطلاق من إقناعه أن سما SAMA هي الاستراتيجية التي يمكنه أن يزكيها لدى بلاده. اضطررت للعمل جاهدا لاقناعة بوجهة نظري. أنفقت الساعات الطوال أعرض عليه البيانات الإحصائية وأساعده في تحليل الدراسات التي أجريناها في بلدان أخرى متضمنة نماذج لعمليات اقتصاد قياسية طورتها من أجل الكويت أثناء فترة تدريبي مع كلودين، في الشهور القليلة السابقة على توجهي إلى إندونيسيا. وأخيرا أبدى بعض الاقتناع.

لم أكن على دراية بتفاصيل ما جرى بين زملائي من القراصنة واللاعبين الأساسيين الآخرين في السياسة السعودية. جل ما عرفته أن الأسرة المالكة وافقت في النهاية على العرض بأكملة. كوفئت MAIN مقابل دورها الفعال بعقد مربح من أعلي مستوى، وذلك تحت إشراف وزارة الخزانة الأمريكية. كلفنا بعمل مسح شامل لمناطق الدولة المحرومة من الكهرباء والتي بها نظام كهربائي متهالك، وتصميم نظام جديد يضاهي نظيره في الولايات المتحدة.

كالمعتاد، كانت مهمتي أن أذهب مع مجموعة العمل الأولى وأصمم جدولا بتقديرات الاحمال الكهربية المتوقعة واقتصادياتها لكل مناطق المملكة. كان هناك ثلاثة رجال تحت إمرتي في العمل، كلهم ذوو خبرة في المشروعات الدولية، كانوا يعدون للمغادرة إلى الرياض حين وصلتنا توجيهات من القسم القانوني أنه وفق شروط العقد علينا تجهيز مكتب كامل وإداراته في الرياض في غضون الأسابيع القليلة المقبلة. لم يلحظ أحد هذا الشرط لما يزيد عن شهر. تعهدت اتفاقيتنا مع وزارة الخزانة بما هو أكثر من ذلك ألا وهو تصنيع كل المعدات إما في الولايات المتحدة أو في المملكة العربية السعودية. ولأن المملكة العربية السعودية ليس بها مصانع لإنتاج مثل هذه الأدوات، تحتم إحضار كل شيء من الولايات المتحدة. ومما أصابنا بالكآبة، أننا اكتشفنا أن بواخر الشحن كانت تصطف في طوابير، انتظارا لدورها لدخول الموانئ في شبه الجزيرة العربية. وكان ذلك معناه أن الأمر يستغرق شهورا عديدة لشحن المعدات والأدوات للسعودية.

لم تكن شركة MAIN لتفقد مثل هذه العقد القيم بسبب مثل هذه الأمور التافهة. في اجتماع عاصف ذهنيا حضره كل الأطراف، واستغرق عدة ساعات. جاء الحل العبقري من خلال استئجار طائرات بوينج ٧٤٧، لشحن المعدات وأدوات التجهيز من متاجر بوسطن وإرسالها للمملكة العربية السعودية مباشرة. أذكر أنني كنت حين ذاك أفكر أنه من المناسب وحتى تكتمل اللعبة حبذا لو كانت الطائرة ملكا لشركة يونيتيد الأمريكية للطيران وبقيادة طيار بعينه لعبت زوجته دورا حاسما في إقناع بيت آل سعود بالصفقة.

غيرت هذه الصفقة وجه السعودية بشكل ملموس بين عشية وضحاها. حلت محل الأغنام مئتا شاحنة صفراء لامعة من تلك الشاحنات المزودة بأجهزة تضغط القمامة وتتخلص منها في يسر وسهولة، بعقد بلغت قيمته مئتا مليون دولار مع شركة وست مانجمنت Wast Management[٢]. وبأسلوب مشابه كان تحديث كل القطاعات الاقتصادية في السعودية، بداية من الزراعة والطاقة وصولا للتعليم ووسائل الاتصال. كما علق توماس ليبمان في عام ٢٠٠٣:

> *«أعاد الأمريكيون تشكيل مساحات شاسعة جرداء، كانت مليئة بخيام البدو الرحل وأكواخ الفلاحين المبنية من الطين ليشكلوها من جديد بأسلوبهم الخاص فتحولت البلاد من صورتها الأولى إلى صورة جديدة*

مختلفة حيث امتلأت بمقاهي ستاربكس الأمريكية وروعي في تصميم البنايات ان تلائم احتياجات المقعدين. أصبحت المملكة العربية السعودية اليوم دولة بها طرق سريعة وأجهزة كمبيوتر ومراكز تجارية مكيفة تزخر بالمتاجر البراقة نفسها الموجودة في الضواحي الأمريكية المزدهرة، والفنادق الأنيقة، ومطاعم الوجبات السريعة، وأجهزة التليفزيون والأقمار صناعية، ومستشفيات على أحدث طراز، وأبراج مكاتب إدارية مزودة بمصاعد كهربائية، ومدن ملاهي بألعاب متطورة تصيب راكبيها بالدوار»[٣].

كانت الخطة التي استوعبناها في عام ١٩٧٤ نصب أعيننا ونحن نتفاوض مع بلدان البترول الغنية. وبمعنى ما، فإن اللجنة المشتركة سما – جاكور JECOR /SAMA ستعمل على ضبط أسعار البترول في هذه المنطقة مثلما حدث سابقا في إيران على يد كيرمت روزفلت، وتلك الطريقة المبتكرة في التحكم في البلدان ستصبح سلاحا سياسيا اقتصاديا جديدا في يد السلالة الجديدة من جنود الإمبراطورية العالمية.

أرسى وجود اللجنة المشتركة سما- جاكور وأعمال غسيل أموال المملكة العربية السعودية سابقة جديدة يحتذي بها في الشرعية الدولية فيما بعد. كان هذا شديد الوضوح في قضية عيدي أمين، عندما نفي ذلك الدكتاتور الأوغندي سيء السمعة في عام ١٩٧٩، حصل على حق اللجوء السياسي في المملكة العربية السعودية. ورغم أنه يعد سفاحا طاغية ومسئولا عن موت ما بين مائة ألف إلى ثلاثمائة ألف شخص، فقد تمتع بحياة مرفهة، ومنحه آل سعود منزلا وسيارات وخدما. اعترضت الولايات المتحدة على هذا الأمر بهدوء ولم تصر على اعتراضها خشية التأثير على ترتيباتها مع السعوديين. قضى أمين آخر سنوات عمره في الصيد والتنزه على الشاطئ. مات في ٢٠٠٣ في جدة، متأثرا بإصابته بالفشل الكلوي عن عمر يناهز الثمانين[٤].

أما الأفدح ضررا فكان الدور الذي سمح للسعودية بأن تلعبه في تمويل الإرهاب العالمي. وغضت الولايات المتحدة الطرف عن تمويل بيت آل سعود لأسامة بن لادن في أفغانستان لمواجهة الاتحاد السوفيتي في ثمانينيات القرن العشرين، وأسهمت الرياض وواشنطن معا في إمداد المجاهدين بمبلغ يقدر بـ٣,٥ مليار دولار[٥]. إلا أن الولايات المتحدة والسعودية تجاوزت ذلك الحد بكثير.

في أواخر ٢٠٠٣ نشرت مجلة يو إس نيوز وورلد ريبورت U.S.News World Report دراسة مستفيضة بعنوان العلاقات السعودية، راجع الباحثون بالمجلة آلاف الصفحات من الوثائق القانونية والتقارير الأجنبية الاستخباراتية وغير ذلك من الوثائق والتقت بعشرات الأشخاص من المسئولين الحكوميين والخبراء في شئون الإرهاب والشرق الأوسط.

خرجت تلك الدراسات بنتيجة فحواها ما يأتي:

«إن البراهين دامغة ولا تقبل الشك على أن المملكة العربية السعودية حليفة أمريكا منذ وقت طويل وأكبر منتجة للبترول في العالم قد أصبحت - على حد تعبير مسؤول رفيع في وزارة الخزانة - بؤرة تمويل للإرهاب... بداية من أواخر ثمانينيات القرن العشرين، وبعد الصدمة المزدوجة للثورة الإيرانية وحرب السوفيت في أفغانستان، أضحت المساعدات الخيرية السعودية شبه الرسمية هي المصدر الأساسي لتمويل حركة الجهاد التي تنمو بمعدل سريع. وفيما يقرب من عشرين دولة، كانت الأموال تستخدم لإعداد معسكرات تدريب، وشراء الأسلحة وتجنيد المزيد من المتطوعين...

وقال بعض كبار ضباط الجيش المحنكين إن منح السعودية الأموال بسخاء للموظفين الأمريكيين جعلهم يغضون البصر عما يحدث، فعقود تبلغ قيمتها مليارات الدولارات على هيئة عطايا وهبات ورواتب ذهبت إلى قطاع عريض من موظفي الولايات المتحدة السابقين الذين تعاملوا مع السعوديين، ومنهم سفراء ورؤساء المراكز الاستخباراتية التابعة لـ CIA، وحتى وزراء...

ألمحت تقارير التنصت على الاتصالات أن أفرادا من العائلة المالكة لم يكتفوا بمساندة تنظيم القاعدة، بل ساندوا جماعات إرهابية أخرى»[٦].

بعد هجمات عام ٢٠٠١ على مركز التجارة العالمي ومبنى البنتاجون، ظهرت للوجود أدلة جديدة على العلاقات السرية بين واشنطن والرياض. ففي أكتوبر ٢٠٠٣ كشفت مجلة فانتي فير Vanity Fair عن معلومات لم تكن معروفة للملأ من قبل، في تقرير تفصيلي بعنوان: «حماية السعوديين» عن القصة التي ظهرت حول العلاقة بين عائلة بوش وبيت آل سعود من جهة وعائلة بن لادن من جهة أخرى، والتي لم تدهشني. كنت أعرف أن هذه العلاقات تعود على الأقل إلى زمن عملية غسيل الأموال التي جرت في المملكة العربية السعودية والتي بدأت في عام ١٩٧٤، وأبان الفترة التي عمل بها جورج بوش الأب سفيرا للولايات المتحدة في الأمم المتحدة (من ١٩٧١ - ١٩٧٣) ثم حين أصبح رئيس الـ CIA (من ١٩٧٦ - ١٩٧٧). الذي أدهشني فعلا أن أصبحت الحقائق المحجوبة أخيرا في متناول الصحف.

ووفقا لصحيفة فانتي فير:

«إن أسرتي بوش وآل سعود من أقوى الأسر الحاكمة في العالم، وتربط بينهما علاقات سياسية وتجارية وشخصية حميمة لأكثر من عشرين عاما...

على المستوى التجاري دعم السعوديون شركة هاركن إنرجي Harken Energy *وهي شركة بترول كانت تعاني من تعثر مالي، ويستثمر أمواله فيها جورج بوش الابن. ومؤخرا دعى الرئيس السابق بوش الأب وحليفه الدائم وزير الخارجية السابق جيمس بيكر الثالث - السعودية لتقديم دعم مالي لمجموعة كارليل للاستثمار* Carlyle Group*، وهي بلا جدال أكبر شركة خاصة تعمل في مجال صناديق الاستثمار في العالم أجمع. يواصل اليوم الرئيس السابق بوش عمله كمستشار لها، كما يوجد ضمن مستثمريها أحد السعوديين الذي اتهم بدعمه مجموعات إرهابية».*

بعد أيام من حادث ١١ سبتمبر انطلق بعض أثرياء السعودية ومن بينهم أفراد من عائلة بن لادن من الولايات المتحدة على متن طائرات خاصة. لم يسمح لأحد بتفتيش الطائرات ولم يتعرض الركاب لأي استجواب. فهل ساعدت علاقة عائلة بوش الطويلة مع السعوديين في تسهيل حدوث هذا؟[٧].

الجزء الثالث
١٩٧٥ - ١٩٨١

الفصل السابع عشر
مفاوضات قناة بنما وجراهام جرين

حققت لي العلاقة مع المملكة العربية السعودية مكاسب وظيفية عديدة. كان مستقبلي شخصيا يسير على درب جيد، لكن نجاحاتي في المملكة الصحراوية في عام ١٩٧٧ فتحت لي بالتأكيد أبوابا جديدة، أقمت إمبراطورية صغيرة تشمل ما يقرب من عشرين موظفا محترفا يتمركزون في مكتبنا في بوسطن، وانتشرت مجموعة من المكاتب الاستشارية في أقسام ومكاتب MAIN الأخرى حول العالم.

أصبحت أصغر شريك في تاريخ شركة عمرها مئة عام. فبالإضافة لمنصبي كبير اقتصاديين حصلت كذلك على منصب مدير تخطيط اقتصادي وإقليمي. كنت ألقي المحاضرات في جامعة هارفارد وغيرها من المراكز العلمية، وكانت الصحف تلح علي في طلب المقالات عن الأحداث الجارية[1]. اشتريت يختا بحريا، يرسو في ميناء بوسطن بجوار البارجة الحربية التاريخية «يو أس أس كونستيتيوشن» التي اشتهرت بضبطها للقراصنة البرابرة بعد حرب الاستقلال بفترة ليست طويلة.

كنت أحصل على راتب كبير. ولدي من الأسهم والسندات ما يمكني من دخول عالم المليونيرات قبل أن أصل للأربعين من عمري. صحيح أن زواجي قد فشل، لكني كنت أقضي وقتي مع حسناوات وملكات جمال في قارات مختلفة.

جاء برونو بفكرة جديدة للتنبؤ عبارة عن نموذج اقتصاد قياسي مبني على كتابات علماء رياضيات روس في أوائل القرن. شمل النموذج تحديد إمكانيات ذاتية للتكهن بأن ثمة قطاعات معينة من الاقتصاد ستنمو. بدت وسيلة لتبرير زيادة تضخم المعدلات التي يجب إظهارها للحصول على قروض كبيرة وطلب مني برونو أن أدرس ما الذي يمكنني فعله مع هذا المفهوم.

لجأت لدكتور ناديورام براساد، وهو عالم رياضي شاب يعمل في معهد ماستيشوسيس للتكنولوجيا MIT، ، والتقيت به في القسم الذي أعمل به ووفرت له ميزانية، فاستطاع في غضون

ستة شهور أن يطور منهج ماركوف لنماذج الاقتصاد القياسي. وعكفنا على دراسة سلسلة من البحوث التقنية التي قدمها ماركوف بوصفه صاحب منهج ثوري في التنبؤ بتأثير استثمار البنية التحتية على التنمية الاقتصادية.

كان هذا هو ما نريده تماما؛ أداة علمية تثبت بالحجج العلمية أننا نخدم الدول بمساعدتها على عدم الوقوع تحت طائلة ديون لن تستطيع إيفاءها مطلقا. بالإضافة لذلك، شخص وحيد فقط هو الذي يستطيع فهم تشابك وتعقيد نموذج ماركوف أو تحليل نتائجه وهو شخص شديد المهارة في علم الاقتصاد القياسي وقادر على بذل كثير من الوقت والمال. كانت تلك البحوث منشورة من قبل مؤسسات كثيرة لها وزنها، وعرضناها رسميا في مؤتمرات وجامعات عدد من الدول. ذاعت شهرة تلك البحوث الاقتصادية وذاعت معها شهرتنا في عالم صناعة الاقتصاد[٢].

ارتبطت أنا وعمر توريخوس بكلمة شرف بشأن اتفاقنا السري. تأكدت تماما من نزاهة دراساتنا وتنفيذ اقتراحاتنا بأخذ مصالح الفقراء في الحسبان، رغم أنني سمعت تذمرا بأن توقعاتي في بنما لم تصل لحد مستويات التضخم المعتادة، وأنهم بدءوا يتحركون حركة ملتوية تجاه الاشتراكية، وحقيقة أن MAIN مازالت مستمرة في كسب عقود من حكومة توريخوس. تلك العقود التي شملت أولا تقديم خطط رئيسة جديدة تشمل الزراعة بجانب قطاعات أخرى من البنية التحتية التقليدية. لاحظت كذلك أن توريخوس وجيمي كارتر وضعا اتفاقية القناة على طاولة المفاوضات مرة أخرى.

أسفرت مفاوضات القناة عن اهتمام وتعاطف كبير في كل أنحاء العالم. الجميع في كل مكان ينتظرون أن يروا إن كانت الولايات المتحدة ستفعل ما يعتقد بقية العالم أنه الصواب؛ ألا وهو السماح للبنميين بالسيطرة على الأمور، أم بدلا من ذلك ستحاول إعادة تأسيس نموذجنا العالمي القائم على مبدأ أحقية التوسع، ذلك الذي قد تزعزع بفشلنا في فيتنام.

بدا جيمي كارتر للكثيرين، في مظهر الرجل العقلاني الودود الذي انتخبه الشعب الأمريكي لمنصب الرئاسة في الوقت المناسب. مع ذلك، سخطت عليه مناطق واشنطن المحافظة ومنابر الوعاظ الدينيين في الجناح اليميني. كيف لنا أن نتخلص من حائط الدفاع القومي ذاك، وهذا الرمز الدال على براعة الولايات المتحدة، وهذا المجرى المائي الذي يربط ثروات أمريكا الجنوبية بنزوات مصالح الولايات المتحدة الاقتصادية؟

أثناء رحلاتي إلى بنما، اعتدت الإقامة في فندق كونتننتال إلا أنني في زيارتي الخامسة انتقلت إلى الجانب الآخر من الشارع حيث فندق بنما لأن فندق كونتننتال كان يخضع لعمليات إصلاح وتجديد ومليء جدا بالضجيج. في البداية استأت من الإزعاج، فقد كان فندق الكونتننتال بمثابة بيتي حين أكون بعيدا عن الوطن، لكنه الان يستحوذ على حيث أجلس في البهو المترف، بكراسيه المصنوعة من

نبات الراتان ومراوح السقف المصنوعة من الخشب. كنت أشعر كأنني أجلس في كازابلانكا، وتخيلت أنني سأري همفري بوجارت يتجول في المكان في أية لحظة. جلست أقرأ قائمة الكتب التي تسردها صحيفة النيويورك في صفحة عروض الكتب، كنت قد انتهيت لتوي من قراءة مقال لجراهام جرين عن بنيا، رحت أحملق في تلك المراوح، التي ذكرتني بأمسية مر عليها عامان تقريبا.

في عام ١٩٧٥ كنت واحدا من الأجانب القلائل الذين دعوا للنادي الأنيق القديم بمراوح سقفه الطنانة، حين تنبأ عمر توريخوس أن فورد رئيس ضعيف لن يعاد انتخابه مرة أخرى، كان يتحدثْ مع مجموعة من البنميين ذوي النفوذ. «ذلك هو سبب قراري أن أسرع بقضية القناة. إنه وقت مناسب لبدء معركة سياسية أكيدة النجاح».

ألهمتني ذكرى حديثه. عدت إلى غرفتي في الفندق وشرعت في كتابة مسودة خطاب وفي النهاية أرسلته إلى جريدة بوسطن جلوب. أعاده لي المحرر من بوسطن، وفي مكتبي طلب مني إعادة كتابة المقال تحت عنوان «لا وجود للاستعمار في بنما» وملأ المقال نصف صفحة تقريبا بجوار المقال الافتتاحي في ١٩ سبتمبر ١٩٧٥.

ذكر المقال ثلاثة أسباب محددة لنقل ملكية قناة بنما. أولا الموقف الراهن غير العادل، وهو وحده سبب وجيه لأي قرار. ثانيا الاتفاقية الحالية التي خلقت المزيد من المخاطر الأمنية أكثر مما قد يحدث إذا زادت السيطرة على البنميين، أشرت إلى دراسة أشرفت عليها اللجنة المشتركة وقد خلصت إلى «أن حركة النقل داخل القناة يمكن أن تتعطل لمدة عامين بسبب زرع القنابل من جهة سد جاتون وهو ما لا يستلزم سوى رجل واحد لتنفيذه» وهو أمر أكد عليه الجنرال توريخوس بنفسه على الملأ. وثالثا الموقف الراهن الذي خلق مشكلات خطيرة في العلاقة بين الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية. أنهيت المقال بالكلمات الآتية:

> *«إن أفضل طريقة ممكنة لتأكيد وضمان استمرار وفعالية تشغيل القناة هي مساعدة البنميين في الحصول على سيادتهم وسيطرتهم على القناة وتحمل مسئوليتها. وبهذا يمكننا أن نفخر بأننا قد تصرفنا بطريقة تعيد تأكيد التزامنا بقضية تقرير المصير دون تدخل منا وفقا للعهد الذي قطعناه على أنفسنا منذ مائتي سنة مضت...*
>
> *كان الاستعمار أمرا سائدا في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين مثلما كان الوضع في عام ١٧٧٥، وربما في سياق ذلك الزمن يمكن تفهم الإقرار باتفاقية مثل هذه. أما اليوم فلا تبرير لها. إن الاستعمار لا مكان له في عام ١٩٧٥. نحن نحتفل بالذكرى المئوية الثانية لذلك العهد، وعلينا إدراك ذلك جيدا والتصرف وفقا لهذا الإدراك»*[٣].

إن كتابة مثل هذا المقال يعد مجازفة خطيرة من جانبي، وخاصة لأنني أصبحت شريكا في شركة MAIN. وكان شركائي يتوقعون مني أن أتجنب العمل الصحفي، والامتناع بشكل خاص عن نشر المقالات السياسية والتشهير في الصفحات الأولى لجريدة نيو إنجلاند وهي الصحيفة الأكثر انتشارا وشهرة.

تسلمت عبر البريد الداخلي في المكتب مجموعة كبيرة من الكتابات المزعجة أغلبها دون توقيع ومثبتة على المقال بالدبابيس. كنت واثقا من معرفتي للخط الذي كتبت به إحدى هذه الوريقات وهو لتشارلي إيلنجورث. وهو مدير مشروعي الأول ويعمل في MAIN منذ أكثر من عشر سنوات (مقارنة بي ولم يمض على وجودي في الشركة أكثر من خمس سنوات) ومع ذلك لم يصبح شريكا في الشركة بعد. كان رمز الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين مرسوما على الرسالة التي أرسلها، والذي يرمز للموت عند القراصنة، أما اليوم فيرمز للتحذير من السموم، وكانت الرسالة بسيطة: «هل هذا الشيوعي شريكا بالفعل في شركتنا؟».

استدعاني برونو إلى مكتبه وقال لي: «سوف تواجه الكثير من الضغوط بسبب فعلتك هذه. إن شركة MAIN مكان شديد المحافظة. لكني أريدك أن تعرف أنني أراك شخصا ذكيا. سيحب توريخوس هذا المقال، أتمنى أن ترسل له نسخة من الجريدة. حسنا، هؤلاء البهلوانات هنا في هذا المكتب، أولئك الذين يظنون أن توريخوس اشتراكيا، في الحقيقة لن يكون بمقدورهم فعل شيء بمجرد أن يبدأ العمل في المشروع».

كان برونو على حق كالمعتاد. في عام ١٩٧٧، كان كارتر في البيت الأبيض وتدور المفاوضات الجادة بشأن القناة. كثيرون من منافسي شركة MAIN اتخذوا الجانب الخطأ وتركوا بنما، لكن عملنا تضاعف. كنت جالسا في ردهة فندق بنما، وقد انتهيت لتوي من قراءة مقال لجراهام جرين في صفحة عروض الكتب بصحيفة نيويورك تايمز.

كان المقال بعنوان «بلد وخمس مناطق حدودية». كان مقالا جسورا يحوي نقاشا حول الفساد بين كبار الضباط في الحرس الوطني لبنما. أوضح الكاتب أن الجنرال ذاته اعترف بأنه منح كبار ضباطه مزايا خاصة، مثل المساكن الفاخرة، لأنه يقول «إذا لم أدفع لهم بنفسي سيدفع لهم رجال المخابرات الأمريكية» كان التلميح الواضح أن رجال المخابرات قرروا تقويض أمنيات الرئيس كارتر حتى لو اقتضى الأمر رشوة قواد الجيش البنمي لإفساد المفاوضات[1]. لم أستطع منع نفسي من التساؤل عما إذا كان أولئك الثعالب قد بدأوا يضيقون الحلقة حول توريخوس.

رأيت في باب الناس والمجتمع في التايم Time أو النيوزويك NewsWeek صورة لتوريخوس

وجرين يجلسان معا، كان عنوان الموضوع يشير إلى أن الكاتب حل ضيفا متميزا على توريخوس وأصبح واحدا من أصدقائه. تساءلت عن الشعور الذي من الممكن أن يكنه الجنرال نحو هذا الروائي، من الواضح أنه أولاه ثقته فترى كيف يكتب هذا النقد.

فقد أثارت مقالة جرهام جرين سؤالا آخر يرتبط بذلك اليوم في عام ١٩٧٢ حين جلست على مائدة القهوة مع توريخوس. في ذلك الوقت، افترضت أن توريخوس يدرك ماهية لعبة المساعدات الأجنبية التي من المفترض أن تجعله ثريا بينها تثقل كاهل شعبه بالديون. كنت واثقا أنه يعرف أن العملية مبنية على فرضية أن أصحاب النفوذ فاسدين، وكنت أعلم أنه عند اتخاذه لقراره لن يسعى لمصلحته الشخصية، بل بالأحرى سيستخدم المساعدة الأجنبية لمساعدة شعبه بالفعل، مما يؤدي في النهاية إلى تهديد بالإطاحة بالنظام بأكمله. كان العالم يراقب هذا الرجل فقد كان لأفعاله تأثيرات متشعبة تجاوزت حدود بنما، وبناء على ذلك لن تمر الأمور مرور الكرام.

كنت أتساءل كيف سيكون رد فعل الكوربوقراطية إذا توجهت القروض التي ستمنح لبنما إلى الفقراء حقا دون أن يصبح شيء منها ديونا مستحيلة. والآن أتساءل عما إذا كان توريخوس قد ندم على الالتزام الذي تعهدنا به أنا وهو ذلك اليوم، ولم أكن واثقا من كنه مشاعري صوب هذه التعهدات التي قطعناها سويا. لقد تراجعت عن دوري كقرصان اقتصادي. ولعبت اللعبة بشروطه هو وليس بقوانيني أنا، وقبلت إصراره على التزامي بالتعامل بشرف، مقابل المزيد من عقود العمل. بشروط اقتصادية محضة، كان قرارا حكيما بالنسبة لشركة Main. ومع ذلك، لم يكن متفقا مع ما غرسته كلودين بداخلي، لم يكن خطوة للأمام نحو الإمبراطورية العالمية. هل أطلق العنان للثعالب؟

عاودت التفكير مرة أخرى، حين تركت بيت توريخوس المكون من طابق وحيد ذلك اليوم، تبينت أن تاريخ أمريكا اللاتينية مخطوط بدماء أبطاله. نظام مبني على فساد الشخصيات العامة لا يتماشى بسهولة مع شخصيات عامة ترفض أن تتلوث بالفساد.

ثم ركزت بصري إلى حيث تحاك الألاعيب.

عبر الردهة كان هناك شخص مألوف يسير هادئا. اختلط علي الأمر في البداية حيث اعتقدت أنه همفري بوجارت، لكن بوجارت مات منذ وقت طويل. ثم تعرفت على الرجل الذي يسير أمامي على مهل كواحد من الشخصيات الكبيرة في الأدب الإنجليزي المعاصر. إنه مؤلف «الفخر والمجد» و«الكوميديان» و«رجلنا في هافانا»، وكاتب المقال الموضوع أمامي على المائدة. تردد جراهام جرين لحظة، وهو يتطلع حوله، ثم توجه رأسا إلى الكافيتريا.

شعرت بالرغبة في أن أناديه أو أجري خلفه، لكني قنعت نفسي. صوت داخلي قال لي أنه بحاجة لخصوصيته، وحذرني صوت آخر أنه قد يتجنبني. التقطت صحيفتي وانتبهت لأكتشف أنني

أقف على مدخل الكافتيريا.

طلبت إفطاري مبكرا ذلك الصباح مما جعل النادل يرمقني بنظرة استغراب. حملقت حولي. كان جراهام جرين يجلس بمفرده على مائدة قرب الحائط. أشرت إلى المائدة التي بجواره وقلت للنادل: «هناك. هل لي في إفطار آخر؟».

كنت سخيا دائما في الإكراميات، لذلك ابتسم النادل بود وقادني إلى تلك المائدة.

كان الروائي مستغرقا في قراءة جريدته. طلبت قهوة وقطعة كرواسون بالعسل. أردت اكتشاف أفكار جرين عن بنما وتوريخوس وأمور القناة. لكن ليس لدي أدنى فكرة عن كيفية فتح مناقشة مثل هذه الأمور معه. ثم تطلع حوله وهو يرتشف رشفة من كوبه.

قلت: «معذرة».

حلق في - أو هكذا بدا - لي وقال: «نعم؟».

- لا أود إزعاجك. لكن أنت جراهام جرين. أليس كذلك؟

- نعم، هذا صحيح. ابتسم في ود وأكمل: «معظم الناس في بنما لا يتعرفون علي».

أسهبت في الحديث معه وقلت له أنه الروائي المفضل لدي، ثم رويت له ملخص قصة حياتي، بما في ذلك عملي مع شركة Main ولقاءاتي مع توريخوس. سألني إن كنت المستشار الذي كتب تلك المقالة عن وجوب خروج الولايات المتحدة من بنما في جريدة بوسطن جلوب «إذا صحت ذاكرتي».

صعقت حين قال: «عمل جريء وشجاع، في وضع مثل وضعك، هل يمكن أن تجلس معي؟».

انتقلت إلى مائدته وجلست معه لمدة لابد أنها تجاوزت الساعة والنصف. لاحظت وأنا أثرثر معه أنه أصبح صديقا حميما لتوريخوس. تحدث عن الجنرال أحيانا كوالد يتحدث عن ولده.

قال: «دعاني الجنرال لأؤلف كتابا عن بلاده. أفعل ذلك الآن. لن يكون هذا الكتاب عملا روائيا، سيكون شيئا ما بعيدا قليلا عن خط كتاباتي».

سألته لماذا يكتب دائما روايات بدلا من كتابة أعمال غير روائية.

قال: «الرواية آآمن. معظم الموضوعات التي أطرحها في رواياتي محل جدل وخلاف. فيتنام، هاييتي، الثورة المكسيكية. كثير من الناشرين سيخشون نشر عمل غير إبداعي عن هذه الموضوعات» أشار إلى صحيفة نيويورك تايمز لعروض الكتب حيث تركتها على المائدة التي غادرتها، وقال: «مقالات صحفية مثل هذه قد تتسبب في خسائر فادحة» وابتسم وأكمل: «بالإضافة لذلك، أحب كتابة الرواية. إنها تمنحني كثير من الحرية في الإبداع». ثم نظر لي بانفعال وقال: «المهم في الأمر أن تكتب عن أشياء ذات أهمية. مثل مقالتك العالمية عن القناة».

كان إعجابه بتوريخوس أمرا جليا. بدا أن رئيس دولة بنما استطاع التأثير في الروائي في كل كيانه كتأثيره في الفقراء والمعدومين. أيضا كان واضحا اهتمام جرين بحياة صديقه. قال موضحا: «إن تحدي ومواجهة عملاق الشمال يعتبر مجازفه خطيرة.

هز رأسه بحزن وقال: «أخشي على حياته».

ثم آن وقت رحيله. قال: «لابد أن ألحق بطائرتي إلى باريس» ونهض ببطء وصافحني. نظر بعينيه في عيني وقال: «لماذا لا تكتب أنت كتابا؟» أومأ لي مشجعا، «إنه موجود داخلك. لكن تذكر أن تكتب عن الأشياء المهمة» استدار ومضي في طريقه. ثم توقف وعاد خطوات قليلة داخل المطعم. قال: «لا تقلق. سيفوز الجنرال. سيستعيد القناة».

استعاد توريخوس القناة بالفعل. كان ذلك في عام ١٩٧٧، وأتم مفاوضات ناجحة بشأن اتفاقيات جديدة مع الرئيس كارتر الذي نقل ملكية منطقة القناة والقناة ذاتها إلى سيادة بنما. عندئذ كان على البيت الأبيض أن يدبر إقناع الكونجرس الأمريكي بقبول الأمر. نشبت معركة طويلة وضارية في التصويت الأخير للكونجرس تم التصديق على اتفاقية القناة بفارق صوت واحد. وأقسم المحافظون على الانتقام.

بعد عدة سنوات ظهر للحياة كتاب جراهام جرين غير الروائي «الجنرال كما عرفته»، كان يتصدره إهداء «إلى أصدقاء صديقي عمر توريخوس في نيكاراجوا والسلفادور وبنما»[*].

الفصل الثامن عشر
شاهنشاه إيران

في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٧٥ و١٩٧٨ كثر ترددي على إيران. بعض الأحيان كنت أنتقل بين أمريكا اللاتينية أو إندونيسيا وطهران وأعود في اليوم نفسه. عرض «شاهنشاه» إيران (يعني حرفيا ملك الملوك، وهو لقبه الرسمي) موقفا مختلفا تماما عن مواقف غيره من الدول الأخرى التي كنا نعمل بها. وإيران دولة غنية بالبترول، ومثل المملكة العربية السعودية لا يمكن أن تقع تحت طائلة الديون عند تمويلها لقائمة طموحة من المشروعات التي ترغب في إنجازها، مع ذلك، اختلفت إيران تماما عن المملكة العربية السعودية لكونها ذات عدد سكان كبير وتحظى بمكانة متميزة بين دول الشرق الأوسط، وهي الدول المسلمة ولكنها بالطبع ليست عربية. علاوة على ذلك، فإنها بلد له تاريخ سياسي مضطرب سواء داخليا أو في علاقتها بالدول المجاورة لها.

بناء على ذلك، كان لنا مدخل مختلف تجاه إيران؛ حشدت واشنطن وشبكة رجال الأعمال قواتها لتحويل الشاه إلى رمز للتقدم.

وبمجهودات هائلة حاولنا أن نظهر للعالم إلى أي مدى يعد شاه إيران صديقا قويا وديموقراطيا من أصدقاء الولايات المتحدة يشاركها اهتمامات ومصالح سياسية يمكن تحقيقها. بغض النظر عن لقبه الذي يوحي بوضوح بعدم الديموقراطية أو تلك الحقيقة الأقل وضوحا بشأن الإنقلاب المخطط له بتنسيق من رجال المخابرات الأمريكية ضد رئيس الوزراء المنتخب ديموقراطيا. عقدت واشنطن وحلفاؤها الأوروبيون العزم على تقديم حكومة شاه إيران كبديل لتلك الحكومات الموجودة في العراق وليبيا والصين وكوريا وغيرهم من البلدان الأخرى التي كانت يظهر على سطحها تيار تحتي من رفض «الأمركة».

كانت كل الظواهر تؤكد أن الشاه صديق تقدمي لكل الكادحين. ففي عام ١٩٦٢ أمر بتقسيم قطاع كبير من الأراضي المملوكة لبعض الأفراد وتوزيعها على الفلاحين. وفي العام التالي قاد ثورته البيضاء، تلك الثورة التي شملت جدولا كبيرا للإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية. ازدادت قوة

مجموعة دول الأوبك في سبعينيات القرن العشرين وأصبح الشاه زعيما عالميا ذا نفوذ كبير. في الوقت نفسه، طورت إيران جيشها وأصبح من أقوي الجيوش في الشرق الأوسط الإسلامي"[1].

أسهمت شركة Main في مشروعات غطت معظم الدولة، بداية من المناطق السياحية بطول بحر قزوين في الشمال وحتي إمدادات القوات العسكرية السرية التي تشرف على مضيق هرمز في الجنوب. مرة أخرى، كان تركيز أعمالنا ينصب على تقدير إمكانيات تلك المناطق ومن ثم تصميم الأنظمة الكهربائية وتوزيع القياسات التي ستمد البلد بكل الطاقة المطلوبة لدعم التنمية الصناعية والاقتصادية التي تحقق تلك التوقعات.

لقد زرت معظم مناطق إيران على فترات مختلفة. تتبعت طريق القوافل القديم عبر جبال الصحراء، من منطقة كرمان حتى بندر عباس، وطفت بأطلال إصطخر، ذلك القصر الأسطوري الذي سكنه الملوك في العهود الغابرة ويعد واحدا من عجائب الدنيا السبع القديمة. تجولت في معظم أهم المواقع وأشهرها مثل شيراز، وأصفهان، ومدينة الخيام الرائعة قرب إصطخر حيث توج الشاه. في تلك الرحلات، تنامى داخلي حب عميق لهذه الأرض وشعبها متنوع الثقافات.

فعلي السطح تبدو إيران مثالا نموذجيا للتعاون بين المسيحين والمسلمين، مع ذلك، سرعان ما أدركت أن هذا المظهر الهادئ يخفي وراءه شعورا عميقا بالسخط.

ذات مساء في أواخر عام ١٩٧٧، عدت إلى حجرتي في الفندق، ووجدت رسالة صغيرة مدفوعة بعنف تحت عقب الباب. صدمت عندما اكتشفت أنها موقعة باسم رجل يدعي «يمين». لم أكن قد التقيته من قبل، لكنهم وصفوه لي في بيان حكومي موجز بأنه مخرب متطرف. وبخط إنجليزي جميل كان يدعوني في رسالته للقائه في مطعم معين. ومع ذلك كان هناك تحذير: كان علي الذهاب بمفردي إذا كان يعنيني أن أكتشف جانبا من إيران لم يره معظم من هم «في وضعي». تساءلت عما إذا كان «يمين» يعرف وضعي الحقيقي. كنت أدرك أنها مخاطرة كبيرة، إلا أنني لم أستطع مقاومة إغراء لقاء مثل هذه الشخصية.

أنزلتني السيارة الأجرة أمام بوابة صغيرة في جدار مرتفع جدا لدرجة أنني لم أستطع رؤية البناء خلفه. رافقتني امرأة إيرانية جميلة ترتدي ثوبا أسود طويلا، وقادتني إلى ممر مضاء بمصابيح الزيت الزاهية المعلقة في سقف منخفض، ثم دخلنا إلى حجرة في نهاية الممر، مبهرة الإضاءة كأنها قلب درَّة أغشى بريقُها بصري. عندما اعتادت عيناي أخيرا على الإضاءة رأيت جدرانا مطعمة بالأحجار الكريمة وعرق اللؤلؤ. كان المطعم مضاءً بشموع بيضاء طويلة تبرز من ثريات برونزية.

اقترب مني رجل طويل ذو شعر أسود طويل، يرتدي بدلة بحرية زرقاء أنيقة وصافحني. قدم لي نفسه على أنه «يمين»، في لهجة توحي بأنه إيراني درس في مدارس على النظام الإنجليزي، وسرعان ما دهشت لأنني لم أر فيه مخربا متطرفا. وعبر عدة موائد يجلس عليها ثنائيات يأكلون - وجهني إلى

ركن منحوت في الحائط شديد التميز، أكد لي أننا نستطيع الحديث بحرية. انتابني شعور أن هذا المطعم مخصص للقاءات العشاق، ومن المحتمل جدا أن أكون أنا وهو الوحيدين تلك الليلة خارج هذا التصنيف.

كان «يمين» ودودا جدا. أثناء مناقشتنا، اتضح لي أنه يعرفني فقط كمستشار اقتصادي، وليس كشخص له دوافع خفية. شرح لي أنه استضافني بمفردي لأنه يعرف أنني عضو متطوع في فيالق السلام ولأنهم قالوا له إنني أنتهز كل فرصة متاحة لمعرفة بلاده والاختلاط بشعبها.

قال: «أنت صغير السن جدا بالنسبة لمعظم العاملين في وظيفتك، ولديك اهتمام حقيقي بتاريخنا ومشاكلنا الحالية. أنت تمثل لنا أملاً».

بالإضافة للمكان الذي نجلس فيه ومظهر مضيفي والحضور الآخرين في المطعم منحني هذا الحوار درجة معينة من الارتياح. كنت قد اعتدت على تودد الناس لي، مثل رازي في جاوا، وفيدل في بنما، وكنت أتقبل هذا التودد كمجاملة وفرصة طيبة. وكنت أعرف أنني أختلف عن الأمريكيين الآخرين لأنني في الحقيقة أفتتن بالأماكن التي أزورها. اكتشفت أنه سرعان ما سيتعامل الناس معك بدفء وود إذا فتحت عينيك وأذنيك وقلبك لثقافتهم.

سألني يمين إن كنت أعرف شيئا عن مشروع استصلاح الصحراء[٢]، فإن الشاه يعتقد أن صحارينا كانت ذات يوم أراض منبسطة خصبة وغابات مورقة. على الأقل هذا ما يدعيه. طبقا لهذه النظرية، زحفت في عهد الإسكندر الأكبر جيوش جرارة عبر هذه الأراضي، وسافرت ومعها ملايين الأغنام والماشية. أتت الحيوانات على كل عشب الأرض ونباتها. تسبب اختفاء هذه النباتات في قحط الأرض وجدبها وفي النهاية تحولت المنطقة بأكملها إلى صحراء. والآن كل ما علينا فعله (هكذا يقول الشاه) هو أن نزرع ملايين وملايين الأشجار، وبعد هذه النقلة السريعة ستعود الأمطار وتزهر الصحراء مرة أخرى.

«بالطبع، في هذه العملية ستنفق ملايين الدولارات» وابتسم بطريقة متعالية وأكمل: «شركات مثل شركتكم ستحصد أرباحا هائلة».

- أعتقد أنك لا تؤمن بهذه النظرية.

- الصحراء رمز. تحويلها إلى أرض خضراء أمر أبعد كثيرا من مجرد الزراعة.

أحاطنا أكثر من نادل يحملون أصنافا من الأطعمة الإيرانية الشهية، خيرني «يمين» بينها ثم اختار بعضا من الأصناف المختلفة. ثم عاد لتكملة الحوار معي.

- سؤال لك يا مستر بيركنز، إذا سمحت لي أن أتجرأ وأسألك. ما الذي دمر ثقافات مواطنيكم الأصليين، الهنود؟

أجبته أنني أرى أن ذلك كان نتيجة أسباب عديدة بما فيها الجشع وتفوق الأسلحة...

- نعم. هذا صحيح. كل هذه العوامل مجتمعة معا. لكن أليس تخريب البيئة هو العامل الأشد تأثيرا مما سواه؟

ثم أخذ يشرح لي أن هلاك الغابات والحيوانات، وانتقال البشر إلى نمط حياة مختلف عن الطبيعة، هو أساس سقوط الحضارات.

قال: «أرأيت؟ إنه الأمر نفسه هنا. فالصحراء هي البيئة الطبيعية لنا. ومشروع استصلاح الصحراء لا يهدد بأقل من تخريب بيئتنا الطبيعية بأكملها. كيف نسمح بحدوث هذا؟».

قلت له إنه حسب فهمي للأمور فقد أتت فكرة هذا المشروع برمتها من الشعب نفسه. أجابني بضحكة ساخرة قائلا إن الفكرة غرستها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية في عقل الشاه، والشاه مجرد دمية في يدها.

قال يمين: «الفارس الحق لا يسمح إطلاقا بمثل هذه الأمور» ثم استفاض في خطبة طويلة عن العلاقة بين شعبه البدوي والصحراء. مؤكدا على أن كثيرا من الإيرانيين المتمدينين يقضون عطلاتهم في الصحراء. فيقيمون خياما كبيرة تسع عائلة كاملة ويقضون أسبوعا أو أكثر هناك.

«شعبنا جزء من الصحراء. الشعب الذي يدعي الشاه أنه يحكمه بتلك اليد الحديدية ليس فقط جزءا من الصحراء، بل إنه الصحراء ذاتها».

بعد ذلك حكي لي قصصا عن خبراته الشخصية في الصحراء. عند نهاية المساء، رافقني إلى الباب الصغير في الحائط الكبير. كان السيارة الأجرة بانتظاري في الشارع. صافحني يمين وعبر عن تقديره للوقت الذي قضيته معه. ذكر مرة أخرى سني الصغير وتفتحي وحقيقة أن شغلي لمثل هذه الوظيفة يمنحه الأمل في المستقبل.

استمر يقول وهو يمسك بيدي بين يديه: «سعدت بهذا الوقت الذي قضيته معك، وسأطلب منك معروفا آخر فقط. لا أطلب هذه الأشياء ببساطة، إنما أفعل ذلك فقط لأني أعرف أنه سيكون له معناه لديك بعد الوقت الذي قضيناه معا هذه الليلة، وستربح الكثير من وراء ذلك».

- ما الذي يمكن أن أفعله من أجلك؟

- أحب أن أقدمك إلى صديق عزيز من أصدقائي، رجل بمقدوره أن يخبرك الكثير عن ملكنا، شاهنشاه إيران. قد يصدمك، لكني أؤكد لك أن ذلك اللقاء يستحق وقتك.

الفصل التاسع عشر
اعترافات رجل مُعذب

بعد عدة أيام، قادني «يمين» إلى خارج طهران، عبر مدينة كلها أكواخ متربة وفقيرة، على امتداد طريق قديم تسلكه الإبل، ثم خرجنا إلى حافة الصحراء. كانت الشمس تغرب وراء المدينة، حين أوقف سيارته وسط مجموعة من الأكواخ الطينية الصغيرة المحاطة بالنخيل.

قال مفسرا: «إنها واحة قديمة جدا، أقدم من اكتشافات ماركو بولو بقرون»، قادني إلى أحد هذه الأكواخ وقال: «الرجل الذي سنلتقي به في الداخل حاصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من أعرق جامعاتكم. ولأسباب بعينها سوف تعرفها في حينها، يتحتم عليه أن يبقي بلا اسم. يمكنك أن تناديه بلقب دكتور.

طرق الباب الخشبي، وأتانا الرد مبهما. دفع «يمين» الباب وفتحه وقادني للداخل. كانت الحجرة الصغيرة بلا نوافذ ومضاءة بمصباح زيتي موضوع على منضدة منخفضة في أحد الأركان. حين اعتادت عيناي الضوء الضعيف رأيت أرض الحجرة القذرة مغطاة بالسجاجيد الفارسية. ثم بدأت هيئة الرجل تتضح. كان يجلس أمام المصباح بطريقة تخفي ملامحه. يمكنني أن أقول إنني لم أر أكثر من الأغطية التي يلتف بها وشيء ما يلف به رأسه.

كان يجلس على كرسي متحرك، وفيما عدا المنضدة لم تكن هناك أية قطعة أثاث في الحجرة سوى هذا الكرسي. أشار لي «يمين» أن أجلس على السجادة. وذهب برقة وعانق الرجل وهمس في أذنه بكلمات قليلة، ثم عاد وجلس بجواري.

قال: «لقد حدثتك عن مستر بيركنز. لنا الشرف أن نحظي بهذه الفرصة لزيارتك يا سيدي.

قال الصوت: «مرحبا بك يا مستر بيركنز» قالها بلهجة غير واضحة. كان صوتا خفيضا وخشنا. وجدت نفسي أميل للأمام في المساحة الصغيرة التي بيننا حين قال: «أنت ترى أمامك رجلا محطما. لم أكن هكذا دائما. في يوم من الأيام كنت قويا مثلك. كنت مستشارا قريبا من الشاه وموضع ثقته» حلت لحظة صمت طويلة. ثم أكمل:

«شاهنشاه إيران، أو ملك الملوك» على ما أظن كانت نبرة صوته تحمل من الحزن أكثر مما تحمل من الغضب.

«تعرفت بشكل شخصي على كثير من زعماء العالم مثل أيزنهاور، ونيكسون، وديجول. كانوا يثقون في قدرتي على وضع هذا البلد داخل المعسكر الرأسمالي. وثق الشاه بي و...» صدر عنه صوت يمكن سماعه على أنه سعال، لكني أظنها ضحكة. «أنا أيضا وثقت في الشاه. آمنت بكلامه المنمق. كنت مقتنعا أن إيران ستقود العالم الإسلامي إلى عهد جديد، وأن فارس ستفي بوعودها. يبدو أنه قدرنا - الشاه وأنا وكلنا جميعا - أن نضطلع بمهمة اعتقدنا أننا ولدنا لإنجازها».

تحركت البطاطين التي يلفها حوله، صدر عن الكرسي المتحرك صفير مزعج، والتفت قليلا. استطعت رؤية جانب وجه الرجل، ولحيته المشعثة، وفجأة جذبت ملامحه المطموسة انتباهي، لم يكن له أنف! اقشعر بدني وحبست الصدمة صوتي.

«ليس منظرا جميلا، أليس كذلك يا مستر بيركنز؟ وهو أسوأ كثيرا في الضوء العادي لدرجة أنك لن تتحمل رؤيته. مسخ مشوه حقا». مرة أخرى صدر الصوت نفسه، الضحكة المصاحبة للسعال.

«لكن كما أنني واثق أنك تستطيع تقدير ذلك، على أن أبقى مجهولا. بالطبع، يمكنك أن تعرف هويتي إذا حاولت، رغم أنك قد تجدني ميتا رسميا. لم يعد لي وجود. لكني أثق أنك لن تحاول. فمن الأفضل لك ولعائلتك ألا تعرف من أنا. إن للشاه ورجال الحرس الذين يحمونه (السافاك) ذراعا طويلة».

صدر صرير عن الكرسي وعاد الرجل لوضعه الأصلي. شعرت بشيء من الارتياح، لم أتمكن من تمييز ملامح وجهه المطموسة، فأنفه المبتور كان دليلا عن العنف الذي تعرض له. في الوقت نفسه، لم أكن أعرف هذه العادة في الثقافات الإسلامية؛ أن يعاقب الأفراد الذين يعتقد أنهم خونة أو غير آمنين للمجتمع أو لقواده بجذع أنوفهم. بهذه الطريقة، يوصموا بعلامة مدى الحياة كما يبرهن بوضوح وجه هذا الرجل.

«أثق يا مستر بيركنز أنك تتساءل لماذا دعوناك هنا» ودون انتظار لردي، واصل الرجل القابع على الكرسي المتحرك كلامه: «كما ترى، هذا الرجل الذي يدعو نفسه ملك الملوك هو في حقيقته شيطان رجيم. عُزل والده على يد رجال المخابرات الأمريكية - وأكره أن أقول إن ذلك كان بمساعدتي - لأنه قيل عنه إنه متعاون مع النازية. ثم حدثت فاجعة مصدق. اليوم، يماثل الشاه هتلر بل يفوقه في عوالم الشيطان. يفعل ذلك بعلم تام من حكومتك.

سألته: «لماذا؟»

«الأمر بسيط جدا. إنه حليفكم الحقيقي الوحيد في الشرق الأوسط، والعالم الصناعي الذي يدير عجلة البترول هو الشرق الأوسط. لديكم بالطبع إسرائيل، لكنها في الواقع مجرد احتمال قوي وليست على قدر من الأهمية في توريد الطاقة، ثم إن إسرائيل ليس لديها بترول. ويضطر رجال السياسة لديكم لتهدئة الأصوات اليهودية، التي تمنح أموالها للحملات المالية. ذاك - على ما أظن - هو سر الارتباط بإسرائيل. إلا أن إيران هي المفتاح. تحتاجنا شركات البترول لديكم ذات الثقل والنفوذ أكثر حتى من اليهود. أنتم تحتاجون الشاه - أو تعتقدون ذلك، تماما مثلما فكرتم أنكم تحتاجون لقواد جنوب فيتنام الفاسدين».

«هل لديك اقتراح مختلف؟ هل إيران تساوي فيتنام؟».

«احتمال أنها أسوأ. أتعلم أن هذا الشاه لن يستمر طويلا. العالم الإسلامي يكرهه. ليس العرب فقط، لكن المسلمون في كل مكان، في إندونيسيا، وفي الولايات المتحدة، لكنه يحظى هنا من شعبه الفارسي بكره أشد».

سمعت صوتا مكتوما وأدركت أنه ضرب بيده جانب الكرسي: «إنه شيطان! نحن الفرس نكرهه». ثم عاد الصمت من جديد. لم أكن أسمع سوى صوت أنفاسه الثقيلة، كما لو كان الإرهاق والإجهاد أخذا منه كل مأخذ.

قال «يمين»: «الدكتور مقرب جدا من الملالي». كان صوته منخفضا وهادئا وهو يقول: «هنا حركة مقاومة سرية هائلة من رجال الدين تنتشر في كل أنحاء وطننا، فيما عدا تلك الحفنة من الأشخاص الذين ينتمون لطبقات رجال الأعمال الذين ينتفعون من رأسمالية الشاه».

قلت: «لست أكذّبك، لكن لابد أن أقول إنني لم أسمع شيئا من هذا القبيل خلال زياراتي الأربع التي حضرت فيها هنا. الجميع يتحدثون بمظاهر الحب للشاه، ويقدرون النقلة الاقتصادية السريعة التي يقوم بها».

قال يمين موضحا: «أنت لا تتحدث الفارسية، أنت تسمع فقط ما يقال لك من هؤلاء المنتفعين من الأوضاع القائمة. أولئك الذين تلقوا تعليمهم في الولايات المتحدة أو في إنجلترا، وانتهي بهم المطاف بالعمل من أجل الشاه. الآن، الدكتور هنا حالة استثنائية».

ثم صمت، وبدا عليه أنه يفكر فيما سيقوله: «إنه الأمر نفسه مع صحافتكم. إنهم يثرثرون فقط عن القلة التي تمثل أقاربه، والمحيطين به. بالطبع، فإن صحافتكم في الغالب الأعم، يسيطر عليها البترول كذلك. لذلك يسمعون ما يريدون سماعه ويكتبون ما يريد أصحاب الإعلانات قراءته».

«لماذا نخبرك بكل هذا يا مستر بيركنز؟» كان صوت الدكتور هذه المرة رخيما عما سبق، كما لو أن إجهاد الحديث والانفعال قد أتى على الطاقة القليلة التي حشدها لهذا اللقاء. «لأننا نريد أن

نقنعك بالخروج من بلادنا وأن تقنع شركتك بالبقاء بعيدا عنها، نريد أن نحذرك أن ما تظنون أنكم ستحققونه هنا من ثروة طائلة - هو وهم كبير. هذه الحكومة لن تستمر طويلا» مرة أخرى سمعت صوتا مكتوما كما لو كانت يده سقطت على الكرسي.

«وعندما ينتهي أمر هذه الحكومة، فإن الحكومة التي ستحل محلها لن تتعاطف معكم ولا مع أمثالكم.

«أتقول أننا لن نحصل على أجورنا؟».

انهار الدكتور في نوبة من السعال. ذهب «يمين» إليه ودلك ظهره. عندما انتهت نوبة السعال، تحدث مع الدكتور باللغة الفارسية ثم عاد إلى مكانه بجواري.

قال «يمين»: «لابد أن ننهي هذا الحوار. وإجابة على سؤالك. نعم، لن تحصلوا على أجوركم. وحينها تنتهون من العمل كله، وحين يأتي وقت جني الأرباح، سيكون الشاه قد خُلع من على عرشه».

أثناء عودتنا، سألت «يمين» لماذا أراد هو والدكتور أن يجنبوا شركة Main الخسائر المادية التي يتوقعونها.

«سيكون من دواعي سرورنا أن نرى شركتكم تعلن إفلاسها. إلا أننا نفضل أن نراكم تغادرون إيران. مجرد شركة واحدة مثل شركتكم تخرج من هنا، سيمثل هذا اتجاها عاما لغيرها من الشركات. هذا ما نأمل به. كما ترى، نحن لا نريد حمامات دم هنا، لكن الشاه لابد أن يخلع، وسنفعل أي شيء يجعل ذلك أسهل. لذلك نصلي ضارعين لله أن تستطيع إقناع المستر زامبوتي بالخروج من هنا قبل أن يفوت الأوان».

«لماذا أنا؟».

«عرفت أثناء تناولنا العشاء معا، عندما تحدثنا عن مشروع استصلاح الصحراء أن عقلك متفتح لاستيعاب الحقيقة. فأدركت أن معلوماتي عنك صحيحة، أنت رجل يقف في المنتصف بين عالمين».

سألت نفسي مندهشا: كم يعرف عني هذا الرجل.

الفصل العشرون
سقوط الشاه

ذات مساء في عام ١٩٧٨، بينما كنت جالسا بمفردي في البار الفخم في بهو فندق إنتركونتنتال في طهران، شعرت بنقرة على كتفي. التفت لأرى رجلا إيرانيا ممتلئ الجسم في بذلة رسمية.

«جون بيركنز! ألا تتذكرني؟».

لقد زاد وزن لاعب كرة القدم السابق كثيرا، لكن الصوت لا تخطئه الأذن. إنه فرهاد صديقي القديم من أيام الدراسة في جامعة ميدلبيري، ولم أره منذ أكثر من عقد من الزمان. تعانقنا وجلسنا معا. سرعان ما اتضح أنه يعرف كل شيء عني وعن عملي. كما اتضح أنه لا يعتزم أن يخبرني الكثير عن عمله.

قال وهو يطلب زجاجات البيرة للمرة الثانية: «دعنا ندخل في صلب الموضوع. أنا مسافر إلى روما غدا. والدي يعيشان هناك، ولدي تذكرة لك على متن الطائرة نفسها، فالأمور تتداعي هنا. يجب أن ترحل» أعطاني تذكرة الطائرة. لم يتبادر لذهني أي شك فيما قال ولو للحظة واحدة.

في روما، تناولنا العشاء مع والدي فرهاد. عبر والده، ذلك الجنرال الإيراني المتقاعد الذي تصدى لرصاصة أحد القتلة لينقذ حياة الشاه ذات مرة، عبر عن تحرره من الوهم بشأن رئيسه السابق. قال إنه خلال السنوات القليلة الماضية أظهر الشاه ألوانه الحقيقية وغطرسته وجشعه. ألقي الجنرال باللوم على سياسة الولايات المتحدة وخاصة مساندتها ودعمها لإسرائيل، وللقواد الفاسدين، والحكومات الطاغية المستبدة، ولامها على مشاعر الكراهية التي تخيم على الشرق الأوسط، وتنبأ أن الشاه سيطاح به في خلال شهور.

قال: «هل تعرف أنكم أنتم من زرعتم بذرة هذا الانقلاب في بداية الخمسينيات، عندما أسقطتم مصدق. وقتها كنتم تعتقدون أنها طريقة ذكية للعودة وأنا كذلك كنت أعتقد هذا. لكنها الآن تعود لتطاردني وتطاردنا»[1].

كنت مبهوتا بالألفاظ التي يستخدمها للدلالة على تلك الأمور. لقد سمعت شيئا مماثلا من «يمين» والدكتور، لكن خروج هذا الكلام من هذا الرجل يكشف عن معطيات جديدة. في هذا

الوقت، كان الجميع يعرفون بوجود حركة إسلامية أصولية تدور في الخفاء، لكننا أقنعنا أنفسنا أن الشاه محبوب للغاية بين معظم أفراد شعبه، وبناء على ذلك لا توجد قوة تقهره سياسيا، إلا أن الجنرال كان عنيدا.

قال بوفار: «سجل كلماتي، إن سقوط الشاه لن يكون سوى البداية. إنها عينة مما يتجه إليه العالم الإسلامي. فغضبنا يتقد تحت الرمال منذ وقت طويل، وسرعان ما سينفجر مدويّا».

بعد العشاء، سمعت الكثير عن آية الله الخميني. أوضح كل من فرهاد ووالده بشكل لا يدعو للشك أنهما لا يشجعان حركة شيعية متطرفة، لكنهما متأثران بهجومه ضد الشاه. قالا لي إن رجل الدين هذا (آية الله كما يلقبونه) ولد في عائلة مخلصة للمدرسة الشيعية في قرية قرب طهران عام ١٩٠٢.

حدد الخميني هدفه واضحا وهو ألا يتورط في صراعات مصدق والشاه في بدايات خمسينيات القرن العشرين، لكنه عارض الشاه بشدة في الستينيات، وانتقده بصلابة وعناد لدرجة أنه نفي إلى تركيا ثم إلى مدينة النجف الشيعية المقدسة في العراق، حيث أصبح زعيما معروفا للمعارضة. راح يبعث بالرسائل والمقالات وشرائط الكاسيت يحث الإيرانيين على النهوض والإطاحة بالشاه، وأن يقيموا دولة دينية.

بعد يومين من ذلك العشاء مع فرهاد ووالديه، جاءت الأخبار من إيران عن القصف بالقنابل والشغب الذي صاحبته أعمال عنف. بدأ آية الله والملالي بالهجوم، وسرعان ما أمسكوا بزمام الأمور بين أيديهم. بعد ذلك تسارعت الأحداث، انفجر الغضب الذي وصفه والد فرهاد بأنه ثورة شعبية إسلامية عنيفة. فر الشاه إلى مصر في يناير ١٩٧٩، ثم مرض وشخص مرضه بإصابته بالسرطان فتوجه رأسا إلى مستشفى نيويورك.

طالب أتباع آية الله الخميني بإعادته. في نوفمبر ١٩٧٩، هاجم مسلحون إسلاميون سفارة الولايات المتحدة في طهران وقبضوا على اثنين وخمسين رهينة لمدة ٤٤٤ يوما[٢]. وحين فشل الرئيس كارتر في التفاوض بشأن إطلاق الرهائن _ أسند الأمر لحملة إنقاذ عسكرية، انطلقت في أبريل عام ١٩٨٠. وكانت كارثة، إذ تحول الأمر إلى مطرقة تدق المسمار الأخير في نعش رئاسة كارتر.

زادت الضغوط الهائلة من المجموعات المالية والسياسية، فأرغموا الشاه المصاب بالسرطان على مغادرة الولايات المتحدة. منذ اليوم الذي فر فيه من طهران وهو يعاني وقتا عصيبا في البحث عن ملجأ يلوذ به، فكل الأصدقاء القدامى تخلوا عنه وتجنبوه. مع ذلك فإن الجنرال توريخوس عرض بعطف إيواء الشاه ومنحه حق اللجوء السياسي لبنما، على الرغم من كرهه الشخصي لسياسة الشاه. وصل الشاه إلى بنما وحصل على ملجئه في المنتجع نفسه الذي عقدت فيه منذ فترة قريبة مفاوضات اتفاقيات قناة بنما الجديدة.

طالب الملالي بعودة الشاه مقابل إطلاق سراح الرهائن المحتجزين في سفارة الولايات المتحدة. في واشطن اتهم معارضو معاهدة القناة توريخوس بالفساد والتواطؤ مع الشاه، وتعريض حياة المواطنين الأمريكيين للخطر. طالبوا هم أيضا بتسليم الشاه لآية الله الخميني. مما يدعو للسخرية، أنه حتى أسابيع قليلة ماضية، كان الكثيرون من هؤلاء الأشخاص يقدمون الدعم والإخلاص للشاه. أما ملك الملوك سابقا فقد رحل في نهاية المطاف إلى مصر، حيث مات مريضا بالسرطان.

تحققت نبوءة الدكتور. فقدت شركة Main ملايين الدولارات في إيران، وحدث الأمر نفسه مع الشركات المنافسة لنا. وفقد كارتر إمكانية ترشحه في الانتخابات التالية. ودخل كل من ريجان وبوش إلى البيت الأبيض على بساط من الوعود بتحرير الرهائن، والإمساك بالملالي وإعادة الديموقراطية لإيران، ومتابعة موقف بنها بشكل مباشر.

بالنسبة لي، كانت الدروس التي وعيتها مما يحدث لا تقبل الجدل. فقد بينت إيران بما لا يترك مجالا للشك أن الولايات المتحدة بلد تتعمد إنكار حقيقة دورنا في العالم. بدا أمرا مبهما وغير مفهوم أن يمدوننا بمعلومات خاطئة عن الشاه وتيار الكره الذي يموج نحوه. حتى بعض من رجالنا في شركة Main التي تمتلك مكاتب ودوائر لشئون الموظفين في الدولة لم يعرفوا الحقيقة. شعرت أنه من المؤكد أن أجهزة مثل وكالة الأمن القومي NSA ورجال المخابرات المركزية CIA يدركون بوضوح شديد ما يدركه توريخوس، يدركون حتى ما جاء في حوارنا في لقائي معه عام ١٩٧٢، لكن رجال المخابرات دفعونا عن عمد لأن نغمض عيوننا جميعا.

الفصل الحادي والعشرون

كولومبيا: حجر الزاوية للعبور لأمريكا اللاتينية

كانت دراساتي الاقتصادية عن كل من المملكة العربية السعودية وإيران وبنما دراسات ممتعة ومقلقة في آن واحد، وكانت كذلك استثناء من القاعدة. يرجع ذلك - بالنسبة للمملكة العربية السعودية وإيران - لمخزونها الهائل من البترول، وبالنسبة لبنما فإنه يرجع للقناة، وبناء عليه كانت الدول الثلاث استثناء من النموذج السائد. أما كولومبيا فقد كان التعامل معها تقليديا، وكانت شركة مين Main هي الشركة المنوطة بها التصميمات والاستشارات الهندسية للمشروع الكبير لتوليد الطاقة الكهربية هناك.

قال لي أستاذ جامعي كولومبي كان يؤلف كتابا عن تاريخ أمريكا الشمالية والجنوبية والوسطى إن تيدي روزفلت كان يقدر أهمية بلاده، وأشار إلى الخريطة قائلا: حسبما يقال فإن تيدي روزفلت (رئيس الولايات المتحدة والقائد السابق في الحروب الإسبانية - الأمريكية) وصف كولومبيا بأنها حجر زاوية للعبور إلى أمريكا الجنوبية. ورغم أني لم أتأكد من صحة كلامه، فمن المؤكد أنه حقيقي، فعلى الخريطة تقيم كولومبيا توازنا على قمة القارة، وتظهر كأنها تمسك بقية أجزاء القارة معا. إنها تربط البلاد الجنوبية بمضيق بنما، ومن ثم كلا من أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى.

سواء وصف روزفلت كولومبيا بالفعل بهذه الأوصاف أو لم يصفها، فقد كان واحدا من رؤساء كثيرين أدركوا موقعها المركزي المحوري. وعلى مدى ما يقرب من قرنين من الزمان، تنظر الولايات المتحدة لكولومبيا على أنها مرتكز، أو ربما بدقة أكثر، فإنها بوابة نصف الكرة الأرضية الجنوبي تجاريا وسياسيا.

هذا البلد كذلك وهبه الله جمالا طبيعيا أخاذا: شواطئ النخيل الرائعة على المحيطين الأطلنطي والهادي، وجبال ساحرة، ومناطق عشبية تنافس في جمالها السهول العظمى الموجودة في الغرب الأوسط من أمريكا الشمالية، وغابات مطيرة شاسعة ثرية بالكائنات الحية المتنوعة.

يتسم الناس أيضا بصفات مميزة، تجمع بين الجمال والثقافة وخلفيات عرقية متنوعة، بداية من مصارعي الثيران المحليين وصولا للأعراق الأفريقية والآسيوية والشرق أوسطية.

من الناحية التاريخية، لعبت كولومبيا دورا حيويا في تاريخ وثقافة أمريكا اللاتينية. ففي عهد الاستعمار، كانت كولومبيا مركز السلطة التي يعيش فيها الحاكم المستعمر لكل البقاع الإسبانية من بيرو شمالا إلى كوستاريكا جنوبا. وكانت أساطيل السفن التي تحمل الذهب تبحر من مدنها الساحلية في قرطاجنة لنقل الكنوز التي لا تقدر بمال من أقصى الجنوب في شيلي والأرجنتين وحتى تصل إلى إسبانيا. كثير من الأحداث الحاسمة في حروب الاستقلال حدثت في كولومبيا، في مقدمتها انتصار قوات سيمون بوليفار على القوات الملكية الإسبانية في معركة فاصلة هي معركة بوياكا في عام ١٨١٩.

وكما عرفت كولومبيا في العصر الحديث بتقديمها معظم نجوم الكتابة اللامعين في أمريكا اللاتينية وفنانيها وفلاسفتها وغيرهم من الموهوبين، كذلك الأمر نفسه مع المسئوليات المالية والحكومات الديموقراطية نسبيا. وأصبحت نموذجا ناجحا لبرنامج الرئيس كيندي للتنمية الوطنية في أمريكا اللاتينية. وعلى عكس جواتيمالا لم يلطخ الاتهام بالعمالة للمخابرات الأمريكية سمعة حكومة كولومبيا، وعلي عكس نيكاراجوا حيث أن حكومة نيكاراجوا لم تكن حكومة منتخبة، بل طرحت نموذجا بديلا لكل من دكتاتوري الجناح اليميني والشيوعيين. وأخيرا، على عكس كثير من البلاد القوية مثل البرازيل والأرجنتين، لم تفقد كولومبيا ثقة الولايات المتحدة فقد استمرت صورة كولومبيا كحليف موثوق به رغم السمعة السيئة لجماعات تجارة المخدرات[1].

إلا أن عظمة تاريخ كولومبيا شوهها الكره والعنف. فقد كانت المركز الذي يقيم به نائب الحاكم الاستعماري الإسباني وكذلك مقر محاكم التفتيش، وبُنيت الحصون العظيمة والضياع الكبيرة والمدن على عظام العبيد من الهنود والأفارقة، وكانت السفن الضخمة المعروفة بالغليون تحمل ما انتزع من الشعوب القديمة من الكنوز من الذهب والآثار المقدسة والتحف الفنية النادرة والتي صهرت لتيسير نقلها. كانت تحمل الحضارات التي تدعو للفخر لتضيع على يد سيوف وأمراض الفاتحين.

في العصر الحديث، أسفرت انتخابات الرئاسة التي أثارت الجدل في عام ١٩٤٥ عن انقسام شديد بين الأحزاب السياسية وأدت إلى أحداث عنف شديدة (١٩٤٨ - ١٩٥٧) أودت بحياة أكثر من مائتي ألف شخص.

ورغم الصراعات والتناقضات، نظرت واشنطن والمؤسسات المالية في وول ستريت عبر التاريخ لكولومبيا بوصفها دولة محورية في تعزيز المصالح السياسية والتجارية لدول الأمريكتين. ويرجع هذا لعدة أسباب، فبالإضافة لموقع كولومبيا الجغرافي الحيوي وما تمثله بوجوتا كقبلة لزعماء نصف الكرة الغربي، فإن ذلك البلد مصدر لكثير من المنتجات الرائجة في الولايات المتحدة، مثل البن والموز والأقمشة وأحجار الزمرد والزهور والبترول والكوكايين، وتعد كذلك سوقا لبضائعنا وخدماتنا.

إحدى أهم الخدمات التي بعناها لكولومبيا في أواخر القرن العشرين كانت الاستشارات الهندسية والإنشائية. كانت كولومبيا نموذجا لكثير من الأماكن التي عملت فيها. وقد كان من السهل نسبيا إبراز إمكانية هذا البلد على استيعاب كم هائل من الديون ثم إعادة دفعها من عائدات المشروعات نفسها وكذلك من عائدات ثرواتها الطبيعية. وهكذا تم ضخ استثمارات في إنشاء محطات توليد الكهرباء والطرق السريعة ووسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية لتتمكن كولومبيا من استخراج مخزونها الكبير من البترول ولتتمكن من تطوير المساحات الهائلة من غاباتها الأمازونية. في المقابل سيتولد عن تلك المشروعات ناتج ضروري لسداد القروض وفوائدها.

تلك كانت النظرية. على أية حال، اتسق الواقع مع أغراضنا الحقيقية في جميع أرجاء العالم، والتي تكمن في استعباد «بوجوتا» لتنضم إلى إمبراطوريتنا العالمية. وكانت وظيفتي، كما هي الحال في كثير من الأماكن، أن أسهم في جعل البلاد تقترض أقصى ما يمكن من القروض.

لم يكن لدى كولومبيا شخص مثل توريجوس ليكبح من مخططاتنا، ولذلك شعرت أنه ليس لدي خيار سوى أن أزيد عمليات التضخم المالي وتوقعات الأحمال الكهربائية باستثناء نوبات الشعور بالذنب الطارئة التي تنتابني إزاء وظيفتي، أصبحت كولومبيا ملاذا شخصيا لي. فقد قضيت بها مع «آن» شهرين في بدايات سبعينيات القرن العشرين، حتى أني اشتريت مزرعة بن صغيرة في الجبال على الشاطئ الكاريبي. أعتقد أن الوقت الذي قضيناه معا خلال تلك الفترة كان بمثابة علاج لجراحنا التي أصاب كل منا بها الآخر في السنوات السابقة. في نهاية الأمر، تعمقت الجراح أكثر، ولم يحدث أن تعرفت على البلد بشكل حقيقي إلا بعد فشل زواجنا.

أثناء سبعينيات القرن العشرين، حصلت شركة مين Mainعلى عدد من العقود لتنمية مشروعات مختلفة للبنية التحتية، تشمل شبكة مرافق مولدات طاقة كهربية وأنظمة توزيع لنقل الكهرباء من العمق في الغابات إلى المدن المرتفعة في الجبال. جعلوا مكتبي في مدينة ساحلية في بارانكيلا، وهناك في عام ١٩٧٧ التقيت بامرأة كولومبية جميلة أصبحت فيما بعد دافعا قويا لتغيير حياتي.

على غير ما يتوقعه الكثيرون من امرأة كولومبية كان لباولا شعر أشقر طويل وعيون خضراء لافتة للنظر. فقد هاجر أبوها وأمها من شمال إيطاليا، ولكي تحافظ على إرثها، عملت مصممة أزياء. ومضت في طريقها خطوة للأمام، فأنشأت مصنعا صغيرا تحول فيه تصميماتها لثياب تبيعها في البوتيكات الصغيرة في أنحاء البلاد في بنما وفنزويلا. كانت شخصية شديدة الحنو وقد ساعدتني على تجاوز بعض الأزمات النفسية الناجمة عن فشلي في زواجي وبدأت تعالج بعض مواقفي من المرأة، التي أثرت في سلبا. وبصرتني بالكثير من عواقب ما أفعله في وظيفتي.

كما قلت سابقا، تتألف الحياة من سلسلة من الأحداث التي لا حيلة لنا في السيطرة عليها.

بالنسبة لي، يشمل ذلك نشأتي ابنا لمدرس في مدرسة إعدادية للأولاد في ريف نيوهامبشاير، ولقائي مع آن وعمها فرانك، والحرب الفيتنامية، ولقائي مع إينار جريف. مع ذلك بمجرد وجودنا في هذا التسلسل للأحداث، نواجه اختياراتنا. فأفعالنا وردود أفعالنا في مواجهة هذه الأحداث المتعاقبة، هي التي تصنع فرقا كبيرا.

فعلى سبيل المثال، التفوق في الدراسة، وزواجي من آن، وانضمامي لفيالق السلام، واختياري أن أصبح قرصان اقتصاد - كل هذه القرارات هي التي أوصلتني لموقعي الحالي في الحياة.

«باولا» حدث آخر، وسيدفعني تأثيرها للمبادرة بأفعال تغير مسار حياتي حتى لحظة لقائي بها. كنت أعيش وفقا للنظام، وغالبا ما أجد نفسي أتساءل عما أفعله، كان يعتريني شعور ما بالذنب إزاء ما فعلته ومع ذلك فدائما ما كنت أجد لنفسي مبررا منطقيا لبقائي داخل النظام منطقيا.

ربما جاءت باولا في الوقت المناسب. من المحتمل أنني كنت سأنغمس أكثر في أعمالي. على أية حال، ما مررت به في المملكة العربية السعودية وإيران وبنما كان سيدفعني لأفعل شيئا. لكنني واثق أنه إذا كانت امرأة مثل كلودين عاملا مساعدا فعالا في إقناعي بالانضمام لقراصنة الاقتصاد، فإن امرأة أخرى مثل باولا تعد حافزا كنت أحتاجه في ذلك الوقت. أقنعتني أن انظر في أعماق ذاتي وأرى أنني لن أجد السعادة أبدا مادمت مستمرا في ذلك الدور.

الفصل الثاني والعشرون
الجمهورية الأمريكية والإمبراطورية العالمية

ذات يوم، بينما كنا جالسين في مقهى قالت باولا: «سأكون صريحة معك. الهنود وكل المزارعين الذين يعيشون قرب النهر الذي تـزمع أن تقيم عليه سدا يكرهونك. حتى سكان المدن، الذين لن يتأثروا بشكل مباشر بما تفعله، يتعاطفون مع فرق المليشيات التي هاجمت معسكركم. إن حكومتك تقول إن هؤلاء الأشخاص شيوعيون إرهابيون، وتجار مخدرات، لكن الحقيقة أنهم أناس عاديون يعيشون مع عائلاتهم على الأراضي التي تخربها شركتك».

كنت للتو أحدثها عن مانويل توريس. كان مهندسا يعمل معنا في شركة مين Main وأحد الذين تعرضوا مؤخرا للهجوم من قبل أفراد المليشيات في موقع بناء السد الخاص بمحطة توليد الكهرباء.

كان مانويل مواطنا كولومبيا حصل على وظيفته لأن قوانين وزارة الخارجية الأمريكية تحظر إرسال مواطنين أمريكيين لهذا الموقع. وكنت أرى أن ذلك القانون يستخف بأرواح المواطنين الكولومبيين في مقابل ما تمثله حياة أي أمريكي من أهمية، وكان رمزا لموقف عنصري أكرهه. زاد شعوري بالاضراب والقلق تجاه مثل هذه السياسات.

قلت لباولا: «وفقا لما أخبرني به مانويل، فإنهم أطلقوا الرصاص من رشاش كلاشينكوف في الهواء وعلي قدميه. بدا هادئا حين أخبرني عما حدث، لكني أعرف أنه يعاني من صدمة شديدة. لم يريدوا أن يطلقوا النار على أحد ولكن فقط أرادوا أن يرسلوا عن طريقه رسالة».

صاحت باولا: «يا إلهي. كان المسكين مرعوبا».

- «بالطبع كان مرعوبا»

قلت لها إنني سألت مانويل عما إذا كانوا ينتمون لمنظمة فارك FARC أو M-19، مشيرا لمجموعتين من أكثر المليشيات الكولومبية ضراوة في حرب العصابات.

- «ثم؟».

«قال ولا هذا. لكنه أخبرني أنه يصدق ما قالوه في رسالتهم». التقطت باولا الصحيفة التي معي وقرأت الخطاب بصوت مرتفع.

«نحن، من نعمل كل يوم لمجرد البقاء على قيد الحياة، نقسم بدماء أجدادنا أننا لن نسمح إطلاقا ببناء سدود على أنهارنا، نحن الهنود الأصليين وذوي الأصول الإسبانية المختلطة، لكننا نفضل أن نموت ولا نقف مكتوفي الأيدي ونحن نري أرضنا تغرق على أيديكم. نحن نحذر إخوتنا الكولومبيين: «توقفوا عن العمل في شركات البناء». وضعت الصحيفة جانبا. وقالت: «ماذا قلت له؟».

ترددت لحظة ثم أجبتها: «لم يكن لدي خيار. أنا مضطر للوقوف إلى جانب الشركة. سألته إذا كان يظن أن الخطاب كتبه أحد الفلاحين».

ظلت ترقبني بصبر.

«هز كتفيه باستخفاف» التقت عينانا: «أوه، باولا، إنني مشمئز من نفسي للعب هذا الدور».

قالت بنفاذ صبر: «ماذا فعلت بعد ذلك؟».

«ضربت المكتب بقبضتي. هددته. سألته هل يعني له شيئا أن يحمل الفلاحون بندقية آلية . ثم سألته إذا كان يعرف من الذي اخترع تلك البندقية الآلية».

«هل كان يعرف؟».

«نعم، لكني سمعت إجابته بصعوبة. قال إنه شخص روسي». بالطبع أكدت له أنه على صواب، أن المخترع شيوعي يدعي كلاشنيكوف، ضابط ذو رتبة عالية في الجيش الأحمر. أقنعته أن الناس الذين كتبوا هذه الرسالة شيوعيون».

سألتني: «هل تعتقد أنت ذلك؟».

أوقفني سؤالها. كيف لي أن أجيبها بأمانة؟ تذكرت إيران وحين وصفني «يمين» كرجل معلق بين عالمين، رجل في المنتصف. بشكل ما، تمنيت أن أكون في ذلك المعسكر حين تعرض لهجوم فرق حرب العصابات، أو أكون واحدا من أفراد فرقهم. اعتراني شعور غريب، نوع من الغيرة من «يمين» والدكتور ومتمردي كولومبيا. أولئك رجال لديهم معتقدات راسخة. اختاروا عوالم حقيقية، وليسوا رجالا بلا أرض يقفون في المنتصف.

قلت في النهاية: «هذه وظيفتي، وإنها أؤدي عملي».

ابتسمت بلطف

واصلت كلامي قائلا: «أكره هذا العمل، فكرت في وجوه الرجال التي تتراءي في ذهني على

مدار سنوات، توم بين وغيره من أبطال حرب الاستقلال، والقراصنة وسكان الحدود. يقفون على الحافة، وليس في المنتصف. لقد اتخذوا مواقفا واضحة وتعايشوا مع عواقبها. كل يوم يزداد كرهي لوظيفتي».

أمسكت بيدي وقالت: «لوظيفتك؟».

تلاقت عينانا وظلت مغلقة. فهمت ما ترمي إليه: «النفسي» ضغطت على يدي وأومأت ببطء. شعرت سريعا بالارتياح، لمجرد الاعتراف بذلك.

«ماذا ستفعل يا جون؟».

لم تكن لدي إجابة. تحول الارتياح إلى دفاع. تلعثمت عندما حاولت سرد مبرراتي: «كنت أحاول أن أفعل الصواب، و... حاولت اكتشاف طرق لتغيير النظام من الداخل، و... البديل القديم، و... أنني إذا تركت وظيفتي فهناك شخص آخر سيحل محلي ربما يكون حتى أسوأ مني». أستطيع أن أري من نظرتها إلي أن هذا لم ينطلي عليها، بل أسوأ من ذلك؛ كنت أعرف أنني أيضا لست مقتنعا بهذا. لقد أرغمتني على فهم الحقيقة؛ إنها ليست وظيفتي، إنها هو أنا نفسي، أنا من يستحق أن يوجه له اللوم.

في النهاية سألتني: «ماذا عنك؟» قلت لها: «ماذا تعتقدين؟».

تنهدت تنهيدة صغيرة وتركت يدي: «أتحاول تغيير الموضوع؟».

أومأت بالإيجاب.

قالت موافقة: «ليكن. لا بأس. بشرط واحد؛ أننا سنعاود الحديث فيه يوما آخر». التقطت ملعقة وبدا كأنها تتفحصها: «أعرف أن بعض أفراد حرب العصابات تلقوا تدريبات في روسيا والصين» وضعت ملعقتها في الفنجان وراحت تحرك خليط القهوة واللبن ثم رفعتها ببطء ولعقتها، وقالت: «ماذا بوسعهم غير ذلك؟ فهم في حاجة لتعلم التعامل مع الأسلحة الحديثة وقتال الجنود الذين تعلموا الحرب في مدارسكم. أحيانا يبيعون الكوكايين للحصول على الدعم المالي. كيف يمكنهم أن يشتروا البنادق بغير ذلك؟ إنهم يواجهون اختيارات أحلاها مُرّ. فالبنك الدولي لا يساعدهم في الدفاع عن أنفسهم. إنه في الواقع، يرغمهم على اتخاذ هذا الوضع».

رشفت رشفة من القهوة وأكملت: «أعتقد أنْ قضيتهم عادلة. فمد الكهرباء لن يساعد إلا قلة من الناس هم الكولومبيون الأثرياء، وبضعة آلاف سيموتون بسبب تسمم السمك والماء، بعدما تنهون بناء سدكم ذاك».

استمعت إليها وهي تتحدث بكل هذا العطف عن المناهضين لنا (ولي) وقد تخدر بدني. ووجدت نفسي أحك ساعدي.

«كيف لك أن تعرفي كل هذا عن فرق حرب العصابات؟» حتى حين سألتها، تملكتني الحيرة، وانتابني هاجس بأنني لا أرغب حقا في معرفة الإجابة.

قالت: «كان بعضهم زملائي في المدرسة» ترددت لحظة وهي تدفع الفنجان بعيدا عنها وقالت: «أخي منضم للحركة».

هكذا الأمر إذن. شعرت بالانكماش الشديد. كنت أظن أنني أعرفها عن قرب، لكن أخوها...؟! جالت في ذهني صورة رجل يعود لبيته ليجد زوجته في الفراش مع رجل آخر.

«كيف لم تخبريني من قبل؟».

«بدا لي أن الأمر لا يمت لعلاقتنا بصلة. لماذا أقول لك؟ هذا ليس مدعاة للتفاخر». صمتت ثم قالت: «لم أره منذ سنتين؛ فظروفه تضطره أن يكون شديد الحذر».

«كيف تعرفين أنه مازال على قيد الحياة؟».

«لا أعرف، ولكن عرفت مؤخرا أن الحكومة وضعت اسمه على قائمة المطلوبين. هذه علامة طيبة».

كنت أحيا صراعا لكوني قاضيا وجلادا في الوقت ذاته. تمنيت ألا تلاحظ حيرتي. سألتها: «كيف أصبح واحدا منهم؟».

لحسن الحظ، ثبتت عيناها على فنجان القهوة. «كان يتظاهر أمام مكاتب شركة بترول - شركة أوكسيدينتال على ما أظن - احتجاجا على الحفر في اراضي السكان الأصليين، في غابة تضم قبيلة معرضة للانقراض. هاجمهم الجيش هو وأربعة وعشرين من أصدقائه، واعتقلهم وألقى بهم في السجن دون أن يقترفوا أية جريمة. فكر معي في الأمر، مجرد أنهم كانوا واقفين خارج ذلك البناء يلوحون بلافتات ويغنون» ألقت نظرة خارج النافذة. «ظل في السجن ما يقرب من ستة شهور. لم يخبرنا أبدا بما حدث له هناك، لكنه حين خرج كان شخصا مختلفا».

كان ذلك أول حوار من نوعه مع باولا لكنه تكرر كثيرا بعد ذلك، والآن أعرف أن تلك الأحاديث رسخت الأوضاع للرحلة المقبلة في حياتي. كانت روحي ممزقة، ومع ذلك لا أزال محكوما بحافظة نقودي وبذلك الضعف الذي اكتشفته وكالة الأمن القومي NSA في شخصيتي في عام ١٩٦٨ منذ عقد مضى.

دفعتني باولا لأفهم هذا ولأواجه مشاعري الداخلية العميقة القابعة وراء سحر القراصنة والثوار الآخرين، لكي أتمكن من الوصول إلى طريق الخلاص.

ناهيك عن حيرتي الفكرية، فإن الأوقات التي قضيتها في كولومبيا أيضا ساعدتني على فهم الفرق بين الجمهورية الأمريكية القديمة والإمبراطورية العالمية الجديدة. قدمت الجمهورية الأمل

للعالم وقامت على أسس أخلاقية وفلسفية وليست مادية. كانت مبنية على مفاهيم المساواة والعدل للجميع. لكن يمكن القول كذلك أنها كانت نفعية، ليست مجرد حلم بالمدينة الفاضلة لكنها كذلك كيان حي يتنفس ويتسم بالنبل وسماحة التفكير. كانت تفتح ذراعيها لحماية المضطهدين. كان ذلك يمثل إلهاما وقوة في الوقت ذاته يركنون إليه إذا اقتضي الأمر. يمكن أن تتباين مواقفها، كما حدث في الحرب العالمية الثانية، إذ وقفت للدفاع عن المبادئ التي تأسست عليها. يمكن استغلال المؤسسات من شركات كبرى وبنوك وحكومة بيروقراطية في تأسيس تغييرات جوهرية في العالم - بدلا من أن تهدد وجود الجمهورية. مثل تلك المؤسسات لديها شبكات اتصال ووسائل نقل وغيرها من إمكانات ضرورية للقضاء على الأمراض والمجاعات، بل يمكن استغلالها في الحروب، فقط لو اقتنعت بسلوك ذلك الدرب.

من جهة أخرى، فإن الإمبراطورية العالمية مصدر أذي وضرر على الجمهورية، فهي تتمحور حول ذاتها وتخدم مصالحها وتتميز بالجشع والمادية، إنها نظام مبني على المذهب التجاري، فهي مثل الإمبراطوريات السابقة تفتح ذراعيها فقط لجمع وتكديس مصادر الثروة وانتزاع كل شيء على مرمي البصر وحشو فمها النهم الذي لا يشبع. إنها ستستغل أي شيء تراه ضروريا لمساعدة حكامها للحصول على المزيد من القوة والثراء.

بالطبع، متى أدركت هذا الفرق اتضحت لدي طبيعة دوري في هذه المنظومة. لقد حذرتني كلودين وأوضحت بأمانة الخطوط العريضة لما هو متوقع مني لدى قبولي الوظيفة المعروضة على من شركة مين Main. ومع ذلك، اقتضت الأمور ممارسة الخبرة العملية في العمل في بلاد مثل إندونيسيا وبنما وإيران وكولومبيا لكي أفهم التلميحات الأكثر عمقا. واقتضت الصبر والحب والقصص الشخصية مع امرأة مثل باولا.

كنت أدين بالولاء للجمهورية الأمريكية، لكن ما تقترفه من خلال هذا الشكل من الإمبريالية شديدة المكر والخداع يساوي ماديا ما نحاول إنجازه عسكريا في فيتنام. إذا كانت منطقة شرق آسيا قد علمتنا أن الجيوش لها حدود فيما تستطيع إنجازه، فإن الاقتصاديين ردوا على ذلك باختراع خطة أفضل، وكذلك وكالات المساعدات الأجنبية وأصحاب العقود الخاصة الذين يخدمونها (أو كانت تخدمهم، لو شئنا المزيد من الدقة) أصبحوا ذوي كفاية عالية في تنفيذ تلك الخطة.

رأيت في بلاد عديدة في كل القارات كيف لرجال ونساء يعملون لحساب الشركات الأمريكية - وإن لم يكونوا رسميا جزءا من شبكة قراصنة الاقتصاد - ويسهمون في أعمال فاسدة إلى أبعد مدى يتصوره العقل في نظريات المؤامرة. ومثل كثيرين من المهندسين الذين يعملون في شركة مين Main، كان أولئك العاملون غير مبصرين لعواقب أعمالهم، ومقتنعين أن المعامل والمصانع الصغيرة التي يعملون فيها بأجور ضئيلة وساعات عمل طويلة في إنتاج الأحذية، وتلك الآلات التي في شركاتهم

سوف تساعد الفقراء على الانعتاق من الفقر، بدلا من أن يطمروا تحت ركام نموذج من العبودية العالقة بالذاكرة منذ بقايا القرون الوسطى وزمن استرقاق العبيد في مزارع الجنوب الأمريكي.

مثل تلك الحقائق القديمة عن الاستغلال، تجعل عبيد الزمن المعاصر يعملون لمصلحة المجتمع وهم يعتقدون أنهم أفضل حالا من تلك الأرواح البائسة التي عاشت مهمشة في وديان أوروبا المظلمة أو في غابات أفريقيا، أو في براري أمريكا.

احتدم الصراع داخلي عما إن كان ينبغي أن أواصل طريقي مع شركة مين Main أم أنه ينبغي على ترك العمل بها. لاشك في أن ضميري يؤيد الخيار الأخير، لكن داخلني شعور بالرغبة في الاستمرار، وإن لم أكن على يقين من ذلك. وراحت إمبراطوريتي الخاصة تـزداد اتساعا، لقد أضفت موظفين وبلادا وأسهما في مجموعة استشاراتي وكلما كبرت استشاراتي ازدادت ذاتي تضخما.

علاوة على إغراء المال وأسلوب الحياة المترف، وهرمون الأدريالين الذي يزيدني قوة - تذكرت كلودين وهي تحذرني أنه بمجرد دخولي يستحيل خروجي.

بالطبع سخرت باولا من كل هذا. وقالت: «ماذا تعرف هي؟» شرحت لها أن كلودين كانت على صواب في أمور كثيرة.

قالت باولا: «كان ذلك منذ وقت طويل. الحياة تتغير. وعلى أية حال، ما الفرق؟ لست سعيدا مع نفسك. ماذا بوسع كلودين أو غيرها أن يفعل أسوأ من ذلك؟».

صارت هذه لازمة أو جملة مكررة تعود إليها باولا كثيرا، وفي النهاية وافقت. سلمت لها ولنفسي أن كل هذه الأموال والمغامرات والوهج لم يعد يبرر قلق واضطراب الإحساس بالذنب والضغوط التي أشعر بها كشريك في شركة مين Main. سأزداد ثراء، وأعرف أنني إذا بقيت فيها أكثر من ذلك فسيحكم الفخ قبضته علي.

ذات يوم، بينما كنا نتنزه على الشاطئ قرب حصن إسباني قديم في قرطاجنة، وهو مكان واجه هجمات القراصنة التي لا تعد ولا تحصى، وجدت باولا مدخلا للحديث لم تطرقه من قبل. قالت متسائلة: «ماذا إذا حفظت لسانك تماما ولم تتفوه بأي شيء عما تعرفه؟».

«تقصدين... أن أظل صامتا؟».

«تماما. لا تمنحهم العذر ليطاردوك. لكن امنحهم كل الأسباب ليتركوك وشأنك. لا تحرك المياه الراكدة فتثير أوحالها».

كان رأيا على قدر كبير من الحصافة والفطنة، تعجبت لماذا لم تطرأ لي هذه الفكرة من قبل. لن أؤلف كتابا ولن أفعل أي شيء آخر يكشف الحقيقة كما عرفتها. لن أكون ناشطا من أجل الحقيقة، بل سأكون مجرد شخص عادي، أركز على استمتاعي بالحياة، أسافر وأسعد، ربما حتى أبدأ حياة عائلية

مع امرأة مثل باولا. لقد اكتفيت للغاية. فقط أريد الخروج من هذه اللعبة.

أضافت باولا قائلة: «كل ما علمته لك كلودين من خداع جعل من حياتك كذبة».

ابتسمت بتعال وأكملت: «هل قرأت سيرتك الذاتية مؤخرا؟»

اعترفت بأنني لم أفعل.

نصحتني قائلة: «انظر إليها. لقد قرأت بالأمس النسخة الأسبانية. فلو كانت متطابقة مع النسخة الإنجليزية، أعتقد أنك ستجدها مسلية جدا».

الفصل الثالث والعشرون
السيرة الذاتية الخادعة

حين كنت في كولومبيا، وصلت رسالة تقول إن جاك دوبر قد تقاعد من منصبه في شركة مينMain. *وكما هو متوقع، سيعين ماك هول رئيسا لمجلس الإدارة ويترك منصب الرئيس التنفيذي ليعين فيه برونو. ازدادت الاتصالات التليفونية بين بوسطن وبارانكيللا لدرجة الجنون. الجميع يتنبئون أنني أيضا سأحصل على ترقية سريعة، فرغم كل شيء أنا من أكثر الموظفين الذين تولى برونو تدريبهم وتوظيفهم ويوليهم ثقته.*

كانت هذه التغيرات والشائعات حافزا إضافيا لي لمراجعة موقفي. حين كنت لا أزال في كولومبيا، واتبعت نصيحة باولا وقرأت النسخة الإسبانية من سيرتي الذاتية. وبالفعل أدهشتني.

عندما عدت إلى بوسطن، سحبت النسخة الأصلية الإنجليزية ونسخة نوفمبر ١٩٧٨ من مجلة الشركة الداخلية مجلة مين لاينز MAIN LINES ، كان في ذلك العدد مقال عني بعنوان «المتخصصون يقدمون خدمات جديدة لعملاء شركة مين Main».

حري بهذه السيرة الذاتية وهذه المقالة أن تشعرني بالفخر كما كانت الحال سابقا، ولكن الآن وبعد حديثي مع باولا شعرت بشعور متزايد من الغضب والإحباط. كانت مادة تلك الوثائق تعرض خداعا مقصودا، إن لم يكن كذبا بيِّنا. وحملت تلك الوثائق أهمية أعمق، حملت حقيقة تعكس عصرنا وتصل إلى لب مسيرتنا الحالية نحو الإمبراطورية العالمية، وتلخص استراتيجية محسوبة تعمل على إبراز المظهر و إخفاء الجوهر. وبشكل غريب صنعوا من قصة حياتي رمزا، وواجهة خارجية خادعة براقة تغطي سطحا مصطنعا.

بالطبع، لم أشعر بكثير من الراحة لمعرفتي أنه على أن أتحمل الكثير من المسئولية لما كان متضمنا في سيرتي الذاتية. وطبقا للإجراءات العادية كان مطلوبا مني التحديث المتواصل لكل من سيرتي الذاتية الأساسية والملف الذي يحتوي على نسخة احتياطية بها معلومات وثيقة الصلة عن العملاء الذين خدمتهم ونوع العمل الذي أديته لهم. فإذا أراد أحد العاملين في التسويق أو مدير لمشروع ما

أن يتعامل معي بشأن اقتراح ما أو أن يستخدم شهاداتي بشكل أو بآخر، عليه إرسال هذه المعلومات الأساسية بطريقة تركز على احتياجاته التي يريدها مني بشكل خاص.

فعلى سبيل المثال، كان يركز الضوء على جزء معين من خبراتي في الشرق الأوسط، أو أحد العروض التي قدمتها للبنك الدولي أو أي لجنة خبراء متعددة الجنسيات غيره. حين ينتهي من هذه الإجراءات، على ذلك الشخص الحصول على موافقتي قبل أن ينشر بالفعل هذه السيرة الذاتية الجديدة التي نقحها. ولما كنت مثل الكثيرين من موظفي شركة مين أسافر كثيرا، لم تؤخذ موافقتي على هذه السيرة الذاتية الجديدة بموجب قرار استثنائي من رؤسائي. ولذلك فالسيرة الذاتية التي اقترحت باولا أن أقرأها، والنسخة الإنجليزية المضاهية لها كانت بالنسبة لي أمرا جديدا تماما، رغم أن المعلومات التي تحتويها، كانت بالطبع حقيقية.

للوهلة الأولى، بدت سيرتي الذاتية شديدة البراعة. ففي بند الخبرات، كتب أنني مسئول عن مشروعات رئيسة في الولايات المتحدة وآسيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط، وهي مرفقة بقائمة نظيفة من نماذج هذه المشروعات: خطط للتنمية، توقعات اقتصادية، توقعات الطلب المستقبلي على الطاقة و...

هذا الجزء ينتهي بوصف عملي في فيالق السلام في الإكوادور،ومع ذلك، حُذفت أية إشارة لفيالق السلام نفسها، تاركين انطباعا بأنني كنت المدير المسئول لشركة مواد بناء ولست متطوعا أساعد جمعية تعاونية من الفلاحين الأميين الذين يصنعون الطوب.

بعد ذلك هناك قائمة طويلة بالعملاء. هذه القائمة تحتوي على بنك الإنشاء والتعمير (الاسم الرسمي للبنك الدولي) وبنك التنمية الآسيوي، وحكومة الكويت، ووزارة الطاقة الإيرانية، وشركة البترول العربية الأمريكية في المملكة العربية السعودية، ومؤسسة مصادر الطاقة الكهربية والهيدروليكية وغير ذلك. لكن المؤسسة التي استرعت انتباهي هي المؤسسة الأخيرة: وزارة الخزانة الأمريكية والمملكة العربية السعودية. أذهلني نشر تلك القائمة ، ومع ذلك كان من الواضح أنها جزء من ملفي.

وضعت السيرة الذاتية جانبا لدقيقة، والتفت إلى مقالة في مجلة مين لاينز Main Lines. أتذكر بوضوح لقائي مع كاتبتها، وهي شابة موهوبة جدا وطيبة النوايا. لقد أعطتها لي لأراجعها وأوافق عليها قبل نشرها. أتذكر أنني كنت راضيا عن الصورة التي رسمتها لي، ووافقت على نشرها في الحال. مرة أخرى، وقعت المسئولية على عاتقي. بدأت المقال هكذا:

> *«التطلع إلى الوجوه خلف المكاتب، من السهل القول إن خطط الاقتصاد والتنمية المحلية واحدة من أكثر الأمور التي تشكلت حديثا وتنامت بسرعة في شركة مين Main بينما هناك كثير من الناس من أصحاب النفوذ*

يعملون على النهوض بتلك المجموعة الاقتصادية، وينبثق كل هذا بشكل أساسي من خلال جهود شخص واحد هو جون بيركنـز، الذي يرأس الآن هذه المجموعة. بدأ العمل مساعدا لرئيس تقديرات الأحمال الكهربائية في يناير ١٩٧١، كان جون أحد رجال الاقتصاد القلائل الذين عملوا في شركة مين Main في ذلك الوقت. في أول تكليف له بمهمة، كان عضوا في فريق من أحد عشر شخصا أرسل للقيام بدراسة الاحتياجات الكهربائية في إندونيسيا».

لخص المقال تاريخ عملي السابق، ووصف كيف «قضيت ثلاث سنوات في الإكوادور» ثم واصل:

«في أثناء ذلك الوقت التقي جون بيركنـز بإينار جريف (موظف سابق بشركة «مين» وكان في ذلك الوقت قد تركها ليعمل رئيسا لشركة توكسون للغاز والكهرباء) كان يعمل في بلدة باوتي في الإكوادور في مشروع محطات توليد الكهرباء لحساب شركة مين Main. نشأت صداقة بين الاثنين، ومن خلال تجاوب متواصل حصل جون على منصب في الشركة. منذ حوالي عام، تولى جون منصب رئيس تقديرات الأحمال الكهربائية. و تهافت عليه عملاء ومؤسسات مثل البنك الدولي، وأدرك زيادة الحاجة للمزيد من الموظفين للعمل لحساب شركة مين Main»

لم تحمل أية عبارة في أي من تلك الوثائق أي شكل للكذب المباشر (وكانت النسخة الاحتياطية التي تحتوي على جميع البيانات مسجلة في ملفي)، وإن عكس نوعا من التحايل على الحقيقة ومحاولة جعل الأمور صحيحة عن طريق إزالة العناصر السيئة والمهينة. و في ثقافة تقدس الوثائق الرسمية صنعت تلك الوثائق شيئا كان شره أكبر. فالكذب المكتمل يمكن تفنيده ودحضه، أما وثائق مثل هاتين الوثيقتين فكان من المستحيل تفنيدها لأنها بنيت على وميض من الحقيقة، وليس على كذب مفضوح، ولأنها صادرة عن شركة كسبت ثقة الشركات الأخرى والبنوك الدولية والحكومات.

كان هذا حقيقيا بشكل خاص بالنسبة لسيرتي الذاتية لأنها وثيقة رسمية، على عكس المقال، الذي يشير إلى اسم الصحفية التي أجرت معي اللقاء في المجلة. كان شعار شركة مين Main، يظهر في أسفل السيرة الذاتية وعلي أغلفة كل التقارير والخطط المرفقة بها (التي من المحتمل إنجازها وفقا للسيرة الذاتية) وهي ذات وزن كبير في عالم الأعمال الدولية: أنه ختم المصداقية التي تستدعي المستوى نفسه من الثقة في الأختام الموضوعة على شهادات الدبلومة وغيرها من الشهادات العلمية المعلقة في عيادات الأطباء ومكاتب المحامين.

EXPERIENCE

John M. Perkins is Manager of the Economics Department of the Power and Environmental Systems Division.

Since joining MAIN, Mr. Perkins has been in charge of major projects in the United States, Asia, Latin America and the Middle East. This work has included development planning, economic forecasting, energy demand forecasting, marketing studies, plant siting, fuel allocation analysis, economic feasibility studies, environmental and economic impact studies, investment planning and management consulting. In addition, many projects have involved training clients in the use of techniques developed by Mr. Perkins and his staff.

Recently Mr. Perkins has been in charge of a project to design computer program packages for 1) projecting energy demand and quantifying the relationships between economic development and energy production, 2) evaluating environmental and socio-economic impacts of projects, and 3) applying Markov and econometric models to national and regional economic planning.

Prior to joining MAIN, Mr. Perkins spent three years in Ecuador conducting marketing studies and organizing and managing a construction materials company. He also conducted studies of the feasibility of organizing credit and savings cooperatives throughout Ecuador.

EDUCATION

Bachelor of Arts in Business Administration
Boston University
Post Graduate Studies:
Model Building, Engineering Economics, Econometrics, Probability Methods

LANGUAGES

English, Spanish

PROFESSIONAL AFFILIATIONS

American Economic Association
Society for International Development

PUBLICATIONS

"A Markov Process Applied to Forecasting the Demand for Electricity"
"A Macro Approach to Energy Forecasting"
"A Model for Describing the Direct and Indirect Interrelationships between the Economy and the Environment"
"Electric Energy from Interconnected Systems"
"Markov Method Applied to Planning"

JOHN M. PERKINS



CREDENTIALS

Forecasting Studies
Marketing Studies
Feasibility Studies
Site Selection Studies
Economic Impact Studies
Investment Planning
Fuel Supply Studies
Economic Development Planning
Training Programs
Project Management
Allocation Planning
Management Consulting

Clients served:

- Arabian-American Oil Company, Saudi Arabia
- Asian Development Bank
- Boise Cascade Corporation
- City Service Corporation
- Dayton Power & Light Company
- General Electric Company
- Government of Kuwait
- Instituto de Recursos Hidraulicos y Electrificacion, Panama
- Inter-American Development Bank
- International Bank for Reconstruction and Development
- Ministry of Energy, Iran
- New York Times
- Power Authority of the State of New York
- Perusahaan Umum Listrik Negara, Indonesia
- South Carolina Electric and Gas Company
- Technical Association of the Pulp and Paper Industry
- Union Camp Corporation
- U.S. Treasury Dept., Kingdom of Saudi Arabia

صورة طبق الأصل للسيرة الذاتية

Specialists offer MAIN's clients new services

by Pauline Ouellette


Perkins

Looking over the faces behind the desks, it's easy to tell that Economics and Regional Planning is one of the most recently formed and rapidly growing disciplines at MAIN. To date, there are about 20 specialists in this group, gathered over a seven-year period. These specialists include not only economists, but city planners, demographers, market specialists and MAIN's first sociologist.

While several people were influential in getting the economics group started, it basically came about through the efforts of one man, **John Perkins**, who is now head of the group.

Hired as an assistant to the head load forecaster in January, 1971, John was one of the few economists working for MAIN at the time. For his first assignment, he was sent as part of an 11-man team to do an electricity demand study in Indonesia.

"They wanted to see if I could survive there for three months," he said laughing reminiscently. But with his background, John had no trouble "surviving." He had just spent three years in Ecuador with a Construction Materials Co-op helping the Quechua Indians, direct descendants of the Incas. The Indians, John said, were being exploited in their work as brick makers so he was asked by an Ecuadorian agency to form a co-op. He then rented a truck to help them sell their bricks directly to the consumers. As a result, profits rapidly increased by 60%. The profits were divided among the members of the co-op which, after 2½ years, included 200 families.

It was during this time that John Perkins met **Einar Greve** (a former employee) who was working in the town of Paute, Ecuador, on a hydroelectric project for MAIN. The two became friendly and, through continual correspondence, John was offered a position with MAIN.

About a year later, John became the head load forecaster and, as the demands from clients and institutions such as the World Bank grew, he realized that more economists were needed at MAIN. "While MAIN is an engineering firm," he said, "the clients were telling us we had to be more than that." He hired more economists in 1973 to meet the clients' needs and, as a result, formed the discipline which brought him the title of Chief Economist.

John's latest project involves agricultural development in Panama from where he recently returned after a month's stay. It was in Panama that MAIN conducted its first sociological study through **Martha Hayes**, MAIN's first sociologist. Marti spent 1½ months in Panama to determine the impact of the project on people's lives and cultures. Specialists in agriculture and other related fields were also hired in conjunction with this study.

The expansion of Economics and Regional Planning has been fast paced, yet John feels he has been lucky in that each individual hired has been a hard working professional. As he spoke to me from across his desk, the interest and support he holds for his staff was evident and admirable.

صورة طبق الأصل من المقال المنشور في مجلة مين لاينز عن جون بركنز

تلك الوثائق تصورني كرجل اقتصاد كفء، ورئيس قسم في شركة استشارية ذات مكانة رفيعة، ورجل جال بأرجاء العالم مشرفا على قطاع واسع من الدراسات التي ستجعل من العالم مكانا أكثر حضارة ورفاهية. لم يكن الخداع فيما كتب، بل فيما لم يكتب. فإذا تطلعت للأمور بنظرة محايدة تماما ينبغي أن أعترف أن تلك الأجزاء المحذوفة تطرح العديد من الأسئلة.

على سبيل المثال، لم يكن هناك ذكر لتوظيفي بواسطة وكالة الأمن القومي الأمريكي NSA أو لعلاقة إينار جريف بالجيش ودوره كحلقة الوصل مع الوكالة. وكذلك لم يكن هناك أي ذكر لما كنت أعانيه من ضغوط هائلة لكي أخلص إلى توقعات لأحمال الكهرباء تؤدي إلى تضخم اقتصادي كبير، وأن مساحة واسعة من عملي تتمركز حول السعي نحو القروض الضخمة التي لن تستطيع دول مثل إندونيسيا أو بنما أن تسددها. ولم يأت أي ذكر لهوارد باركر وتمسكه بأمانته العلمية والمهنية، ولا أي اشارة لأنني أصبحت رئيس تقديرات الأحمال الكهربائية لأنني كنت مستعدا لتقديم التقديرات المتحيزة المملاة علي، بدلا من أن أقول الحقيقة وينتهي بي الأمر بالفصل من العمل مثل هوارد. الأمر المربك أكثر من غيره جاء في العبارة الأخيرة، تحت بند قائمة العملاء «وزارة الخزانة الأمريكية والمملكة العربية السعودية».

ظللت أعود إلى هذا السطر، وأتعجب كيف سيفسره الناس. ربما يتساءلون عن ماهية العلاقة بين وزارة الخزانة الأمريكية والمملكة العربية السعودية. ربما يظنها بعضهم خطأ مطبعيا (كما لو أن هناك سطرين منفصلين ومكتوبين في سطر واحد عن طريق الخطأ). رغم ذلك لن يخمن معظم القراء الحقيقة إطلاقا والوحيدون الذين سيفهمون دلالة العلاقة بين وزارة الخزانة الأمريكية والمملكة العربية السعودية هم أولئك الموجودون داخل الدائرة الداخلية من عالم الأعمال الدولية، وسيفهمون من ذلك أنني كنت جزءا من الفريق الذي أنجز أهم صفقة في القرن، تلك الصفقة التي غيرت مجرى تاريخ العالم لكنها لم تصل إلى الصحف إطلاقا. لقد ساعدت في خلق اتفاقية ضمنت استمرار إمداد أمريكا بالبترول، وضمنت استمرار بيت آل سعود في الحكم، وساعدت في تمويل أسامة بن لادن وحماية مجرمين عالميين مثل سفاح أوغندا عيدي أمين. ذلك السطر في سيرتي الذاتية خاطب عقول ذلك الفريق من الناس. فقد كشف ذلك السطر عن أن كبير اقتصاديي شركة مين Main رجل يفعل ما هو متوقع منه.

الفقرة الأخيرة من المقال الموجود على صفحات مينلاينز كان ملاحظة شخصية لكاتبة المقال، وقد لامس وترا حساسا فكانت تقول:

> *«إن التوسعات في الشئون الاقتصادية وخطط التطوير الإقليمي تسير قدما بخطوات واسعة، لذلك يشعر جون أنه محظوظ بكل موظف يعمل*

معه باجتهاد وكد واحتراف. كان اهتمامه ودعمه للفريق الذي يعمل معه واضحا ويثير الإعجاب وهو يتحدث معي من وراء مكتبه».

الحقيقة أنني لم أفكر في نفسي إطلاقا بوصفي رجل اقتصاد مخلصا حسن النية. لقد حصلت على بكالوريوس التجارة وإدارة الأعمال من جامعة بوسطن، وركزت على دراسة التسويق. وكنت دائما ضعيفا في الرياضيات والإحصاء. في جامعة ميدلبيري تخصصت في دراسة الأدب الأمريكي، فأصبحت الكتابة أمرا سهلا لدي. أما مناصبي ككبير اقتصاديين ومدير اقتصاد ومخطط إقليمي فلا يمكن إرجاعها لقدراتي لا في الاقتصاد ولا في التخطيط، ناهيك عن أنها وظيفة تتماشى مع إرادتي ورغبتي في تقديم نماذج الدراسات والنتائج المستخلصة التي يريدها رؤسائي وعملائي، متضافرة مع ألمعية فطرية في القدرة على إقناع الآخرين من خلال الكلمة المكتوبة. إضافة إلى ذلك، كنت ماهرا جدا في توظيف ذوي الكفايات العالية، كثير منهم حاصل على درجة الماجستير، وبعضهم حاصل على أكثر من شهادة دكتوراه، وبذلك حصلت على فريق يعرف كثيرا عن تقنيات العمل الذي أؤديه. سؤال صغير تطرق إلى ذهني عن كاتبة المقال التي اختتمته بقولها:

«اهتمامه ودعمه للفريق الذي يعمل معه كان واضحا ومثيرا للإعجاب».

وضعت هاتين الوثيقتين وغيرهما في الدرج العلوي من مكتبي، وطالما كنت أعود إليهما مرات ومرات. فيما بعد كنت أجد نفسي أحيانا خارج مكتبي أطوف بين مكاتب الفريق الذي يعمل معي، متطلعا إلى أولئك الرجال والنساء الذين يعملون تحت إمرتي وشاعرا بالذنب لما اقترفته بحقهم، وللدور الذي نلعبه جميعا في توسيع الهوة بين الأغنياء والفقراء. فكرت في أولئك الذين يموتون جوعا كل يوم بينما أنا وفريقي ننام في فنادق درجة أولى ونأكل في أرقى المطاعم وننمي استثماراتنا المالية ومدخراتنا.

فكرت في أن الفضل يرجع إلي في انضمام أولئك الذين دربتهم على العمل لطبقة قراصنة الاقتصاد. أنا من جندهم ودربهم. لكن لم يعد الأمر كما كان عندما انضممت أنا لها. لقد تغير العالم وتطور، وأصبحنا أفضل من ذي قبل أو أكثر إهلاكا. كان الذين يعملون لدي من جنس مختلف عني. فلم يكن في حياتهم جهاز البوليجراف الذي يسجل تغيرات الوظائف الفسيولوجية في الجسم ولا كان في حياتهم كلودين. لم ينطق أحد أمامهم باسمها، جل ما توقعوا أن يفعلوه هو استمرار مهمة الإمبراطورية العالمية. لم يسمعوا أبدا عن مصطلح قرصان اقتصاد، ولا أحد قال لهم إنه سيرتبط بهم مدى الحياة. اتخذوني ببساطة مثالا يحتذى يتعلمون منه، وبالثواب والعقاب تعلموا أنه متوقع منهم تقديم نماذج الدراسات والنتائج التي أريدها، حيث تعتمد رواتبهم والمكافآت التي يحصلون عليها في أعياد الكريسماس وحتي وظائفهم ذاتها – على رضاي عنهم.

بالطبع، فعلت كل ما في وسعي لأخفف عنهم أعباءهم. كتبت المقالات والبحوث، وأعطيت المحاضرات وانتهزت كل فرصة ممكنة لإقناعهم بأهمية التفاؤل في التوقعات الخاصة بالقروض الضخمة والتدفق المالي الذي سيعمل على تنمية مقاييس الدخل و الإنتاج القومي، وتجعل من العالم مكانا أفضل. لم يتطلب الأمر عقدا من الزمان للوصول لهذا الحد حيث اتخذ الإغراء والإكراه شكلا أدق، صار نوعا من الأسلوب الناعم لغسيل المخ. والآن أولئك الرجال والنساء خارج مكتبي الذين يجلسون وراء مكاتبهم ينظرون إلى خليج بوسطن سيخرجون للعالم للعمل على تحقيق أهداف الإمبراطورية العالمية. وبصدق شديد، أقول إنني صنعتهم، كما صنعتني كلودين، لكنهم ليسوا مثلي، لقد ظلوا في الظلام.

سهرت ليال عديدة، قلقا ومضطربا بشأن هذه الأمور. إن إشارة باولا إلى سيرتي الذاتية فتحت لي صندوق باندورا(*)، وغالبا كنت أشعر بالغيرة من الموظفين الذين أرأسهم لسذاجتهم. لقد خدعتهم عن عمد، وبخداعهم أعفيتهم من تأنيب ضمائرهم. ليسوا مضطرين للصراع مع القضايا الأخلاقية التي تطاردني.

تأملت كثيرا فكرة النزاهة والاستقامة في العمل، وفكرة المظهر في مقابل الجوهر. قلت لنفسي من المؤكد أن الناس يخدع بعضهم البعض منذ بداية التاريخ، حيث تعجّ الأساطير والفلكلور بحكايات عن الحقائق المشوهة وعمليات الاحتيال كخداع تجار السجاد، أو المرابين المخادعين، أو الخياطين المخادعين اللذين أقنعا الإمبراطور بالباطل أنه الوحيد الذي لا يرى ملابسه.

على أية حال، توصلت لنتيجة، وهي أن هذه هي حال الدنيا منذ الأزل، وأن المظهر الخارجي المصطنع لسيرتي الذاتية والحقائق المختفية وراءها ليس أكثر من ابتكارات عقل إنساني، أعرف من أعماق قلبي أن الحقيقة ليست هكذا.

لقد تغيرت الأمور. أفهم الآن أننا وصلنا إلى مستوّى جديد من الخداع سيؤدي حتما إلى خراب حضارتنا، ليس من الوجهة الأخلاقية فقط، لكن من الناحية المادية أيضا، إلا إذا عجلنا بتغيرات جمة.

إن نموذج الجريمة المنظمة في الواقع يقدم لنا مثالا واضحا. فرؤساء المافيا غالبا يبدءون مجرمين شوارع. لكن بمضي الزمن، يصعدون إلى القمة ويحسنون من مظهرهم. ويتمسحون بمسوح البراءة وكأنهم شرفاء يعملون في أعمال مشروعة، ويرتدي مجتمعهم عباءة مجتمع مستقيم أخلاقيا. يسارعون

(*) باندورا في الأساطير اليونانية هي أول امرأة وجدت على الأرض. خلقت بأمر من زيوس من الماء والتراب ومنحت العديد من المزايا مثل الجمال والقدرة على الإقناع وعزف الموسيقا. وحسب الأسطورة، كان هناك صندوق منعت باندورا من فتحه ولكن فضولها دفعها لفتح الصندوق فانطلقت منه الشرور كلها لتنتشر في الأرض.

بإعانة البائسين في الحياة؛ فيمنحوا القروض والمساعدات والدعم للأعمال الخيرية. ويلقون الاحترام من المجتمع.

يبدو أولئك الرجال مواطنين نموذجيين. ولكن وراء هذا البريق هناك درب من الدماء. فحين يعجز المدينون عن سداد الدين ينقض عليهم قراصنة الاقتصاد ليقتطعوا رطلا من اللحم الحي. وإذا لم يفلحوا تدخل الثعالب الملعب، ليسددوا الضربة تلو الأخرى، وكملاذ أخير يأتي دور الحرب.

أدركت أن خداع مظهري الجذاب - كبير اقتصاديين ورئيس قطاع اقتصادي ومخطط للتنمية الإقليمية - ليس هو نفسه ذاك الخداع البسيط لتاجر السجاد الذي لا يسعى إلا للتربح من «الزبون» بالمكر والحيلة، أما نظامنا فهو ترويج لشكل من الإمبريالية أكثر مكرا وتأثيرا لم يعرف له العالم مثيلا من قبل. كل فرد في الطاقم الذي يعمل معي يحمل لقبا، مثل باحث اقتصادي، وأستاذ في علم الاجتماع، ومسئول اقتصادي، ورئيس اقتصاديين، ومتخصص في علم الاقتصاد القياسي، وخبير تثمين... وهلم جرا. ومع ذلك لا يشير أي من هذه الألقاب لحقيقة عمل من يحمله، وهو أنهم قراصنة اقتصاد، يخدمون جميعا مصالح الإمبراطورية العالمية.

الحقيقة أن حملة تلك الألقاب من أفراد طاقم العمل معي لا يمثلون إلا الجزء الظاهر من جبل الجليد العائم. فلدى كل شركة عالمية ضخمة - بداية من شركات تسويق الأحذية والبضائع الرياضية وصولا لشركات تصنيع المعدات الثقيلة - قراصنة اقتصاد مماثلون لنا. لقد بدأت المسيرة وطوقت العالم بسرعة. وألقي المجرمون بستراتهم الجلدية وارتدوا ثياب العمل، وتولوا العمل في جو من الاحترام. الرجال والنساء القادمون من مراكز الإدارة الرئيسة في نيويورك وشيكاغو وسان فرانسيسكو ولندن وطوكيو - يندفعون في كل قارات العالم لإقناع رجال السياسة الفاسدين بتكبيل بلادهم بقيود الكربوقراطية وإغراء الشعوب البائسة ببيع حياتهم للمصانع وخطوط التجميع، التي تشغلهم ساعات طويلة بأجور زهيدة في ظروف عمل مهينة.

أزعجني ما فهمته من تفاصيل خفية وراء الكلمات المكتوبة في سيرتي الذاتية، في ذلك المقال الذي يرسم عالما خادعا مبهرا يعمل على تكبيلنا بأصفاد نظام غير أخلاقي لن يسفر في نهاية المطاف إلا عن تدمير ذواتنا. فحين دفعتني باولا لقراءة ما بين السطور، حثتني على أن أخطو خطوة للأمام في طريق من المؤكد أنه في آخر الأمر سيغير مسار حياتي.

الفصل الرابع والعشرون

رئيس الإكوادور ومعارك البترول الكبرى

منحني عملي في كولومبيا وبنما عديدا من الفرص، لأزور البلد الذي أراه وطني الثاني ولأكون على صلة به. عانت الإكوادور طويلا من الحكم الدكتاتوري وحكومات الأقلية من الجناح اليميني الخاضع لمصالح الولايات المتحدة السياسية والاقتصادية. وواجهت تلك الدولة التي تعد الأولى في إنتاج الموز، غزوة كبرى للكوربوقراطية.

بدأ الاستغلال الفعلي للبترول في حوض الأمازون الإكوادوري في أواخر ستينيات القرن العشرين، وأسفر ذلك عن فتح شهية الاستهلاك، جعلت العائلات الحاكمة في الإكوادور تأخذ البلاد إلى براثن البنوك الدولية. فقد أثقلوا كاهل دولتهم بكم كبير من الديون على وعد بالدفع من خلال عائدات البترول.

انتشرت الطرق والمنشآت الصناعية بالإضافة إلى السد المقامة عليه محطات توليد كهرباء وأنظمة النقل وتوزيع الكهرباء، وأنشئت مشروعات قوية أخرى في أرجاء الدولة. مرة أخرى أثرى ذلك النظام المكاتب الهندسية الدولية وشركات البناء والتعمير.

تألق نجم فوق سماء هذه الدولة الإنديزية، وكان استثناء من قاعدة فساد الساسة واقترافهم الجرائم مشاركة مع الكوربوقراطية. هذا النجم هو خايمي رولدوس، الذي كان أستاذا جامعيا ومحاميا في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين.

التقيته في عدة مناسبات، وكان يمتلك شخصية قيادية قوية وشخصية فاتنة. ذات مرة، عرضت عليه أن أطير إلى كويتو وأقدم خدمات استشارية مجانية في أي وقت يشاء. قلت ذلك بشكل ساخر إلى حد ما، وإن كان ليسعدني أن أفعل ذلك في إجازاتي؛ فقد أحببت الرجل وبادرت بإخباره عن حبي له، كنت أبحث عن سبب وجيه لزيارة بلاده. ضحك وعرض على صفقة مشابهة، قائلا إنه يمكنني الاعتماد عليه في أي وقت أحتاج فيه للتفاوض بشأن فاتورة البترول الخاصة بي.

استطاع خايمي رولدوس ترسيخ سمعته قائدا شعبيا ووطنيا يؤمن بحقوق الفقراء ومسئولية رجال السياسة في الاستغلال الأمثل لثروات الدولة الطبيعية. حين بدأ حملته الانتخابية للرئاسة في

عام ١٩٧٨، استلفت إليه أنظار فلاحي شعبه والمواطنين من كل أمة تعاني من استغلال الأجانب لثرواتها، أو أي شعب يريد الاستقلال من نفوذ وهيمنة القوات الأجنبية. كان رولدوس أحد السياسيين القلائل في عصرنا الحديث، الذين لا يخشون الصدام مع الوضع القائم، فقد سعي لكشف ما وراء شركات البترول والنظام المرواغ الذي يدعمها.

على سبيل المثال، اتهم معهد اللغويات الصيفي SIL (وهو مجموعة تبشيرية إنجيلية أمريكية) بالتواطؤ مع شركات البترول. كنت على علم بإرساليات (SIL) حين كنت منضما لفيالق السلام. دخلت هذه المنظمة الإكوادور، مثل بلاد أخرى كثيرة غيرها، تحت ستار دراسة اللغات المحلية وتسجيلها وترجمتها.

عملت منظمة SIL بتوسع مع قبيلة هيوارني في منطقة حوض الأمازون، خلا السنوات الأولى من الاستكشافات البترولية، حين بزغت بوادر الازعاج، فمع إعلان الجيولوجين في الإدارة المركزية للشركة عن أن ثمة احتمالات كبيرة لوجود البترول في منطقة بعينها. ذهبت مجموعة SIL وشجعت أهل المنطقة على الانتقال إلى مكان آخر، تحت حماية الإرسالية. على وعد أن تمنحهم الإرسالية مجانا الطعام والشراب والمأوى والملابس والرعاية الصحية والتعليم، بأسلوبها، الذي كان يعني اضطرارهم لتسليم الأراضي لشركات البترول.

انتشرت الشائعات حول إرساليات SIL التبشيرية بأنها تمارس نشاطات سرية لإقناع القبائل بالتخلي عن بيوتهم والانتقال إلى خيام الإرسالية. أما القضية التي أثيرت مرارا وتكرارا وهي أنهم كانوا يقدمون لهم طعاما ممزوجا بمواد تسبب الإسهال، وبعدها يقدمون لهم الأدوية التي تعالج الإسهال. عبر أراضي قبائل الهيوارني، كانت منظمة SIL تسقط من الجو سلال طعام فيها أجهزة إرسال شديدة الصغر، تبث إرسالها إلى محطات الاتصال على درجة عالية من التكنولوجيا، في تلك المحطات المزودة بدائرة موظفين عسكريين في قاعدة جيش أمريكية في شل، مهمتهم تعديل وضبط استقبال هذه الأجهزة. حين يتعرض أحد أفراد القبيلة للدغة ثعبان أو يمرض مرضا شديدا، يصل ممثلو SIL ومعهم المصل المضاد للتسمم أو الدواء المناسب للحالة، غالبا في طائرات هليوكوبيتر تابعة لشركات البترول.

أثناء بدايات اكتشاف البترول، عثر على خمسة أفراد من الإرسالية التبشيرية SIL مقتولين طعنا بحراب قبائل الهيوارني وجدت مغروزة في أجسامهم. فيما بعد، ادعى الهيوارني أنهم فعلوا ذلك لبعث رسالة إلى أفراد الإرسالية ليخرجوا من ديارهم. لكن لم يكترث أحد بتلك الرسالة، بل أدت في النهاية إلى تأثير عكسي. فراشيل سانت، شقيقة أحد القتلي، طافت بمدن الولايات المتحدة وظهرت في برامج التليفزيون القومي لتجمع التبرعات لدعم إرسالية SIL وشركات البترول، وادعت أنهم يساعدون أولئك «الهمج» ليتحضروا ويتثقفوا.

تلقت إرسالية SIL التبشيرية دعما ماليا من جمعية روكفلر الخيرية. صرح خايمي رولدوس أن الصلات القوية لـروكفلر تؤكد أن SIL ليست سوى واجهة مزيفة لسرقة الأراض من أهلها وتشجيع استغلال البترول، وأن سلالة عائلة جون د. روكفلر قد اكتشفت بترولا على مستوًى عال من الجودة، وقصرت استغلاله على شركات كبري مثل شيفرون وإكسون وموبيل[1].

صدمني رولدوس بوصفه رجلا يسير على درب توريخوس المتألق. فكلاهما وقف ضد أقوى دولة عظمي في العالم. أراد توريخوس استرداد القناة، بينما انصرف دور رولدوس الوطني القوي إلى محاربة استغلال شركات ذات نفوذ وسطوة لبترول بلده. مثل توريخوس لم يكن رولدوس بشيوعي بل على العكس وقف إلى جانب حقوق شعبه في تقرير مصيره. وكما فعلوا مع توريخوس، تنبأ المثقفون من كلا الشعبين أن واشنطن وأصحاب المصالح الاقتصادية الضخمة لن يسمحوا أبدا لرولدوس أن يصبح رئيسا، وإذا انتخب سيواجه قدرا شبيها بقدر آربنز في جواتيمالا أو الليندي في شيلي.

بدا لي أن الرجلين معا قد يصبحان قوة محركة لحركة جديدة في سياسة أمريكا اللاتينية. وأن هذه الحركة ربما ترسي الأساس لتغييرات قد تؤثر في كل أمم الأرض. هذان الرجلان لم يكونا كاسترو ولا القذافي، ولم يتحالفا مع روسيا ولا الصين، ولا حتى مع حركة الاشتراكية العالمية مثل الليندي. كانا قائدين شعبيين وذكيين، وواسعي الأفق يفكران في مصلحة بلادهما. كانا وطنيين ولكنهما ليسا ضد أمريكا، وإذا كانت الكوربوقراطية تقوم على ثلاث دعائم هي الشركات الضخمة والبنوك الدولية والحكومات المتواطئه - فإن رولدوس وتوريخوس سعيا لمحو العنصر الأخير في تلك المعادلة.

اشتهر الجزء الأكبر من حديث رولدوس وآرائه فيما بعد باسم السياسات البترولية. أسس سياسته تلك على أن أكبر ثروات الإكوادور الطبيعية هي البترول وأن كل استثمارات المستقبل لتلك الثروة يجب أن تستغل بما يعود بأكبر نفع على أكبر عدد من السكان. فقد كان رولدوس شديد الإيمان بواجب الدولة في مساعدة الفقراء والمحرومين، وهكذا عبر عن أمله في أن يجعل من سياساته البترولية وسيلة للإصلاح الاجتماعي. كان عليه أن يسير في درب وعر، رغم أنه يعرف أن الإكوادور - مثل بلاد كثيرة غيرها - لا يمكنه أن ينتخب رئيسا دون دعم العائلات النافذة، الذي لا غنى عنه حتى لو تمكن من النجاح دونه، إن أراد لبرنامجه الإصلاحي أن يتحول لحقيقة.

شخصيا شعرت بارتياح لأن كارتر على رأس البيت الأبيض خلال هذه الفترة الحاسمة. فرغم ضغوط شركة تكساكو وغيرها من شركات البترول ذات المصلحة في هذا الشأن، إلا أن واشنطن بقيت بعيدة عن الصورة. وكنت واثقا أن الأمر لن يكون هكذا تحت أية إدارة أخرى سواء جمهورية أو ديمقراطية.

وأعتقد أن السياسات البترولية أكثر من غيرها هي التي أقنعت شعب الإكوادور لاختيار خايمي رولدوس لكرسي الحكم في كويتو، وهو أول رئيس منتخب ديمقراطيا بعد زمن طويل من حكم الديكتاتوريين. لقد حدد رولدوس الخطوط العريضة لأسس هذه السياسة في العاشر من أغسطس عام ١٩٧٩ في خطاب توليه الرئاسة بقوله:

> *«علينا أن نراجع أنفسنا للحفاظ على مصادر أمتنا من الطاقة. وعلى الدولة أن تحافظ على تنوع الاستثمارات في صادراتها وألا تفقد استقلالها الاقتصادي. إن قراراتنا ستنبع فقط من المصلحة القومية والدفاع بلا حدود عن استقلالنا وحقنا في تقرير المصير»[٢].*

ذات مرة اضطر رولدوس في مكتبه أن يركز حديثه على تكساكو، لأنه في ذلك الوقت كانت تكساكو قد أصبحت اللاعب الرئيس في لعبة البترول. كانت علاقة عسيرة إلى أقصى حد، فعملاق البترول لم يول ثقته للرئيس الجديد ولم يرغب في أن يكون جزءا من أية سياسة تضع سابقة جديدة يحتذي بها فيما بعد وتصير مقياسا للتعامل. أدركت الشركة تماما أن مثل تلك السياسة قد تتخذ مثالا يحتذي في البلاد الأخرى.

ولخص خوسيه كارياخال مستشار رولدوس الخاص في خطاب ألقاه - موقف الإدارة الجديدة:

> *«إن لم يرغب أحد الشركاء (تكساكو) في المخاطرة بالاستثمار في الكشف والاستطلاع، أو في استثمار المناطق المسموح له باستغلال بترولها، فإن الشريك الآخر له الحق استثمار تلك المناطق ومن ثم تولي الإدارة كمالك.*
>
> *نعتقد أن علاقتنا مع الشركات الأجنبية يجب أن تكون عادلة، علينا أن نكون حازمين في الصراع، وعلينا أن نعد أنفسنا لكل أنواع الضغوط، لكن ينبغي لنا ألا نظهر مخاوفنا ولا هواجسنا في أثناء المفاوضات مع تلك الشركات»[٣].*

في عيد رأس السنة عام ١٩٨٠، اتخذت قرارا كان بداية عقد جديد. خلال ثمانية وعشرين يوما، سأصل للخامسة والثلاثين من عمري. خلصت من ذلك أنه على في العام القادم أن أغير حياتي تغيرا كبيرا، ولابد في المستقبل أن تكون حياتي على غرار نموذج مثل خايمي رولدوس وعمر توريخوس.

بالإضافة لذلك، حدث أمر صدمني ثم عاد علي بالنفع، فرغم أن برونو رئيس شركة مين Main كان الشخص الأكثر نجاحا في تاريخ الشركة فقد فصله ماك هول فجأة ودون سابق إنذار.

الفصل الخامس والعشرون
استقالتي

كان فصل ماك هول لبرونو بمثابة زلزال في شركة مين Main. وثار الاضطراب والشقاق بين الموظفين في الشركة. كان لبرونو نصيبه من الأعداء، لكن حتى بين أعدائه هناك من أفزعه الأمر. كان من الواضح لدى كثير من الموظفين أن الغيرة هي الدافع وراء ذلك. ومن خلال المناقشات التي دارت عبر مائدة الغداء أو حول عربة القهوة، كان أفراد الشركة يبوحون بأنهم يظنون أن ماك هول شعر بالتهديد من جانب هذا الرجل الذي أمضي أكثر من ثلاثة عشر عاما في مرتبه أقل منه ، ومع ذلك بلغ بالشركة مستويات غير مسبوقة من الأرباح.

قال أحد الموظفين: «لم يكن هول ليسمح لبرونو بالاستمرار في هذا النجاح»، وقال آخر «كان هول يدرك أنها مجرد مسألة وقت ويتولى برونو إدارة الشركة ويلقي بالعجوز إلى الظل».

وكما لو كان هول يريد تأكيد مثل هذه النظريات، عين بول بريدي رئيسا جديدا للشركة. كان بول هو نائب رئيس شركة مين Main منذ عدة سنوات وكان شخصا ودودا، ومهندسا على دراية بالتفاصيل العملية لوظيفته. وفي رأيي الشخصي، كان أيضا ذا شخصيه باهته ينقصه البريق، يوافق على كل ما يقوله رئيسه لإرضائه ويخضع لنزواته ولن يحقق نجاحات مدوية تهدد مكانتة. كان الكثيرون يشاركونني الرأي.

بالنسبة لي، كان رحيل برونو مدمرا. فقد كان معلمي وناصحي الخاص، وعاملا رئيسا في نجاح عملنا دوليا. أما على الجانب الآخر، كان بريدي يركز على الوظائف المحلية ولا يعرف إلا القليل بشأن الطبيعة الحقيقية لأدوارنا عبر البحار. كنت مضطرا أن أسأل إلى أين تمضي شركتنا ولهذا اتصلت هاتفيا ببرونو في منزله ووجدته يتعامل مع الأمر بفلسفته الخاصة.

قال عن هول: «حسنا يا جون، هو يعرف أنه لا يملك أسبابا لإقالتي، لذلك طلبت مبلغا كبيرا كمكافأة لنهاية الخدمة وحصلت عليها. سيطر «ماك» على كم كبير من أصوات المساهمين في الشركة، وبمجرد أن خطا خطوته لم يكن في وسعي أن أفعل شيئا». أشار برونو إلى أنه يفكر في عدة عروض على مستوًى رفيع عرضت عليه من قبل بنوك متعددة الجنسيات من زبائننا.

سألته عما أفعل، فنصحني قائلا: «كن على حذر. لقد انقطعت علاقة ماك هول بالواقع، ولن يستطيع أحد أن يخبره بذلك، وخاصة الآن بعد ما فعله معي».

في أواخر مارس ١٩٨٠، بينما ما أزال فاقدا لاتـزاني جراء فصل برونو، حصلت على أجازة قضيتها في رحلة بحرية في فيرجن آيلاند Virgin Ilands. رافقتني ماري، وهي شابة تعمل أيضا في شركة مين Main. ورغم أنني لم أفكر في الأمر حين اخترت المكان - أعرف الآن أن تاريخ المنطقة كان عاملا ساعدني على اتخاذ قراري بما أنوي فعله في العام الجديد. جاءتني أول خاطرة عن القرار الذي سأتخذه ذات ظهيرة ونحن نطوف بجزيرة سانت جون ونغير مطافنا نحو قناة سيرفرانسيس دريك، التي تفصل بين الجزأين الأمريكي والبريطاني من جزيرة فيرجن آيلاند البريطانية.

وبالطبع أطلق على القناة هذا الاسم تيمنا بما ألحقه الإنجليز من هزيمة بالأساطيل الإسبانية التي تحمل ذهب الأرض الجديدة. تلك الحقيقة ذكرتني بالمرات العديدة خلال العقد الماضي من عمري حين كنت أفكر في القراصنة وغيرهم من الشخصيات التاريخية، رجال مثل دريك وسير هنري مورجان الذين نهبوا وسلبوا واستغلوا، وحظوا لقاء ذلك بالتمجيد والإطراء، حتى وصلوا لمنزلة الفرسان. وكثيرا ما سألت نفسي لماذا علموني أن أحترم مثل هؤلاء الأشخاص، كان ينبغي أن يوخزني ضميري لمشاركتي في استغلال بلاد مثل إندونيسيا وبنما وكولومبيا والإكوادور. الأمر نفسه مع الأبطال الذين أبجلهم أمثال إيثان آلن وتوماس جيفرسون وجورج واشنطن ودانيال بوني ودافي كروكيت ولويس وكلارك... سيطول المقام إذا أردنا ذكرهم جميعا، فكثيرون هم الذين استغلوا الهنود والعبيد وسلبوا الآخرين أراضيهم. طرحت على نفسي هذه الأمثلة لأهدئ من شعوري بالذنب. الآن، حيث يسير مركبنا نحو قناة سير فرانسيس دريك، أدركت تهافت منطقي السابق.

تذكرت حينها بعض الأمور التي تعمدت تجاهلها في الماضي حتى لا تؤرق ضميري. لقد قضي إيثان آلن عدة شهور في سفن الشجن الإنجليزية الكريهة الرائحة وهو مصاب بالتشنج، مقيدا معظم الوقت بأصفاد حديدية تـزن ثلاثين رطلا، ثم قضي وقتا أطول في زنـزانة إنجليزية معتمة تحت الأرض. كان سجين حرب، أسر في معركة مونتريال في عام ١٧٧٥ وهو يحارب من أجل الحرية نفسها التي ينشدها الآن خايمي رولدوس وعمر توريخوس لشعبيهما. خاطر توماس جيفرسون وجورج واشنطن وكل الآباء المؤسسين بحياتهم من أجل مبادئ ومثل مشابهة.

لم يكن انتصار الثورة مضمونا، وقد وعوا تماما أنهم إذا انهزموا سيشنقون بتهمة خيانة الأمبراطورية البريطانية. وبالمثل تحمل دانيال بوني ودايفي كروكيت ولويس وكلارك أعباء قاسية وقدموا تضحيات عديدة.

وماذا عن دريك ومورجان؟ إن تلك الحقبة من التاريخ مبهمة وغامضة بعض الشيء بالنسبة لي، لكني أتذكر أن إنجلترا البروستانتية رأت نفسها مهددة بشكل خطير من إسبانيا الكاثوليكية. عليّ

أن أقر باحتمال أن دريك ومورجان تحولا إلى القرصنة ليتمكنا من الدفاع عن مجد إنجلترا بضرب الإمبراطورية الإسبانية في الصميم، من خلال مهاجمة سفنها التي تحمل الذهب، وليس بدافع صنع مجد شخصي.

أثناء إبحارنا في تلك القناة، نروح ونغدو حسب اتجاه الريح، ونسير ببطء نحو الجبال الناتئة من البحر، شمالنا جزيرة ثاتش Thatch وجنوبنا جزيرة سانت جون. لم أستطع أن أفرغ ذهني من تلك الأفكار. مدت ماري يدها لي بعلبة بيرة وغيرت محطة الإذاعة إلى أغنية جيمي بوفيه، مع ذلك، ورغم الجمال الذي يحيطني من كل جانب والشعور بالحرية الذي عادة ما يجلبه الإبحار - فقد شعرت بالغضب. حاولت السيطرة عليه. فتحت علبة البيرة ففرقعت بصوت مرتفع.

لم تفارقني تلك المشاعر. كنت غاضبا من تلك الأصوات التي تأتيني من الماضي والطريقة التي طالما بررت بها جشعي. كنت حانقا على والدي، وعلى مدرسة تيلتون الإعدادية على التل، التي زيفت التاريخ وجعلت منه صورا براقة مهيبة مثيرة لإعجابي. فتحت علبة بيرة أخرى. وكنت حانقا لدرجة أن راودتني خيالات بأني قد أقتل ماك هول لما فعله ببرونو.

مر بجوارنا قارب خشبي يرتفع فوقه علم بألوان قوس قزح، كانت أشرعته تنتفخ على الجانبين، تجاه هبوب الريح على القناة. كان هناك نصف دستة من الشباب من الجنسين يصيحون ويلوحون لنا، شباب «هيبز» يرتدون السارونج الملون بألوان فاقعة (الزي الإندونيسي التقليدي)، كان اثنان منهم عاريين تماما على مقدمة المركب. كان واضحا من القارب نفسه ومن شكلهم أنهم يعيشون على القارب طول الوقت، في مجتمع صغير خاص بهم، قراصنة من نوع جديد، أحرار، غير مقيدين بالقيود الاجتماعية التقليدية.

حاولت أن ألوح لهم ردا على تحيتهم لكن يدي لم تطاوعني. شعرت بالغيرة تغالبني.

وقفت ماري على سطح المركب، تراقبهم وهم يختفون مبتعدين وراء مؤخرة مركبنا. سألتني: «هل تحب أن تعيش مثل تلك الحياة؟».

وعندئذ فهمت. لم يكن الأمر يتعلق بوالدي، ولا بتلتون، ولا ماك هول. إنها حياتي هي التي أكرهها. حياتي أنا. الشخص الذي يحمل على عاتقه مسئوليات، ذلك الشخص الذي أبغضه وأمقته هو أنا.

صاحت ماري وهي تشير إلى الجانب الأيمن من مقدمة المركب وتخطو مقتربة مني: «خليج لينستر هو مرسانا الليلة». وهذا ما فعلناه، رسونا على جزيرة سانت جون، في خليج صغير حيث كانت سفن القراصنة في الماضي ترسو مختفية في انتظار وصول أساطيل الذهب حين تمر عبر هذه المنطقة من المحيط. أبحرت بالقرب منها، ثم أعطيت الدفة لماري واتجهت إلى مقدمة سطح المركب.

بينها هي تسير بالقارب حول جزيرة «وترميلون» الصغيرة المنخفضة التي تتكون من المرجان والرمل وتشق طريقها داخل خليج جميل - خفضت الصاري ولففته وغيرت اتجاه المرساة نحو الصندوق الذي تحفظ فيه. واستطاعت ماري ببراعة أن تسقط الشراع الرئيسي. دفعت المرساة جانبا، جلجلت السلاسل في مياه البحر البلورية الساطعة وانجرف القارب إلى موضع وقف فيه.

بعد أن رسونا، غطست ماري في الماء وأخذت قسطا من السباحة ثم غفت في قيلولة صغيرة. تركت لها رسالة صغيرة وجدفت في اتجاه التيار بالزورق الصغير الذي نحتفظ به على ظهر المركب، دفعته أسفل أطلال مزرعة قصب. جلست هناك أمام الماء وقتا طويلا، محاولا ألا أفكر وأن أركز في أن اتخلص من كل المشاعر التي تعتمل داخلي. لكني لم أفلح.

بعد الظهيرة، صارعت لكي أتسلق التل ووجدت نفسي أقف على جدران هذه المزرعة القديمة المتداعية، انظر إلى الزورق الشراعي الصغير ذي الصاري الوحيد الذي يرسو أسفل ناظري. راقبت الشمس وهي تغرق في البحر الكاريبي. بدا لي كل شيء كأنه قصيدة رعوية، مع ذلك، تذكرت أن هذه المزرعة المحيطة بي شهدت بؤسا تعجز أمامه الكلمات، مئات من العبيد الأفارقة لاقوا حتفهم هنا، مرغمين تحت تهديد السلاح أن يبنوا بيت السيد الفخيم، وأن يزرعوا ويحصدوا قصب السكر، وأن يؤدوا كل ما يلزم من عمل لتحويل السكر الخام إلى مشروبات وكحوليات. إن سكون المكان يخبيء وراءه تاريخا من القسوة، مثلما يختبئ الغضب الذي يموج داخلي.

اختفت الشمس وراء حافة الجزيرة الجبلية. وامتلأت السماء بقوس من اللون الأرجواني. أخذ الظلام يلف البحر، وأصبحت وجها لوجه أمام الحقيقة الصارمة أنني أنا أيضا قد استرققت العبيد، فوظيفتي في شركة مين Main ليست سوى استخدام الديون للإيقاع بالدول الفقيرة في براثن الإمبراطورية العالمية. وأن توقعاتي المبالغ فيها ليست سوى أحبولة للتأكيد على أنه حين تحتاج بلدي للبترول ستستطيع استغلال تلك البلاد، ولم ينحصر دوري كشريك في العمل على زيادة أرباح الشركة، وإنما كان لوظيفتي أيضا تأثير مدمر على عائلات، تربطهم صلة وثيقة بالأشخاص الذين ماتوا في سبيل بناء هذا الحائط الذي أستند إليه، مثل أولئك الذين أستغلهم.

لعشر سنوات، كنت خلفا لهؤلاء السلف من الرجال الذين سحبوا العبيد من غابات أفريقيا إلى السفن المنتظرة على الشاطئ، لكنني كنت النموذج الأحدث في هذا الدرب والأكثر مرواغة، لم أر في حياتي جثث الموتى ولم أشم رائحة اللحم المتعفن، ولم أسمع صرخات الألم. لكن ما فعلته هو نفس الشر، ذلك لأنني كان بامكاني أن أنتزع نفسي منه، ولأنني أستطعت أن أقطع كل الأواصر التي تربطني بآلام الإنسانية، وعذابات الأجساد، وصرخات الألم التي أصممت أذني عنها، ربما في التحليل النهائي أرى نفسي أكثر إجراما وشرا.

حلقت مرة أخرى في الزورق الشراعي ذي الصاري الوحيد، يتجاذبه المد وهو مربوط بالمرساة. كانت ماري مسترخية على مقدمة سطح المركب، من المحتمل أنها تشرب المارجريتا وتنتظرني لتمنحني كأسا منه. في تلك اللحظة، وأنا أراها هناك في آخر قبس من ضوء النهار، هكذا مسترخية، مطمئنة، صدمت بما أفعله لها ولكل الموظفين الآخرين الذين يعملون تحت رئاستي، والطرق التي أحولهم بها إلى قراصنة اقتصاد. أنا أفعل بهم ما فعلته بي كلودين، لكن دون أمانة كلودين. أنا أغويهم من خلال الترقيات والعلاوات ليصبحوا عبيدا، ومع ذلك، فهم مثلي، مقيدين بالنظام. هم أيضا مستعبدون.

أبعدت ناظري عن البحر والخليج والسماء الأرجوانية. تفاديت النظر تجاه الجدران التي بناها العبيد الذين انتزعوا من أوطانهم في أفريقيا. حاولت أن أبعد تفكيري عن كل هذه الأمور. حين فتحت عيني وجدتني أحملق في عصا طويلة ملتوية، في سمك مضرب البيسبول وضعف طوله، فوثبت وأمسكت بالعصا، وشرعت أضرب بها الجدران الحجرية. ظللت أضرب الجدران حتى سقطت من الإنهاك، وارتميت على العشب، أراقب السحب تتحرك فوقي.

في نهاية الأمر اتخذت طريقي إلى الزورق الصغير. وقفت هناك على الشاطئ، أتطلع إلى قاربنا وهو يرسو على المياه اللازوردية، وعرفت ما ينبغي أن أفعله. عرفت أنني سأضيع للأبد إذا عدت إلى حياتي السابقة، إلى شركة مين Main وكل ما تمثله من دوائر جهنمية يصعب الخروج منها؛ المنصب والزيادة في الراتب ومعاش التقاعد ووجاهة المنصب وأقساط المنزل الفخم... كلما أطلت بقائي صعُب عليّ الرحيل. لقد أصبحت عبدا. يمكنني مواصلة جلد ذاتي كما جلدت تلك الجدران الحجرية، ويمكنني أن أفر.

عدت إلى بوسطن بعد يومين، وفي الأول من أبريل عام ١٩٨٠ سرت إلى مكتب بول بريدي وقدمت استقالتي.

الجزء الرابع

١٩٨١- الوقت الحاضر

الفصل السادس والعشرون

مصرع رئيس الإكوادور

لم يكن ترك شركة مين Main بالأمر السهل، فقد رفض بول بريدي أن يصدقني. وغمز بطرف عينه وقال: «كذبة أبريل!». أكدت له أنني جاد في طلبي، تذكرت نصيحة باولا أنني ينبغي ألا أكسب عداوة أي شخص ولا أعطي لأحد سببا للارتياب بأنني قد أكشف تفاصيل عملي في شركة مين Main، أكدت أنني أقدر كل ما قدمته لي الشركة وأن ما احتاجه هو أن أنطلق. فلطالما رغبت في الكتابة عن الأشخاص اللذين تعرفت عليهم خلال عملي في الشركة في كل أنحاء العالم، لكني لن أكتب شيئا خاصا بالسياسة.

قلت إنني أريد أن أصبح كاتبا حرا وأتعامل مع مجلة ناشيونال جيوجرافيك National Geographic وغيرها من المجلات، وأواصل سفري حول العالم. أوضحت له ولائي الشديد لشركة مين Main، وأقسمت أنني سأتغنى بحمدها وشكرها في كل فرصة. في النهاية، استسلم بول لطلبي.

بعد ذلك، حاول الجميع أن يثنيني عن استقالتي، وذكروني مرارا بأهمية منصبي، لدرجة إنني اتهمت بالخبل. وأدركت أنهم لا يريدون أن يقبلوا أنني تركتها بمحض إرادتي، لأن هذا يجعلهم يتأملون موقفهم، فإن لم يعتبروني مجنونا لتركي الشركة، لكان عليهم أن يعيدوا النظر في عقلانية بقائهم، فكان الأسهل عليهم أن يتهموني بالجنون.

أما الأمر الأكثر ازعاجا لي فقد كان رد فعل الفريق الذي كان يعمل معي. رأوني شخصا تخلي عنهم، ولم يكن واضحا من سيتولى منصبي من بعدي. مع ذلك، عقدت العزم على قراري. بعد كل هذه السنوات من التردد والذبذبة قررت الآن بحسم أن أفتح صفحة جديدة من حياتي.

لسوء الحظ، لم تمض الأمور كما تصورتها بالضبط بالفعل أصبحت حرا من قيود الوظيفة

ولكن، منذ ابتعدت عن دور الشريك المسئول، أصبحت عائدات أسهمي لا تكفي للتقاعد، وربما لو بقيت بضعة سنوات أخرى في العمل في شركة مين Main، لأصبحت مليونيرا في الأربعين من عمري، كما كنت أتخيل من قبل. مع ذلك، فمازلت في الخامسة والثلاثين وأمامي طريق طويل علي أن أتمه لبلوغ ذلك. كنا في أبريل وكان الجو باردا وكئيبا في بوسطن.

ثم حدث ذات يوم أن اتصل بي بول بريدي ورجاني الذهاب لمكتبه، وقال: «أحد زبائننا يهدد بالامتناع عن التعامل معنا، لقد تعاقدوا معنا لأنهم أرادوك أنت شخصيا أن تمثلهم كخبير قضائي».

فكرت في هذا العرض كثيرا. وفي الوقت الذي كنت أجلس فيه أمام مكتب بول اتخذت قراري. حددت المبلغ الذي أريده، طلبت أجري كمستشار أعلي مما كنت أحصل عليه من وظيفتي في شركة مين Main بثلاث مرات. ولدهشتي وافق، وبهذا بدأت مرحلة جديدة في حياتي المهنية.

عملت السنوات التالية خبيرا أمام المحاكم بأجر كبير. بداية عملت مع شركات توزيع كهرباء أمريكية تسعي للحصول على تصاريح من لجان المرافق العامة وذلك لإقامة محطات توليد كهرباء جديدة. كان من بين عملائي شركة نيوهامبشاير للخدمات العامة. وكانت وظيفتي أن أبرر تحت القسم الجدوى الاقتصادية لمحطات توليد الكهرباء النووية التي يدور حولها نـزاع.

ومع أنني لم أعد منخرطا مباشرة في موضوعات تخص أمريكا اللاتينية، إلا أنني واصلت متابعة الأحداث هناك. وكخبير أمام المحاكم، كان لدي الكثير من الوقت بين القضية والأخرى. ظللت على تواصل مع باولا وجددت صداقاتي مع من عرفتهم منذ كنت منضما لفيالق السلام في الإكوادور التي قفزت فجأة لمركز الأحداث في عالم السياسة الدولية الخاصة بالبترول.

كان خايمي رولدوس يتحرك قدما للأمام. ويتعامل مع حملته الواعدة بجدية وأطلق هجماته على شركات البترول. بدا أنه يري بوضوح الأشياء التي فاتت على الكثيرين على جانبي قناة بنما أو اختاروا أن يتجاهلوها عن عمد. فقد فهم أن مجرى الأحداث الحالية يهدد بخضوع العالم للإمبراطورية العالمية، والتى سوف تقصي شعب دولته إلى دور ثانوي للغاية، وتطوقهم بالعبودية. أثناء قراءتي للعديد من المقالات عنه في الصحف، كنت مأخوذا بالتـزامه بوعوده وبقدرته على استيعاب القضايا الأشد عمقا. والقضايا الأشد عمقا كانت تشير إلى حقيقة أننا ندخل حقبة جديدة من السياسة الدولية.

في نوفمبر ١٩٨٠، سقط كارتر في الانتخابات وتسلم الحكم رونالد ريجان. مثلت اتفاقية بنما والتفاوض بشأنها مع توريخوس، والموقف في إيران خاصة قضية الرهائن المحتجزين في سفارة الولايات المتحدة، ومحاولة إنقاذهم التي باءت بالفشل، عوامل رئيسة في سقوط كارتر. مع ذلك، حدث أمر شديد المفارقة والدلالة، فلقد استبدلنا برئيس هدفه الأكبر سلام العالم ويكرس نفسه لتقليص اعتماد الولايات المتحدة على البترول رئيسا يعتقد أن مكان الولايات المتحدة هو قمة الهرم

العالمي والذي تحرزه بالقوة العسكرية، ويرى أن السيطرة على حقول البترول أينما وجدت جزء من مبدأ سياسة التوسع الأمريكي.

أقصينا رئيسا وضع ألواح الخلايا الشمسية على سطح البيت الأبيض لتوليد طاقة نظيفة، ليحل محله من أزالها بمجرد أن وضع يده على المكتب البيضاوي.

قد يكون كارتر سياسيا غير حازم، لكنه كان ذا رؤية لأمريكا تتناغم مع ما نص عليه إعلان الاستقلال الأمريكي. ومن السياق التاريخي فإنه يبدو الآن ذا رؤية عتيقة وساذجة. ولكنه يعيدنا إلى المثل العليا التي شكلت الأمة الأمريكية ودفعت الكثيرين من أجدادنا للهجرة إليها وعندما نوازن بين كارتر وخلفه ريجان، نجد أن الأول استثناء من القاعدة وأن رؤيته للعالم تتناقض مع خطط القراصنة الاقتصاديين.

على الجانب الآخر كان ريجان بالطبع من بناة الإمبراطورية العالمية، خادما للكوربوقراطية. ففي الوقت الذي تم فيه انتخابه، وجدت أنه الشخص المناسب للدور المرسوم له فقد كان ممثلا قادما من استوديوهات هوليوود، يتبع الأوامر الصادرة من أباطرة المال والصناعة الأمريكية. رجل يعرف كيف يتبع التعليمات، هذا هو طابع إدارته. سيلبي احتياجات أولئك الذين يتنقلون ذهابا وإيابا بين مكاتب الرؤساء التنفيذين وطاولات البنوك وقاعات الحكومة. سيستخدم في إدارته رجالا يتظاهرون بخدمته لكنهم في الواقع سيديرون هم الحكومة؛ رجالا مثل نائب الرئيس جورج بوش الأب، ووزير الخارجية جورج شولتز، ووزير الدفاع كاسبر وينبيرجر وريتشارد تشيني وريتشارد هيلمز وروبرت مكنامارا. سيدافع عن أولئك الرجال الذين يسعون لفرض سيطرة أمريكا على العالم بكل ثرواته الطبيعية، وتحويله لعالم ينصاع للإملاءات الأمريكية، وجيش أمريكي ينفذ القواعد التي كتبتها أمريكا، وتجارة عالمية ونظام مصرفي يدعم أمريكا بوصفها الرئيس التنفيذي للإمبراطورية العالمية.

بينما كنت أتأمل المستقبل القادم، بدا لي أننا على وشك دخول حقبة شديدة التناغم مع مقتضيات قراصنة الاقتصاد. إنها تصاريف القدر أنني اخترت هذه اللحظة بالذات في التاريخ لكي أبتعد. كلما أطلت تأمل الموقف كلما ازددت شعورا أنني اخترت الأفضل. عرفت أن توقيتي كان صائبا.

أما ما كان يعنيه هذا على المدى البعيد، ورغم أنني لا أملك بلورة المستقبل السحرية، فإنني تعلمت من التاريخ أن الإمبراطوريات لا تدوم وأن البندول دائما يتأرجح في كلا الاتجاهين. في رأيي الشخصي فإن رجالا مثل رولدوس يمنحون الأمل. كنت واثقا أن رئيس الإكوادور الجديد يدرك تماما دقة وحساسية اللحظة الراهنة. عرفت أنه من المعجبين بتوريخوس وأنه كان يثني على كارتر لشجاعة موقفه من قضية قناة بنما. شعرت بثقة أن رولدوس لن يسقط. كنت آمل فقط أن يضيء

صموده شمعة لقواد البلاد الأخرى، الذين يحتاجون مثالا ليستلهموا منه ومن توريخوس الأمل الذي يوحيان به.

في بدايات عام ١٩٨١، قدمت إدارة رولدوس رسميا قانون الهيدروكربون(*) الجديد إلى مجلس تشريع الإكوادور. والذي إذا نُفذ سيعمل على إعادة تشكيل علاقة الدولة بشركات البترول. كان القانون - على عدة أصعدة - يعد خطوة ثورية وايضا راديكالية. كان يهدف بالتأكيد لتغيير الأسلوب الذي يدار به العمل. وكان تأثيره سيمتد إلى أبعد من الإكوادور إلى كثير من بلاد أمريكا اللاتينية وحول العالم(١).

وتصرفت شركات البترول بطريقتها المعتادة، إذ إنهم تراجعوا عن مواقفهم. راح مسئولو العلاقات العامة في شركاتهم يشوهون سمعة خايمي رولدوس، وانطلق اللوبي المناصر لهم إلى كيوتو وواشنطن بجعبة مليئة بالتهديدات والرشاوى. حاولوا رسم صورة لأول رئيس منتخب ديمقراطيا للإكوادور في العصر الحديث كأنه كاسترو آخر. لكن رولدوس لم يتراجع أمام ذلك الهجوم. بل رد عليهم باتهامهم رسميا بتدبير مؤامرة بين السياسيين وأصحاب شركات البترول ورجال الدين كذلك. واتهم المعهد الصيفي للغويات SIL علنا بالتآمر مع شركات البترول، ثم تحرك رولدوس بجرأة لأقصى حد ربما إلى حد التهور، فأمر بطرد SIL خارج بلاده(٢).

بعد مرور بضعة أسابيع فقط على صدور التشريعات التي أملاها على مجلسه التشريعي، وبعد يومين من طرد إرساليات SIL ، حذر رولدوس كل أصحاب المصالح الأجانب بما فيهم كل شركات البترول دون تحديد، أنهم إن لم يضعوا خططا لمساعدة شعب الإكوادور - فسيرغمون على مغادرة بلاده. ألقى خطابا مهما في ستاد أتاوالبا الأوليمبي Atahualpa Olympic Stadium في كيوتو، ثم توجه إلى قرية صغيرة في جنوب الإكوادور.

وهناك لقي مصرعه في حادث تحطم طائرة مروع صدم العالم في الرابع وعشرين من مايو ١٩٨١(٣)، وفارت أمريكا اللاتينية بالغضب. أعلنتها الصحف صراحة في نصف الكرة الأرضية «اغتيال على يد رجال المخابرات الأمريكية!» فبالإضافة لكراهية واشنطن وشركات البترول له، ظهر كثير من الشكوك تدعم هذه المزاعم، وتصاعدت هذه الشكوك بعد كشف المزيد من الحقائق. لم يثبت شيء، لكن شهود عيان صرحوا أن رولدوس سبق وتلقي تهديدات بقتله، وأنه اتخذ الاحتياطات الأمنية، مثل السفر على طائرتين هليوكوبتر. في اللحظة الأخيرة أقنعه أحد ضباط الأمن العاملين معه أن يستقل الطائرة المفخخة، والتي نسفت به.

رغم كل ردود الفعل العالمية، فبالكاد وصلت الأخبار إلى صحافة الولايات المتحدة.

(*) قانون الهيدروكربون: قانون منظم لاستكشاف وبيع البترول ومشتقاته والغاز الطبيعي.

تولى أوزفالدو أورتادو رئاسة الإكوادور. أعاد المعهد الصيفي للغويات ومنح أعضاءه فيزا خاصة. بنهاية السنة، أطلق برنامجا طموحا لزيادة التنقيب عن البترول لشركة تكساكو وغيرها من الشركات الأجنبية في خليج جواياكيل Guayaquil وحوض الأمازون[1].

أشار عمر توريخوس في تأبينه لرولدوس إليه بقوله إنه «شقيقه» واعترف كذلك بالكوابيس التي تراوده عن اغتياله هو أيضا بالسقوط من السماء في قذيفة عملاقة. لم تكن أحلاما بقدر ما كانت نبوءة.

الفصل السابع والعشرون
بنما: اغتيال رئيس آخر

صعقني نبأ مقتل رولدوس، لكن ربما لم يكن ينبغي لي ذلك. فلم أكن بتلك السذاجة. كنت أعرف ما حدث لآربنز ومصدق والليندي، وما حدث لكثير من الأشخاص الذين لم تصنع أسماؤهم عناوين الصحف ولا كتب التاريخ، لكن بعضهم دمرت حياته وفقدها البعض الآخر لأنهم واجهوا الكوربوقراطية. ورغم ذلك كنت مصدوما؛ لقد كان تصرفا فجا وبشكل صارخ.

بعد نجاحنا الساحق في المملكة العربية السعودية ظننت أن ردود الأفعال العنيفة الوحشية صارت أمورا من الماضي. كنت أظن أن الذئاب أصبح مكانها في حدائق الحيوان. اما الآن فأرى أني كنت مخطئا. فليس لدي أدنى شك في أن قتل رولدوس لم يكن حادثا. فكل دلائل الحادث تؤكد أنها عملية اغتيال رتب لها رجال المخابرات الأمريكية CIA.

في رأيي أن تنفيذ العملية جاء بهذه الفجاجة والوضوح لتكون رسالة تهديد. فلكي تستكمل إدارة ريجان الجديدة صورة راعي البقر في أفلام هوليوود بسرعته المعهودة في سحب سلاحه، كانت تلك الفجاجة هي الوسيلة المثلى لبعث مثل هذه الرسالة، إنها تعد انذارا بعودة ثعالب المخابرات، الذين أرادوا أن يعلموا بذلك عمر توريخوس وسواه ممن قد يفكرون في مقاومة الكوربوقراطية وجهادها المقدس لاستغلال العالم.

لكن توريخوس لم يكن بالرجل الذي تنثني عزيمته، فهو مثل رولدوس، رفض الإذعان للتهديدات. وأطاح أيضا بالمعهد الصيفي للغويات، ورفض بصلابة الاستسلام لطلبات إدارة ريجان بشأن إعادة التفاوض في معاهدة القناة.

وبعد مقتل رولدوس بشهرين، بالتحديد في ٣١ يوليو سنة ١٩٨١ - تحقق كابوس عمر توريخوس، مات في حادث صدام طائرة.

انقلبت أمريكا اللاتينية والعالم رأسا على عقب. كان توريخوس شخصا معروفا في العالم أجمع، وكان احترامه نابعا من أنه مَن أرغم الولايات المتحدة على التخلي عن قناة بنما وتركها لأصحابها

الحقيقيين، وواصل الوقوف ضد رونالد ريجان. كان بطلا في الدفاع عن حقوق الانسان، ورئيس دولة فتحت ذراعيها للاجئين السياسيين، بمن فيهم شاه إيران، وكان ذا صوت مؤثر في جانب العدالة الاجتماعية، واعتقد الكثيرون أنه سيرشح لجائزة نوبل للسلام. والآن هاهو قد مات. «اغتيال على يد رجال المخابرات الأمريكية!» مرة أخرى يتصدر هذا العنوان مقالات الصحف وتحقيقاتها.

بدأ جراهام جرين كتابه «الجنرال كما عرفته» الذي كتبه في رحلته التي التقيت به فيها في فندق بنما - بالفقرة التالية:

> *«في أغسطس عام ١٩٨١، كنت قد حزمت حقيبتي استعدادا لرحلتي الخامسة إلى بنما حين أتاني تليفونيا خبر موت الجنرال عمر توريخوس هيريرا، صديقي ومضيفي. تحطمت الطائرة الصغيرة التي كان يستقلها عائدا إلى البيت الذي يملكه في كوكلسيتو Coclesito في جبال بنما، ولم ينج أحد من الحادث. بعد عدة أيام جاءني صوت حارسه الخاص، سرجينت كوكو Chuchu المعروف باسم خوسيه دي خيسوس مارتينز، وهو بروفسير سابق في الفلسفة الماركسية في جامعة بنما، كما أنه بروفسير في الرياضيات، وشاعر، قال لي: «كانت هناك قنبلة في تلك الطائرة. أعرف أنه كانت هناك قنبلة في الطائرة، لكني لا أستطيع أن أخبرك بالسبب في التليفون»[1].*

حزن الناس في كل مكان لموت هذا الرجل الذي حاز سمعة طيبة بوصفه مدافعا عن الفقراء والمهمشين، وعلت الأصوات مطالبة واشنطن بأن تفتح التحقيقات في أنشطة المخابرات الأمريكية. مع ذلك، لم يكن مثل هذا التحقيق ليحدث إبدا.

كان هناك من يكره توريخوس، وشملت القائمة أشخاصا ذوي نفوذ كبير. قبل وفاته، كانت كراهية الرئيس ريجان له معلنة وصريحة، وكذلك نائب الرئيس بوش، ووينبيرجر وزير الدفاع، وهيئة أركان الجيش الأمريكي، إضافة إلى أكثر من مدير تنفيذي في العديد من الشركات ذات النفوذ.

وكان كبار قواد الجيش ساخطين على اتفاقية توريخوس وكارتر التي أرغمتهم على إغلاق مدرسة الأمريكتين وقاعدة الكوماندوز الجنوبية في المركز الحربي الاستوائي. وهكذا عانت تلك القيادات من مشكلة صعبة. إما أن يجدوا طريقة ما للالتفاف حول الاتفاقية الجديدة، أو سيضطرون للعثور على بلد آخر ينقلون إليه هذه المنشآت الحربية، وهو أمر غير متوقع الحدوث في العقد الأخير

من القرن العشرين. وبالتأكيد، كان هناك خيار ثالث وهو وضع حد لحياة توريخوس وإعادة المفاوضات بشأن الاتفاقية مع من يخلفه.

ضمن الشركات الاقتصادية المعادية لتوريخوس كانت هناك شركات ضخمة متعددة الجنسيات. ولمعظم هذه الشركات علاقات قوية تربطها برجال السياسة الأمريكيين وكثير منها متورط في سوء استغلال العمالة في أمريكا اللاتينية والموارد الطبيعية كالبترول والخشب والقصدير والنحاس والبوكسيت والأراضي الزراعية. ومن بينها مؤسسات صناعية وشركات اتصالات، وشركات ملاحة ونقل، وشركات هندسية وغيرها من الشركات التكنولوجية.

وتعد مجموعة شركات «بكتل» مثالا كلاسيكيا للعلاقة الوطيدة بين الشركات الخاصة والحكومة الأمريكية[٢]. كنت أعرف «بكتل» معرفة جيدة، فنحن في شركة مين Main كثيرا ما عملنا جنبا إلى جنب مع هذه الشركة، وصار رئيس المهندسين المعماريين بها صديقا شخصيا مقربا لي. كانت بكتل شركة الهندسة والبناء الأكثر نفوذا في الولايات المتحدة. كان رئيسها وكبار مسئوليها بمن فيهم جورج شولتز وكاسبر وينبرجر يكرهون توريخوس لأنه أثني بصفاقة [هكذا] على خطة يابانية لاستبدال قناة بنما الحالية بأخرى أكثر كفاءة. مثل تلك الخطوة لا تنقل الملكية من الولايات المتحدة إلى بنما فقط، بل كذلك تقصي شركة بكتل عن الإسهام في ذلك المشروع الهندسي المربح والذي يعد مشروع القرن.

وقف توريخوس ضد هؤلاء الرجال، وفعل ذلك بكياسة وسحر وحس فكاهي مدهش. والآن هاهو قد مات، وحل محله مانويل نورويجا الذي تحميه أمريكا، وهو رجل تنقصه فطنة توريخوس وما كان يتمتع به من كاريزما وذكاء، ويشك الكثيرون في أن لديه فرصة في الوقوف ضد ريجان وآل بوش وآل بكتل في العالم.

دمرتني - شخصيا - المأساة. قضيت عدة ساعات أفكر في حواراتي مع توريخوس. وذات ليلة في وقت متأخر، جلست طويلا أحملق في صورته المنشورة في مجلة وأتذكر أول ليلة قضيتها في بنما، وأنا في التاكسي والجو ممطر، متوقفا أمام صورته الضخمة على لوحة الإعلانات. «الحرية هدف عمر الأسمي، ولم تصنع بعد الآلة التي تستطيع قتل هدف نبيل!» بعثت ذكري هذه الكلمات رعشة داخلي، مثلما شعرت في تلك الليلة العاصفة.

وقتها لم أكن أعرف أن توريخوس حين تعاون مع كارتر لإعادة قناة بنما إلى الشعب الذي يستحقها حقا، وحين رافق النجاح محاولاته لتسوية الخلافات بين اشتراكيي أمريكا اللاتينية والديكتاتوريين - كان يثير حنق إدارتي ريجان وبوش حتى يفكروا في اغتياله[٣]. لم أكن لأعرف أنه في ليلة أخرى مظلمة سيلقى حتفه في رحلة روتينية في طائرة صغيرة، ولا أن معظم بلاد العالم خارج الولايات المتحدة لن تشك لحظة في أن وفاة توريخوس عن عمر يناهز الثانية والخمسين هو حادث قتل آخر في سلسلة الاغتيالات التي ينفذها رجال المخابرات المركزية الأمريكية.

لو عاش توريخوس، لبحث بلا شك عن سبل لقمع العنف المتنامي الذي أصاب كثيرا من دول أمريكا الوسطي وأمريكا الجنوبية. ونفترض - استنادا إلى تسجيلاته - أنه كان سيعمل على إعداد كثير من الترتيبات لتخفيف أثر تدمير شركات البترول العالمية لمناطق الأمازون بدول الإكوادور وكولومبيا وبيرو. ومن النتائج التي كانت ستترتب على وجود توريخوس الحد من الصراعات المريرة التي تشير إليها واشنطن بوصفها عمليات إرهابية وحروب مخدرات، وكان توريخوس يراها أفعالا اضطر إليها أشخاص يائسون لحماية عائلاتهم وأوطانهم. الأكثر أهمية، أنني أشعر بالتأكيد أنه كان ليؤدي دورا نموذجيا للأجيال الجديدة من الزعماء في كل من أمريكا الشمالية والوسطي والجنوبية وافريقيا وآسيا، وهو ما لم تكن المخابرات الأمريكية ولا وكالة الأمن القومي ولا قراصنة الاقتصاد ليسمحوا بحدوثه.

الفصل الثامن والعشرون
شركتي الخاصة للطاقة ... وإنرون ... وجورج بوش الابن

حين وفاة توريخوس، لم أكن قد التقيت باولا منذ عدة شهور. كنت أواعد نساء أخريات، من بينهن وينفريد جرانت، وهي شابة تعمل مخططة للتنمية الإقليمية، التقيت بها في شركة مين ***Main****، وكان والدها كبير المهندسين في شركة بكتل. أما باولا فكانت تواعد صحفيا كولومبيا. وظللنا أصدقاء لكننا اتفقنا على قطع علاقتنا العاطفية.*

عانيت في عملي كخبير قضائي، وخاصة محاولتي لإيجاد حجج للدفاع عن أهمية محطة سيبروك لتوليد كهرباء بالطاقة النووية. بدت لي الأمور كأنها بعث نفسي مرة أخرى، وارتدت عائدا إلى دوري القديم ببساطة من أجل المال. كانت وينفريد عونا هائلا لي في تلك الفترة. ورغم أنها كانت اختصاصية معترف بها في علوم البيئة، فقد تفهمت الضرورات العملية لزيادة ورفع أحمال الكهرباء.

نشأت وينفريد في منطقة بيركلي في الخليج الشرقي لسان فرانسيسكو وتخرجت من الجامعة الأمريكية في بيركلي. كانت مفكرة حرة تتناقض وجهات نظرها في الحياة مع أولئك المنتمين للمذهب البيوريتاني أمثال والدي وآن.

تطورت علاقتنا. وغادرت وينفريد شركة مين، وأبحرنا معا على يختي بمحاذاة شاطئ المحيط الأطلنطي متجهين صوب فلوريدا. قضينا وقتنا طويلا معا، وكثيرا ما غادرنا اليخت في مختلف الموانئ لأتمكن من السفر بالطائرة أذهب للإدلاء بشهادتي كخبير قضائي. وفي نهاية المطاف أبحرنا إلى ويست بالم بيتش في فلوريدا، واستأجرنا شقة. ثم تزوجنا، وولدت طفلتنا جيسيكا في ١٧ مايو ١٩٨٢، كنت أبلغ من العمر ٣٦ سنة، مما جعلني الأكبر عمرا بين كل الرجال الآخرين المترددين على فصل لاماز(*).

جزء من وظيفتي في قضية «سيبروك» كان إقناع لجنة الخدمات العامة في نيوهامبشاير بأن

(*) Lamaze Class نوع من التدريب الطبي للمرأة الراغبة في الولادة الطبيعية لتحمل الآلام تحضره بصحبة الزوج.

الطاقة النووية هي الاختيار الأفضل والأكثر اقتصادا لتوليد الكهرباء في الولاية. ولكن لسوء الحظ، كلما تعمقت فى دراسة الموضوع، تنامي شكي في مدى سلامة حججي. ففي ذلك الوقت عكس التغير المستمر في المواد البحثية والمنشورات العلمية نموا في البحث وتزايدت الدلائل على أن كثيرا من الأشكال البديلة للطاقة تتفوق تقنيا واقتصاديا على الطاقة النووية.

كذلك، بدأت النظرية القديمة القائلة بأن الطاقة النووية آمنة تفقد توازنها. وطُرحت على الساحة أسئلة جادة حول سلامة أنظمة الحماية فى حالات الطوارئ، وتدريبات العاملين، وتأمين ما قد ينجم عن الأخطاء البشرية، واستهلاك المعدات، ومشكلات التخلص من النفايات النووية. لم أكن مرتاحا شخصيا لشهادتي التي دُفع لي كي أؤديها تحت القسم في قاعة المحكمة، وفي الوقت ذاته، كانت قناعتي تزداد بأن بعض التكنولوجيا الجديدة تقدم طرقا لتوليد الكهرباء من الممكن بالفعل أن تساعد في تنمية البيئة. كان هذا صحيحا جزئيا في مجال توليد الكهرباء من مواد كانت تعد فيما مضى مخلفات صناعية.

ذات يوم أبلغت رؤسائي في شركة كهرباء نيوهامبشاير أنني لم أعد قادرا على الشهادة لصالحهم. ذلك أنني أقلعت عن هذه المهنة المربحة وقررت إنشاء شركة تطبق التكنولوجيا الحديثة وتحول النظريات حبيسة الأدراج إلى ممارسة عملية. شجعتني وينفريد وساندتني بكل قوتها، رغم عدم ثقتها في المغامرة، وأنها الآن وللمرة الأولى في حياتها تنشئ حياة عائلية.

بعد عدة شهور من ولادة جيسيكا في عام ١٩٨٢ أنشأت شركتي الخاصة لأنظمة الطاقة IPS، ومن بين مهامها تطوير محطات طاقة صديقة للبيئة وتأسيس نماذج تلهم الآخرين أن يحذوا حذوها. كان عملا ينطوي على مخاطرة كبيرة وإمكانية النجاح فيه محدودة، فقد مني معظم منافسينا بالفشل. على أية حال، جاء المصادفات لإنقاذي، وإن كنت واثقا أنه كثيرا ما سيتدخل شخص ما للمساعدة، ذلك أنني كنت أكافأ عن خدماتي السابقة والتزامي الصمت.

قبل برونو زامبوتي الذى كان يتبوأ منصبا رفيعا في بنك التنمية الأمريكي. أن يكون عضوا فى مجلس إدارة شركتي الناشئة IPS وأن يمولها ماديا. اندتنا شركات مثل بانكر ترست للطاقة وشركة التأمين الاقتصادي وشادبورن وبيرك (وهى شركة قانونية كبيرة في وول ستريت، التيكان شريكا فيها عضو الكونجرس والمرشح لرئاسة الجمهورية و وزير الخارجية أيد موسكى Ed Muskie) كما تلقينا المساعدة من رايلي ستوكر (شركة هندسية تمتلكها شركة آشلان للبترول، التي صممت وأنشأت غلايات لمحطات توليد كهرباء مبتكرة عالية الجودة) وتلقينا مساعدات حتى من الكونجرس الأمريكي، الذي استثنى IPS من ضرائب معينة، ومنحنا امتيازا في الإجراءات خصنا به عن منافسينا.

في عام ١٩٨٦ بدأت كل من شركة بكتل وIPS في الوقت نفسه ولكن بشكل مستقل كل عن الأخرى – في إنشاء محطة توليد كهرباء باستخدام تقنيات فنية جديدة عالية المستوى لحرق نواتج

الفحم الحجرى دون أن ينتج عنها أبخرة حمضية. مع نهاية العقد قامت هاتان الشركتان بثورة صناعية في المرافق، بإسهامهما المباشر في سن قوانين جديدة ضد التلوث، وذلك بإثبات أن كل ما كان يطلق عليه مخلفات صناعية يمكن بالفعل تحويله إلى طاقة كهربية، وأنه يمكن حرق الفحم دون انبعاث أبخرة حمضية، وبذلك نثبت فساد إدعاء شركات الكهرباء باستحالة ذلك.كذلك أثبتت محطتنا قدرة الشركات الصغيرة والمستقلة على تمويل استخدام تقنيات عالية لم تجرب من قبل، من خلال وول ستريت (طرح الأسهم للتداول فى البورصة) وغيره من وسائل التمويل التقليدية[1]. وبالإضافة للفوائد السابق ذكرها زودت محطة توليد الكهرباء IPS صوبات زراعية تصل مساحتها إلى ثلاثة أفدنة ونصف بالهواء ساخن، بدلا من التخلص منها فى أبراج التهوية والتبخيرات الصناعية كما كان يحدث فى المحطات التقليدية.

منحني منصب رئيس شركة توليد الكهرباء IPS علاقات قوية داخل عالم صناعة الطاقة. فقد تعاملت مع بعض الأشخاص النافذين في عالم الأعمال من محامين وأصحاب مراكز، ورؤساء بنوك ومديرين على مستوى عال في شركات ضخمة. وحظيت كذلك بفرصة وجود والد زوجتي الذي قضى ثلاثين عاما في شركة بكتل، ووصل إلى منصب كبير مهندسين، وهو الآن مسئول عن بناء مدينة في المملكة العربية السعودية - فيما يعد نتيجة مباشرة لما أديته في بدايات سبعينيات القرن العشرين في أثناء عملية غسيل أموال المملكة العربية السعودية.

نشأت وينفريد بقرب شركة بكتل لدى المركز الرئيسي لقيادات الشركة العالميين في سان فرانسيسكو، وكان عديد من أفراد أسرتها يعملون بالشركة، ولذلك كانت أول وظيفة عملت بها بعد تخرجها مباشرة من جامعة كاليفورنيا في بيركلي - في شركة بكتل.

كانت صناعة الطاقة تمر بمرحلة تحول وإعادة تشكيل، وكانت الشركات الهندسية الكبرى تتحايل لتتحكم في شركات المرافق التي تميزت سابقا بالاحتكار المحلي. وصارت كلمة Deregulation «فك القيود أو إعادة التنظيم» كلمة ذائعة فى ذلك الوقت، وكثيرا ما كانت تتغير القوانين بين ليلة وضحاها فزادت الفرص وصارت متاحة لكل ذي طموح ليستثمر الموقف الناشئ عن قضايا منع الاحتكار المعروضة أمام المحاكم والكونجرس. وهكذا، اعتبر رجال الصناعة فرص الاستثمار في مجال الطاقة شبيهة في إغرائها بفترة تعمير الغرب الأمريكي البكر المليء بالكنوز.

كانت شركة مين إحدى ضحايا هذه الفترة. فكما تنبأ برونو، فقد ماك هول اتصاله بالواقع ولم يجرؤ أحد على أن يخبره بذلك. أما بول بريدي فلم يستطع السيطرة على الأمور مطلقا، ولم تفشل إدارة شركة مين فقط في التوائم مع التغيرات التي اجتاحت عالم صناعة الطاقة بل ارتكبت أيضا سلسلة من الأخطاء الفادحة. فلم تمض سوى بضع سنوات من الأرباح غير المسبوقة التي حققتها إدارة برونو، إلا وفقدت الشركة دورها في القرصنة الاقتصادية ووقعت فريسة تعسرات مالية كبيرة،

فباع الشركاء شركة مين لواحدة من كبريات شركات الهندسة والمقاولات، وأجادت تلك الشركة لعبتها.

بينما كنت في عام ١٩٨٠ أتلقى ٣٠ دولارا عائدا سنويا عن السهم، فإن الشركاء الذين ظلوا بعدي كانوا يحصلون على أقل من نصف هذا المبلغ، بعد أربع سنوات تقريبا. وهكذا انتهت مائة عام من خدمات تدعو إلى الفخر نهاية مخزية. حزنت لرؤيتي الشركة تسقط، لكني شعرت بنجاتي من ذلك الموقف لأنني خرجت منها في الوقت المناسب. استمر اسم شركة مين تحت سيطرة الملاك الجدد لفترة. ثم تغير ذلك الشعار الذي كان له وزنه - ذات يوم - في بلاد كثيرة حول العالم وراح في عالم النسيان.

كانت شركة مين مثالا للشركة التي لم تكافح جيدا في جو التغيرات في صناعة الطاقة. وعلى الطرف المقابل لذلك المشهد كانت شركة نحن العاملين بها مفتونون بها.

كانت شركة إنرون، واحدة من أسرع الشركات نموا في قطاع الأعمال، بدا أنها ظهرت فجأة ولكن سرعان ما أبرمت صفقات هائلة. كانت معظم اجتماعات العمل تبدأ بدقائق من الثرثرة القصيرة بينما يأخذ الشركاء أماكنهم على طاولة الاجتماعات، يصبون لأنفسهم فناجين القهوة، ويرتبون أوراقهم. في تلك الأيام كانت الثرثرة تدور حول إنرون. لا أحد خارج الشركة قادر على فهم كيف حققت إنرون تلك الإنجازات الهائلة. أما أولئك العاملون بالداخل فقد يردون على دهشة الكثيرين منا بابتسامة بسيطة، أو يلتزمون الصمت. وحين نلح عليهم في السؤال - يجيبون بأن السر في المناهج الجديدة للإدارة، أو يتكلمون عن «التمويل الخلاق» وعن التزامهم بتعيين مديرين تنفيذيين يعرفون طريقهم جيدا عبر دهاليز السلطة في عواصم العالم.

بدا لي ذلك كله وكأنه نسخة جديدة من أساليب قديمة اتبعها قراصنة الاقتصاد، كانت الإمبراطورية الكونية تمضي بخطى واسعة نحو الأمام.

وبالنسبة لنا أولئك المهتمين بالبترول والمسرح العالمي، فقد كنا منشغلين بمناقشة موضوع آخر يتعلق بابن الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش، فقد عانت شركته البترولية الأولى المعروفة باسم أربستو Arbusto من الفشل ولم ينقذها سوى الاندماج في شركة سبيكتروم Spectrum في عام ١٩٨٤، ثم وجدت سبيكتروم نفسها على شفا الإفلاس وبيعت في عام ١٩٨٦ لشركة هاركن Harken Enerrgy Corporation، وقد احتفظ فيها بوش بمنصبه عضوا في مجلس الإدارة ومستشارا في الشركة براتب سنوي قدره ١٢٠ ألف دولار[٢].

كنا جميعا على قناعة أن والد جورج بوش بموقعه نائبا للرئيس الأمريكي هو العامل الأساسي وراء تعيين بوش الابن في ذلك المنصب، نظرا لأنه لم تكن لبوش الابن إنجازات سابقة كمدير تنفيذي في مجال البترول تؤهله لهذا المنصب. وبدا أيضا أنها لم تكن من قبيل المصادفة أن يتزامن مد

شركة هاركن لسطوتها إلى الساحة العالمية مع تولي بوش الابن ذلك المنصب، ولأول مرة في تاريخها تشرع الكوربوقراطية بنشاط في البحث عن الاستثمار البترولي في الشرق الأوسط، وكتبت في ذلك مجلى فانتي فير:

> *«بمجرد أن تقلد جورج بوش منصبه في مجلس إدارة هاركن، بدأت أشياء رائعة تحدث في شركة هاركين: استثمارات جديدة، ومصادر تمويل غير متوقعة، وعقود تنقيب في مناطق استكشاف جديدة»*[3].

جدير بالذكر أنه في عام ١٩٨٩، تفاوضت شركة أمكو مع حكومة البحرين حول حقوق التنقيب عن البترول في المياه الإقليمية البحرينية، ثم انتخب بوش نائب الرئيس ليصبح رئيسا بعد ذلك بفترة قليلة. بعيد ذلك، نقل ميشيل أمين المستشار بوزارة الخارجية ليصبح مساعدا للسفير الأمريكي بالبحرين تشارلز هوستلر، ورتب لقاءات بين حكومة البحرين وشركة هاركين للطاقة. وفجأة حلت هاركن محل أمكو ورغم أن شركة هاركن لم يكن لها سابقة أعمال في مجال الحفر خارج المناطق الجنوبية الشرقية من الولايات المتحدة، وتحديدا لم تكن لديها أي خبرة في حفر الآبار في المياه المفتوحة. ورغم هذا كله ربحت هاركن عقودا احتكارية للتنقيب عن البترول في البحرين، وهي سابقة لم يسمع بها في العالم العربي من قبل. وخلال أسابيع قليلة ارتفعت أسهم هاركن بأكثر من ٢٠٪، فارتفع سعر السهم من ٤,٥ إلى ٥,٥ دولار[4].

حتى محترفو العمل في مجال الطاقة صدموا بما حدث في البحرين. قال محام صديق لي متخصص في صناعة الطاقة وهو مؤيد بارز للحزب الجمهوري: «أتمني لو لم يكن جورج بوش يصعد لمنصب يشتريه له والده». كنا نستمتع بحفلات الكوكتيل في بار في ركن من شارع وول ستريت، في أعلي مركز التجارة العالمي. وعبر عن خيبة أمله قائلا: «أتساءل إن كان بالفعل يستحق هذا المنصب». ثم واصل كلامه وهو يهز رأسه بأسى «هل يستحق مستقبل الأبناء المخاطرة بالرئاسة؟».

كنت أقل دهشة من أندادي، لكني افترضت أنني حظيت بنظرة فريدة للأمور. لقد عملت مع حكومات الكويت والمملكة العربية السعودية ومصر وإيران،كنت على دراية بسياسة الشرق الأوسط، وأعرف أن بوش – مثل المديرين التنفيذيين في شركة إنرون – مجرد جزء من شبكة اتصالات صنعناها أنا وزملائي من قراصنة الاقتصاد، الذين كانوا أمراء الإقطاع وسادة المستعمرات[5] الجدد .

الفصل التاسع والعشرون
حين قبلت الرشوة

أدركت خلال تلك الفترة من حياتي أننا دخلنا بالفعل حقبة جديدة في الاقتصاد العالمي. وهي نتاج للتفاعلات التي بدأت منذ تولي روبرت مكنمارا - الذي اعتبرته مثلا يحتذى برغم سلة مخاوف - وزارة الدفاع ورئاسة البنك الدولي. فمنهج مكنمارا الاقتصادي المستلهم للنمط الكينيزي(*)، ودعوته للقيادة العدوانية قد تغلغلا في زمننا الحاضر، وتوسع مفهوم الاغتيال الاقتصادي ليصبغ بشكل متزايد سلوك المديرين التنفيذيين في مجالات متنوعة من قطاعات الأعمال.

صحيح أنه لم يخترهم مجلس الأمن القومي ولم يعينهم، ولكنهم كانوا يؤدون أعمالا شديدة الشبه بعمل القرصان الاقتصادي.

يتمثل الفارق الوحيد الآن في أن هؤلاء القراصنة من المديرين التنفيذين لم يتورطو بالضرورة في استغلال المخصصات المالية من النظام البنكي الدولي. وبينما استمر ازدهار الفرع القديم - ذلك الذي عملت فيه - نهج الفرع الجديد نهجا أكثر شيطانية. وارتقى خلال الثمانينيات من المناصب الإدارية وهم يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة، تلك الحكمة المعززة غير القابلة للجدال. هكذا كانت الإمبراطورية العالمية ببساطة طريقا لزيادة الأرباح.

صاغت صناعة الطاقة - حيث كنت أعمل - التوجهات الجديدة، فقد مرر الكونجرس مشروع قرار بوربا PURPA «لتنظيم المرافق العامة» في عام ١٩٧٨، بعد أن مر بعدد من العثرات القانونية، وصار في النهاية قانونا في عام ١٩٨٢. كان الكونجرس قد رأى في هذا القانون وسيلة لتشجيع الشركات الصغيرة المستقلة - مثل شركتي - لتطوير مصادر بديلة للوقود ووسائل خلاقة لإنتاج الطاقة الكهربائية. ووفقا لهذا القانون كان على شركات المرافق العامة شراء الطاقة المنتجة من

(*) ينسب النموذج الكينيزي في الاقتصاد إلى جون مينارد كينيز *Keynes* الاقتصادي البريطاني البارز في النصف الأول من القرن العشرين. وتقوم أطروحة كينيز على تقديم بديل لكل من النظريتين الاشتراكية والرأسمالية من خلال طرح نموذج الاقتصاد المختلط الذي تشرف فيه الدولة على الاقتصاد مع إتاحة دور للقطاع الخاص، وتؤكد النظرية الكينيزية على أنه ليس بوسع القطاع الخاص النجاح دون رعاية حكومية. المترجم

قبل شركات أصغر بأسعار عادلة ومعقولة. وكانت هذه السياسة تلبية لرغبة كارتر للحد من اعتماد الولايات المتحدة على البترول ككل، وليس فقط البترول المستورد. كان القانون يهدف إلى تشجيع صريح لكل من مصادر الطاقة البديلة وتطوير الشركات المستقلة التي تعكس الروح الأمريكية المغامرة. غير أن النتيجة كانت شيئا مختلفا تماما.

وخلال عقد الثمانينيات ووصولا الى التسعينيات، تبدلت السياسات الحكومية المقرره من الالتزام إلى عدم الالتزام ورفعت رقابة الحكومة عن عالم الأعمال. لقد راقبت كيف كانت شركات الهندسة والتشييد الكبرى تبتلع معظم الشركات المستقلة الصغيرة، بل كانت تبتلعها شركات المرافق العامة نفسها. وقد وجدت تلك الشركات الكبرى ثغرات قانونية سمحت لها بخلق شركات قابضة، كان بمقدورها امتلاك كل من شركات المرافق النظامية regulated والشركات المنتجة للطاقة المستقلة غير النظامية unregulated. وأطلق عديد من هذه الشركات برامج عدوانية لإرغام الشركات المستقلة على إعلان إفلاسها، ومن ثم يسهل شراؤها. بينما اجتهد البعض الآخر ببساطة في إنشاء وتطوير شركات مستقلة مناظرة.

ثم انزوت جانبا فكرة استقلالنا البترولي. فقد كان ريجان مدينا بشدة لشركات البترول؛ وصنع بوش ثروته الخاصة كرجل بترول. وكذلك كان أكثر اللاعبين الأساسيين وأعضاء مجلس الوزراء في إدارتي الرئيس ريجان وبوش إما جزءا من صناعة البترول أو مرتبطين عضويا بشركات الهندسة والتشييد. زد على هذا أننا في التحليل النهائي بوسعنا تلمس تورط واضح في أدوار شركات البترول والتشييد. فقد انتفع عديد من أعضاء الحزب الديموقراطي ودانوا بالفضل لهذه الشركات.

استمرت شركتي IPS في الحفاظ على منهج التربح من الطاقة النظيفة مع الحفاظ على البيئة. فقد كنا ملتزمين بأهداف بوريا الأصلية، وبدا أننا نعيش أفضل أوقاتنا. كنا أحد الشركات المستقلة القليلة التي لم تنجح في البقاء فحسب، بل حققت قدرا من الازدهار كذلك. لم يكن لدي شك في أن السبب في ذلك يعود إلى خدماتي السابقة للكوربوقراطية.

كان ما يجرى في مجال الطاقة يعكس ما أصبح ظاهرة تشمل العالم بأسره. ففي حين تراجع الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والبيئة وغيرها من التحديات لرفع مستوى المعيشة، فقد تقدم الطمع و الرغبة الشرهة للكسب، ومن خلال هذا التوجه ازداد دعم قطاعات الاعمال الخاصة. كان ذلك في البداية مبنيا على أسس نظرية، في مقدمتها أن فكرة الرأسمالية كانت أرقى من الشيوعية وأقدر على دحرها. لكننا في النهاية لم نعد في حاجة إلى ذلك المبرر، فقد قُبل ببساطة كمسلمة القول بأن شيئا ما متأصلا في المشروعات الخاصة التي يمتلكها المستثمرون الأثرياء يجعل دعمها أكثر فائدة من دعم نظيرتها الحكومية. واقتنعت المؤسسات الدولية مثل البنك الدولي بهذه الحجة، فصارت هي الأخرى تدعو الي إعادة تنظيم وخصخصة شبكات المياه والصرف الصحي وشبكات الاتصالات، وغيرها من المرافق العامة التي ظلت دائما تحت الإدارة الحكومية.

ونتيجة لذلك كان من السهل مد مفهوم الاغتيال الاقتصادي إلى المجتمع العالمي الأوسع، وأرسل المسئولون التنفيذيون من أطياف مختلفة في قطاعات الأعمال إلى مهام كانت قاصرة سلفا على عدد قليل من أعضاء فريقنا، من المشهود لهم بإتقان المهام الخاصة. وطاف هؤلاء المسئولون قارات العالم بحثا عن العمالة الرخيصة، وموارد سهلة الاقتناص، وأسواق ضخمة. ولم تكن تعوزهم الوحشية. وفي إندونيسيا وبنما وكولمبيا اتبعوا خطى القناصين الذين سبقوهم - والذين كنت واحدا منهم - ووجدوا حججا كافية لتبرير الآثام التي ارتكبوها. ونجح هؤلاء، مثلنا تماما، في إيقاع الضحايا من المجتمعات والدول في شراكهم. لقد وعدوا ضحاياهم بالانتعاش الاقتصادي عبر دعم القطاع الخاص، تلك الوسيلة التي تظنها الدول كفيلة بإخراجها من وحل الديون. بنوا المدارس والطرق السريعة وقدموا منحا لشبكات الهواتف والتلفاز والخدمات الصحية. وفي النهاية، وحين يستنفدون ضحاياهم ويجدون عمالة أرخص أو موارد أسهل اقتناصا في مكان آخر كانوا يسارعون بالمغادرة. تاركين وراءهم مجتمعات زاودتها الآمال وصدمتها وقائع التخريب، ومع ذلك لم يترددوا في ارتكاب جرائمهم ولم تحرك في ضمائرهم ساكنا.

كنت أتساءل مندهشا، رغم كل ما سبق، ألا يؤثر ما يفعلونه في نفوسهم؟ ألم ينتابهم شك فيما يفعلون، كذلك الشك الذي يؤرقني. ألم يقفوا أمام مجرى مائي ملوث يشاهدون امرأة شابة تحاول الاستحمام بينما رجل آخر يتغوط على ضفة النهر نفسه؟ ألم يكن لديهم هوارد باركرز ليطرح تلك الأسئلة القاسية؟

ورغم ما حققته شركتي الخاصة من نجاح واستقرار حياتي كرب أسرة، فلم يكن بوسعي مواجهة تلك اللحظات التي تداهمني فيها كآبة حادة. لقد صرت اليوم أبا لفتاة صغيرة، وأخشى عليها من المصير الذي سترثه عني. لقد أثقلني الشعور بالذنب بسبب ذلك الدور الذي لعبته.

كان بوسعي النظر إلى الوراء ورؤية توجه تاريخي بالغ الخطورة. فحين كانت الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها تأسس النظام المالي الدولي المعاصر، وذلك في لقاء جمع زعماء من دول عدة، وعقد في منتجع بريتن وودز في نيوهامبيشير (مسقط رأسي) وتشكل البنك الدولي وصندوق النقد لإعادة إعمار أوربا المدمرة، وحققا في ذلك نجاحات بارزة. وسرعان ما تبنت كل الدول الحليفة للولايات المتحدة هذا النظام وأقرته، ولقي النظام ترحيبا كبيرا وقدم كترياق لأمراض التخلف. كان منتظرا من هذا النظام - كما كنا واثقين- أن ينقذنا من المخالب الشيطانية للشيوعية.

لم أتمالك نفسي من الدهشة والتساؤل: إلى أين سيفضي بنا كل هذا؟ فمع نهاية الثمانينات وانهيار الاتحاد السوفيتي وسقوط الحركة الشيوعية العالمية، بدا جليا أن دحر الشيوعية لم يكن الهدف، وكان واضحا بالمثل أن الإمبراطورية الكونية، والتي كانت متجذرة في تربة الرأسمالية، هيمنت على الساحة بلا منازعة. وكما يلاحظ جيمس جاريسون، رئيس المنتدى الاقتصادي العالمي:

«إذا أخذنا التسلسل المنطقي للأمور، فإن اندماج العالم في وحدة واحدة، تحكمها شروط العولمة الاقتصادية والسمات الزائفة لـ«الحرية السوق» إنما يمثل في واقع الأمر «حالة استعمارية» مفضوحة. إذ ليس هناك أمة على الأرض قادرة على مقاومة الاستقطاب القسري للعولمة. فقليلون هم أولئك الذين نجوا من «الإصلاحات الهيكلية» وأفلتوا من «الشروط» التي فرضها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، أو تطلبتها منظمة التجارة العالمية والمؤسسات المالية الدولية التي مازالت، رغم عدم جدواها، تحدد مفهوم العولمة الاقتصادية، وتصيغ القوانين والقواعد، وتعين المكافآت لمن خضع وذل وترفع عصا العقاب لمن مرق وتمرد. وهذه هي سطوة العولمة التي من المحتمل أن نكون شهود عيان على دمجها كافة الاقتصاديات القومية في نظام اقتصادي واحد مبني على حرية السوق»[1].

بينما كنت أتأمل هذه القضايا، قررت أن الوقت قد حان لتدوين كتاب يحكى حكاية صحوة ضمير قرصان اقتصادى، لكنني لم أحاول الحفاظ على سرية العمل. وحتى اليوم، فلست من ذلك النوع من الكتاب الذي يكتب منعزلا عما يدور حوله. فقد وجدت أنه من الضروري مناقشة ذلك العمل الذي أقوم به. وتلقيت بعض الأفكار ممن استشرتهم، وطلبت العون من آخرين ساعدوني على تذكر بعض أحداث الماضي واستحضارها. قرأت على أصدقائي مقاطع من الكتاب، كنت أعرف أن في ذلك قدرا من المخاطرة، لكن لم أكن أعرف طريقة أخرى لأكمل كتابي. ومن ثم لم يكن سرا أنني كنت أدون كتابا عن تلك الفترة التي عملت فيها مع مين MAIN.

ذات مساء من سنة ١٩٨٧، اتصل بي أحد الشركاء السابقين في مين MAIN وقدم لي عقدا مغريا لأبعد حد مع شركة سويك (ستون آند وبستر الهندسية SWEC). في تلك الأثناء كانت سويك واحدة من الشركات العالمية الرائدة في مجالي الهندسة والإنشاءات، وكانت تسعى لأن تجد لنفسها مكانا تحت الشمس في الوسط المتقلب لصناعة الطاقة. شرح لي محدثي أنني سأتولى مهمة كتابة التقارير لفرعهم الجديد، ذلك الفرع المستقل المعني بتنمية الطاقة، والذي صيغ على نسق الشركات الخاصة التي كنت أمتلك واحدة منها. شعرت بالراحة حين علمت أنهم لن يطلبوا مني الانخراط في أية أنشطة دولية أو مشروعات على نسق الاغتيال الاقتصادي.

وفي واقع الأمر، أخبرني ذلك الصديق القديم أنني ينبغي ألا أظن أبدا أن عملي سيكون مرهقا. فقد كنت واحدا من القلائل الذين نجحوا في تأسيس وإدارة شركة خاصة للطاقة. وأحظى بسمعة متميزة في عالم الصناعة، وأن هدف سويك الأساسي هو الاستفادة من سيرتي الذاتية وضمي إلى

قائمة مستشاريها، وهو ما كان أمرا قانونيا ومتسقا مع الأعراف الصناعية. كنت وقتها أروج منهج الشركات الخاصة، وراقتني فكرة الانضمام إلى سويك في مقابل حصولي على راتب مغرى عن خدمات مستقبلية.

وفي ذلك اليوم الذي عينني فيه الرئيسُ التنفيذي لسويك قدم لي دعوة للغذاء. تبادلنا الحديث بشكل ودي لبعض الوقت قبل أن أشعر بأن جانبا مني يتوق إلى الأعمال الاستشارية تاركا مسئولية إدارة شركة طاقة معقدة، ومتخليا عن مسئولية أكثر من مائة شخص يعملون في مد التسهيلات والتعرض لكافة الأخطار المرتبطة ببناء وتشغيل محطات الطاقة. كنت قد كونت رؤية واضحة عن الأوجه التي سأنفق عليها مقدم الأتعاب الذي كان سيقدمه لي الرئيس التنفيذي لسويك. فقد قررت ان استخدمه – مع أشياء أخرى- لتشكيل منظمة خيريه.

بعدما انتهينا من الغذاء وأثناء تقديم الحلوى، تطرق مضيفي للحديث عن موضوع كتاب كنت قد نشرته وحمل عنوان «سلوك بلا ضغوط» The Stress-Free Habit. أخبرني أنه سمع عنه كلاما رائعا. ثم نظر في عيني مباشرة وسألني «هل تنوي تدوين كتب أخرى؟».

شعرت بوخزة في معدتي. فجأة فهمت معني كل هذا. لم أتردد. قلت: «لا». ثم أردفت «ليست لدي نية لنشر المزيد من الكتب في الوقت الحالي».

أجاب «يسعدني سماع ذلك» ثم أردف «نهتم كثيرا بخصوصيتنا في تلك الشركة. تماما مثلما يحدث في مين Main».

أجبته «نعم ..أتفهم ذلك».

تراجع للوراء مسترخيا في مقعده وابتسم قبل أن يتابع حديثه قائلا «بالطبع فإن كتبا مثل كتابك الأخير، تتناول الضغوط وما شابه، تعد كتبا مقبولة دون شك. بل إنها يمكن أن تمهد طريقا لنجاح المرء. وباعتبارك مستشارا لسويك لديك مطلق الحرية في ان تكتب عن ذلك النمط من الموضوعات»، أنهى عبارته ناظرا إلي وبدا أنه ينتظر ردا.

أجبته «جميل أن أعرف ذلك».

تابع حديثه محدقا في «نعم... هذا مقبول تماما، مادمت لن تمس اسم هذه الشركة في كتبك ولن تنشر شيئا له علاقة بطبيعة عملنا في سويك أو مين Main وليست هناك مشكلة مادمت لن تشير إلى أية موضوعات سياسية ولن تتناول معاملاتنا مع البنوك الدولية ولا المشروعات التنموية». وأردف «ببساطة، فإن الأمر يتعلق بسرية العمل».

أكدت له أن ما يقوله «غني عن البيان». شعرت للحظة أن قلبي يكاد يتوقف، وداهمني شعور قديم يشبه ذلك الذي شعرت به مع هوارد باركر في إندونيسيا، الشعور نفسه الذي انتابني وأنا أقود

سيارتي في مدينة بنها وإلى جواري فيدل، أو حين كنت أجلس في مقهى كولومبي مع بولا.

كنت أبيع نفسي مرة أخرى. لم يكن ذلك رشوة بالمعنى القانوني الصرف بل كانت رشوة كاملة وصريحة وشرعية لشركة تريد أن تدفع مقابل إدراج اسمي على قائمة أتباعها، كي أقدم لهم استشارة من فترة لأخرى أو أشارك معهم في اجتماع من وقت لآخر، لكنني كنت أعي جيدا السبب الحقيقي الذي من أجله دفعوا لي.

لقد قدم لي راتبا سنويا يعادل راتب مسئول تنفيذي في الشركة.

في مساء ذلك اليوم، كنت أجلس في المطار مذهولا، منتظرا طائرة تعيدني إلى فلوريدا. شعرت وكأنني صرت كالعاهرة. بل أسوا من ذلك، شعرت أنني اخون ابنتي وعائلتي ووطني، وحينها أقنعت نفسي أنه لم تكن لدي خيارات. أعرف أنه لو كنت رفضت تلك الرشوة، لكان التهديد هو البديل.

الفصل الثلاثون
الولايات المتحدة تغزو بنما

مات توريخوس، ولكن ظلت لبنما مكانة خاصة في قلبي. ولأنني أعيش في جنوب فلوريدا(*) كانت لدي مصادر معلومات عما يجري من أحداث في أمريكا الوسطى. لقد استمرت تركة توريخوس ماثلة بعد موته، وإن أصابها التحوير على أيدي أناس لم تكن لديهم روحه الرحيمة أو شخصيته القوية. واستمرت المحاولات للحد من التفاوت بين الأمم في نصف الكرة الغربي بعد موته، على نحو ما فعلت بنما من سعيها لإجبار الولايات المتحدة الوفاء بشروط معاهدة القناة(**) Canal Treaty.

بعد وفاة توريخوس تولى حكم بنما مانويل نورويجا، والذي بدأ ملتزما بالسير على خطى سلفه ومعلمه. لم ألتق نورويجا أبدا، ولكن ما لاحظته أنه حاول بكل السبل دعم الاهتمام بقضيتي الفقر والاضطهاد اللتين تعانيهما أمريكا اللاتينية. وكان واحدا من أهم مشروعاته مواصلة استكشاف إمكانية شق قناة جديدة، يمولها اليابانيون. وكما كان متوقعا لقي معارضة شرسة من قبل واشنطن والشركات الأمريكية الخاصة. وذلك على نحو ما كتب نورويجا نفسه قائلا:

> *«كان وزير الخارجية جورج شولتز مديرا تنفيذيا سابقا لشركة بكتل Bechtel متعددة الجنسيات والمتخصصة في الإنشاءات، كما كان وزير الدفاع كاسبر وينبرجر Caspar Weinberger نائبا لرئيس الشركة ذاتها. لم تكن بكتل منشغلة بشيء أكثر من سعيها للحصول على قروض بمليارات الدولارات لبناء مشروع القناة. وقد انتاب إدارتي ريجان وبوش تخاوف من احتمال سيطرة اليابانين في النهاية على مشروع شق القناة. لم يكن مصدر الخوف لدواع أمنية فحسب بل كانت المنافسة التجارية*

(*) يعيش كثير من المهاجرين الكوبيين ومن مختلف دول أمريكا اللاتينية في هذه المنطقة. (المترجم)

(**) كانت أهم شروط اتفاقية القناة أن تسلم الولايات المتحدة إدارة القناة إلى الحكومة البنمية بعد عام ١٩٩٩ بعد أن كانت الولايات المتحدة تسيطر عليها بنذ معاهدة ١٩٠٣. (المراجع)

حاضرة في الحسبان، إذ كان دخول اليابانيين في المنافسة سيعني فقد الشركات الأمريكية مليارات الدولارات»[1].

غير أن نورويجا يختلف عن توريخوس. إذ كان مفتقدا لكاريزمية سلفه ونزاهته. فبمضي الوقت اكتسب سمعة سيئه مع اتهامه بالفساد وتجارة المخدرات، وحامت حوله الشكوك في ترتيب اغتيال غريمه السياسي هوجو سبادافورا **Hugo Spadafora**.

بنى نورويجا سمعته بوصفه عقيدا ترأس الوحدة جي-٢ في الجيش البنمي، وهي الوحدة المسئولة عن المخابرات الحربية وكانت على تنسيق متبادل مع السي آي إيه. وبموقعه هذا تمكن نورويجا من تطوير علاقة وطيدة مع مدير السي آي إيه وليام ج. كاسي William J. Casey. واستفادت السي آي إيه من هذه العلاقة لتعزيز خططها ومده إلى حدود أبعد في البحر الكاريبي والأمريكتين الوسطى والجنوبية. فعندما أرادت إدارة ريجان إعطاء كاسترو تحذيرا استباقيا لغزوها جرينادا في عام ١٩٨٣ لجأ كاسي إلى نورويجا وطلب منه القيام بدور الرسول بين الطرفين. كما ساعد العقيد نورويجا السي آي إيه في اختراق عصابات المخدرات في كولمبيا وغيرها من دول المنطقة.

في عام ١٩٨٤رُقي نورويجا إلى رتبة جنرال ورئيس أركان الجيش البنمي. وتفيد التقارير أنه حين وصل كاسي إلى مدينة بنما في ذلك العام والتقى في المطار برئيس السي آي إيه في بنما سأله «أين رجلنا؟ أين نورويجا؟» وحين زار الجنرال نورويجا واشنطن، التقى مع كاسي بدعوة شخصية من الأخير في منزله. وبعد عدة سنوات من ذلك التاريخ أقر نورويجا بأن علاقته الوثيقة بكاسي أعطته شعورا بالقوة وأنه لا يقهر. فقد اعتقد أن السي آي إيه، مثلها في ذلك مثل الوحدة جي ٢، كانت الفرع الأكثر قوة في حكومة الدولة . وكان نورويجا مقتنعا بأن كاسي سيحميه حتما، رغم موقفه المعارض لاتفاقية قناة بنما وللقواعد العسكرية الأمريكية في نطاق حرم القناة[2].

وهكذا، بينما كان توريخوس رمزا عالميا ينادي بالعدالة والمساواة صار نورويجا رمزا للفساد والخسة. وقد تأكدت شهرته في ذلك حين قدمت نيويورك تايمز في ١٢ يونيو ١٩٨٦ مقالا افتتاحيا حمل عنوان «مؤشرات على تورط رجل بنما القوي في تجارة المخدرات والتربح غير المشروع». نشر هذه الفضيحة صحفي حاصل على جائزة بوليتزر، وزعم أن «الجنرال كان شريكا سريا ومتعاونا من الباطن في عديد من الأعمال التجارية في أمريكا اللاتينية، وأنه عمل جاسوسا مزدوجا لصالح الولايات المتحدة وكوبا، كما اغتالت الوحدة جي ٢ بقيادته هوجو سبادافورا، وأن نورويجا يدير بنفسه أغلب عمليات تجارة المخدرات في بنما». كان المقال مشفوعا برسم تصويري مشوه للجنرال، واستكملت التفاصيل في عدد اليوم التالي من الصحيفة[3].

اتخذ الرئيس الأمريكي جورج بوش، الذي كانى يعاني من عدة مشكلات تتعلق بشعبيته - نورويجا مطية لتحسين وضعه. فقد كان جورج و. بوش في حاجة إلى ما أسماه الصحفيون بـ «عامل

تحسين الصورة «Wimp factor»[4]. وحين رفض نورويجا بعناد الموافقة على تمديد عمل مدرسة الأمريكتين(*) لخمس عشرة سنة أخرى - كان لهذا دلالة خاصة. وتقدم مذكرات نورويجا رؤية مثيرة في هذا الصدد:

> *«لأننا التزمنا وافتخرنا بمتابعة نهج توريخوس، وقفت لنا الولايات المتحدة بالمرصاد للحيلولة دون ذلك. لقد أرادوا تمديد عمل مدرسة الأمريكتين أو إعادة التفاوض بشأنها، وتذرعوا بأنه مع تزايد تجهيزاتهم الحربية في أمريكا الوسطى فإنهم مازالوا في حاجة إليها. لكن تلك المدرسة كانت قيدا لنا. لم نكن نريد على أرضنا معسكرا لتدريب فرق الموت وقوات القمع المتطرفة»[5].*

وربما لهذا السبب كان العالم مستعدا للوقوف بجانبنا، لكن العالم وجد نفسه في الواقع مذهولا وهو يرى الولايات المتحدة تقوم في ٢٠ ديسمبر عام ١٩٨٩ بالإغارة على بلادنا بهجوم جوي صنف كأعنف قصف جوي على مدينة منذ الحرب العالمية الثانية[6]. كان هجوما بلا مبرر على سكان عزل، فلم يحدث أبدا أن مثّل شعب بنما أي خطر على الولايات المتحدة ولا على غيرها من الدول. وقد شجب السياسيون والحكومات والإعلام العمل الفردي الذي اتخذته الولايات المتحدة تجاه بنما في انتهاك واضح للقانون الدولي.

هل وجهت هذه العملية العسكرية ضد دولة ارتكبت جرائم إبادة جماعية أو غيرها من جرائم حقوق الإنسان؟

لو كانت بنما مثل شيلي في عهد بينوشيه Pinochet أو باراجوي في عهد ستروزنر Stroessner أو نيكاراجوا في عهد سموزا Somosa أو السلفادور في عهد داوبيزون D'Aubisson أو عراق صدام حسين - لربما تفهم العالم ما يحدث. لكن بنما لم تفعل شيئا من هذا القبيل، كل جريمتها أنها بالكاد تجرأت ورفضت الانصياع لرغبات ثلة من الساسة الأباطرة والمسئولين التنفيذيين في الشركات الكبرى. لقد أصرت بنما على أن تحترم اتفاقية القناة، وعقدت مناقشات مع الإصلاحيين الاقتصاديين، واستكشفت إمكانات بناء قناة جديدة بالتعاون مع شركات التمويل والإنشاء اليابانية، فجاءت النتائج مدمرة. وفي ذلك يقول نورويجا:

أود أن أقولها بوضوح: إن الحملة التي شنتها الولايات المتحدة لزعزعة الأمور في بلادنا عام

(*) تعد مدرسة الأمريكتين *Schools of the Americas* المركز الأشهر في الولايات المتحدة الذي يُدرب فيه ضباط الجيوش من دول أمريكا اللاتينية. وقد أنشئت أول مرة في بنما عام ١٩٤٦ قبل أن تنقل مقرها في عام ١٩٨٤ إلى ولاية جورجيا الأمريكية. وقد تغير اسمها منذ عام ٢٠٠١ إلى «معهد نصف الكرة الغربي للتعاون الأمني». المترجم

١٩٨٦، والتي اختتمت بغزو بنما في عام ١٩٨٩، كانت نتيجة لرفض الولايات المتحدة لأي سيناريو يمكن أن ينقل مصير القناة إلى بنما المستقلة ذات السيادة والتي تدعمها اليابان... وفي ذات الوقت كان شولتز و وينبيرجر - متنكرين في شكل مسئولين سياسين يعملان للمصلحة العامة ومستغلين الجهل الجماهيري للمصالح الاقتصادية القوية التي يمثلانها- يشنان حملة دعائية للإطاحة بي»[٧].

اعتمد التبرير الذي صاغته واشنطن لهجومها على بنما على استهداف رجل واحد. لقد كان إسقاط نورويجا هو المبرر الوحيد للولايات المتحدة لإرسال جنودها رجالا ونساء ليخاطروا بحياتهم وضمائرهم فيقتلون الأبرياء بمن فيهم من أعداد لا تحصى من الأطفال، ويضرمون النيران في أحياء ضخمة من العاصمة بنما. لقد صُور نورويجا على أنه الشيطان وعدو الشعب وتاجر مخدرات بشع، ومن ثم فقد قدم للإدارة الأمريكية العذر كي تقدم على غزوها الكاسح لدولة يقطنها مليونا نسمة، وقد واكب ذلك إضرار بمناطق عمرانية عدت من أكثر بقاع العالم أهمية.

أزعجني هذا الغزو لدرجة أصابتني بالاكتئاب لعدة أيام. كنت أعرف أن لدى نورويجا حرسا شخصيا، لكن راودني هاجس بأن ثعالب المخابرات الأمريكية قد يصلوا إليه على نحو ما فعلوا مع رولدوس وتوريخوس، وارتبت لأن أغلب حراس نورويجا تدربوا على أيدي ضباط في الجيش الأمريكي ومن المحتمل أنهم دفعوا لهم ليديروا ظهورهم له أو لينفذوا اغتياله بأنفسهم.

وكلما كنت أفكر في الغزو وأقرأ عنه تزداد قناعتي بأن ذلك كان إشارة إلى أن السياسة الأمريكية ارتدت إلى الأساليب العتيقة في بناء الإمبراطوريات، إلى درجة أن إدارة بوش قررت أن تزايد على إدارة ريجان وتظهر للعالم عدم ترددها في استخدام القوة من أجل تحقيق غاياتها. وقد بدا أيضا أنه إلى جانب رغبة الولايات المتحدة في إزاحة إرث توريخوس وتنصيب حكومة صورية موالية للولايات المتحدة، كان الهدف المطلوب من بنما هو ترويع دول أخرى مثل العراق وإجبارها على الخضوع.

كانت لدى ديفيد هاريس (مراسل مجلة نيو يورك تايمز ومؤلف عدة كتب) ملاحظة شائقة، ففي كتابه الصادر عام ٢٠٠١ والذي يحمل عنوان «إطلاق النار على القمر» يقول:

> *«من بين آلاف الحكام والملوك والزعماء الأقوياء وأمراء الحرب الذين تعامل الامريكيون معهم في كل أركان العالم، كان الجنرال مانويل أنتونيو نورويجا الوحيد الذي يطارده الامريكيون بهذه الطريقة. فعلى مدار ٢٢٥ سنة منذ قيام الولايات المتحدة، كانت هذه هي المرة الأولى التي تغزو فيها واشنطن دولة أخرى وتعتقل قائدها وتأتي به إلى الأراضي الأمريكية ليواجه المحاكمة والسجن بحجة انتهاكه القانون الأمريكي على أرض بلده وداخل نطاق نفوذه الوطني»[٨].*

وبعد القصف وجدت الولايات المتحدة نفسها فجأة في موقف ضعيف. فلفترة قصيرة بدا وكان الأمر على شفا الانفجار، فربما تخلصت إدارة بوش من مطاردة الشائعات المسيئة لصورتها لكنها صارت تواجه مأزقا متعلقا بشرعية الحرب، وبدت وقد سقطت كلية في فخ ارتكابها عملا إرهابيا. وقد اتضح أنه على مدى ثلاثة أيام منع الجيش الأمريكي الإعلام والصليب الأحمر وغيرهم من المراقبين الأجانب من الدخول إلى المناطق التي طالها القصف المدمر، بينما كان الجنود يضرمون النيران ويدكون البيوت على ساكنيها من الضحايا. لقد طرح الصحفيون أسئلة حول مدى نجاح تلك الحملة في التخلص من السلوكيات الإجرامية وغيرها من الأنشطة المخالفة للقانون، كما تساءلوا بشأن عدد القتلى الذين حرموا من الإسعافات الطبية، غير أن مثل تلك الأسئلة لم تلق جوابا.

لن نتمكن أبدا من معرفة كثير من الحقائق بشأن ذلك الغزو، كما لن نتمكن من معرفة الحجم الحقيقي للمذبحة التي ارتكبها الأمريكيون في بنما. وقد زعم وزير الدفاع ريتشارد تشيني أن عدد القتلى يتراوح بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠، بينما قدرت منظمات حقوق الإنسان المستقلة العدد بين ٣ إلى ٥ آلاف قتيل، فضلا عن ٢٥,٠٠٠ مشرد[٩]. واعتقل نورويجا وأرسل إلى ميامي وحكم عليه بالسجن أربعين سنة؛ وفي تلك الفترة كان نورويجا سجين الحرب الوحيد في الولايات المتحدة[١٠].

كان العالم غاضبا لانتهاك القانون الدولي والتدمير غير المبرر لشعب أعزل على يد أقوى جيش على وجه الكرة الأرضية، غير أن الكثيرين في الولايات المتحدة لم يكونوا على دراية لا باستياء العالم ولا بالجرائم التي ارتكبتها حكومتهم. كانت التغطية الصحفية محدودة للغاية، وأسهمت في ذلك عدة عوامل، بما فيها دور بعض السياسات الحكومية، فالبيت الأبيض أجرى مكالمات هاتفية مع مديري تحرير الشبكات التلفزيونية والمؤسسات الصحفية، وانشغل أعضاء الكونجرس، الذين لم يجرءوا على الاعتراض، خشية أن يطاردهم شبح التشهير، كما أسهم في ذلك أولئك الصحفيون الذين اعتقدوا أن الشعب في حاجة إلى صناعة أبطال لا إلى طرح الحقائق بموضوعية.

شذ عن هذه القاعدة بيتر إيزنر Peter Eisner، المحرر في النيوزداي والكاتب في الأسوشيتدبرس، فقدم تغطية لغزو بنما وواصل تحليله للقضية على مدى سنوات. وفي كتابه الذي يحمل عنوان «ذكريات مانويل نورويجا: سجين أميركا» والمنشور في عام ١٩٩٧ يقول:

> *«كان جلب الموت والدمار والظلم تحت دعوى إسقاط نورويجا، وما رافق ذلك من أكاذيب - تهديدا للمبادئ الأساسية للديموقراطية الأمريكية. لقد تلقى الجنود الأوامر بالقتل ونفذوا ما أمروا به بعد أن قيل لهم إنهم ينقذون بذلك بنما من ديكتاتور عتيد ووحشي وفاسد. وبمجرد أن نفذوا مهمتهم سار شعبهم (الشعب الأمريكي) على خطاهم مغمض الأعين»[١١].*

وبعد بحث مضن، بما شمله ذلك من مقابلات مع نورويجا في زنزانته في ميامي، كتب إيزنر:

«لا أظن – من حيث المبدأ – أنه توجد أية دلائل تشير إلى أن نورويجا كان مذنبا فيما اتهم به. ولا أظن أن ممارساته مهامه قائدا عسكريا ورئيسا في دولته يعطينا أية مبررات لغزو بلاده، كما أنه لم يكن يمثل أي تهديد للأمن القومي الأمريكي»[١٢].

ويخلص إيزنر بالقول:

«انتهيت من تحليلي للوضع السياسي ومتابعتي لما حدث في بنما خلال الغزو وبعده إلى أن غزو الولايات المتحدة لبنما كان إفراطا بغيضا في استخدام القوة. مهد الغزو الطريق لتحقيق أهداف عدد من الساسة الأمريكيين الطغاة وحلفائهم البنميين على حساب دماء الشعب البنمي[١٣]*، فقد أعاد الأمريكيون تنصيب الحكومات الصورية، وعادت أجواء الحكم في بنما إلى ما كانت عليه حين اقتطعت من كولومبيا، إبان أسرة أرياس* Arias *والصفوة الثرية المهيمنة في فترة ما قبل توريخوس. لقد صارت معاهدة القناة نقطة تفاوض، وعادت واشنطن من جديد للسيطرة على الممر المائي، متجاهلة المضمون القانوني للمعاهدة».*

من خلال ما مر من أحداث وما خبرته من عملي مع شركة مين MAIN، وجدت نفسي أسأل الأسئلة نفسها مجددا: كم من القرارات – بما فيها القرارات التاريخية التي أثرت على ملايين البشر – اتخذها رجال أو نساء دفعتهم مصالحهم الشخصية وليست الرغبة في تحري الحقيقة؟ وكم من المسئولين رفيعي المستوى في حكومتنا ساقهم الجشع الشخصي بدلا من أن يهديهم الولاء للوطن؟ وكم من حروب اشتعلت، فقط لأن الرئيس يريد تحسين صورته السيئة أمام ناخبيه؟

ورغم وعودي لرئيس شركة سويك، دفعني إحباطي وشعوري بخطورة غزو بنما إلى العودة إلى متابعة تدوين كتابي، وإن فضلت التركيز على توريخوس. تناولت قصته هادفا الكشف عن العديد من أشكال الظلم التي تهيمن على عالمنا، وفي ذات الوقت أحاول من خلال الكتابة التخلص من شعوري بالذنب. في هذه المرة كنت عازما على إبقاء الأمر سرا وعدم مكاشفة الأصدقاء أو طلب النصيحة منهم على غرار المرات السابقة.

وبينما كنت أعمل في الكتاب، أخذتني الدهشة من حجم ما ارتكبناه من أفساد كقراصنة اقتصاد في عديد من الأماكن. حاولت التركيز على عدد قليل من الدول الضحايا، لكن القائمة كانت مذهلة في عددها. كما أفزعني امتداد الفساد الذي اقترفته بنفسي. صحيح أنني أنجزت الكثير في سبيل البحث عن الذات، لكنني أدركت أنه بينما كنت في غمرة ذلك أعاقتني أنشطتي عن رؤية

التداعيات الأوسع التي تختبئ خلفها. فحين كنت في إندونيسيا استفزتني المناقشات التي دارت مع هوارد باركر، والقضايا التي أثارها أصدقاء راسي Rasy الشبان في إندونيسيا. وبينما كنت أعمل في بنما، كنت مأخوذا بشدة بإيحاءات المشاهد التي عرضها علي فيدل في الأحياء الفقيرة، ومنطقة القناة، وفي صالة الديسكو. وفي إيران أصابتني محادثاتي مع « يمَين » Yamin والدكتور بالقلق الشديد. الآن ساعدتني الكتابة على الوصول لرؤية شاملة. لقد أدركت كيف كنت عاجزا عن رؤية الصورة الأوسع فغاب عني بالتالي المغزى الحقيقي لما كنت أرتكبه.

كيف تبدو هذه النتائج بسيطة في سياعها، ودامغة في دلالتها، ويالها من تجارب ذات طبيعة غادرة. كان الأمر بالنسبة لي أقرب إلى حالة جندي في المعركة. في بداية القصة يبدو هذا الجندي ساذجا، ربما تقلقه المبادئ الأخلاقية عن قتل البشر، لكنه مضطر إلى الاستمرار في عمله حتى يبقى على قيد الحياة فلا يقتله الآخرون. وبعد أن يقتل عدوه الأول، تداهمه المشاعر والأحاسيس، فقد يحزنه فقدان عائلة القتيل لربها، ويشعر بالندم لفعلته. لكن بمرور الوقت ومع انخراطه في المعارك والقتال يصبح أكثر صلابة وقسوة. ويتحول إلى جندي محترف.

لقد صرت جنديا محترفا. وباعترافي بهذه الحقيقة فتحت الباب واسعا نحو فهم أفضل للعملية التي من خلالها ترتكب الجرائم وتشيد الإمبراطوريات. يمكنني الآن فهم السبب الذي يجعل عديدا من الناس يرتكبون أفعالا شريرة، كيف انخرط، على سبيل المثال، رب عائلة إيراني طيب محب لأسرته في نظام المخابرات الوحشي للشاه، كيف قام رجل ألماني طيب بتنفيذ أوامر هتلر مغمض العينين، وبالمثل كيف سولت للأمريكيين الطيبين أنفسُهم المشاركة في قصف مدينة بنما.

وبوصفي قرصان اقتصادي، لم أتلق مباشرة بنسا واحدا من الهيئات القومية الخاصة NSA أو غيرها من الهيئات الحكومية. فقد كانت مين MAIN تدفع راتبي. لقد كنت مواطنا محسوبا على القطاع الخاص وعينتني شركة خاصة. وقد ساعدني هذا الفهم في رؤية أكثر وضوحا حول الدور المتصاعد للمديرين التنفيذيين في الشركات التي تمارس عمليات الاغتيال الاقتصادي. فقد كانت هناك طبقة جديدة من «الجنود» تظهر على المسرح العالمي، غير مبالين بما يقترفونه من جرائم. وفي ذلك دونت في كتابي ما يلي:

> *«يتوجه الرجال والنساء اليوم إلى تايلاند والفلبين وبتسوانا وبوليفيا وإلى أي دولة يأملون أن يجدوا فيها أناسا في أمس الحاجة لفرص العمل. يتوجهون إلى هذه الاماكن لغرض سريع هدفه استنزاف أولئك التعساء من البشر، فيقصدون أناسا يعاني أطفالهم سوء التغذية بل يتضورون جوعا، أناسا يعيشون في مدن من الصفيح وفقدوا كافة الأمل في حياة أفضل، أناسا توقفوا حتى عن الحلم بأمل في يوم آخر. لقد ترك هؤلاء*

الرجال والنساء مكاتبهم الفخمة في منهاتن وسان فرانسيسكو وشيكاغو، وسافروا عبر المحيطات والقارات على خطوط طيران بالغة الرفاهة ونزلوا في فنادق فاخرة، وتناولوا طعامهم في أرقى المطاعم في كل بلد هبطوا فيه. وبعد كل هذا يبحثون عن أناس عاطلين عن العمل!

وإلى اليوم ما زال لدينا تجار رقيق. لم يعد هؤلاء يحتاجون بالضرورة لأن يسافروا إلى أعماق الغابات الإفريقية لاصطياد ضحاياهم المتخلفين الذين سيباعون بأعلى الأسعار في مزادات تشارلستون وكارتغانا وهافانا. فاليوم ليسوا في حاجة لكل هذا، هم ببساطة يجندون ضحاياهم في مواطنهم فيبنون لهم مصانع لإنتاج المعاطف وملابس الجينز وأحذية التنس وقطع غيار السيارات ومكونات أجهزة الحاسوب وآلاف من العناصر الإنتاجية الأخرى التي سيتمكن هؤلاء المستغلون من بيعها في أسواق مربحة. وقد لا يرغب هؤلاء في إدارة هذه المصانع بأنفسهم، بل يفضلون تعيين رجال أعمال محليين يحملون عبء أداء كل الأعمال القذرة نيابة عنهم.

يعتقد هؤلاء الرجال والنساء أنهم على صواب وفضيلة. ويعودون إلى أوطانهم بصور فوتوغرافية للمواقع الجذابة والآثار العتيقة يتفاخرون بها أمام أطفالهم. ويشاركون في حلقات نقاشية، ويربِّت كل منهم على ظهر الآخر متبادلين الأخبار والنصائح حول طريقة التعامل المثالية مع تلك الشعوب البدائية غريبة الأطوار فيما وراء البحار. ويعين رؤساؤهم محامين يضمنون لهم كامل المساندة القانونية لكل ما يمارسونه. ولديهم طاقم من الإخصائيين النفسيين وغيرهم من خبراء الموارد البشرية في خدمتهم يبررون ما يقومون به بوصفه خدمة جليلة لأولئك السكان المعدمين.

كانت حجة تاجر الرقيق في الزمن القديم أنه يتعامل مع بضاعة ليست في نظره أناسا كاملي البشرية، وأنه كان يقدم لهم الفرصة ليهتدوا إلى المسيحية. لقد أقنع هذا التاجر نفسه بضرورة هؤلاء الرقيق لإنقاذ مجتمعه وأعمدة النهضة الاقتصادية لبلاده. وفي العصر الحديث يؤكد تاجر الرقيق لنفسه أنه من الأفضل لكل إنسان في هذه الشعوب الفقيرة أن يحصل على دولار واحد بدلا من لا شيء على الإطلاق، وأنهم يساعدونهم في ذات الوقت في تقديم الفرصة للاندماج في الاقتصاد العالمي. ويعرف تجار الرقيق الجدد أن هذه البضاعة أساس الرفاهية التي ينعمون فيها ولا غنى عنها لبقاء شركاتهم. لا يفكر تجار الرقيق الجدد بأن يراجعوا أنفسهم لبرهة ويتدبروا عاقبة أمرهم على العالم بأسره، أو في تداعيات ذلك على مستقبل أطفال هؤلاء التجار أنفسهم».

الفصل الحادي والثلاثون
فشل قراصنة الاقتصاد في العراق

أتاح لي منصبي كرئيس لشركة طاقة خاصة في الثمانينيات، ومستشار لشركة سويك في أواخر الثمانينيات ومعظم عقد التسعينيات - مصادر لمعلومات عن العراق لم تكن متاحة لمعظم الناس. كان الأمريكيون خلال الثمانينيات يعرفون القليل عن العراق، إذ لم تكن هذه الدولة ببساطة على خريطة إدراكهم. لقد كنت في غاية الدهشة مما يجري إبان ذلك.

حافظت على اتصالي بأصدقائي القدامى الذين كانوا يعملون في البنك الدولي وصندوق المساعدات الأمريكي وصندوق النقد الدولي وغيرها من المؤسسات المالية الدولية، كما استمر تواصلي مع العاملين في شركة بكتل، وهاليبرتون، وغيرها من كبريات شركات الهندسة والإنشاءات، بما فيها الشركة التي يمتلكها والد زوجتي.

كان كثير من المهندسين الذين عملوا مقاولين من الباطن لشركتي الخاصة وغيرها من الشركات المستقلة منخرطين في مشروعات في الشرق الأوسط. كنت على دراية كاملة بأن القراصنة الاقتصاديين يعملون بجد في العراق.

قررت إدارتا ريجان وبوش تحويل العراق إلى نسخة أخرى من المملكة العربية السعودية. كان هناك الكثير من الأسباب التي تفرض على صدام حسين الاقتداء ببيت آل سعود، ولم يكن يعوزه سوى أن يلتفت لتلك المنافع التي حصدها آل سعود من عمليات غسيل الأموال. لقد ساعدهم منهجهم على صعود المدن الحديثة من قلب الصحراء، واستبدلت شاحنات مجهزة بالأغنام التي تجمع القمامة في العاصمة الرياض، والآن يتمتع السعوديون بجني ثمار بعض أهم التكنولوجيات المتقدمة عالميا، في مقدمتها محطات تحلية المياه بالغة التقدم، وأنظمة الصرف الصحي، وشبكات الاتصالات والكهرباء.

كان صدام حسين يعي دون شك أن السعوديين يتمتعون أيضا بمعاملة خاصة فيما يتعلق بالقانون الدولي. إذ أغمض أصدقاؤهم المقربون في واشنطن أعينهم عن الكثير من الأنشطة السعودية، بما في

ذلك تمويل الجماعات المتشددة، والتي يراها الكثيرون في العالم جماعات راديكالية أقرب للإرهاب، فضلا عن إيواء المطاردين دوليا. لقد طلبت الولايات المتحدة من السعوديين توفير الدعم المالي لأسامة بن لادن خلال دعمه المجاهدين الأفغان في حربهم ضد الاتحاد السوفيتي. ولم تتوقف إدارتا ريجان وبوش عند تشجيع السعوديين في هذا الصدد، بل أرغمت الكثير من الدول الأخرى على اتباع الطريق نفسه، أو السكوت على الأقل عما يجري.

كان وجود القراصنة الاقتصاديين في بغداد قويا خلال ثمانينيات القرن العشرين، واعتقدوا أن صدام في نهاية المطاف سيتبع المنهج الأمريكي، وكنت ميالا إلى الاتفاق مع هذا الرأي. كان واضحا أنه إذا توصل العراق إلى اتفاق مع واشنطن شبيه بالاتفاق مع السعوديين، سيكون بوسع صدام أن يوقع عقدا نهائيا لحكم بلاده دون منازعة، بل ولربما أغمضت واشنطن أعينها حين يحاول توسعة دائرة نفوذه في تلك الرقعة من منطقة الشرق الأوسط.

لم تكترث واشنطن بأن صدام حسين يخفي داخله حاكما طاغية، وأن يديه ملطخة بدماء ضحايا القتل الجماعي، كما أن مذهبه السياسي وممارساته الوحشية تستحضر في الأذهان صور أدولف هتلر.

لقد تسامحت الولايات المتحدة مع ذلك النوع من الطواغيت بل كثيرا ما دعمته. كان ليسعدنا أن نمنحه القروض الأمريكية في مقابل شراء بتروله أو مقابل اتفاقات تؤمن استمرار إمداد بلاده لنا بالبترول، أو في مقابل صفقة نستغل بموجبها فوائد هذه القروض في تشغيل عدد من الشركات الأمريكية تقوم بتحسين أنظمة البنية التحتية في العراق، أو إنشاء المدن الجديدة، أو تحويل الصحراء إلى واحات. كان من الممكن أن نبيعه دبابات وطائرات مقاتلة وأن نبني له محطات طاقة نووية وكيميائية، على نحو ما فعلنا في عديد من الدول الأخرى، حتى وإن كان من المحتمل استخدام هذه التقنيات في تصنيع أسلحة متقدمة.

كانت أهمية العراق لنا تفوق كثيرا ما كان يبدو ظاهرا على السطح. فعلى خلاف تصورات الرأي العام، تجاوزت أهمية العراق مكانته البترولية. لقد كان للعراق أهمية أخرى من حيث موارد المياه والمكانة الجيوسياسية، فالجزء الأكبر من نهري دجلة والفرات يمر في أرض العراق، وهو ما يعني بالنسبة لكل الدول المجاورة أن العراق يسيطر على أهم المصادر الطبيعية للمياه في هذا الجزء من العالم. لقد صارت الأهمية السياسية والاقتصادية للمياه خلال الثمانينيات بالغة الأهمية بالنسبة لأناس أمثالنا ممن يعملون في مجالات الطاقة والهندسة. وخلال اندفاعنا نحو الخصخصة، كان كثير من الشركات الضخمة التي وضعت نصب أعينها السيطرة على الشركات الصغيرة المستقلة قد وضعت خطتها بخصخصة المياه في إفريقيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط.

وفضلا عن البترول والمياه، يحتل العراق موقعا استراتيجيا بالغ الأهمية ، فهو يتاخم إيران والكويت والمملكة العربية السعودية والأردن وسوريا وتركيا، ويطل بساحل طويل على الخليج

العربي. والمدى الصاروخي للعراق يجعله قادرا على إصابة أهداف حيوية وذلك ابتداءً من إسرائيل وحتى جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق. ويقارن خبراء الاستراتيجية العسكرية عراق اليوم بحوض نهر هدسون خلال حرب الهنود مع الفرنسيين وبأهميته كذلك إبان الثورة الأمريكية. ففي القرن الثامن عشر، عرف الفرنسيون والبريطانيون والأمريكيون أن من يسيطر على حوض نهر هدسون يسيطر بالتالي على القارة الأمريكية. وبالمثل فإن من يسيطر اليوم على العراق يمتلك مفاتيح السيطرة على الشرق الأوسط.

وعلاوة على ما سبق، مثَّل العراق سوقا واسعة للتكنولوجيا الأمريكية وللخبرة الهندسية. ولأن العراق على رأس قائمة أكبر دول العالم امتلاكا لحقول البترول الضخمة (بل يفوق العراق بحسب بعض التقديرات احتياطي المملكة العربية السعودية) فتمكن بذلك من امتلاك القدرة على تمويل مشروعات البنية التحتية والاضطلاع ببرامج التصنيع. وعلى ذلك، استقطب العراق كافة اللاعبين الكبار، مثل شركات الهندسة والتعمير، وشركات إنتاج أجهزة الكومبيوتر، ومصنعي الطائرات الحربية والصواريخ والدبابات، وشركات تصنيع الأدوية والكيماويات.

وقد بدا جليا في أواخر ثمانينيات القرن العشرين أن صدام حسين لم يبتلع الطعم الذي وضعه قراصنة الاقتصاد، مما سبب لإدارة بوش الأولى خيبة أمل كبرى ومثل لها عقبة كئود، فكما حدث في بنما ساعد العراق في إضعاف صورة جورج بوش داخليا. وبينما كان بوش يبحث عن مخرج من أزمته قدم صدام حسين الحل على طبق من فضة بغزوه الكويت في أغسطس ١٩٩٠، تلك الإمارة الخليجية الثرية بالبترول. وانتهز بوش الفرصة فأعلن شجبه لصدام لانتهاكه القانون الدولي، بغض النظر عن أن بوش نفسه سبق وانتهك ذلك القانون قبل أقل من عام حين غزت قواته بنما.

لم تكن ثمة مفاجأة حين أمر الرئيس الامريكي بهجوم عسكرى شامل، فأرسل خمسمائة ألف جندى أمريكي ضمن قوات التحالف الدولي. وخلال الشهور الأولى من عام ١٩٩١، شنت قوات التحالف هجوما جويا ضد أهداف عسكرية ومدنية عراقية تبعه هجوم بري استمر لأكثر من أربعة أيام متواصلة حيث طاردت فلول الجيش العراقي الذي نفدت ذخيرته وخارت عزيمته. صارت الكويت آمنة، وعوقب الطاغية، وإن لم يقدم للمحاكمة. وتحسنت شعبية بوش لدى نحو ٩٠٪ من الشعب الأمريكي.

حين تم غزو العراق، كنت في بوسطن أشارك في أحد الاجتماعات في واحدة من المناسبات القليلة التي طلبت فيها شركة سويك منى عملا ما. أتذكر ذلك الحماس الذي انتاب الناس تأييدا لقرار بوش. كان بديهيا أن يشعر العاملون في مؤسسة ستون آند وبستر بالإثارة، ليس فقط لأننا اتخذنا موقفا ضد ديكتاتور سفاح - وإنما بالنسبة لهم، كان النصر في العراق فرصة كبيرة لتحقيق أرباح خيالية.

لم تنحصر الحماسة في أولئك المنخرطين منا في الأعمال التجارية ممن سينتفعون من الحرب بشكل مباشر، فقد بدا أن المواطنين عبر الأراضي الأمريكية في حاجة ماسة لرؤية بلدهم يستعيد ثقته العسكرية في نفسه. أعتقد أن هناك أسبابا كثيرة وقفت وراء ذلك، في مقدمتها ذلك التغيير المنهجي الذي حدث بعد هزيمة ريجان لكارتر، وبعد تحرير الرهائن الأمريكيين الذين احتجزوا في إيران، وبعد إعلان ريجان نيته إعادة المفاوضات حول معاهدة قناة بنها. لقد كان غزو بوش لبنها نفخا في النار من تحت الرماد.

كنت أعتقد أن شيئا ما يقف وراء ذلك التشدق بالمفاهيم الوطنية والدعوة لعمل مسلح. شيء ارتبط بتحول ماكر في الطريقة التي تنظر بها الولايات المتحدة - وكثير من العاملين في الشركات الأمريكية- لتحقيق المصالح التجارية عبر العالم. أصبح السعي نحو الإمبراطورية الكونية أمرا واقعا، ويسهم فيه أغلب قطاعات الدولة. لقد شنت ثنائية العولمة والخصخصة هجوما منظما على عقولنا وقلوبنا.

في التحليل النهائي، لم يكن هذا قاصرا على الولايات المتحدة. فالإمبراطورية الكونية رسمت ملامحها، وعبرت كل الحدود. وما كنا ندعوه من قبل شركات أمريكية صار اليوم شركات عالمية، حتى من الوجهة القانونية. ودُمج كثير من هذه الشركات في مؤسسات أكبر حجما متعددة الجنسيات. صار بمقدور هذه الشركات المفاضلة بين عدد من القوانين والتنظيمات التي تتناسب مع الأنشطة التي تريد ممارستها، أو التنويع في التنظيمات والاتفاقات التجارية الدولية بما يجعل أنشطتها أكثر يسرا وسهولة. لم يعد ثمة وجود لمفردات على شاكلة الديموقراطية، والاشتراكية، والرأسمالية. فقد صارت الكوربوقراطية حقيقة واقعة وفرضت نفسها محركا وحيدا ورئيسا للاقتصاديات والسياسات العالمية.

في تحول غريب للأحداث، استسلمت للكوربوقراطية حين بعت شركتي الخاصة في نوفمبر ١٩٩٠. كانت صفقة مربحة لي ولشركائي، لكننا بعناها في حقية الأمر بسبب الضغوط الهائلة التي مارستها علينا شركة آشلاند للبترول. علمتني التجربة أن محاربة مثل هذه الحيتان سيكلفنا الكثير على أصعدة عدة، بينما سيجعلنا البيع أثرياء. ومما يدعو للسخرية في هذه الصفقة أن شركة بترولية مثل آشلاند أصبحت المالك الجديد لشركتي التي كانت متخصصة في توفير مصادر بديلة للطاقة. شعرت لبعض الوقت أنني خائن.

لم تكن شركة سويك (SWEC) تستنفذ من وقتي سوى أقل القليل. كانوا يطلبون مني في بعض الأحيان السفر إلى بوسطن لحضور بعض الاجتماعات أو للمساعدة في التحضير لمقترحات ما. كانوا في أحيان أخرى يرسلونني لأماكن مثل ريو دي جانيرو لأشارك في حفلات شكلية أتحرك هنا وهناك وأصافح هذا وذاك. سافرت ذات مرة إلى جواتيمالا على رحلة طيران خاصة. كنت أتصل

هاتفيا على فترات متكررة بمديري المشروعات لأذكرهم بأنني أتلقى راتبا منتظما وأنني جاهز للعمل. كان ضميري يؤنبني لأنني أتلقى كل تلك الأموال مقابل أعمال محدودة للغاية. كنت أعرف العمل التجاري جيدا ومن ثم أردت الإسهام بعمل شيء نافع. غير أن ما أسعى إليه لم يكن في خطتهم المستقبلية.

كانت صورتي تؤرقني وأنا أقف في منتصف المسافة بين الفعل واللافعل. أردت أن أبادر بفعل يبرر وجودي ويحول كل سلبيات ما فعلت في الماضي إلى شيء إيجابي. استأنفت تدوين كتابي «صحوة ضمير قرصان اقتصاد» بأختلاس بعض الوقت كل حين، لم أكن أخادع نفسي بالاعتقاد أنه سيرى النور يوما ما.

في عام ١٩٩١، بدأتُ في قيادة وإرشاد مجموعات صغيرة من الأفراد إلى الأمازون لقضاء الوقت مع الشوار *Shuars*، السكان الأصليين في المنطقة. كانت تلك المجموعات تواقة إلى تبادل معارفهم الخاصة بحماية البيئة ووسائل تقديم العون والمساعدة للسكان الأصليين، وسرعان ما تزايد الطلب على هذا النوع من الرحلات خلال السنوات القليلة التالية، وتمخض ذلك عن تشكيل منظمة تطوعية حملت اسم «تحالف تغيير الحلم Dream Change Coalition». هدفت هذه المنظمة إلى تغيير الطريقة التي ينظر بها سكان الدول الصناعية إلى البيئة وعلاقتهم بها. وقد مدت هذه المنظمة نشاطها حول العالم وشجعت آخرين لتشكيل منظمات مناظرة في عديد من الدول. وكانت نتيجة هذه الجهود اختيار مجلة تايم لها من بين أفضل ثلاث عشرة منظمة يتضمن موقعها على شبكة الإنترنت غايات وأهداف الاحتفال السنوي بيوم كوكب الأرض Earth Day[1].

خلال تسعينيات القرن العشرين، ازداد إسهامي في مجال العمل التطوعي فساعدت في إنشاء منظمات عديدة وشاركت في مجالس إدارات مؤسسات أخرى قائمة بالفعل. وكان هذا نتاج جهود عديد من الأشخاص في منظمة تغيير الحلم، وتوجه الكثير منهم للعمل مع السكان الأصليين في أمريكا اللاتينية (مثل الشوار والأتشوار Achuars في الأمازون، والكوتشو Quechuas في الأنديز، والمايا Mayas في جواتيمالا) أو تعريف المواطنين في الولايات المتحدة وأوروبا بثقافات أولئك السكان الأصليين.

وافقت شركة سويك على مشاركتي في هذه الأنشطة الخيرية، إذ كان ذلك متوافقا مع التزاماتها بدعم المنظمات الخيرية مثل منظمة الطريق المتحد United Way. دونت المزيد من الكتب، آخذا في الحسبان التركيز على الثقافات الأصلية ومتجنبا الإشارة إلى الاغتيال الاقتصادي . وفضلا عن دورها في تخفيف آلامي - ساعدتني تلك الأنشطة على التواصل مع ثقافات أمريكا اللاتينية والاقتراب من القضايا السياسية التي كانت تشغلني.

حاولت إقناع نفسي أن الكتابة والأنشطة التطوعية التي أمارسها قد تمدني بتوازن نفسي، كما

صورت لنفسي أن ما أفعله يعوضني عن تاريخي المشين. غير أنني لم أفلح في هذا وزاد الأمر صعوبة، فبيني وبين نفسي كنت أعرف إنني أتملص من مسئولياتي تجاه ابنتي. فابنتي جيسيكا ترث اليوم عالما يولد فيه ملايين الأطفال مثقلين بديون لن يتمكنوا أبدا من سدادها. ولابد أن اعترف أنني أحد المسئولين عن هذه المشكلة.

ازدادت كتبي شعبية، خاصة كتابي الذي حمل عنوان «العالم كما تحلم به The World Is As You Dream It». أدى نجاح الكتاب إلى تزايد توجيه الدعوات لي لتقديم ورش عمل ومحاضرات. كنت أقف في بعض الأحيان أمام الجمهور في بوسطن أو نيويورك أو ميلان تتجاذبني تناقضات ساخرة. فلو أن العالم كما تحلم به فلماذا حلمت بمثل هذه العالم إذن؟ لو كان العالم الذي أعيشه هو الذي حلمت به، فلماذا تمنيت ذلك العالم؟ وكيف تمكنت من لعب ذلك الدور الحيوي وصياغة ذلك الكابوس الذي يعيشه العالم؟

كلفت في عام ١٩٩٧ بمهمة تعليمية على مدى أسبوع في معهد أوميجا ضمن ورشة عمل بمتجع في جزيرة سان جون St. John Island بالبحر الكاريبي. وصلت في نهاية الليل، وحين استيقظت في صباح اليوم التالي، دخلت شرفة صغيرة، ووجدت نفسي أرنو إلى الخليج نفسه الذي وقفت أمامه قبل سبعة عشر عاما متخذا قراري بمغادرة شركة مين MIAN. أسلمت نفسي للمقعد، تغمرني الانفعالات والمشاعر.

على مدار الأسبوع، أمضيت كثيرا من وقت فراغي في تلك الشرفة، أتطلع إلى خليج لينستر Leinster، محاولا فهم مشاعري. بدأت أدرك أنه رغم أنني تركت الشركة، فلم أتخذ الخطوة التالية، وأن قراري بالبقاء في منتصف الطريق كان خسارة فادحة. ومع نهاية الأسبوع، توصلت إلى أن العالم حولي ليس هو العالم الذي أردت أن أحلم به، وأنني أحتاج أن أفعل بالضبط ما أطالب به تلاميذي، ألا وهو أن أغير أحلامي بطريقة تعكس ما أريده حقا في حياتي.

حين عدت إلى موطني، ووجدت أنني فقدت وظيفتي في سويك. فرئيس الشركة الذي وظفني كان قد تقاعد وحل محله رجل جديد كان أصغر منى سنا وغير معنى بأن أفشي قصتي في الكتب التي أنشرها. بدأ هذا الرئيس الجديد برنامجا لتخفيض النفقات في الشركة، وكان سعيدا بقطعه نهائيا ذلك الراتب الباهظ الذي كان يدفع لي.

قررت إكمال الكتاب الذي أعمل فيه منذ فترة، ومنحني اتخاذ ذلك القرار شعورا رائعا بالارتياح. أشركت أصدقائي فيما أدون من أفكار، وكان أغلبهم من أصدقاء المنظمات الخيرية، ويشاركون في إثراء الثقافات المحلية والحفاظ على الغابات الاستوائية. أصابتني الدهشة حين أعرب لي هؤلاء الأصدقاء عن رعبهم مما سمعوا وقرءوا، إذ انتابتهم المخاوف من أن ذلك النوع من المعلومات قد يقوض عملي في التثقيف البيئي ويشوه سمعة المنظمات الخيرية التي أدعمها. كان أغلبنا

يساعد قبائل الأمازون في حماية أراضيهم من شركات البترول، وقد قال لي أصدقائي بوضوح إن ما أكتبه قد يفقدني مصداقيتي في مجال تلك الأنشطة وربما يضر كلية بالمنظمات الخيرية. بل هددني بعضهم بأنه قد يسحب دعمه لهذه المنظمات كلية.

وهكذا، اضطررت مرة أخرى للتوقف عن الكتابة. وأوليت عناية أكبر لاصطحاب الناس إلى أعماق منطقة الأمازون، وإتاحة الفرصة لهم لمشاهدة أناس وأمكنة لم تصل إليها حداثة العالم المعاصر. وفي هذه الأثناء وبينما كنت في أعماق الأمازون وقعت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

الفصل الثاني والثلاثون
١١ سبتمبر ... وتأثيره عليّ بشكل شخصي

في العاشر من سبتمبر ٢٠٠١، كنت مسافرا عبر القطاع الأدنى من أحد أنهار الأمازون في الإكوادور برفقة شاكيم شومبي Shakaim Chumpi، المؤلف المشارك معي في كتاب «المعالم الروحية لقبائل الشوار Spirit Of Shuars».

كنا نقود مجموعة من ستة عشر فردا من أمريكا الشمالية متجهين إلى أعماق الغابة الممطرة حيث تعيش عشيرة شاكيم، التي أتى الزوار ليتعرفوا عليها ويساعدوها في الحفاظ على غاباتهم الممطرة النادرة.

كان شاكيم جنديا وشارك في الصراع الذي دار مؤخرا بين الإكوادور وبيرو. لم يسمع معظم المواطنين في الدول الكبرى المستهلكة للبترول عن هذه الحرب، رغم أنها ما اشتعلت إلا لتوفر لهم إمدادات البترول. كانت قضايا الحدود مثار نزاع بين هاتين الدولتين لسنوات عديدة، ولكن في السنوات الأخيرة صار تعيين هذه الحدود مطلبا ملحا، وذلك لأن شركات البترول احتاجت لتحديد أي من الدولتين يمكن التفاوض معها لتوقيع عقود التنقيب في تلك الأراضي الغنية بالبترول. ومن ثم كان لزاما تعيين الحدود بين الدولتين.

شكلت قبيلة الشوار خط الدفاع الاول للإكوادور. وأثبتوا أنهم مقاتلون أقوياء، وغالبا ما كانوا يتفوقون على أعدائهم الذين يفوقونهم عددا وتجهيزا. لم يعرف الشوار شيئا عن الخلفيات السياسية لهذه الحرب، ولا أن تعيين الحدود سيفتح الأبواب أمام شركات البترول، وإنما حاربوا لأنهم ورثوا تقاليد قتالية عريقة ولأنهم لم يكونوا ليسمحوا لجنود أجانب بالخوض في أراضيهم.

خلال تجديفنا في النهر نراقب البيغاوات تزقزق فوق رءوسنا، سألت شاكيم عما إذا كانت الهدنة بين الطرفين ماتزال سارية. أجابني «نعم. لكن يجب أن أخبرك أننا نستعد لخوض حرب ضدكم». واصل كلامه ليفسر ما قاله، فهو بالطبع لم يكن يقصدني أنا شخصيا ولا أحد أفراد مجموعتنا، وقد أكد ذلك قائلا «أنتم أصدقاؤنا، إنما أقصد شركاتكم البترولية التي ستأتي إلى غاباتنا وقواتكم المسلحة التي سترافقها للدفاع عنها».

أردف شاكيم قائلا «رأينا ما فعلوه بقبيلة هيوراني Huaorani حين خربوا غاباتهم، ولوثوا

أنهارهم، وقتلوا الكثيرين منهم، بمن فيهم الأطفال، حتى كادت تلك القبيلة أن تنقرض اليوم. لن نسمح لهم بأن يفعلوا ذلك معنا، لن نسمح لشركات البترول بدخول أرضنا، تماما كما دافعنا عن أرضنا ضد البيروفيين. لقد أقسمنا جميعا بأن نقاتل حتى آخر رجل منا»[1].

في تلك الليلة جلست جماعتنا حول حلقة من النار في وسط خيام قبيلة الشوار المبنية من أعواد شجر البامبو والمسقوفة بالقش. حكيت لهم عن حواري مع شاكيم، وتساءلنا جميعا كم غير هؤلاء في العالم يشعرون بمشاعر مشابهة نحو شركات البترول الأمريكية ونحو بلدنا. كم مثل الشوار مرعوبون من احتمال دخولنا حياتهم وتدميرنا لثقافتهم وأرضهم؟ كم من الناس يكرهوننا؟

صبيحة اليوم التالي، دلفت إلى المكتب الصغير الذي أحتفظ فيه بجهاز لاسلكي، لأتصل بالطيارين الذين سيأتون لينقلونا في غضون أيام قليلة والتنسيق معهم، وبينما كنت أتحدث معهم عبر الجهاز، سمعت صرخة.

جاءني صوت الرجل على الجهة الأخرى يقول «يا إلهي! لقد هاجموا نيويورك». حولت المذياع عن المحطة التي كانت تبث الموسيقا، وعلى مدى نصف ساعة تاليه بقينا نتابع لحظة بلحظة الأحداث التي ألمت بالولايات المتحدة. وشعرت وكل من حولي أن هذه اللحظة لن تمحى من الذاكرة.

حين عدت إلى فلوريدا طُلب مني زيارة موقع جراوند زيرو Ground Zero، حيث انهار برجا مركز التجارة العالمي، فأعددت ترتيبات السفر إلى نيويورك. بعد الظهر تأكدت من حجزي في الفندق الذي أنزل به في أطراف المدينة. كان يوما مشمسا من أيام نوفمبر، والجو لطيف بشكل لا يتناسب مع هذا الوقت من السنة. عبرت منتزه سنترال بارك Central Park، متقد الحماس، ثم توجهت رأسا إلى ذلك الجزء من المدينة حيث أمضيت وقتا طويلا من قبل، لقد صار اسم المنطقة المحيطة بوول ستريت «جراوند زيرو» بعد انهيار البرجين.

بينما اقتربت من المكان فتر حماسي وحل محله شعور بالرعب، حيث طغت روائح الخراب ومناظر الدمار الذي لا يصدق؛ هياكل ملتوية ومنصهرة لبنايات كانت عظيمة البنيان، الأنقاض حيثما وليت وجهك، رائحة الدخان العفنة، الحطام المتفحم والأجساد المحترقة هنا وهناك. رأيت ذلك كله على شاشة التلفاز، لكن أن يجد المرء نفسه هنا في موقع الأحداث، فالأمر جد مختلف.

لم أعدّ نفسي لهذا الموقف، وخاصة بالنسبة لمشاهدة وقع ذلك على البشر. فرغم مرور شهرين فمازال الناس يتوافدون لمشاهدة المكان، أناس يسكنون أو يعملون قريبا من الموقع، وآخرون ممن نجوا من الكارثة. كان هناك مصري خرج أمام ورشته لتصليح الأحذية هازا رأسه لا يصدق ما يرى.

غمغم الرجل قائلا : «لا يمكن أن أنسى ما جرى. لقد فقدت كثيرا من زبائني، وكثيرا من

أصدقائى. ومات ابن أختي بين الضحايا». أشار إلى السماء الزرقاء وأكمل قائلا : «أظننى رأيته يقفز. لست أدرى... كثيرون كانوا يقفزون، كان الانفجار قد قذف بهم في الهواء فمدوا أيديهم وحركوا أذرعتهم كما لو كان في استطاعتهم الطيران».

أدهشتني الطريقة التي يتواصل بها الناس فيما بينهم؛ إذ تجاوز سكان نيويورك مرحلة الكلام، ورغم أحساسهم بالكآبه تلتقى عيونهم، فيتبادلون نظرات التعاطف، وتحمل تلك النظرات وأنصاف الابتسامات معاني تنطق بأكثر مما تقوله ملايين الكلمات.

لكن كان هناك شيء آخر، إحساس بشأن المكان نفسه. لم أستطع في البداية تحديد هذا الشيء، لكنه سرعان ما باغتنى: إنه ذلك الضوء المبهر. كانت منطقة مانهاتن السفلى قبل سقوط البرجين بمثابة ممر مظلم لا تصله الشمس، تذكرت تلك الأيام التي كنت أحج فيها لهذا الجزء من المدينة لأجمع رأس المال الذي أسست به شركتي الخاصة، واعتدت ترتيب تعاملاتي مع صيارفة الاستثمار على عشاء عمل في مطعم نوافذ على العالم Windows on the world. لكي أرى النور كان عليّ أن أصعد إلى ذلك الارتفاع الشاهق على قمة برج التجارة العالمي، أما الآن فقد استوى المكان بالشارع. لقد اتسع المكان الخانق ولم يعد مظلما، حتى أننا حين كنا وقوفا في الشارع بجوار الأطلال كانت تصلنا أشعة الشمس السخية، لم أتمالك نفسي من التساؤل عما إذا كان مشهد السماء والضوء، قد ساعد الناس على فتح قلوبهم. شعرت بالذنب لمجرد أن دارت هذه الأفكار برأسى.

مررت أمام زاوية تقع فيها كنيسة ترينتي Trinity وتوجهت رأسا إلى وول ستريت. عدت إلى نيويورك القديمة التي كانت تغلفها الظلال. لا سماء ولا ضوء. الناس يسرعون الخطى على الأرصفة، يتجاهل كل منهم الآخر. صاح شرطى مرور على سيارة متوقفة داعيا إياها للتحرك.

جلست على أول درجات قابلتني في البناية رقم ١٤، على الدرجة الرابعة عشر. جاءنى من مكان ما أزيز مراوح ضخمة أو طواحين هواء تعلو أصواتها فوق كل ضجيج و بدا كأنها قادمة من الحائط الحجرى لبورصة نيويورك القديمة. راقبت الناس، كانوا يتحركون في عجلة وخشونة جيئة وذهابا في الشارع، تاركين مكاتبهم، مسرعين إلى بيوتهم، أو متوجهين إلى مطاعم وحانات ليناقشوا أعمالهم. قليلون من ساروا متجاورين يثرثرون معا، أما معظمهم فكان وحيدا صامتا. حاولت أن ألتقي بعيون أحدهم، غير أن ذلك لم يحدث.

استلفت انتباهى صوت إنذار سيارة في الشارع. اندفع رجل من مكتبه وأشار بمفتاح التحكم عن بعد إلى السيارة، فانقطع صوت الإنذار. جلست هناك في هدوء لدقائق قليلة لكنها مرت بطيئة. بعد فترة، وضعت يدى في جيبى وسحبت قصاصة ورق مطوية مملوءة بالبيانات الإحصائية.

ثم رأيته. كان يجر قدميه عبر الشارع شاخصا إليها ببصره، له لحية رمادية هزيلة ويرتدى معطفا واقيا من البرد، لا يبدو مناسبا لهذه الأمسية الدافئة في وول ستريت. عرفت أنه أفغانى.

حملق في. ثم، بعد لحظة من التردد، صعد الدرجات. أومأ بأدب وجلس بجواري، تاركا مساحة خطوة أو خطوتين بينه وبيني. بدا من الطريقة التي ينظر بها أمامه مباشرة أنه عليّ أن أبادئه بالحوار.

«ياله من مساء لطيف»

«جميل». كانت لهجته ودودة. ثم أردف «في أوقات كهذه، نحن في حاجة لوهج الشمس».

«تقصد بسبب ما حدث لمركز التجارة العالمي؟».

أومأ موافقا.

«هل أنت أفغاني؟».

حملق في: «هل هذا واضح إلى هذه الدرجة؟».

«لقد سافرت كثيرا، وزرت مؤخرا الهيمالايا وكشمير».

«كشمير» سحب ذقنه وأكمل: «إنها منطقة حرب»

«نعم، الهند وباكستان، الهندوس والمسلمون. أمر يجعلك تتساءل عن ماهية الدين، أليس كذلك؟».

التقت عينانا. كانت عيناه بنية اللون عميقة النظرة، تقريبا تكاد تكون سوداء. صدمني ما فيهما من حكمة وحزن. عاد يلتفت نحو بناية بورصة نيويورك القديمة وأشار نحوها بأصبع طويل كثير العقد.

قلت موافقا: «ربما يتعلق الأمر بالاقتصاد وليس الدين».

«هل كنت جنديا؟».

لم أتمالك نفسي من ضحكة خافتة: «لا. أنا مستشار اقتصادي».

مددت يدي له بورقة البيانات الإحصائية، وقلت: «كانت هذه أسلحتي».

مد يده وأخذها مني وقال: «أرقام».

«عالم الإحصائيات».

قرأ القائمة، ثم أطلق ضحكة صغيرة وأعادها لي قائلا: «لا أعرف القراءة».

«تقول لنا الأرقام إن هناك أربعة وعشرين ألف شخص يموتون يوميا بسبب الجوع».

أطلق صفيرا ناعما، ثم أخذ يفكر لحظة فيما قلته، ثم تنهد وقال: «كنت تقريبا واحدا منهم. لديّ مزرعة رمان صغيرة بالقرب من قندهار، وحين وصل الروس اختبأ المجاهدون خلف الأشجار وفي قنوات المياه». رفع يديه وأشار بها كما لو كان يحمل بندقية: «انقضوا عليهم من تلك الكمائن» ثم أنزل يديه وأكمل: «كل اشجاري وقنواتي دمرت».

«ماذا فعلت بعد ذلك؟».

أشار إلى القائمة التي أحملها وقال : «هل تشمل هذه القائمة أعداد المتسولين؟»

أجبته بالنفي، ثم أردفت «لكني أذكر تلك الأرقام، على ما أظن هناك حوالى ٨٠ مليون متسول».

«كنت واحدا منهم» هز رأسه، بدا أنه شرد مع أفكاره. جلسنا في صمت بضعة دقائق قبل أن يتحدث مرة أخرى. «لم يعجبني التسول، ومات طفل. لذلك زرعت الخشخاش»

«أفيون؟»

هز كتفيه وقال : «إذا لم تكن لديك أشجار ولا مياه.. فماذا تفعل؟ كانت الطريقة الوحيدة أمامنا لإطعام عائلاتنا».

شعرت بغصة في حلقي، شعور محبط بالحزن مختلط بالذنب: «كلنا نزرع الخشخاش والأفيون، فكثير من الأثرياء صنعوا ثرواتهم من تجارة المخدرات».

التقت عيناه بعينيّ وبدا كأنه يخترق نفسي حين سألني: «أكنت جنديا» قال ذلك وأومأ برأسه ليؤكد هذه الحقيقة البسيطة. ثم نهض ببطء على قدميه وهبط السلالم وهو يعرج. أردته أن يبقى، لكني عجزت عن قول أي شيء.

جاهدت حتى وقفت على قدمي وتبعته . توقفت أسفل السلالم عند لافتة تحوي صورة للبناء الذي كنت أجلس أمامه، وفي أعلاها تنويه أن اللافتة وضعت من قبل مؤسسة نيويورك للحفاظ على التراث Heritage Trails of New York. كانت اللافتة تقول:

> *«وضع التصميم الأصلي لهاليكارناسوس* Halicarnassus *في برج الجرس المنسوب للقديس سان مارك في فينيسيا، عند زاوية وولَ آند برود* Wall and Broad. *وكانت روح ذلك التصميم التاريخي وراء تشييد هذا البناء الذي يقع في ١٤ وول ستريت. وفي زمنها كانت هذه البناية هي الأطول في العالم، إذ يبلغ ارتفاعها ٥٣٩ قدم وهو ما جعلها في عصرها ناطحة سحاب شاهقة، وقد اتخذت مقرا للمركز الرئيسي لمؤسسة بانكر تراست* Bankers Trust *وهي واحدة من أكثر المؤسسات المالية ثراء في الولايات المتحدة».*

وقفت هناك في فزع وتطلعت إلى البناء. بعد نهاية القرن التاسع عشر بفترة قصيرة، لعب البناء رقم ١٤ في شارع وول ستريت الدور الذي اضطلع به بعد ذلك مبنى مركز التجارة العالمى، إنه رمز السيطرة على القوة والاقتصاد. وكان مقرا لبانكر ترست، واحدة من المؤسسات التي تعاملت معها

لتمويل شركتي الخاصة للطاقة. إنها جزء أساسى من إرثى، ذلك الإرث الذي بسببه حسبني الأفغاني العجوز جنديا.

هكذا انتهى بى مطاف هذا اليوم، وبدا أن التحدث مع الأفغاني كان مصادفة، مجرد مصادفة. استوقفتني الكلمة. فكرت في ردود أفعالنا على المصادفات التي تشكل حياتنا. ماذا على أن أفعل بعد هذه المصادفة؟

واصلت سيرى، تفرست في الرءوس من حولي، لكنى لم أعثر له على أثر. عند البناية التالية، كان هناك تمثال كبير ملفوف ببلاستيك أزرق اللون. كشف الحفر على واجهة البناء الحجرى أن التمثال يعود إلى المبنى الفيدرالي Federal.Hall(*) الواقع في ٢٦ شارع وول ستريت، والذي أقسم فيه جورج واشنطن اليمين في ٣٠ أبريل كأول رئيس للولايات المتحدة، هنا بالضبط أقسم الرئيس على أن يحمل على عاتقه عبء حماية الناس جميعا وأن يدافع عن حريتهم وسعادتهم. هنا في هذا المكان القريب جدا من موقع انهيار برجي التجارة (جراوند زيرو)، والأقرب من وول ستريت.

سرت حول البناء حتى وصلت إلى شارع باين Pine Street، فصرت مباشرة أمام المقر الرئيسي لبنك تشيسي Chase، ذلك البنك الذي أسسه ديفيد روكفيلر David Rockefeller، قام ذلك البنك على أموال البترول، وحصد أمواله رجال من أمثالي. كان هذا البنك مؤسسة قدمت خدماتها لقراصنة الاقتصاد، ومهندسا للإمبراطورية الكونية، كان من أوجه عدة يعتبر الرمز البليغ المعبر عن الكوربوقراطية.

تذكرت أننى قرأت ذات مرة أن مركز التجارة العالمى كان مشروعا بدأه ديفيد روكفلر في عام ١٩٦٠، وفى السنوات التالية اعتبر المبنيان ممثلان لطائر البتروسAlbatross (طويل الساقين والمتطلع بعنقه الطويل إلى السماء). كانت سمعة مركز التجارة العالمي القديمة أنه غير مناسب للأعمال المالية وغير مجهز لوسائل الاتصال الحديثة القائمة على الألياف البصرية وتقنيات الإنترنت، ويتسم نظام مصاعده بعدم الفاعلية رغم ارتفاع تكلفته. وحمل هذان البرجان اسما تدليليا هو ديفيد ونيلسون David and Nelson، غير أن كل ذلك قد انتهى بسقوط البرجين.

واصلت سيرى ببطء وبلا هدف. ورغم دفء هذه الأمسية، شعرت بقشعريرة، وتملكني قلق غريب ينذر بسوء. لم أعرف مصدر القلق، وإن حاولت دفعه عنى. بينما كنت أواصل سيري الهين وجدت نفسى في نهاية الأمر أتطلع مرة أخرى إلى الحفرة التي انهار فيها البرجان، وإلى المخلفات المعدنية الملتوية، وإلى تلك الفجوة الكبرى في موقع الانهيار. استندت على بناء قد نجا من التدمير وبدأت أحملق في تلك الحفرة. حاولت تصور الناس يندفعون من البرج المنهار ورجال المطافئ يندفعون

(*) أول مقر للحكم الفيدرالي في الولايات المتحدة.

لإنقاذهم. حاولت التفكير في الأشخاص الذين قفزوا، وفى اليأس الذي شعروا به. لكن شيئا من هذه المشاهد لم يحضرني.

بدلا من ذلك، تخيلت أسامة بن لادن يتلقى أموالا وأسلحة بملايين الدولارات، يتسلمها من رجل يعمل في شركة استشارية بعقد مع حكومة الولايات المتحدة. ثم رأيت نفسى أجلس أمام جهاز كومبيوتر بشاشة مظلمة.

تطلعت حولى، بعيدا عن موقع انهيار البرجين في جراوند زيرو، توجهت ببصري إلى شوارع نيويورك البعيدة عن موقع الانفجار والتى عادت الآن إلى حياتها الطبيعية. تساءلت عما إن كان الناس الذين يسيرون في هذه الشوارع يفكرون في كل هذا، ليس فقط في تدمير البرجين لكن أيضا في مزارع الرمان التي دمرت، وفى الأربعة والعشرين ألفا الذين يموتون جوعا كل يوم. تساءلت إذا كانوا قد فكروا في هذه الأمور يوما ما، وإذا كان بوسعهم أن يصرفوا تفكيرهم بعيدا عن وظائفهم وسياراتهم النهمة للوقود ومكافآت أعمالهم ولو لفترة تكفي لأن يتدبروا ماذا سيتركون للعالم الذي يعيشون فيه ويورثونه لأطفالهم. تساءلت ما الذي يعرفونه عن أفغانستان، ليست أفغانستان التي يرونها على شاشة التليفزيون، بل أفغانستان المغطاة بثكنات الجيش الأمريكى ودباباته، أفغانستان الرجل العجوز. تساءلت عما كان يفكر فيه أولئك الأربعة والعشرين ألفا الذين يموتون كل يوم. ثم رأيت نفسى مرة أخرى، أجلس أمام جهاز كومبيوتر بشاشة مظلمة.

أرغمت نفسى على العودة إلى موقع انهيار البرجين في جراوند زيرو. في تلك اللحظة، كان هناك أمر واحد وهو أن بلدى تفكر في الانتقام، وتركز تفكيرها على بلاد مثل أفغانستان. بينما كنت أفكر في كل الأماكن الأخرى التي تكره شعوبها شركاتنا وجيوشنا وسياساتنا، وسيرنا نحو الإمبراطورية الكونية.

تساءلت، ماذا عن بنما والإكوادور وإندونيسيا وإيران وجواتيمالا، ماذا عن معظم دول أفريقيا؟ دفعت نفسى بعيدا عن الحائط الذي كنت أستند عليه وبدأت أسير في طريقى. رجل قصير داكن البشرة يلوح في الهواء بجريدة ويصيح بصوت أعلي من حركة المرور، ومن الأبواق الزاعقة والجماهير المتزاحمة قائلا: «فنزويلا على حافة الثورة!».

اشتريت الجريدة منه ووقفت هناك لحظة أقرأ سريعا المقالة الافتتاحية. كانت عن هوجو شافيز Hugo Chavez، رئيس فنزويلا الجديد المناهض للسياسات الأمريكية والذي وصل إلى رئاسة بلاده بعد انتخابات ديموقراطية، كانت المقالة تحوي أيضا معلومات عن اتجاهات الكراهية التي تتنامى بين شعوب أمريكا اللاتينية ضد سياسات الولايات المتحدة.

ماذا عن فنزويلا؟

الفصل الثالث والثلاثون
صدّام ينقذ فنزويلا

راقبت فنـزويلا لسنوات عديدة. كانت مثالا تقليديا للدولة التي نهضت من الفقر إلى الثراء نتيجة اكتشاف البترول. كانت كذلك نموذجا للاضطرابات التي تحركها ثروة البترول، وفقدان التوازن بين الأثرياء والفقراء، ومثالا لبلد استغلتها الكوربوقراطية بصفاقة. أصبحت صورة لمكان يجتمع فيه قراصنة الاقتصاد ذوو الأسلوب القديم مثلي مع أصحاب الأسلوب الجديد ليكوّنوا اتحادا من المستغلين.

كانت الأحداث التي قرأتها عن فنـزويلا في الصحيفة ذلك اليوم في جراوند زيرو نتيجة مباشرة لانتخابات عام ١٩٨٨، حين انتخب الفقراء والمعوزون في فنـزويلا هوجو شافيز رئيسا بأغلبية ساحقة[١].

سرعان ما فرض شافيز إجراءات ملزمة، وتولى السيطرة على القضاء وغيره من المؤسسات، وحل البرلمان الفنـزويلي. ندد شافيز بسياسة الولايات المتحدة «الإمبريالية الفاضحة» وقدم نقدا لاذعا للعولمة، وفرض قانونا جديدا للتنقيب عن البترول شبيها، حتى في اسمه، بذلك القانون الذي فرضه خايمي رولدوس في الإكوادور قبيل أن يلقى مصرعه في تحطم طائرته المروحية. ضاعف القانون الجديد من النسبة المطلوب من شركات البترول الأجنبية دفعها للدولة. ثم التفت شافيز إلى شركة البترول الحكومية المعروفة باسم «بترول فنـزويلا *Petroleos de Venezuela*» وأحكم القبضة عليها بأن أبدل بالذين يديرونها آخرين أكثر ولاء له[٢].

يحظى البترول الفنـزويلي بأهمية اقتصادية بالغة على مستوى العالم. ففي عام ٢٠٠٢ كانت فنـزويلا رابع أكبر دولة مصدرة للبترول على مستوى العالم، وحلت في المرتبة الثالثة بين الدول التي تعتمد عليها الولايات المتحدة في استيراد البترول[٣]. ويعمل في شركة «بترول فنـزويلا» نحو ٤٠ ألف عامل، وتحقق الشركة مبيعات قدرها خمسين مليار دولار سنويا. وتسهم هذه الشركة بنحو ٨٠٪ من عائدات التصدير. إنها بلا منازع أهم أعمدة الاقتصاد الفنـزويلي[٤]، وبسيطرته على الصناعة الوطنية فرض شافيز نفسه على المسرح العالمي لاعبا أساسيا.

اعتقد كثير من أبناء الشعب الفنـزويلي أن البترول طوق نجاتهم، والذي بدأ تدفقه قبل ثمانين

عاما في ١٤ ديسمبر عام ١٩٢٢، حين حدث اندفاع فجائي ضخم للبترول من باطن الأرض بالقرب من ماراكيبو Maracaibo. وتدفقت تلقائيا كمية قدرت بمائة ألف برميل يوميا واستمر ذلك لثلاثة أيام، وقد غير هذا الحدث الجيولوجى الفريد من نوعه مصير فنزويلا للأبد، لتصبح في عام ١٩٣٠ أكبر مصدر للبترول في العالم أجمع. ورأى الشعب الفنزويلي في البترول حلا لجميع مشكلاتهم.

تمكنت فنزويلا خلال الأربعين عاما التالية وبفضل عائدات البترول - من الانتقال من واحدة من أفقر بلدان العالم إلى واحدة من أكثر دول أمريكا اللاتينية ثراء. وأظهرت البيانات الإحصائية نموا كبيرا وبصفة خاصة على مستوى الرعاية الصحية والتعليم والتوظيف وأمد الحياة وانخفاض معدلات وفيات الأطفال. وازدهر قطاع الأعمال والتجارة.

أثناء الحظر الذي قررته مجموعة الأوبك في عام ١٩٧٣، وصلت أسعار البترول إلى مستويات غير مسبوقة وتضاعفت ميزانية فنزويلا أربعة أمثال ما كانت عليه. انطلق قراصنة الاقتصاد للعمل في فنزويلا. غمرت البنوك الدولية البلد بقروض بغرض تحسين البنية التحتية والمشروعات الصناعية وبناء أعلى ناطحات سحاب في القارة. ثم وصل في الثمانينيات عرابو الكوربوقراطية والقرصنة الاقتصادية. كانت الفرصة مثالية لانتزاع أسنان الفرخ الفنزويلي الصغير. اتسعت رقعة الطبقة المتوسطة في فنزويلا، وفتحت سوقا كبيرة لأنواع متباينة من المنتجات، ومع ذلك بقيت شريحة كبيرة من الفقراء تنتظر الحصول على فرص للعمل في الورش والمصانع وغيرها من المؤسسات الصناعية المستغلة حيث ساعات طويلة من العمل في ظروف قاسية وبأجر زهيد.

ثم انهارت أسعار البترول، ولم تستطع فنزويلا الوفاء بديونها. ففرض صندوق النقد الدولي في عام ١٩٨٩ شروطا صارمة وضغط على كاراكاس (العاصمة الفنزويلية) للانصياع للكوربوقراطية بأشكال مختلفة. كان رد فعل الفنزويليين عنيفا، قتل المشاغبون أكثر من ٢٠٠ شخص. وتبدد سراب البترول كطوق نجاة ومورد لا ينفد. وبين عامي ١٩٧٨ و٢٠٠٣ هبط الناتج القومي بنسبة زادت على ٤٠٪[١].

ومع زيادة الفقر، تصاعد السخط والاستياء. ونتج عن ذلك استقطاب مالي وانكماش الطبقة الوسطى أمام اتساع الطبقة الفقيرة. ومثلما يحدث في كثير من البلاد المعتمدة في اقتصادها على البترول، سرعان ما تغيرت أوضاع السكان بشكل جذري، فنتج عن الانهيار الاقتصادي خسائر فادحة بالنسبة للطبقة المتوسطة، وانحدر كثيرون منها إلى مصاف الفقراء.

هيأت الأوضاع الجديدة المسرح أمام شافيز ومهدت الطريق للصراع مع واشنطن. فبمجرد وصوله إلى السلطة بادر الرئيس الفنزويلي الجديد بتحدي إدارة بوش. كانت واشنطن قبيل أحداث ١١ سبتمبر تفاضل بين الخيارات المطروحة. فبعد فشل قراصنة الاقتصاد، هل حان وقت إرسال الثعالب؟

غيرت أحداث ١١ سبتمبر من كافة أولويات واشنطن، فقد ركز الرئيس بوش ومستشاروه على حشد المجتمع الدولي لدعم الجهود الأمريكية في أفغانستان وغزو العراق. كان اقتصاد الولايات المتحدة في منتصف طريقه نحو الركود. أحيلت فنزويلا إلى مؤخرة القائمة لتصبح بديلا احتياطيا للعراق وأفغانستان. مع ذلك، كان من الواضح أن ثمة نقطة سيصل فيها بوش وشافيز إلى حافة الصدام. لم تكن واشنطن قادرة على تجاهل فنزويلا وقتا طويلا في ظل تهديد العراق وغيره من دول الشرق الأوسط بحظر إمدادات الولايات المتحدة بالبترول.

دفعني تجوالي حول موقع انهيار البرجين في الجراوند زيرو وشارع وول ستريت، ولقائي مع الرجل الأفغاني العجوز، وقراءتي عن فنزويلا تحت حكم شافيز الأمر الذي تجنبته سنوات طوال - إلى إمعان النظر في عواقب أفعالي عبر العقود الثلاثة الماضية من حياتي. لم أستطع إنكار الدور الذي لعبته أو حقيقة أن عملي كقرصان اقتصادي أثر سلبا على جيل ابنتي. وأدركت إنني لم أعد قادرا على تأجيل المبادرة بفعل ما للتكفير عما ارتكبته. لابد أن أتطهر من آثام حياتي، بطريقة قد توقظ الناس وتنبههم إلى خطورة الكوربوقراطية وإدراك السبب وراء كراهية كثير من دول العالم لنا.

عدت مرة أخرى للكتابة، لكن ما إن شرعت فيها حتى بدا أن حكايتي صارت قديمة للغاية، ويعوزها التحديث بشكل أو بآخر. فكرت في السفر لأفغانستان والعراق وفنزويلا وكتابة تعليقات معاصرة عنها. بدت هذه الدول الثلاث مجسدة للتناقضات الكبرى في أحداث العالم الراهنة، فكل منها كابد اضطرابات سياسية دامية وحدد مصيرها حكام تركوا خلفهم قضايا كثيرة عالقة دون حل (سواء في حكم طالبان الوحشي الاستبدادي، أو قيادة صدام المختل عقليا للعراق، أو عدم كفاية شافيز اقتصاديا في فنزويلا) ومع ذلك لم تتخذ الكوربوقراطية أية إجراءات لحل تلك المشكلات المعقدة في هذه الدول. كان المنهج البديل هو استهداف هؤلاء القادة أنفسهم عقابا لوقوفهم في وجه سياستنا البترولية الطامعة. فمن زوايا عديدة، كانت فنزويلا أكثر الحالات غموضا، فرغم أن التدخل العسكري قد حدث بالفعل في أفغانستان وبدا حتميا في العراق، ظل الغموض يكتنف رد فعل الإدارة الأمريكية تجاه شافيز. وبقدر اهتمامي بالأمر، أدركت أن القضية لا تكمن في كون شافيز قائدا ناجحا أم لا، بل بالأحرى في رد فعل واشنطن نحو زعيم يعترض طريق مسيرة الكوربوقراطية نحو البناء الإمبراطورية الكونية.

قبل أن يسمح وقتي بهذه الرحلة، تدخلت الظروف مرة أخرى. أخذتني مشاركاتي في المنظمات التطوعية للسفر إلى أمريكا الجنوبية عدة مرات في عام ٢٠٠٢. كانت معي في واحدة من رحلاتي للأمازون عائلة فنزويلية تعرضت تجارتها للخسارة وأعلنت إفلاسها في ظل سيطرة نظام شافيز. صاروا من أصدقائي المقربين، وسمعت القصة من جانبهم. التقيت كذلك أشخاصا على النقيض اقتصاديا من تلك العائلة، كانوا يرون شافيز منقذا ومخلّصا. كانت الأحداث التي تكشفت في كراكاس بمثابة إشارات مميزة لعالم جديد خلقناه نحن قراصنة الاقتصاد.

في ديسمبر ٢٠٠٢ شارف الموقف في كل من فنزويلا والعراق حافة الانفجار. مثل كل من البلدين بديلا للآخر ومناظرا له. ففي العراق فشلت كافة الجهود الماكرة - التي اتبعها كل من القراصنة والثعالب- في إرغام صدام على الإذعان، وبدأت مخططات أخرى لحل نهائي : ألا وهو الغزو. أما في فنزويلا، فقد استحضرت إدارة بوش النموذج الذي اتبعه كيرميت روزفلت مع إيران. وفي ذلك تقول نيويورك تايمز:

> *«امتلأت الشوارع بمئات الآلاف من أفراد الشعب الفنزويلي اليوم ليعلنوا عن التزامهم بالإضراب العام، الذي بدءوه منذ ثمان وعشرين يوما لإرغام الرئيس هوجو شافيز على ترك السلطة.*
>
> *يهدد الإضراب الذي يشارك فيه ثلاثون ألفا من عمال شركات البترول - بإيقاع فوضى مخربة تستمر لأشهر مقبلة في هذه الدولة التي تعد خامس دول العالم إنتاجا للبترول.*
>
> *تحول الإضراب في الأيام الأخيرة إلى مأزق وورطة، فاستعان السيد شافيز بالعمال غير المشاركين في الإضراب لإعادة تشغيل شركة البترول الحكومية. أما خصومه، الذين يتزعمهم رجال الأعمال وقادة العمال فيزعمون أن بوسعهم إجبار شركة البترول، ومن ثم الرئيس شافيز، على السقوط»*[٦].

هذا ما حدث بالضبط حين خلع رجال السي آي إيه مصدق وأحلّو الشاه مكانه. هل يمكن للتشابه بين ما حدث في البلدين أن يكون أقرب من ذلك؟. بدا أن التاريخ يكاد يعيد أحداثه التي مر عليها خمسون سنة. وكأن شيئا لم يتغير، فما يزال البترول هو القوة المحركة للأحداث.

اصطدم أنصار شافيز بخصومه، وسقط عدد من القتلى وعشرات الجرحى. في اليوم التالي، تحدثت مع صديق قديم كان منخرطا لسنوات طويلة مع الثعالب الأمريكية. كان هذا الصديق مثلي تماما، لم يعمل مباشرة مع الحكومة، بل كان يقود عمليات سرية في كثير من البلاد. قال لي إن ثمة شركة أمنية خاصة طلبت منه عمل ترتيبات لإثارة الاضطرابات في العاصمة الفنزويلية كراكاس وتقديم رشى لضباط الجيش الذين تلقى كثير منهم تدريبهم في مدرسة الأمريكتين - لعمل انقلاب ضد رئيسهم المنتخب. رفض صديقي القديم العرض، وأسر لي قائلا «إن الرجل الذي آلت إليه المهمة بدلا مني كان يعرف طريقه جيدا»[٧].

انتاب المديرين التنفيذيين في شركات البترول ومؤسسات وول ستريت مخاوف من ارتفاع أسعار البترول وتراجع المخزون الاستراتيجي الأمريكي. ومع أخر الأوضاع في الشرق الأوسط في

الحسبان، أدركت أن إدارة بوش كانت تعمل كل ما في وسعها لتطيح بشافيز. ثم جاءت الأنباء تبشر بنجاحهم في مساعيهم، فقد أطاحوا بشافيز. اتخذت النيويورك تايمز من هذا التحول في الأحداث فرصة لتقديم منظور تاريخي، والتعريف بالرجل الذي ظهر على الساحة ليلعب دور كيرميت روزفلت مع فنزويلا المعاصرة:

«دعمت الولايات المتحدة الأنظمة الفاشية في أمريكا الوسطى والجنوبية أثناء وبعد الحرب الباردة دفاعا عن مصالحها الاقتصادية والسياسية.

ففي دولة قزمية مثل جواتيمالا خططت السي آي إيه لانقلاب يطيح بالحكومة التي وصلت للحكم بانتخابات ديمقراطية في عام ١٩٥٤، وساندت في المقابل حكومات يمينية في مواجهة مجموعات صغيرة من الثوار اليساريين على مدى أربعة عقود. وكانت النتيجة سقوط نحو ٢٠٠ ألف قتيل.
أما في شيلي، فقد دعمت السي آي إيه انقلابا جاء بالجنرال أوجوستو بينوتشيه Augusto Pinochet إلى السلطة بين عامي ١٩٧٣ و١٩٩٠.
وفي بيرو تحاول حكومة ديمقراطية هشة على مدى عقد من الزمان إفشال مخطط السي آي إيه الساعي لإعادة الرئيس المخلوع والمطرود من البلاد ألبرتو ك. فوخيموري Alberto K. Fujimori ورئيس مخابراته سيئ السمعة فلاديميرو مونتيسينوس Vladimoro L. Montesinos.
اضطرت الولايات المتحدة لغزو بنما في ١٩٨٩ لتطيح بتاجر المخدرات- الدكتاتور مانويل نورويجا الذي ظل حوالى عشرين عاما، مخبرا وعميلا مهما للسي آي إيه. وفي الثمانينيات كان الصراع في نيكارجوا بالغ الأهمية لاستغلال المعارضة السلمية ضد اليسار، بما في ذلك تهريب السلاح إلى نيكارجوا عبر إيران وهو ما أدى إلى اتهامات طالت كبار المسئولين في إدارة ريجان.

كان السيد أوتو ريتش Otto J. Reich من أولئك الذين طالهم الاتهام، وهو عسكري متقاعد وله خبرة بصراعات كثيرة في أمريكا اللاتينية، لكن لم تثبت الاتهامات على السيد ريتش وأصبح فيها بعد سفيرا للولايات المتحدة في فنزويلا، ويعمل الآن مساعدا لوزير الخارجية لعلاقات دول الأمريكيتين، وقد عُين بقرار رئاسي. ولم تكن الإطاحة بشافيز سوى واحدة من بنات أفكاره»[8].

وبينما يحتفل السيد ريتش ومن معه من إدارة بوش بالإطاحة بشافيز، انفض السامر فجأة. ففي تحول مثير للأحداث تمكن شافيز من العودة إلى السلطة وأمسك من جديد بمقاليد الحكم في أقل من اثنتين وسبعين ساعة. وعلى خلاف ما حدث لمصدق في إيران، تمكن شافيز من الاحتفاظ بالجيش إلى جانبه، رغم كل المحاولات لقلب ضباط جيشه الكبار ضده. بالإضافة لذلك، وقفت إلى جانبه شركة البترول الحكومية. فقد تحدت شركة بترول فنزويلا آلاف العمال الذين أضربوا عن العمل واستطاعت أن تقف على أقدامها بدونهم.

وبعدما انقشع غبار تلك العاصفة العابرة، أحكم شافيز قبضة الحكومة على موظفي شركة البترول، وطهر شافيز الجيش من ثلة الضباط غير الموالين الذين رضوا بخيانته، وأجبر كثير من زعماء المعارضة على مغادرة البلاد . وطالب شافيز بعشرين عاما سجنا لاثنين من زعماء المعارضة الذين تعاونوا مع واشنطن وتواطئوا مع الثعالب الأمريكية لتدبير الإضراب الذي شمل كل أنحاء البلاد[٩].

في التحليل الأخير، كانت العاقبة النهائية للأحداث كارثية لإدارة بوش. وفي ذلك تقول لوس أنجلوس تايمز:

«أقر المسئولون في إدارة بوش اليوم الثلاثاء أنهم على مدى شهور بحثوا مع القادة العسكريين والمدنيين الفنزويليين مسألة إزاحة الرئيس هوجو شافيز عن السلطة، والآن تتخذ الإدارة الأمريكية التدابير الدقيقة للتعامل مع تداعيات الانقلاب الفاشل»[١٠].

كان واضحا أن قراصنة الاقتصاد لم يفشلوا وحدهم في تحقيق المخطط بل فشل معهم الثعالب أيضا. تحولت فنزويلا في عام ٢٠٠٣ إلى شكل مختلف عما حدث في إيران في عام ١٩٥٣. تساءلت إذا ما كان هذا الفشل نذيرا بحوادث جديدة أم مجرد شذوذ عن قاعدة النجاح الأمريكي، وما الذي ستفعله واشنطن بعد ذلك؟

نجى شافيز وأفلتت فنزويلا لبعض الوقت من كارثة محققة، والفضل لصدام حسين. فلم تستطع إدارة بوش أن تحارب على ثلاث جبهات في آن واحد، في أفغانستان والعراق وفنزويلا. ففي تلك اللحظة، لم يكن لديها القوة عسكرية أو الدعم السياسي الذي يمكنها من تدبير أمورها على الجبهات الثلاث. . يداخلني يقين أن الأحداث قد تتغير بسرعة ومن المحتمل أن يواجه الرئيس شافيز معارضة عنيفة في المستقبل القريب. على أية حال يعلمنا درس فنزويلا أن شيئا لم يتغير في السياسة الأمريكية خلال الخمسين سنة الماضية، باستثناء النتائج.

الفصل الرابع والثلاثون
زيارة جديدة للإكوادور

كانت فنزويلا حالة تقليدية. وحين كنت أراقب الأحداث التي تتكشف هناك، صدمت بحقيقة أن حدود المعارك الحقيقية كانت ترسم في بلد آخر. لم تكن أهمية هذه الخطوط تعني الكثير بمفاهيم الدولار أو أرواح البشر، لكن كانت تعني الكثير بما تشمله من قضايا تتجاوز الأهداف المادية التي تتشكل بها الإمبراطوريات. تجاوزت حدود المعارك جيوش الصيارفة والمديرين التنفيذيين في قطاعات الأعمال والساسة فتوغلت عميقا في روح الحضارة الحديثة. كانت تلك الخطوط ترسم في دولة صرت أعرفها جيدا وأحبها كثيرا، تلك البلد التي عملت فيها لأول مرة متطوعا في فيالق السلام Peace Corps، إنها الإكوادور.

منذ تلك السنوات التي كنت فيها هناك، في عام ١٩٦٨، كانت تلك البلد الصغيرة تتحول بالتدريج إلى فريسة مثالية للكوربوقراطية. تمكنتُ ونظرائي الكوربوقراط من الوصول بها إلى وضع إفلاس حقيقي. أثقلنا اقتصادها بديون قدرت بمليارات الدولارات مقابل تكليف شركات الهندسة والتعمير الأمريكية ببناء مشروعات تساعد عائلاتها الأكثر ثراء. ونتيجة لذلك، في تلك العقود الثلاث، ارتفعت نسبة الفقر بين السكان من ٥٠٪ إلى ٧٠٪ وازداد معدل البطالة من ١٥ إلى ٧٠٪ كما ارتفع الدين العام من ٢٤٠ مليون دولار إلى ١٦ مليار دولار، وانخفض نصيب السكان الأكثر فقرا من مخصصات الموارد الطبيعية من ٢٠٪ إلى ٦٪ . وتجد الإكوادور نفسها اليوم مضطرة لإنفاق ما يقرب من ٥٠٪ من ميزانيتها القومية لسداد ديونها، بعد ان كان من المفترض أن تنفق هذه الاموال في مساعدة ملايين المواطنين الذين صنفوا رسميا على أنهم يعانون من فقر مدقع[1].

يبرهن الموقف في الإكوادور على أن ما حدث لم يكن نتاج مؤامرة. بل حدث تحت أعين إدارات أمريكية من الحزبين الديموقراطي والجمهوري عبر عمليات تورطت فيها كل من البنوك المتعددة الجنسيات وكثير من المؤسسات الكوربوقراطية وبعثات المساعدات الأجنبية. وقد لعبت الولايات المتحدة دورا قياديا في ذلك، وإن لم نكن الوحيدين.

فخلال هذه العقود الثلاثة، أسهم آلاف الرجال والنساء في جعل الإكوادور في هذا الوضع المعقد الذي وجدت فيه نفسها عند مشارف الألفية الجديدة. بعضهم مثلي، كان على وعي بما يفعل،

لكن الغالبية العظمى كانت تؤدي ما تعلمته في كليات الاقتصاد والهندسة والحقوق، وبعضهم اقتفى أثر رؤسائهم من أمثالي، أولئك الذين ترجموا النظام من خلال نموذج جشع وعبر اتباع أسلوب الثواب والعقاب المصمم لتكريس ذلك النظام . صنف المنخرطون في الأمر أدوارهم في أسوأ الأحوال كأدوار مقبولة، وحين تتملكهم نظرة التفاؤل يرون أنفسهم يؤدون خدمات جليلة يساعدون من خلالها أمما فقيرة.

كان هؤلاء الناس إما غير واعين لما يفعلوه أو مخدوعين أو - في أغلب الأحيان- يخادعون أنفسهم، ولم يكن هؤلاء الناس أعضاء في أي مؤامرة سرية بقدر ما كانوا نتاج نظام يعزز النمط الماكر والفعال من الإمبريالية التي صار العالم يعانيها.لم يضطر أحد منهم للخروج والبحث عن رجال ونساء يقبلون الرشوة ويخضعون للابتزاز، لقد كانوا معينين من قبل شركات وبنوك ووكالات حكومية. كانت الرشاوى تؤخذ في شكل رواتب وإكراميات ومنح وسندات تأمين، أما التهديد والابتزازا فكان يأخذ شكلا مستترا يكمن في الأعراف الاجتماعية وضغوط المقارنة الاجتماعية مع النظراء والانداد والقلق بشأن مستقبل تعليم الأبناء.

نجح النظام نجاحا باهرا. وحين بدأت الألفية الثالثة، كانت الإكوادور قد وقعت في المصيدة. أصبحت بين أيدينا، تعاملنا معها كما يتعامل زعيم مافيا مرابي أقرض رجلا بالدين في زفاف ابنته وأعماله الصغيرة ثم حين سقط الرجل عاد المرابي فأقرضه من جديد. ومثل أى عضو في المافيا يجيد عمله أخذنا ما يكفينا من الوقت لأداء مهامنا. لم نكن في عجلة من أمرنا، فأسفل غابات الإكوادور الممطرة بحر من البترول، كنا نعرف أن اليوم المناسب غير بعيد.

وقد جاء اليوم المناسب بالفعل، ففي مطلع عام ٢٠٠٣ غيرت مساري بدلا من التوجه إلى العاصمة كويتو Quito توجهت إلى بلدة شل Shell بين الأحراش مستخدما سيارتي السوبارو رباعية الدفع Sabaru outback. كان شافيز قد استعاد مكانته في فنزويلا، وتحدى جورج و. بوش وربح التحدي. وكان صدام معاندا ويستعد لمواجهة غزو بلاده. انخفضت إمداداتنا من البترول إلى أقل مستوى في خلال ما يقرب من ثلاثة عقود، وبدا احتمال اللجوء إلى المزيد من مخزوننا الاستراتيجي احتمالا موجعا، وكان الأمر سيئا أيضا بين كفتي ميزان الكوربوقراطية. كنا كالمقامر الذي يبحث عن الورقة الرابحة على طاولة اللعب، ورقة تنقذه من خسارة محدقة. كنا نبحث في الإكوادرو عما كان يبحث عنه المرابي اليهودي في رطل اللحم في رواية «تاجر البندقية» لشكسبير.

بينما كنت أقود سيارتي بجوار السد الضخم على نهر باستازا Pastaza، لاحظت أن المعركة هنا في الإكوادور لم تكن ببساطة صراعا تقليديا بين أثرياء العالم ومعدميه، ولا بين المستغلِين والمستغلَين. إن خطوط تلك المعركة ستحدد في النهاية هوية حضارتنا. كنا قد عزمنا على إرغام هذا البلد الصغير لفتح غابات الأمازون الاستوائية لشركاتنا البترولية. وكان الخراب الذي سيلحق بها لا حصر له.

فإذا أصررنا على تحصيل الديون، ستكون العواقب الوخيمة وبدرجة أبعد بكثير من قدرتنا على تحديدها. لم يكن الأمر ببساطة يتعلق بتدمير الثقافات المحلية، أو حياة البشر، ومئات الآلاف من فصائل الحيوانات والزواحف والأسماك والحشرات والنباتات، والتي قد يحتوي بعضها على أمصال لم تكتشف بعد لعدد كبير من الأمراض. لم يكن الأمر ببساطة أن الغابات المطرة تمتص الغازات المميتة المسئولة عن ارتفاع درجة حرارة الأرض والناتجة عن أنشطتنا الصناعية، أو إنها تمدنا بالأوكسجين الأساسي لحياتنا، أو أنها تمد السحب ببخار الماء المسئول في النهاية عن إمداد الأرض بالنسبة الأكبر من المياه العذبة. إن لهذه الغابات أهمية تتجاوز كل الفرضيات القياسية التي وضعها علماء البيئة للحفاظ عليها، فقد بلغت مكانة عميقة في نفوسنا.

وإذا ما اتبعنا هذه الاستراتيجية، فإننا نكمل في الحقيقة ذات المسار الإمبريالى الذي بدأ قبل زمن طويل إبان الإمبراطورية الرومانية. صحيح إننا نشجب العبودية، لكن إمبراطوريتنا الكونية تستعبد من البشر أكثر بكثير مما استعبد الرومان ومن كل أشكال القوى الاستعمارية التي سبقتنا. تساءلت كيف نبرر لأنفسنا اتباع مثل هذه السياسات قصيرة النظر في الإكوادور دون أن يحدث اختلال في ضميرنا الجمعي.

تطلعت بناظري عبر نافذة سيارتي السوبارو نحو منحدرات جبال الأنديز حيث اجتثت الغابات، وتذكرت أيام وجودي في فيالق السلام حين كانت منطقة مدارية ثرية في بيئتها الطبيعية. أخذتني الدهشة لإدراكي أمرا آخر. فقد اتضح لي أن تلك النظرة للإكوادور كخط من خطوط المعركة هي نظرة محض شخصية، ذلك أن كل البلاد التي عملت بها - وكانت ذات ثروات مغرية للإمبريالية - كانت على نفس القدر من الأهمية. الفارق الوحيد أنني هنا مرتبط بشكل شخصي بهذا البلد ارتباطا كامنا داخلي منذ أواخر الستينيات حين مات ضميري هنا، على أية حال، يبدو هذا الشعور أمرا شخصيا، وانحيازا من جانبي لهذا المكان.

ورغم أن غابات الإكوادور المطرة لها قيمتها العظيمة، مثل أهلها المحليين وكل أشكال الحياة التي تعيش على أرضها، فإنها ليست أكثر قيمة من صحارى إيران، ومن التراث البدوي لقبائل «يمين» Yamin، كما أنها ليست أكثر قيمة من جبال جاوا، أو البحار الأمامية لسواحل الفلبين، وسهوب الاستبس في آسيا، وسهول السفانا في أفريقيا، وغابات أمريكا الشمالية، والجبال الثلجية في القطب الشمالى، أو مئات الأماكن المهددة الأخرى. كلها تمثل خطوط معارك، وجميعها ترغمنا على البحث في أعماق أرواحنا أفرادا وجماعات.

تذكرت البيانات الإحصائية التي تعبر عن الماضي، ففي عام ١٩٦٠ كان خُمس سكان العالم في الدول الثرية يحصلون على دخل يفوق ما يحصل عليه خُمس سكان العالم في الدول الفقيرة بنسبة ٣٠ : ١، ثم أزداد البون اتساعا في عام ١٩٩٥ حين وصلت نسبة الفارق بين الشريحتين إلى ٧٤ : ١[٢]، بينما لا

يزال البنك الدولي والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية وصندوق النقد الدولي وبقية البنوك الأخرى والشركات المتحدة، والحكومات المنخرطة جميعها في برامج «الإعانات» تخبرنا أنها تؤدى مهامها، وأن ثمة تقدما قد حدث.

كان هذا سبب عودتي للإكوادور مرة أخرى، ذلك البلد الذي يشهد كغيره كثيرا من خطوط المعارك، لكنها تمتلك مكانا متميزا في قلبي. نحن الآن في عام ٢٠٠٣، خمسة وثلاثون سنة تمر على وصولي هنا أول مرة مشاركا مع منظمات امريكية تحمل في اسمها كلمة «السلام». أتيت هذه المرة محاولا منع الحرب التي أسهمت في إشعالها عبر ثلاثة عقود.

كان من المفترض أن تردعنا الأحداث في أفغانستان والعراق وفنزويلا عن خلق صراع آخر، ومع ذلك كان الموقف في الإكوادور جد مختلف، فهذه الحرب لن تكون في حاجة لجيش الولايات المتحدة، لأنها ستقوم على مجرد عدة الآف من المحاربين المحليين مجهزين فقط بالرماح والمدى والبنادق ذات التلقيم اليدوي طلقة بطلقة. سيواجه هؤلاء السكان المحليون البؤساء جيشا إكوادوريا حديثا، مدعوما بثلة من الخبراء العسكريين من القوات الخاصة الأمريكية فضلا عن جنود مرتزقة دربهم الثعالب وعيتهم شركات البترول. ستكون حربا على غرار اشتباكات عام ١٩٩٥ التي نشبت بين الإكوادور وبيرو، ولن يسمع عنها أغلب مواطني الولايات المتحدة، وقد ساعدت الأحداث الجارية على احتمال نشوب تلك الحرب.

وفى ديسمبر عام ٢٠٠٢، اتهم ممثلو شركات البترول مجموعة من المواطنين المحليين باحتجاز فريق من عمالهم كرهائن، افترضوا أن المحاربين المتورطين كانوا أعضاء في مجموعة إرهابية، ملمحين إلى ارتباطهم بتنظيم القاعدة. كانت القضية معقدة لأن شركة البترول لم تحصل على تصريح من الحكومة بالبدء في التنقيب عن البترول. ومع ذلك، أعلنت الشركة أن لعمالها الحق في الاستكشافات الأولية السابقة لعمليات التنقيب، وهو ما أثار غضب السكان المحليين وسبب نزاعا معهم استمر لعدة أيام، معربين عن موقفهم الرافض من القضية.

أصر كل من عمال البترول وممثلو القبائل على موقفهم، فتخطوا الحدود إلى الأراضي التي لم يكن مسموحا لهم بدخولها، ولم يحمل السكان المحليون أسلحة، ولم يهددوا عمال البترول بأي شكل، فقط اصطحبوا العمال معهم إلى قراهم حيث قدموا لهم الطعام والبيرة المحلية المعروفة باسم الشيشا Checha. وبينما كان العمال الضيوف يتمتعون بكرم الضيافة، أقنع السكان المحليون المرشدين المرافقين للعمال بأن يبحثوا لهم عن مكان بعيد عن أرضهم. وأكدت القبيلة المحلية التي استضافت العمال أنها لم تبق أحدا رغما عنه بل كان العمال أحرارا في الذهاب حيثما شاءوا[٣].

كنت أقود سيارتي في ذلك الطريق، حين تذكرت ما أخبرني به أفراد قبيلة الشوار في عام ١٩٩٠ بعدما بعت شركتي الخاصة وعدت لتقديم المساعدة لهم لإنقاذ غاباتهم. ذكروني بمقولة «العالم كما

تحلم به» مشيرين إلى أننا في الشمال حلمنا بالصناعات الضخمة وكثير من السيارات وناطحات السحاب الهائلة. والآن اكتشفنا أن حلمنا تحول في الواقع إلى كابوس سيدمرنا جميعا في نهاية المطاف.

نصحني الشوار بأن «أغير ذلك الحلم». مع ذلك هاأنذا بعد أكثر من عقد من الزمن، ورغم جهود كثير من الأفراد والمنظمات الخيرية، بما فيها تلك المنظمات التي أعمل معها، وصل الكابوس إلى مستوى جديد بالغ الرعب.

حين أوصلتني سيارتي السوبارو في النهاية إلى مدينة شل بين الغابات، وجدت أن علي الإسراع للاشتراك في لقاء جمع رجالا ونساء يمثلون كثيرا من القبائل مثل كيشوا Kichwa والشوار Shuar والأتشوار Achuar والشويار Shiwiar والزابارو Zaparo. بعضهم قطع المسافة على قدميه سائرا عدة أيام عبر الغابة، آخرون هبطوا من طائرات صغيرة تمولها المنظمات الخيرية. ارتدى بعضهم تنوراتهم التقليدية، وقد لونوا وجوههم، وربطوا رءوسهم بباقات من الريش، بينما حاول كثيرون تقليد لباس المدينة الحضري المهلهل من القمصان القطنية والأحذية.

كان ممثلو العشائر المتهمين باختطاف الرهائن أول المتحدثين. أخبرونا أنه بعد عودة العمال بفترة قصيرة إلى شركة البترول، وصل أكثر من مائة جندي من الإكوادور في سرية عسكرية صغيرة. أوضح لنا المتحدثون بأن هذه الفترة تمثل بداية لفصل مميز في الغابات الممطرة، حيث إثمار أشجار الشونتا Chonta، التي تعد شجرة مقدسة في المعتقدات الثقافية المحلية. وتؤتي ثمارها مرة واحدة في العام مؤذنة ببداية فصل التزاوج لكثير من طيور المنطقة، بما فيها الأصناف النادرة والمعرضة للانقراض. ولما كان الجنود قد اخترقوا المنطقة صارت الطيور في حالة من الخطر. وقد فرضت القبائل قواعد صارمة على حظر صيد هذه الطيور خلال فصل إزهار الشونتا وموسم التزاوج.

قالت إحدى النساء المشاركات: «كان توقيت مجيء الجنود بالغ السوء» استشعرت ألمها وألم رفاقها حين أخبروني بقصصهم المأساوية عن تجاهل الجنود لهذا الحظر.

اصطاد الجنود الطيور للرياضة أو للأكل. بالإضافة إلى ذلك شنوا غارات على حدائق العائلات، وبساتين الموز، والحقول، كما دهسوا التربة الزراعية بالغة الحساسية وبدرجة يصعب استعادتها من جديد. استخدموا المتفجرات للصيد في الأنهار، وأكلوا دواجن العائلات. استولوا على بنادق الصيادين المحليين وحفروا مراحيض معسكراتهم بشكل دميم، ولوثوا الأنهار بزيت الوقود والمواد الكيماوية القابلة للذوبان، وتحرشوا جنسيا بالنساء، وتجاهلوا التخلص الملائم من القمامة، مما جذب الحشرات والهوام.

أعرب أحد الرجال قائلا «لم يكن لدينا سوى اختيارين: إما أن نقاتل، أو نبتلع كرامتنا ونفعل ما في وسعنا لإصلاح الخسائر. قررنا أن الوقت لم يحن بعد للقتال». وصف لنا كيف حاولوا التعامل مع سوء استخدام الجيش لأرضهم من خلال حث الناس على الصوم عن الطعام. رأى الرجل في

ذلك نوعا من المقاومة، لكنها في الحقيقة كانت أقرب لمجاعة اختيارية. أصيب كبار السن والأطفال بسوء التغذية ونالت منهم الأمراض.

تحدثوا عن التهديدات والرشاوى. قالت إحدى النساء : «ابني يتحدث الإنجليزية ويجيدها تماما مثل الإسبانية وكثير من اللهجات المحلية. كان يعمل دليلا ومترجما لشركة سياحة بيئية. كانوا يدفعون له راتبا معقولا. عرضت عليه شركة البترول عشرة أمثال ذلك الراتب. ماذا بوسعه أن يفعل؟ يرسل لنا اليوم خطابات يندد فيها بشركته القديمة وكل الآخرين الذين قدموا هنا لمساعدتنا، ويقول في خطاباته إن شركات البترول هم أصدقاؤنا الحقيقيون» اهتز جسدها بالبكاء، مثل قطة خرجت من الماء تنفض البلل عن جسدها مغمغمة بالقول «لم يعد ولدي واحدا منا».

نهض شيخ يرتدي عصابة رأس من ريش طائر الطوقان Toucan من قبائل الشهان قائلا: «أتعرفون أولئك الثلاثة الذين اخترناهم ليمثلونا أمام شركات البترول، أولئك الذين ماتوا في حادث تحطم الطائرة؟ حسنا، أنا لن أقف هنا لأحكي لكم ما يقوله كثيرون غيري من إن شركات البترول هي التي دبرت الحادث. لكني أستطيع أن أخبركم أن هذه الطائرة المحطمة وجثثها الثلاث حفرت حفرة كبيرة في أرض قريتنا. غير أن شركات البترول لم تكلف نفسها فتأمر عمالها بدفن الموتى في تلك الحفرة».

أخرج رجل آخر عقدا وقرأ محتوياته التي تقول إنه في مقابل ثلاثمائة ألف دولار تنازلوا عن مساحة واسعة من الأشجار لصالح شركة أخشاب. وأشار إلى أن العقد مذيل بتوقيع ثلاثة من زعماء القبائل». أردف الرجل حديثه «ليست هذه توقيعاتهم الحقيقية. يجب أن تعرفوا أن اسم شقيقي من بين التوقيعات الثلاثة، غير أن كل هذا مزور، إنه نمط آخر من الاغتيال هدفه تشويه سمعة زعمائنا».

بدا من السخرية والتناقض أن يحدث هذا في إحدى مناطق الإكوادور التي لم تتمكن شركات البترول بعد من الحصول على تصريح بالحفر والتنقيب فيها. لقد شرعوا في التنقيب الفعلي في مناطق كثيرة حول هذه المنطقة، ورأى أهل المنطقة المحليين عواقب ذلك، وشهدوا تخريب منطقتهم. بينما كنت جالسا هناك أستمع لهم سألت نفسي ماذا عن رد فعل مواطني الولايات المتحدة إذا تكالبت عليهم الأمور بمثل هذا الشكل وظهرت في أخبار المساء على قناة سي إن إن CNN.

كانت اللقاءات مدهشة وكانت الحقائق الكاشفة بالغة الإزعاج، لكن ثمة شيء آخر حدث أيضا خارج اللقاءات الرسمية لهذه الاجتماعات. أثناء فترات الراحة، وتناول الغداء وفي الأمسيات، وحين كنت أتحدث لهؤلاء الأشخاص بشكل شخصي. كانوا كثيرا ما يسألونني لماذا تهدد الولايات المتحدة العراق. كانت الحرب التي توشك أن تندلع تتناقش على الصفحات الأولى من صحف الإكوادور التي تجد طريقها إلى هذه البلدة النائية في حضن الغابة، وكانت تغطية الأحداث مختلفة جدا عن تغطيتها في صحف الولايات المتحدة، فقد احتوت هنا على إشارات إلى ملكية عائلة بوش

لشركات البترول وامتلاكها لشركة يونايتد فروت التجارية United Fruit، ومعلومات أخرى عن الدور الذي لعبه ديك تشيني، نائب الرئيس الأمريكي، إبان عمله رئيسا تنفيذيا لشركة هاليبرتون البترولية.

كانت هذه الصحف تقرأ على مسامع رجال ونساء لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ولم يذهبوا أبدا إلى مدارس. ويبدو أنهم جميعا مهتمين بهذه القضية. أنا هنا في غابات الأمازون المطرة، بين أفراد أميين، كثير من أهل أمريكا الشمالية يحسبونهم متخلفين أو همجا، ومع ذلك يطرح هؤلاء الناس أسئلة في صميم الإمبراطورية الكونية.

ومع خروجنا من بلدة شل وعبورنا السد الذي أقيم على النهر لتوليد الطاقة الكهربائية وتوغلنا نحو ارتفاعات أكبر في جبال الأنديز، بقيت شاردا في الاختلاف بين ما رأيته وما سمعته خلال هذه الزيارة للإكوادور وبين ما اعتدت رؤيته وسماعه في الولايات المتحدة. بدا لى أن القبائل الأمازونية لديها الكثير لنتعلمه منها، وأنه رغم كل مدارسنا والساعات الطوال التي نقضيها في قراءة المجلات ومشاهدة الأخبار على شاشات التليفزيون، ينقصنا وعى تلك القبائل التي وصلت إليه بطريقة ما. جعلتني هذه الطريقة في التفكير أتدبر «نبوءة طائر الكوندر والنسر The Prophecy of the Condor and Eagle» وغيرها من النبوءات المشابهة التي سمعتها كثيرا في أرجاء مختلفة من أمريكا اللاتينية.

في كل الحضارات التي عرفتها تقريبا كانت هناك نبوءة تقول إنه في نهاية التسعينيات سندخل فترة انتقالية حرجة. ففي أديرة الهيمالايا وفي مواقع الشعائر الدينية في إندونيسيا ومناطق السكان الأصليين المحمية في أمريكا الشمالية، وفى أعماق الأمازون وقمم جبال الأنديز وفى مواقع حضارات المايا القديمة في أمريكا الوسطى، كنت أسمع تلك النبوءة التي تقول إننا نعيش في عصر ذي أهمية بالغة في تاريخ الإنسانية وأن كلا منا ولد في هذا الوقت لأن لديه مهمة يجب أن ننجزها.

تختلف عناوين وكلمات النبوات اختلافا طفيفا، لكن كلها تقول بقدوم زمن جديد، زمن الألفية الثالثة، عصر الأكواريوس Aquarius وبداية الشمس الخامسة The Fifth Sun، زمن نهاية التقاويم القديمة وبداية تقاويم جديدة. ورغم تنوع المصطلحات تشترك النبوءات في الكثير، وتعد «نبوءة الكوندر والنسر» نموذجية بين هذه النبوءات. إذ تقول بأنه في إحدى حقب التاريخ الموغلة في القدم انقسمت المجتمعات الإنسانية وتفرقت إلى طريقين متباينين، الأول تقوده الكوندر (ممثلة للقلب والحدس والروحانيات) والآخر يقودها النسر (ممثلا للعقل والمنطق والمادة). تقول النبوءة إنه في تسعينيات القرن الخامس عشر تقاطع الطريقان ووقع صراع وصدام بين الاثنين كاد يؤدي إلى

الفناء. ثم بعد خمسة قرون، أي في تسعينيات القرن العشرين، سيدخل العالم حقبة جديدية حين يلتقي الكوندر والنسر معا ويحلقان في سماء واحدة فوق طريق واحد. وإذا ما قبل الكوندر والنسر ذلك وتزاوجا فسينجبان ذرية رائعة نادرة لم يعرفها الكون من قبل.

يمكن تفسير «نبوءة الكوندر والنسر» على أكثر من مستوى، فالتفسير المباشر يراها تتنبأ بتزاوج المعرفة الكامنة في غرائز البشر مع التقنيات العلمية، والتوازن بين النقيضين، الأرض والسماء وبين النور والظلمة Yin & Yang، والتواصل بين حضارات الشمال والجنوب. لكن المغزى الأكبر في هذه النبوءة هو الرسالة التي تحملها عن الوعي الجمعي، إذ إنها تخبرنا أننا على أعتاب عصر يتحتم علينا فيه الاستفادة من طرق متنوعة كثيرة لرؤية أنفسنا والعالم، ويمكننا كذلك استخدام هذه الطرق نقطة انطلاق إلى مستويات أعلى من الوعي. ولكوننا مخلوقات بشرية فبوسعنا حقا النهوض والتطور إلى أنواع أرقى وأكثر وعيا.

لقد بدا واضحا بجلاء لسكان الأمازون، السائرين في طريق الكوندر، أنه إذا كنا معنيين بقضايا تمس طبيعة البشرية في الألفية الثالثة، وملتزمين بتقويم ما ننويه في العقود المقبلة، فإن علينا أن نفتح أعيننا ونرى تبعات ما تجنيه أيدينا (وخاصة أيادي أولئك السائرين في طريق النسر) في أماكن مثل العراق والإكوادور. علينا إذن أن نفيق من غفوتنا. وعلى شعوب مثلنا لم يشهد التاريخ لها مثيلا في القوة أن تتوقف عن الانشغال بالمسلسلات الاستهلاكية Soap Opera، ومباريات كرة القدم، والحساب ربع السنوي للميزانية المالية للدولة، والمؤشرات اليومية لمؤشر داو جونز، علينا بدلا من ذلك أن نعيد تعيين هويتنا وتحديد مصير أولادنا. وإذا لم نتخذ هذا الخيار ونتوقف لنسأل أنفسنا تلك الأسئلة المهمة فستكون العواقب كارثية.

الفصل الخامس والثلاثون
كشف النقاب

بعد قليل من عودتي للوطن من رحلة الإكوادور عام ٢٠٠٣، غزت الولايات المتحدة العراق للمرة الثانية خلال ما يربو قليلا على عقد من الزمان. فشل قراصنة الاقتصاد في مهمتهم. وكذلك فشل الثعالب. لذلك أرسلت الولايات المتحدة أبنائها من الجنسين ليواجهوا القتل أو الموت في رمال الصحراء. طرح هذا الغزو سؤالا مهما، وأظن قليلا من الأمريكيين في وضع يسمح لهم بالتفكير فيه، ألا وهو: ماذا يعنى هذا الغزو للبيت الملكي لآل سعود. إذا استولت الولايات المتحدة على العراق التي تقول كثير من التقديرات إن بترولها أكثر من بترول المملكة العربية السعودية، هل ستكون هناك حاجة لاستمرار الاتفاقية التي عقدت مع العائلة الملكية السعودية في سبعينيات القرن العشرين؟ تلك الصفقة التي تمت من خلالها عملية غسيل أموال المملكة العربية السعودية.

كان متوقعا أن نهاية صدام، مثل نهاية نورويجا، ستغير من قواعد اللعبة. ففي حالة بنما وبمجرد إعادة تنصيب الدمى في الحكم، تعود لنا السيطرة على القناة، بغض النظر عن شروط المعاهدة التي تفاوض بشأنها توريخوس وكارتر. بوسعنا أن نتساءل في المقابل، هل بمجرد سيطرتنا على العراق سيكون بمقدورنا تحطيم منظمة الأوبك؟ هل ستخرج العائلة الملكية السعودية من ساحة السياسات البترولية الدولية؟ قليل من النقاد تساءل عن سبب غزو بوش للعراق بدلا من تركيز إمكاناتنا في ملاحقة القاعدة في أفغانستان. هل يمكن أن تجد الإدارة الأمريكية (هذه العائلة البترولية) في تأمين إمداداتنا البترولية، وتوقيع عقود الإعمار، أهمية أكثر من محاربة الإرهاب؟!

ثمة نتيجة أخرى محتملة، ألا وهي أن منظمة الأوبك قد تحاول إعادة تثبيت مكانتها. فإذا سيطرت الولايات المتحدة على العراق، فإن غيرها من البلاد الغنية بالبترول لن تخسر كثيرا لأنها قد تلجأ إلى سياسة رفع الأسعار أو خفض الإنتاج. ويرتبط هذا الاحتمال بسيناريو آخر له مغزى وتداعيات من المحتمل أن ينفذه عدد من المسئولين في النظام المالي العالمي. وبوسع هذا السيناريو قلب موازين التوازن الجيوسياسي ويفضي في النهاية إلى انهيار النظام الذي بذلت الكوربوقراطية

الكثير من أجل ترسيخه. بل يمكن أن يتحول هذا السيناريو إلى عامل وحيد يؤدي بأول إمبراطورية كونية في التاريخ إلى تدمير نفسها.

في التحليل الأخير، تعتمد الإمبراطورية الكونية إلى حد كبير على حقيقة أن الدولار يعد العملة النقدية الأكثر تداولا عالميا، وأن مؤسسة سك العملة في الولايات المتحدة لها حق طبع هذه الدولارات. وهكذا نقدم القروض لبلاد مثل الإكوادور ونعرف تماما أنها لن تستطيع مطلقا سدادها. ونحن لا نريد في الحقيقة لهذه الدول أن تسدد ديونها، لأن عدم السداد هو ما يمنحنا النفوذ، وهو ما يضمن لنا ممارسة دور المرابي اليهودي (في رواية تاجر البندقية). وفي ظل الظروف العادية فإننا نغامر بهذه السياسة باستنفاد الجزء الأعظم من ودائعنا في الخزانة. وفي النهاية فإنه ليس هناك من دائن يقدم الكثير من الديون المعدومة. علما بأن ظروفنا ليست ظروفا طبيعية، فالولايات المتحدة تطبع المزيد من الدولارات غير المغطاه برصيد من الذهب. بل إن هذه الدولارات غير مؤمنة بأي شيء سوى الثقة العالمية العامة في اقتصادنا وقدرتنا على تجييش العسكر وتنظيم ثروة الإمبراطورية التي خلقناها من أجل دعمنا.

إن القدرة على طباعة الدولارات تمنحنا قوى هائلة. وهذا يعني، بين أشياء أخرى، أننا نستطيع الاستمرار في تقديم القروض التي لن ترد أبدا، وأننا ذاتنا عرضة لأن تتراكم علينا الديون للآخرين. فمع مطلع عام ٢٠٠٣، تجاوز دين الولايات المتحدة القومي رقما مذهلا فاق ٦ تريليون دولار، وكانت هناك مؤشرات بأن يصل هذا الدين إلى ٧ تريليون دولار قبل نهاية العام. وهو ما يعني أن كل مواطن أمريكي مدين بـ ٢٤ ألف دولار. وكثير من هذه الديون اقترضتها الولايات المتحدة من دول آسيا، خاصة من اليابان والصين، وهما الدولتان اللتان تشتريان سندات الخزانة الأمريكية، وبصفة خاصة سندات الديون IOUs، مع تكدس الودائع المصرفية لدى هاتين الدولتين من خلال تسويق البضائع الاستهلاكية - مثل الإلكترونيات، وأجهزة الكومبيوتر، والسيارات، والأجهزة الكهربائية، والملبوسات - في السوقين الأمريكي والعالمي[1].

وما دام العالم يقبل الدولار كعملته النقدية العالمية، فإن هذه الديون الزائدة عن الحد لن تمثل عقبة كبيرة للكوربوقراطية. لكن إذا استطاعت عملة نقدية أخرى أن تحل محل الدولار، وإذا طالب بعض دائني الولايات المتحدة (اليابان والصين على سبيل المثال) بتحصيل ما لهم من ديون على الولايات المتحدة فإن الموقف سيتغير بشكل كارثي. فستجد الولايات المتحدة نفسها في هذه الحالة في موقف بالغ الخطورة.

في الحقيقة، لم يعد وجود مثل هذه العملة النقدية اليوم فكرة افتراضية، فاليورو قد دخل بالفعل إلى المسرح المالي العالمي في ١ يناير ٢٠٠٢ و يغدو أكثر قوة ومكانة مع كل شهر يمر به. ويقدم اليورو فرصة غير عادية لمنظمة الأوبك إذا أرادت أن تثأر لغزو العراق، أو تثأر لأي سبب آخر على

سبيل استعراض العضلات ضد الولايات المتحدة. فإذا ما اتخذت منظمة الأوبك قرارا باستبدال اليورو بالدولار كعملة نقدية فستهتز أركان الإمبراطورية الأمريكية لا محالة. وإذا كان لهذا أن يحدث، وإذا كان لواحد أو اثنين من الدائنين الكبار أن يطلبوا منا أن نرد ديوننا باليورو، فإن صدمتنا ستكون مروعة.

راودتني هذه الأمور في صباح يوم عيد الجمعة الحزينة Good Friday، في الثامن عشر من أبريل ٢٠٠٣ أثناء سيري تلك المسافة القصيرة بين بيتي ومكتبي الذي كان في الأصل جراجا. جلست إلى مكتبي وأدرت جهاز الكومبيوتر، وكالمعتاد فتحت موقع النيويورك تايمز، وثبت العناوين الرئيسية أمامي فانتزعتني من أفكاري التي كنت منشغلا بها عن الوقائع الجديدة المالية الدولية وحجم الدين القومي واليورو . أعادتني العناوين إلى حرفتي القديمة، كان أحد العناوين يقول: «الولايات المتحدة تمنح شركة بكتل عقدا كبيرا لإعادة إعمار العراق».

أكد المقال أن «إدارة بوش منحت مجموعة شركات بكتل سان فرانسيسكو أول عقد كبير اليوم في الخطة الواسعة لإعادة بناء العراق». في أسفل الصفحة، يخبر الكاتب القراء أن «العراقيين سيعملون مع البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وهي المؤسسات التي تمارس عليها الولايات المتحدة نفوذا واسعا، لإعادة بناء وتشكيل العراق»[٢].

نفوذا واسعا! شيء ما يبقى خفيا.

أوصلني المقال السابق إلى رابط مقال آخر في التايمز يقول : «شركة بكتل لديها علاقات وثيقة مع كل من واشنطن والعراق» تجاهلت الفقرات الأولى التي تكرر كثيرا من المعلومات التي قرأتها في المقال السابق حتى وصلت إلى ما يلي:

> *«تحتفظ شركة بكتل بعلاقات طويلة الأمد مع مؤسسة الأمن القومي، فأحد مديريها هو جورج شولتز George P. Shultz وقد عمل وزيرا للخارجية أثناء حكم الرئيس رونالد ريجان. وقبل أن ينضم شولتز إلى إدارة ريجان كان قد تولى رئاسة الشركة بعد أن خدم فيها لفترة كبيرا للمستشارين. وقد عمل شولتز مع كاسبر وينبرجر، الذي عمل بدوره رئيسا تنفيذيا في مقر الشركة في سان فرانسيسكو قبل أن يعين وزيرا للدفاع. وقد عين الرئيس بوش هذه السنة ريلي بكتل Riley P. Bechtel الرئيس التنفيذي للشركة عضوا في مجلس التصدير القومي»*[٣].

وفي كلمات موجزة يمكننا أن نعثر في هذه المقالات على قصة التاريخ الحديث، والاندفاع نحو الإمبراطورية الكونية. إن ما تعرضه صحف الصباح لما يجري في العراق ليس إلا ثمرة تدريب

كلودين لأمثالي قبل ٣٥ عاما، وثمرة جهود رجال ونساء جمعتهم، وأنا معهم، شهوة تضخيم الذات. ولعل هذا الواقع هو الذي يحدد الدرجة التي بلغها نجاح الكوربوقراطية في مسارها لإخضاع كل إنسان في الكون تحت سيطرتها.

تحدثت هذه المقالات عن غزو العراق في ٢٠٠٣ وعن العقود التي يتم توقيعها الآن، لإعادة بناء ذلك البلد الذي دمرته قواتنا العسكرية وبناء بلد جديد وفقا للنموذج المعاصر، النموذج الغربي. ولسنا في حاجة إلى القول إن أخبار ١٨ أبريل ٢٠٠٣، عادت لنفس الموضوع السابق في بدايات سبعينيات القرن العشرين وقضية غسيل أموال المملكة العربية السعودية. كانت قضية غسيل الأموال السعودية والعقود التي تولدت عنها قد أرست سابقة جديدة سمحت - أو بالأحرى فوضت - شركات الهندسة والتعمير والبترول الأمريكية بتقاسم عقود تطوير المملكة الصحراوية. ومن هذه الملابسات أرست قضية غسيل الأموال السعودية قواعد جديدة للإدارة الكونية للبترول، وإعادة تحديد الأوضاع الجيوسياسية، وصياغة تحالف مع العائلة المالكة السعودية يؤكد سيادتها على مواطنيها وفي ذات الوقت التزامها بالولاء لنا واللعب حسب شروطنا.

بينما كنت أقرأ هذه المقالات، لم أستطع منع نفسي من التساؤل كم من الناس غيري عرفوا أن صدام كان بوسعه أن يبقى في منصبه لو كان لعب اللعبة التي لعبها آل سعود. كان سيحتفظ حتما بصواريخه ومنشآته الكيميائية، وغيرها مما كنا سنبنيه له، وكان رجالنا وقتها سيتسلمون مسئولية تحديث وصيانة تلك المنشآت. يالها من صفقة رائعة لو تمت، لم تكن لتقل روعة عن مثيلتها في السعودية.

تجنب الإعلام السائد نشر مثل هذه القصة. لكن هاهو اليوم، يتخلى عن حذره. صحيح أن التلميحات طفيفة، والمقالات لم تزد عن تقديم ظلال وإشارات طفيفة عن ملخص القضية، لكن القصة في طريقها للظهور كاملة. تساءلت عما إذا كانت النيويورك تايمز تأخذ موقفا مخالفا، زرت موقع السي إن إن CNN وقرأت فيه «شركة بكتل تكسب عقودا في العراق» كان الموضوع الذي طرحته السي إن إن شديد الشبه بالموضوع المكتوب في التايمز، عدا أنها أضافت ما يلي:

> *«كان لكثير من الشركات، وعلى فترات متباينة، قدرات تنافسية محتملة لأداء هذه المهام، سواء كان هذا التنافس في صورة مزايدات أساسية أو في اندماج هذه الشركات ضمن مؤسسات أكبر. وكان في مقدمة هؤلاء المنافسين شركة «كيلوج براون Kellogg Brown & Root KBR» التابعة لشركة هالبيرتون والتي عمل نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني رئيسا تنفيذيا لها. وقد حصلت هالبرتون بالفعل على عقد في العراق تزيد قيمته عن ٧ مليارت دولار، وسيمكنها ذلك من العمل في العراق*

للعامين المقبلين لتنفيذ الإصلاحات العاجلة في البنية التحتية للمنشآت البترولية في العراق»[٤].

بدا أن قصة المسيرة غير المعلنة نحو الإمبراطورية الكونية عبر بوابة العراق تتسرب في تلك المقالات. صحيح أنه ليست هناك تفاصيل أو إشارات إلى حقيقة القصة المأساوية للديون والخداع والعبودية والاستغلال المأساوي، والقبضة الأكثر وحشية عبر التاريخ للسيطرة على القلوب والعقول والنفوس، وكذلك على الثروات البشرية في كل أنحاء العالم. وصحيح أنه ليس هناك شيء في هذه المقالات يلمح إلى أن ما جرى من فصول قصة العراق في ٢٠٠٣ ليس سوى استمرار للقصة المخزية نفسها. وصحيح كذلك أن هذه المقالات لم تكشف عن أن هذه القصة، القديمة قدم نشأة الإمبراطوريات، تأخذ الآن أبعادا جديدة ومريعة، سواء بسبب شدة وطأتها خلال زمن العولمة أو بسبب الدهاء الذي أنجزت به. ولكن رغم جوانب القصور في المعالجة فإن القصة الحقيقية بدأت تتسرب إلى العلن، وإن تم بصعوبة وعلى مضض.

ذكرني تسرب قصة التورط المخزى إلى العلن وفي قلب الوطن بقصتي الشخصية وبالسنين الطوال التي أجلت فيها سردها. عُرف عني منذ وقت طويل أن لديّ اعترافات أود سردها، ومع ذلك أجلتها. وعدت بتفكيري للوراء، ورأيت شكوكي، وهمسات الشعور بالذنب، وكل ما كان يراودني منذ البداية. بدأ ذلك منذ أن كنت في بيت كلودين، وحتى قبل أن أتعهد بالسفر لإندونيسيا في تلك الرحلة الأولى، وظلت هذه المشاعر تطاردنى وتتصاعد عاما بعد عام.

وعرفت أيضا أنه لولا إحساسى بالشكوك والألم ومعاناة الشعور بالذنب لما خرجت من هذه الدائرة الجهنمية ولعلقت فيها مثل الآخرين من زملائى، ولما وقفت على الشاطئ في جزيرة فيرجين آيلاند لأقرر ترك العمل في مين Main.

بدت عناوين المقالات تحاول الإشارة إلى ذلك التحالف بين الشركات الكوربوقراطية الكبرى والبنوك الدولية والحكومات، لكن لم تقدم هذه المقالات من القصة سوى إشارات عابرة بعيدا عن التفاصيل، تماما على نحو ما كانت سيرتي الذاتية في مين Main تشير إلى تاريخي. كانت الإشارات اختزالية. ولم يكن سرد القصة الحقيقية ليغير شيئا من واقع تلقي شركات الهندسة والتعمير الكبرى من جديد مليارات الدولارات لتنمية دولة حسب الصورة التي حددناها، وفرض تلك الصورة على شعب ليست لديه أي رغبة في أن يظهر بها. كما لم يكن لسرد القصة الحقيقة أن يفعل شيئا مع واقع تكرار جماعة الصفوة طقوس زمن قديم من سوء استغلال المناصب الحكومية والنفوذ.

كانت تلك الصورة بسيطة للغاية، إذ هي تلمح فقط إلى ما نريد جميعا أن نفعله، وخاصة حين نقرر تصويب أخطاء النظام، وأن نتخلص من أولئك الرجال المعاندين. إنها تغذي فقط نظريات

المؤامرة وبذلك تمدنا بعذر مناسب للجلوس أمام التلفاز ونسيان كل شيء، وأن نأنس لوجهة نظر الصف الثالث في دروس التاريخ التي تقول: «إن قادة الأمة» سيعتنون بها، وإن سفينة الدولة تبحر بسلام وأنها عائدة برفق إلى مسارها. كل ما علينا هو انتظار الانتخابات المقبلة، وسيكون كل شيء على ما يرام.

إن القصة الحقيقية للإمبراطورية المعاصرة؛ قصة الكوربوقراطية المستغلة للبشر البائسين والتى مارست أسوأ ما شهده التاريخ من وحشية وأنانية وتدمير للبشر والموارد- لا علاقه لهاكثيرا بها كشفت عنه الصحف ذلك الصباح، وإن كان يمكنها أن تهز الثوابت داخلنا. ولعل ذلك هو ما يفسر صعوبة سماع القصة الحقيقية؛ إذ إننا نفضل تصديق تلك الأساطير التي يخدعوننا بها من أنه بعد تجربة آلاف السنين من التطور الاجتماعي البشري نجحنا في تطبيق النظام الاقتصادي المثالي، بدلا من أن نواجه حقيقة أنهم باعوا لنا مفهوما زائفا وقبلناه كحقيقة مسلمة.

لقد أقنعنا أنفسنا أن كافة أشكال النمو الاقتصادي نافعة للإنسانية، وأنه كلما ازداد ذلك النمو عم الرخاء. في النهاية، اقتنعنا بأن متلازمة هذا المفهوم فعالة وعادلة أخلاقيا. فمن الواجب تمجيد ومكافأة أولئك البارعين في إذكاء شرارة النمو الاقتصادي، أما أولئك الذين يولدون على الهوامش والأطراف فلا مفر من استغلالهم.

استخدم هذا المفهوم ومتلازمته لتبرير كل طرق القرصنة، فمُنحت الرخص لاغتصاب وسلب ونهب الأبرياء في إيران وبنما وكولومبيا والعراق و في غيرها من الدول. وانتعش سوق قراصنة الاقتصاد والثعالب والجيوش بقدر قدرتهم على إظهار كفايتهم في ممارسة أنشطة تخلق نموا اقتصاديا، ولم تكن تنقصهم أبدا القدرة على إظهار تلك الكفاية. وبفضل تلك التقديرات والقياسات الاقتصادية والإحصاءات ذات الصبغة «العلمية» المحايدة ! فإننا إذا ما قصفنا مدينة ثم أعدنا بناءها فستظهر لنا تلك البيانات إننا حققنا نموا اقتصاديا هائلا.

القصة الحقيقية أننا نحيا أكذوبة. لقد وضعنا نقابا على الحقائق ، تماما مثل بيان سيرتى الذاتية في شركة مين MAIN، الذى يخفي تحته مواضع الأورام السرطانية المهلكة. ويمكن للإحصاءات أن تؤدي دور أشعة إكس في كشف تلك الأورام من خلال فضحها لما تعانيه الإمبراطورية الأكثر قوة وثراء عبر التاريخ من معدلات مرعبة في حالات الانتحار والإدمان والطلاق والتحرش الجنسي بالأطفال والاغتصاب والقتل، وما شابهها من سرطانات خبيثة تمد قرونها في دائرة أوسع فأوسع عاما بعد آخر. ويشعر كل منا في قرارة نفسه بالألم وننادي جميعا بالتغيير. ومع هذا يضع كل منا يده على فمه كاتما صرخته، والنتيجة أنه ما من أحد يسمعنا.

كم يكون رائعا لو أمكننا إلقاء اللوم بأسره على المؤامرة، لكن هيهات. فالإمبراطورية تعتمد على فاعلية البنوك الكبيرة، والشركات والحكومات (أي الكوربوقراطية) لكن الأمر ليس مؤامرة.

فالكوربوقراطية هي نحن، ونحن نصنعها. إنها نتيجة عجز كل واحد منا عن الوقوف والاعتراض. وعلينا في ذات الوقت الانتباه لأولئك المتآمرين المختبئين في الظلال، فأغلبنا يعمل في هذه البنوك أو الشركات أو الحكومات، أو يعتمد عليها بدرجة أو أخرى مستهلكا بضائعها أو مستفيدا بخدماتها. هل يمكننا أن نعض يد السيد الذي يطعمنا.

هذا هو الموقف الذي كنت أتأمله وأنا جالس أحملق في العناوين الرئيسية على شاشة الكومبيوتر، مستحضرا عددا من الأسئلة. هل يمكنك أن تقف ضد نظام يظهر أنه يمنحك البيت والسيارة والطعام والملابس والكهرباء والرعاية الصحية؟ حتى إذا كنت تعرف أن ذلك النظام هو نفسه الذي يخلق عالما يموت فيه جوعا أربعة وعشرون ألف شخص يوميا، ويزداد يوميا عدد الملايين من البشر التي تكرهك بسببه، أو على الأقل يكرهون السياسات التي صنعها رجال أنت الذي انتخبتهم؟ كيف تستجمع شجاعتك لتتجاوز الخطوط وتتحدى مفاهيم طالما قبلتها أنت وجيرانك كحقائق مسلمة، حتى حين تشك في أن هذا النظام مستعد لتدمير نفسه؟

وقفت ببطء واتجهت إلى المنزل لأعد لنفسي فنجانا آخر من القهوة.

أخذت طريقي عبر طريق منعطف قصير والتقطت نسخة من جريدة بالم بيتش بوست Palm Beach Post، اتكأت قرب صندوق البريد على مقربة من الدرب المؤدي ليتي، كان بها المقال نفسه عن بكتل والعراق، منسوخة بحق النشر من نيويورك تايمز. لكنى لاحظت هذه المرة التاريخ في أعلى صفحة الافتتاحية: إنه الثامن عشر من أبريل. إنه تاريخ مشهور، على الأقل في نيو إنجلند، ارتبط في ذهني بالآباء الذين صنعوا حرب الثورة والتحرير، وارتبط كذلك بقصيدة لونج فيلو Longfellow(*) التي يقول فيها:

«أصغوا يا صغاري، وستسمعون
عن انطلاق بول ريفير(**) في منتصف الليل
في الثامن عشر من أبريل، عام خمس وستين
هل من رجل على قيد الحياة
يذكر ذلك اليوم المشهود وذلك العام الجليل»

في ذلك العام، صادف عيد الجمعة الحزينة انطلاق بول ريفير Paul Revere. عندما لاحظت

(*) هنري ودسورث لونج فيلو (١٨٠٧-١٨٨٢) شاعر أمريكا الأشهر في القرن التاسع عشر، من أهم قصائده؛ قصيدة "رحلة بول ريفير".

(**) بول ريفير (١٧٣٥-١٨١٨) أحد أبطال الثورة الأمريكية قام بدور مشهود في معركة لينجستون و كونكورد حيث ركب حصانه في ليله ١٨ من إبريل ١٧٧٥ من بوسطون الي لينجستون لينذر الثوار من هجوم مرتقب من القوات البريطانية.

ذلك التاريخ في افتتاحية بالم بيتش بوست تحيلت بول ريفير، ذلك الذي كان يعمل صانعا للفضة زمن الاستعمار البريطاني لأمريكا، يعدو بجواده عبر الشوارع المظلمة في مدن نيو إنجلند، يلوح بقبعته ويصيح «البريطانيون قادمون». لقد خاطر ريفير بحياته ليوقظ الناس، واستجاب له الأمريكيون الأوفياء. لقد أوقفوا الإمبراطورية، فلنعد إذن ولنستلهم الدرس.

تساءلت عن الحافز الذي دفع الأمريكيين لمقاومة الاستعمار البريطاني، وعن إرادة تجاوزت الحدود. لقد كان كثير من زعماء الثورة على ثراء كبير، فما الذي دفعهم للمخاطرة بأعمالهم وتجارتهم وعض اليد التي تطعمهم ؟ والمخاطرة بحياتهم؟ لا شك كان لدى كل منهم أسبابه الخاصة، لكن لابد وأن قوة جماعية وقفت وراءهم، وقدر من الطاقة والحافز، وشرارة أذكت الطاقات الفردية في تلك اللحظة الفريدة من التاريخ.

ثم أدركت كنه تلك المحفزات: إنها الكلمات.

أشعل تلك الشرارة سردُ القصة الحقيقية للإمبراطورية البريطانية ونظامها التجاري الأناني والمدمر لذاته في نهاية المطاف، وأشعل فضح المعنى الخفي، عبر كلمات رجال مثل توم بين Tom Paine وتوماس جيفرسون Thomas Jefferson خيال المواطنين وفتح قلوبهم وعقولهم. وبدأ سكان المستعمرات البريطانية في أمريكا في التساؤل عن السبب، وحين فعلوا ذلك، اكتشفوا حقيقة جديدة قطعت الطريق على أساليب الخداع والكذب. لقد أدركوا الحقيقة الكامنة وراء المظهر الخارجي، وفهموا طريقة الإمبراطورية البريطانية في استغلالهم وخداعهم واستعبادهم.

أدركوا أن سادتهم الإنجليز شكلوا نظاما ثم تمكنوا من إقناع معظم الناس كذبا بأن ذلك أفضل نظام يمكن للبشرية أن تصل إليه، وأن بلوغ عالم أفضل مرهون بوضع كافة الموارد تحت تصرف ملك إنجلترا، وأن منهج الإمبراطورية البريطانية في التجارة والسياسة هو الأكثر فعالية وهو الأسلوب الإنساني لمساعدة الأغلبية الكاسحة من البشر، بينما كانت الحقيقة تكمن في أن ذلك النظام لا يثري سوى الأقلية على حساب الأغلبية. لقد صمدت هذه الكذبة وما نجم عنها من استغلال وامتدت عقودا من الزمن، حتى بدأت ثلة من الفلاسفة ورجال الأعمال والفلاحين والصيادين والمرابطين على الحدود والكتّاب والوعاظ يتحدثون عن الحقيقة.

إنها الكلمات. فكرت في قوة الكلمات وأنا أعيد ملء فنجاني من القهوة، ثم مشيت راجعا إلى مكتبي، ومن جديد عدت إلى الكومبيوتر.

غادرت موقع السي إن إن CNN وأخرجت الملف الذي بدأت العمل فيه الليلة الماضية. قرأت الفقرة التي كتبتها.

«هذه القصة يجب أن تروى، فنحن نعيش في زمن أزمات رهيبة، وفرص هائلة. وقصة هذا

القرصـان الاقتصـادي بالذات، تروي كيف وصلنا إلى ما نحن عليه، ولماذا نواجه حاليا أزمات يبدو تخطيها صعبا؟

هذه القصة يجب أن تروى لأننا من خلال فهم أخطاء الماضي نستطيع استثمار فرص المستقبل بشكل أفضل.

والأهم من هذا كله فإن هذه القصة يجب أن تروى، لأنه في هذا الوقت بالذات، ولأول مرة في التاريخ، هنالك أمة وحيدة لديها القدرة، والمال، والقوة لتغير كل هذا. إنها الأمة التي ولدت فيها، والأمة التي خدمت باسمها كقرصان اقتصاد. إنها الولايات المتحدة الأمريكية».

هذه المرة لن أتوقف. لقد أوصلتني المصادفات والخيارات التي لازمتني إلى هذه النقطة. علي إذن أن اكمل المسير.

فكرت مرة أخرى في ذلك الرجل، ذلك الذي امتطى صهوة جواده بمفرده وسار عبر ريف نيو إنجلند المظلم يصيح بأعلى صوته محذرا. كان صانع الفضة يدرك أن كلمات بين وجيفرسون مهدت له السبيل، وأن الناس قرءوا تلك الكلمات في بيوتهم وناقشوها في الحانات. لقد أوضح بين حقيقة طغيان الإمبراطورية البريطانية. وأعلن جيفرسون أن أمتنا أخلصت لمبادئ الحياة والحرية والسعادة. وامتطى ريفير جواده وسار به في ظلام الليل، وهو يدرك أن الرجال والنساء في كل أرجاء المستعمرات قد استقووا بهذه الكلمات، وأن عليهم النهوض والكفاح من أجل عالم أفضل.

في الكلمات الخلاص...

لقد اتخذت قراري بوقف المماطلة والتسويف، وأن أنتهي أخيرا مما بدأته أكثر من مرة طوال تلك السنوات، وأتطهر وأعترف وأسطر هذا الكتاب.

خاتمة

وصلنا إلى نهاية هذا الكتاب، وأيضا للبداية. فربما تبدأ فى التساؤل إلى أين تمضى بعد ذلك، وماذا بوسعك أن تفعل لتوقف الكوربوقراطية وتنهي هذه الإمبراطورية الكونية المجنونة والمدمرة لذاتها.و أنت تستعد لترك هذا الكتاب وراءك والعودة إلى مشاغلك.

لكنك تريد أفكارا، وبمقدورى أن أمنحك بعضها.

بوسعي أن أوضح لك أن هذا الفصل الذي انتهيت للتو من قراءته، عن شركات بكتل وهاليبرتون في العراق، مجرد أخبار قديمة. فقد تبدو لك الأحداث التي تقرؤها نوعا من الإسهاب المطول. ومع ذلك تكمن أهمية هذه المقالات في تجاوز محتواها للتاريخ الذي كتبت فيه.

أتمنى أن يغير ذلك الفصل من طريقة نظرتك للأخبار، ويساعدك على قراءة ما بين السطور في المقالات الصحفية التي تقع بين يديك وأن تتساءل عن المعاني الأعمق في كل تقرير تسمعه من الراديو أو تشاهده على شاشة التليفزيون.

ليست الأمور كما تبدو في الظاهر. فشبكة إن بي سي NBC تمتلكها شركة جنرال إلكتريك General Electric، وشبكة إيه بي سي ABC تمتلكها شركة ديزنى Disney، وشبكة CBS تمتلكها شركة فياكوم Viacom، كما أن السي إن إن CNN هي جزء من كتلة إيه أو إل تايم وارنر AOL Time Warner . ومعظم صحفنا ومجلاتنا ودور نشرنا تمتلكها وتستغلها شركات عالمية متحدة وعملاقة. إن وسائل الإعلام جزء من الكوربوقراطية، كما أن المسئولين والمديرين الذين يسيطرون على كافة وسائل ومنافذ الاتصال يعرفون مواقعهم جيدا، وقد علمتهم التجارب أن إحدى أهم متطلبات وظائفهم تكمن في إطالة عمر النظام الذي ورثوه وتدعيمه وتوسعته، وهم أكفاء جدا في تنفيذ هذه المهمة، وإذا اعترضهم أحد فلن يعدموا الوسائل التي لا ترحم. لذلك يقع العبء عليك في رؤية الحقيقة وراء السطح البراق وفضحها. تحدث عنها مع عائلتك وأصدقائك، انشر الكلمة.

بإمكانى أن أقدم لك قائمة بالأشياء العملية التي يمكنك أن تفعلها، على سبيل المثال؛ خفّض استهلاكك للبنزين. فقبيل الغزو الأول للعراق عام ١٩٩٠ كنا نستورد ٨ ملايين برميل بترول، ومع حلول عام ٢٠٠٣ ووقوع الغزو الثانى، ارتفع الرقم بنسبة ٥٠٪ فصار ١٢ مليون برميل[1]، وفي المرة القادمة حين تغويك فكرة الخروج للتسوق، اقرأ كتابا بدلا من ذلك أو مارس الرياضة. اقتصد في حجم منزلك ودواليبك وسيارتك ومكتبك، وكل شيء آخر في حياتك . يمكنك الاعتراض على اتفاقيات التجارة «الحرة» وعلى الشركات التي تستغل البائسين في العمل في مؤسسات صناعية تستعبد عمالها، اعترض على تخريب البيئة.

بإمكانى أن أقول لك إن هناك أملا كبيرا داخل النظام الحالى، وأنه لا يوجد خطأ متأصل في البنوك والشركات الكوربوقراطية والحكومات، ولا في الذين يديرونها، وأنهم من المؤكد ليسوا مضطرين لتشكيل كوربوقراطية. يمكنني أن أخوض في تفاصيل المشكلات التي تواجهنا اليوم وأنها ليست نتيجة مؤسسات ماكرة، بقدر ما تنبثق عن إشاعة مفاهيم مضللة عن التطور الاقتصادى. لا يكمن الخطأ في المؤسسات نفسها، بل في إدراكنا لطريقة عملها وتفاعل المؤسسات مع بعضها البعض، والادوار التى يلعبها المديرين فى هذه العملية.

في الحقيقة، يمكن استخدام شبكات الاتصال والبث المنتشرة حول العالم بفعالية بالغة لإحداث تغييرات إيجابية وإنسانية. تخيل لو أن علامة شركة نايك للملابس والأحذية الرياضية، Nike Swoosh وأقواس ماكدونالد وشعار كوكاكولا صارت رموزا لشركات أهدافها الأساسية كسوة وإطعام فقراء العالم بطرق نافعة للبيئة. ليس هذا بأصعب من صعود الإنسان على القمر، أو تفكيك الاتحاد السوفيتي، أو إنشاء بنية تحتية تجعل هذه الشركات قادرة على الوصول لكل ركن من أرض كوكبنا. نحن في حاجة لثورة في مناهجنا بشأن التعليم، وتمكين أنفسنا وأطفالنا من التفكير والتدبر والجرأة على الفعل، وسواء كنت مدرسا أو طالبا يمكنك أن تقدم لجميع من حولك مثالا يحتذونه.

يمكننى أن أشجعك على أن تبادر بأفعال مميزة تطبع أثرها في المؤسسات الموجودة في حياتك. تحدث أينما وجدت منتديا يمكنك المشاركة فيه، اكتب خطابات، أرسل إيميلات، تحدث في الهاتف عما يشغلك من قضايا ويهمك، أعط صوتك للمستنيرين في مجالس الإدارة المدرسية ومجالس الأقاليم والمقاطعات ولجان الحكم المحلي. وعندما يتحتم عليك الشراء - افعل هذا بوعى، وتدخل شخصيا في التفاصيل.

سأذكرك بما قاله لى أفراد قبيلة الشوار في عام ١٩٩٠، أن العالم يمكن أن يكون كما تحلم به، وأننا يمكننا أن نستبدل بكابوس الصناعات الملوثة للبيئة، والطرق السريعة المغلقة والمدن المفرطة الازدحام - حلما جديدا مبنيا على المحافظة على البيئة Earth-honoring ومبادئ المسئولية الاجتماعية المعنية بالمساواة. في استطاعتنا أن نغير أنفسنا ونغير المسلمات المطروحة.

يمكننى أن أسرد لك الفرص العديدة التي في استطاعتنا أن ننتهزها لخلق عالم أفضل، في مقدمتها توفير طعام ومياه تكفى الجميع، دواء لعلاج الأمراض والوقاية من تلك الأوبئة المستوطنة التي تتفشى وتصيب ملايين الأفراد كل يوم، وأنظمة مواصلات يمكنها توصيل أساسيات الحياة حتى لأبعد مكان في الأرض، كما أن بوسعنا نشر الثقافة وتقديم خدمات الإنترنت التي تتيح لجميع سكان الأرض التواصل معا، وكذلك علينا الإسراع بالعثور على وسائل لحل النزاعات التي بوسعها إحياء حروب خامدة، ونشر التكنولوجيا القادرة على كشف كل من الفضاء على إتساعة ودقائق الطاقة دون الذرية subatomic، والتى يمكن تطبيقها لتطوير المزيد من المساكن ذات

الإمكانات الفعالة والمتوافقة مع البيئة، إضافة إلى ضرورة توفير موارد كافية لإنجاز كل ما أسلفنا ذكره. وأكثر من ذلك.

يمكنني أن أقترح عليك خطوات تستطيع التحرك فيها قدما في التو واللحظة، لمساعدة الآخرين على فهم ما يحيط بهم من أزمات وما بين أيديهم من فرص.

شكل مجموعات دراسة لهذا الكتاب «الاغتيال الاقتصادي للأمم» في منافذ بيع الكتب أو المكتبات المحلية، أو في كليهما، (وسيرشدك موقع www.johnperkins.org في كيفية عمل ذلك)

صمم عرضا شارحا لمدرسة ابتدائية قريبة منك في موضوعك المفضل (الرياضة، الطهو، عالم الحيوان، أو أى شيء آخر يهمك) واستخدمه لمساعدة الطلاب على إدراك الطبيعة الحقيقية لمجتمعهم.

أرسل إيميلات لكل العناوين التي لديك معبرا فيها عن مشاعرك التي أثارها هذا الكتاب وغيره من الكتب التي قرأتها.

لكنى أظنك بالفعل فكرت في معظم هذه الأمور. بوسعك اختيار بعض هذه الموضوعات التي تروقك أكثر من غيرها. وأن تدرك أن كل هذا ليس سوى جزء من التزامك والتزامي بما يجب علينا فعله. فلابد أن نلتزم وبشكل حاسم بأن نوقظ أنفسنا وكل من حولنا. علينا أن نستمع لحكمة النبوءات، وأن نفتح قلوبنا وعقولنا للإمكانيات المتاحة، وأن نكون واعين ومن ثم نبادر بالفعل.

على أية حال، ليس هذا الكتاب مجموعة تعليمات، بل إنه اعتراف مجرد وبسيط لرجل سمح لنفسه فى وقت ما أن يكون رهينة، اعتراف قرصان اقتصاد، رجل باع نفسه لنظام فاسد لأنه يقدم الكثير من المميزات، ولأنه كان من السهل تبرير بيع النفس، رجل يعرف كل شيء لكنه يستطيع دائما أن يجد أعذارا لأطماعه، ولاستغلال البائسين ونهب البشر، رجل استفاد استفادة تامة من مولده في أحد أثرى المجتمعات التي لم يعرف لها التاريخ مثالا، رجل يرثى لحاله لأن والديه لم يكونا على قمة الهرم، رجل استمع إلى مدرسيه، وقرأ الكتب الدراسية للتنمية الاقتصادية، ثم اتبع نموذج أولئك الذين أباحوا كل شيء يعزز الإمبراطورية الكونية، حتى إذا كان هذا الشيء يشمل القتل والإبادة الجماعية وتخريب البيئة، رجل درب الآخرين أن يحذوا حذوه. هذا هو اعترافي.

أما إذا كان لديك أبعد من ذلك فدليل على أن بوسعك ربط ما لديك من خبرة شخصية بما قدمته من اعترافات، وأن لدى كل منا أشياء كثيرة مشتركة. ربما نكون سافرنا على طرق مختلفة، لكننا قدنا سيارات متشابهة، واستخدمنا الوقود نفسه، وتوقفنا لوجبات في مطاعم تمتلكها الشركات الكوربوقراطية نفسها.

بالنسبة لى، كان الاعتراف جزءا أساسيا من نداء يقظة شخصي. ومثل كل الاعترافات، تلك هي الخطوة الأولى نحو الخلاص.

والآن جاء دورك. أنت بحاجة للإدلاء باعترافاتك الخاصة. حين يتضح لك بجلاء من أنت، وما سبب وجودك في الحياة في هذا الوقت من التاريخ، وما الهدف من أفعالك، سواء التي تفخر بها أو غيرها من الأفعال، وإلى أين تنوى أن تمضي في الخطوة القادمة، حينها ستخبر في الحال شعورا بالراحة، شعورا مفعما بالسعادة والأمل.

صدقني حين أقول لك إن تأليف هذا الكتاب كان تجربة مثيرة، وفي أغلب الأحيان كانت مؤلمة وباعثة على الخزي. كانت تجربة مرعبة بشكل لم أواجهه من قبل. لكنها بلغت بي شعورا بالارتياح لم أعهده من قبل، ولا يمكن مقارنته إلا بالنشوة الغامرة.

اسأل نفسك هذه الأسئلة. ما الذي تحتاج الاعتراف به؟ كيف خدعت نفسك والآخرين؟ وما المواقف التي استسلمت فيها وأذعنت؟ لماذا تركت نفسك يستنزفها نظام تعرف أنه ظالم؟ ماذا ستفعل لتتأكد أن أطفالك، وكل الأطفال في كل مكان، يمكنهم أن يحققوا حلم الآباء المؤسسين للمثل والقيم، حلم الحياة والحرية وبلوغ السعادة؟ أى طريق ستسير فيه لتتوقف مجاعات لا مبرر لها، ولتتأكد أنه لن يتكرر أبدا يوم مثل الحادى عشر من سبتمبر؟ كيف تستطيع مساعدة أطفالك كي يفهموا أن الناس الذين يعيشون حياة مترفة وغير متوازنة، يجب أن نرثى لحالهم ولا نتمنى تقليدهم بأى حال، حتى إذا كان هؤلاء الناس يقدمون أنفسهم من خلال وسائل الاعلام التى يملكونها على أنهم أيقونات ثقافية محاولين إقناعنا أن المساكن الفخمة واليخوت تجلب السعادة؟ ما التغييرات التي سألتزم بها لتعديل ما أتخذه من مواقف وما أعتقده من مفاهيم؟ ما الاشكال التي سأستخدمها لتنوير الآخرين واكتساب المزيد من المعرفة؟

هذه هي أسئلة عصرنا المحورية، يحتاج كل منا أن يجيب عنها بطريقته الخاصة وأن يعبر عن هذه الإجابات بوضوح، وبشكل حاسم. إن بين وجيفرسون وكل الوطنيين الآخرين فوق رءوسنا يراقبون ما نفعل. ومازالت كلماتهم موحية لنا حتى اليوم. نكاد نشعر الآن بأولئك الرجال والنساء الذين تركوا مزارعهم وقوارب صيدهم واندفعوا يواجهون الإمبراطورية البريطانية العظمى، وأولئك الذين حاربوا لتحرير العبيد أثناء الحرب الأهلية الأمريكية، والذين ضحوا بحياتهم لحماية العالم من الفاشية. وكذلك نكاد نشعر بالذين ظلوا في معاقل أوطانهم ينتجون الطعام والكساء ويقدمون الدعم الأخلاقي، وكل أولئك الذين دافعوا عن النصر الذي تحقق في تلك المعارك، وفي مقدمتهم المدرسون والشعراء والفنانون والمقاولون وأرباب العمل والعاملون في الرعاية الطبية، وأصحاب الحرف اليدوية... وأنا وأنت.

إن الساعة ساعتنا. وقد حان الوقت لكل منا كي يخطو إلى جبهة العمل، ولنسأل تلك الأسئلة المهمة، ونبحث عن أنفسنا في الإجابات، وأن نتحرك فاعلين.

إن أحداث حياتك المتعاقبة واختياراتك فيها استجابة لتلك الأحداث، هو ما وصل بك إلى هذه النقطة...

التاريخ الشخصي لجون بيركنز

١٩٦٣	تخرج في المدرسة الإعدادية والتحق بجامعة ميدلبيرى
١٩٦٤	صادق فارهاد ابن جنرال إيرانى. تركا جامعة ميدلبيرى معاً
١٩٦٥	عمل في صحيفة هيرست في بوسطن
١٩٦٦	التحق بكلية إدارة الأعمال بجامعة بوسطن
١٩٦٧	تزوج زميلة سابقة من ميدلبيرى عمها فرانك يتربع على قمة المديرين التنفيذيين في وكالة الأمن القومي(NSA)
١٩٦٨	عمل في وكالة الأمن القومي (NSA) كقرصان اقتصاد مثالى. انضم بموافقة العم فرانك إلى فيالق السلام وتم تعينه في منطقه الأمازون في الإكوادور حيث دارت معركة القبائل المحلية مع شركات البترول الأمريكية.
١٩٦٩	عاش في الغابات الأستوائيه وجبال الإنديز. حصل على خبرات مباشرة من مصادرها الأصلية ورأى المارسات المخادعة والمخربة التى قامت بها شركات البترول والوكالات الحكومية وتأثيرها السلبى على الثقافات المحلية والبيئة.
١٩٧٠	التقى في الإكوادور نائب رئيس شركة MAIN الاستشارية العالمية، الذى كان يعمل أيضا ضابط أتصال في وكالة الأمن القومي (NSA).
١٩٧١	التحق بوظيفة في شركة "مين" واجتاز تدريبات سرية في بوسطن للحصول على وظيفة قرصان اقتصاد في الشركة، ثم أرسل كعضو في فريق مكون من ١١ فرد إلى جاوا في إندونيسيا. عانى صراعا داخليا من تأنيب الضمير والضغوط النفسية بسبب تزويره للدراسات الاقتصادية المطلوبة منه.
١٩٧٢	نظراً لطواعيته ، حصل على ترقية ككبير خبراء اقتصاد، وكان ينظر إليه باعتباره شخصاً ذكياً وماهراً. التقى بشخصيات على درجة عالية من الأهمية، منهم رئيس البنك الدولى روبرت مكنمارا . ثم ارسل في مهمة خاصة إلى بنما، صادق رئيس بنما والقائد صاحب الكاريزما العالية عمر توريخوس، ازدادت معرفته بتاريخ الولايات المتحدة الإمبريالى وتصميم توريخوس على تحويل ملكية قناة بنما من السيادة الأمريكية إلى سيادة بنما.
١٩٧٣	ارتقى وظيفيا إلى عنان السماء. بنى إمبراطورية داخل شركة "مين". واصل العمل في بنما، سافر كثيرا وقام بدراسات في آسيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط.

١٩٧٤ اسهم في صنع نجاح ساحق كقرصان اقتصاد في المملكة العربية السعودية ووافقت العائلة المالكة على استثمار بلايين الدولارات من عائد البترول مقابل الحصول على حماية من الولايات المتحدة والسماح لوزارة الخزانة الأمريكية باستخدام أرباح هذه الاستثمارات لتوظيف الشركات الأمريكية في إنشاء محطات كهرباء ومياه وطرق سريعة وموانئ ومدن في المملكة. مقابل ذلك ضمنت الولايات المتحدة بقاء واستمرار العائلة المالكة في الحكم. وسيؤدى ذلك لخلق نموذج لعلاقات قراصنة الاقتصاد المستقبلية، وقد فشل أحد هذه النماذج في التحليل الأخير في حالة العراق.

١٩٧٥ ترقي مره أخرى ـ ليصبح أصغر شريك في شركة "مين" عبر تاريخها ذى المائة عام ـ وأصبح مديرا لخبراء الاقتصاد وواضعى خطط البيئة . نشر سلسلة من الأبحاث المهمة وألقى المحاضرات في هارفارد وغيرها من المؤسسات الثقافية.

١٩٧٦ ترأس مجموعة من المشروعات الضخمة حول العالم، في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وأمريكا الشمالية والشرق الأوسط. تعلم من تجربة شاه إيران التي أرست قواعد جديدة لبناء إمبراطورية قراصنة الاقتصاد.

١٩٧٧ أصبح بسبب علاقاته الشخصية في كولومبيا، على علم بمأزق الفلاحين الذين يوسمون بالإرهابين الشيوعين وتجار المخدرات، بينما هم في حقيقة الأمر ليسوا سوى فلاحين يحاولون حماية عائلاتهم وبيوتهم.

١٩٧٨ سارع بالهرب من إيران بمساعدة فرهاد. وطار الاثنان معا إلى بيت والد فرهاد في روما، وهو جنرال إيرانى تنبأ بقرب خلع الشاه وألقى اللوم على سياسة الولايات المتحدة، وفساد الحكام والحكومات المستبدة مما تسبب في الكره المطلق لسياستهم في الشرق الأوسط. حذر أنه إن لم تغير الولايات المتحدة من سياستها المتعسفة فإن الموقف سيزداد سوءا.

١٩٧٩ عانى ضميره صراعا نفسياً حين فر الشاه من بلاده وهاجم الإيرانيون السفارة الأمريكية واحتجزوا اثنين وخمسين رهينة أمريكية. أدرك أن الولايات المتحدة تعمل على إنكار حقيقة دورها الإمبريالى في العالم. بعد سنوات من التوتر والانفصال المتكرر طلق زوجته الأولى.

١٩٨٠ عانى من اكتئاب عميق وشعور بالذنب وأدرك أن المال والنفوذ أوقعاه في شرك شركة "مين". فتركها.

١٩٨١ انزعج بشدة من مقتل كل من رئيس الإكوادور خايمى رولدوس (الذى شارك

في حملات ضد شركات البترول) وعمر توريخوس رئيس بنما (الذى أوقع نفسه فريسة غضب واشنطن بكل قوتها، بسبب موقفه من بنما والقواعد العسكرية الأمريكية) فى حادثتي طائرتين واتضح أن الحادثتين عمليتا اغتيال قام بهما رجال المخابرات الأمريكية CIA . تزوج للمرة الثانية من امرأة يعمل والدها كبير مهندسين في شركة بكتل ومسئول عن تصميم وبناء مدن في المملكة العربية السعودية ـ ذلك العمل الذى كان مخططاً له في عملية القرصنة الاقتصادية في عام ١٩٧٤.

١٩٨٢ أنشأ شركته الخاصة للطاقة IPS وهى شركة تعهدت بالالتزام بإنتاج طاقة كهربية دون إضرار بالبيئة. ولدت ابنته جيسيكا.

١٩٨٣ ـ ١٩٨٩ نجح بشكل رائع في إدارة شركة IPS بفضل سلسلة من "المصادفات" الجيدة ، ورجال في مناصب رفيعة، وحصل على إعفاءات ضريبيه وما إلى ذلك. كأب كان ضميره يوخزه إزاء الكوارث التى تحدث في العالم ودوره كقرصان اقتصاد سابق. فكر في تدوين كتاب لكشف الستار وعرض عليه راتب كبير ليعمل كاستشارى مقابل عدم كتابة هذا الكتاب.

١٩٩٠ ـ ١٩٩١ تتبع غزو الولايات المتحدة لبنما وسجن نورويجا، باع شركة IPS وتقاعد في الخامسة والأربعين من العمر. شرع في الكتابة عن حياته كقرصان اقتصاد، لكن أقنعوه بتوجيه طاقته نحو إنشاء مؤسسات لا تهدف للربح المادى، وأن مثل هذا الكتاب سيؤثر سلباً على عمله الدعوى .

١٩٩٢ ـ ٢٠٠٠ شهد فشل قراصنة الاقتصاد في العراق وهو ما تسبب في حرب الخليج الأولى . بدأ ثلاث مرات في تأليف كتابه عن قراصنة الاقتصاد، لكن بعد أن اقنعوه ألا يفعل . حاول التخفيف من تأنيب ضميره بتأليف كتب عن القبائل المحلية والشعوب الأصلية، ومساعدة المؤسسات التى لا تهدف للربح المادى، والتدريب في الأماكن العامة، سافر للأمازون والهيمالايا والتقى الدالاى لاما ، وما إلى ذلك .

٢٠٠١ـ ٢٠٠٢ قاد مجموعة من سكان أمريكا الشمالية إلى أعماق الأمازون وقد كان هناك مع القبائل المحلية حين حدثت أحداث ١١ سبتمبر قضى يوما في الجروند زيرو موقع برجي التجارة المنهارين وتعهد بتأليف كتاب يكشف الحقيقة المختفية وراء قراصنة الاقتصاد وبذلك يعالج آلامه النفسية .

٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤ عاد إلى منطقة الإكوادور ليلتقى مع أفراد من القبائل المحلية الذين هددوا بشن حرب ضد شركات البترول ، اتم انجاز كتاب "اعترافات قرصان اقتصادى".

كلمة عن المؤلف

عاش جون بيركنز أربعة أنماط فى حياته : الأولى كقرصان اقتصادEHM والثانية CEO كرئيس ومالك- لشركة انتاج طاقة نظيفة مستقلة وناجحة - ، ولاقى دعما كان بمثابة مكافأة له لعدم إفشائه ماضيه كقرصان اقتصاد، والثالثة كخبير في الثقافات المحلية والمعتقدات الشامانية، والرابعة كمحاضر وكاتب مستخدما هذه الخبرة لنشر معارفه عن الآثار الضارة للحضارة الحديثة على البيئة والحفاظ على التنمية والتطور دون استنفاد الموارد الطبيعية أو التسبب بأضرار بيئية خطيرة والاستمرار في الوقت نفسه في احترام التزامه بالصمت بصدد حياته كقرصان اقتصاد، والآن يعد كاتبا يكشف عالم المؤامرة والفساد العالمى الذى يحول الجمهورية الأمريكية إلى إمبراطورية كونية تستخف بالأعداد المتزايدة من البشر في أرجاء المعمورة من خلال حكى قصة حياته الحقيقية بما فيها من أحداث غير عادية كقرصان اقتصاد.

كانت وظيفة جون بيركنز كقرصان اقتصاد أن يقنع دول العالم الثالث بقبول القروض الهائلة من أجل تحسين البنية التحتية ـ قروض أكبر بكثير مما تتطلبه الأمور ـ وأن يضمن أن مشروعات التنمية ترتبط بعقود مع الشركات الأمريكية مثل شركة هوليبيرتون وبكتل . وبمجرد ما تنوء هذه البلاد بديون هائلة، حينئذ تستطيع حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ووكالات المنح الأجنبية المتحالفة معها أن تسيطر على اقتصاد تلك البلاد وتضمن أن البترول وغيره من المصادر الطبيعية تسير في طريقها لخدمة أغراض بناء الإمبراطورية الكونية.

أتاح عمله كقرصان اقتصاد فرصة السفر حول العالم وكان يقوم في هذه الرحلات إما بدور مباشر أو شاهد على بعض أخطر الأحداث الدرامية في التاريخ الحديث، بما في ذلك عملية غسيل الأموال التى تمت في المملكة العربية السعودية، وسقوط شاه إيران، وموت عمر توريخوس رئيس دولة بنما، وما تلى ذلك من غزو الولايات المتحدة الأمريكية لبنما، والأحداث التى أدت إلى غزو العراق في عام ٢٠٠٣.

في عام ١٩٨٠، أسس بيركنز شركة I PS وهى شركة طاقة مستقلة. تحت قيادته كـ CEO أصبحت شركة I PS شركة ناجحة إلى أقصى درجة في مجال عمل ذى مخاطره عاليه في حين فشل معظم منافسيها. كثير مَن الأحداث المتعاقبة في حياته والخدمات التى قدمها له بعض الأشخاص النافذين ساعدته على الوصول بشركته إلى موقع قيادى في عالم الصناعة. عمل كذلك جون بيركنز مستشاراً عال الأجر لبعض الشركات التى طالما ساعدها قبل ذلك على تحقيق أرباح طائلة غير مشروعة وكأن الأجر الذى يحصل عليه نوع من الرشوة المستترة مقابلة صمته .

بعد بيعه لشركة IPS في عام ١٩٩٠ أصبح جون بيركنز نصيرا لحقوق السكان الأصليين والحركات البيئية، يعمل بحميمية بشكل خاص مع قبائل الأمازون لمساعدتهم على الحفاظ على نظافة البيئة في غاباتهم الأستوائيه. كتب خمسة كتب، نشرت بلغات متعددة، عن الحضارات المحلية والمعتقدات الشامانية، وأثار الحضارة الحديثة الضارة بالبيئة ومحاولة النهوض بالبيئة وتنميتها دون استنفاد الثروات الطبيعية،درس في الجامعات والمراكز التعليمية في أربع قارات، وساعد الكثير من مؤسسى المؤسسات التى لا تهدف للربح المادى.

واحدة من المؤسسات التى لا تهدف للربح المادى التى أسسها وترأسها هى حلف حلم التغيير (فيما بعد أطلق عليها حلم التغيير أو DC).

صار نموذجا يلهم الناس بتحقيق أهدافهم الشخصية وفى الوقت نفسه أن يكونوا أكثر وعياً بتأثير حياتهم على الآخرين في كوكب الأرض.

تعمل مؤسسة حلم التغيير على تشجيع المواطنين على خلق مجتمعات متوازنة بيئياً والمحافظة على ثروات البيئة. إن برنامج العمل يتركزعلى حماية الأرض من التلوث (POLE) تلويث الغلاف الجوى وهو ما نقوم به جميعا ، يساعد الأفراد المحليين على حماية غاباتهم ويشجع على تغير النظرة إلى كوكب الأرض . انتشرت مؤسسة حلم التغيير في كل أنحاء العالم وألهمت الناس في بلاد كثيرة على تكوين مؤسسات لها نفس طابع الرسالة التى تؤديها.

خلال تسعينيات القرن العشرين والألفية الجديدة التزم جون بيركنز بالصمت فيما يختص بحياته باعتباره قرصان اقتصاد واستمر في تلقى إكراميات مقابل عمله كاستشارى لدى الشركات . وكان يخفف على نفسه حدة الشعور بالذنب بإغداق كثير من أمواله التى جناها من عمله الاستشارى هذا إلى المؤسسات التى لا تهدف للربح المادى. قدمه تليفزيون فنون وتسلية في برنامج خاص بعنوان "متطوعون للعمل في الأمازون" بصوت المذيع ليونارد نيموى. ونشرت الكوزموبوليتان الإيطالية مقالاً رئيسياً عن دوره في تغيير شكل ورش العمل في أوروبا. اختارت مجلة تايم " حلم التغيير" كواحدة من ثلاثة عشرة مؤسسة على مستوى العالم تعكس مواقعها على الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت) أهداف وأغراض يوم الأرض. ثم جاء الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وأقنعت أحداث ذلك اليوم الرهيبة جون أن يكشف النقاب عن حياته باعتباره قرصان اقتصاد ، وأن يتجاهل التهديدات والرشاوى، وأن يكتب"اعترافات قرصان اقتصاد". وذلك لأنه صار مؤمناً بان عليه واجب إطلاع الآخرين عما يعرفه عن دور حكومة الولايات المتحدة ومؤسسات المنح متعددة الجنسيات، والدور الذى لعبته الشركات لدفع العالم إلى هذه الذروه الساخنه . أراد كشف حقيقة أن قراصنة الاقتصاد ازدادوا اليوم تواجدا في كل مكان أكثر من ذى قبل. شعر بأنه يدين بذلك الاعتراف لبلده ولابنته ولكل شعوب العالم الذين يعانون مما يقوم به هو

وأمثاله، كما يدين به لنفسه. في هذا الكتاب، يرسم صورة الطريق الوعر الذى تسير فيه بلاده والذى ينتزعها من المثل العليا الأصلية للجمهورية الأمريكية متجها بها في رحلة صوب الإمبراطورية الكونية.

تشمل الكتب التى كتبها جون بيركنز قبل ذلك " التحول" العالم كما تحلم به" "كشف الذات" " تخلص من القلق"، و"روح قبائل الثوار".

لمزيد عن جون، ولمعرفة الأماكن التى يلقى فيها بمحاضراته ، ولطلب كتبه أو التعاقد معه، من فضلك ابحث في موقعه:

www.johnperkins.org

هوامش الكتاب

المقدمة:

١- برنامج الغذاء العالمي للأمم المتحدة www.wfp.org/index.asp?section=1 وفي ذلك تقدر المؤسسة القومية لمكافحة الجوع أن 34 ألف طفل دون سن الخامسة يموتون يوميا أو يصابون بأمراض ناجمة عن الجوع يسهل علاجها، انظر للتفصيل الموقع التالي: http://www.napsoc.org

كما قدر موقع Starvation.net أنه إذا أضفنا إلى ما سبق الوفيات الناجمة عن الأمراض التي تنتقل عن طريق الماء، ووفيات الإيدز، لوجدنا الشعوب الأشد فقرا تشهد يوميا موت 50 ألف إنسان.

٢- نقلا عن إحصاءات وزارة الزراعة الأمريكية، تقارير مركز أبحاث الغذاء. http://www.frac.org

٣- الأمم المتحدة. تقرير التنمية البشرية. (نيويورك: الأمم المتحدة، 1999)

٤- قدر برنامج الأمم المتحدة للتنمية في عام 1998 تكلفة إضافية تصل إلى 9 بليون دولار (علاوة على النفقات الحالية) لتوفير مياه شرب نقية وتوفير أمكنة عامة نظيفة لكل فرد من سكان العالم. كما إننا بحاجة إلى توفير 12 بليون دولار لدعم الخدمات الطبية للنساء في مراحل الحمل والولادة، فضلا عن 13 بليون دولار أخرى لمنح كل إنسان ما يلزمه من طعام ورعاية صحية أساسية. وبالمثل نحتاج إلى 6 بليون دولار أخرى للتعليم الأساسي للجميع... ويبلغ مجموع هذه التكلفة نحو 40 بليون دولار. نقلا عن جون روبينز **John Robbins**، مؤلف كتاب نظام غذائي لأمريكا الجديدة **Diet for a new America** وكتاب ثورة الطعام **Food Revolution**، ويمكنك مراجعته على الإنترنت على الموقع التالي **www.foodrevolution.org**.

التمهيد:

١- جينا شافيز وآخرون. شركات البترول في بلادنا. الناشر مركز الحقوق الاقتصادية والاجتماعية بالتعاون مع اتحاد السكان الأصليين في كويتو - الإكوادور.

Gina Chavez .Tarimiat – Firmes en Nuestro Territorio. Mario Melo and Juana Sotomayor (Quito, Ecuador: CDES and CONAIE, 2002)

٢- ساندى تالون «*الإكوادور: الوعود الضائعة*» محطة الإذاعة القومية. نشرة الصباح ٩ يوليو ٢٠٠٣.

Sandy Talon. Ecuador : Lost Promises. National Public Radio, Morning Edition. www.npr.org/programs/morning/features/ latinoil.

٣- نقلا عن نيويورك تايمز «*البحث عن التوازن: التنمية في مقابل الثقافات المحلية في الأمازون*» مقال بقلم جوان فريرو Juan Forero بتاريخ ١٠ ديسمبر ٢٠٠٣.

٤- راجع نيويورك تايمز «*شكاوى من أن شركة شيفرون تكساكو تتخلص من السموم في الإكوادور*» *Suit Says chevron Texaco Dumped Poisons in Ecuador* مقال بقلم آبي إيلين Abby Ellin . بتاريخ ٨ مايو ٢٠٠٣.

٥- كريس جوشنيك «*ازدهار محفوف بالمخاطر*» نيو إنترناشيوناليست New Internationalist يونيو ٢٠٠١ : http://www.newint.org/issue335/perilous.htm. ولمزيد من المعلومات، انظر باميلا مارتين «*عولمة السياسات المشاغبة: حركة حقوق سكان الأمازون الأصليين*». منشورات روتليدج ، نيويورك. عام ٢٠٠٢.

Pamela Martin. The Globalization of Contentious Politics: The Amazon Indigenous Rights Movement. New York, Routledge. 2002.

وانظر أيضا كيمرلينج، «*بترول الأمازون*» (نيويورك: مجلس حماية الثروات الطبيعية)

Kimerling . Amazon Crude. Natural Resource Defense Council 1991.

وراجع أيضا ليزلي ويربسا «*التوتر في الحديقة الخلفية: الديون غير الشرعية وحقوق الإنسان. حالة الإكوادور-النرويج*» (كويتو، الإكوادور: مركز الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، ٢٠٠٢)

Leslie Wirpsa. "Upheaval in the Back Yard: Illegitimate Debts and Human Rights.- The Case of Ecuader – Norway" (Quito, Ecuador, centro de Derehos Economicos y Socials, 2002).

وانظر أيضا جريجوري بالاست «*داخل أمريكا الكوربوقراطية*» Inside Corporate America. صحيفة الجارديان بتاريخ ٨ أكتوبر ٢٠٠٠

٦- للمزيد من المعلومات عن تأثير البترول على الاقتصاد العالمي والقومي، انظر ميشيل ت. كلير، «*حروب الثروات الطبيعية: المعالم الجديدة للصراع الدولي*».

Michael T. Klare. "Resource Wars: The New Landscape of Global Conflict". (Henry Holt and Company, 2001)

وانظر أيضا دانيال يرجين، «الجائزة : الحاجة الأسطورية للبترول، المال والسلطة».

Daniel Yergin. "The Prize: Epic Quest for Oil, Money & Power". (New York, Free Press, 1993)

وراجع كذلك : دانيال يرجين وجوزيف ستانيسلو، «القمم العالية: معركة الاقتصاد العالمي».

Daniel Yergin and Joseph Stanislaw. "The Commanding Heights: The Battle for the World economy" (Simon & Schuster,2001)

٧- جيمس هنرى «*أين ذهبت الأموال*». James S. Henty. Where the Money went.
P42-45 *Across The Board* .March April 2004

وللمزيد من المعلومات انظر لنفس المؤلف كتاب «*أصحاب البنوك الدمويون: حكايات من الاقتصاد العالمى السري*».
"The Blood Bankers: Tales from the Global Underground Economy". (New York, four Walls Eight Windows 2003)

٨- جينا شافيز وآخرون. شركات البترول في بلادنا. مرجع سبق ذكره.

وراجع أيضا «البترول: البيئة و القوانين فى الجنوب الأوسط من الامازون» , Petroleo Ambiente y Derechos en La Amazonia Centro Sur الناشر مركز الحقوق الاقتصادية والاجتماعية - كويتو - الإكوادور.

٩-ساندى تالون «الإكوادور: الوعود الضائعة» مرجع سبقت الإشارة إليه.

١٠- للمزيد من المعلومات عن الثعالب، وغيرهم من قراصنة الاقتصاد، انظر كتاب سينجر «المحاربون المتحدون: صعود جيوش المرتـزقة».
P.W. Singer. "Corporate Warriors: The Rise of the Privatized Military Industry" (Ithaca, NY and London: Cornell University Press, 2003)

وانظر في ذات الموضوع جيمس دافيز «قراصنة الثروة: الجيوش الخاصة والنظام العالمي الجديد»
James R. Davis. Fortune's Warriors: Private Armies and the New World Order" (Vancouver and Toronto: Douglas & McIntyre.) 2000.

وراجع في ذات الصدد فيلكس رودجيس وجون ويزمان «مقاتل في الظل: بطل السي آي إيه في مائة معركة مجهولة».
Felix I. Rodriguez and John Weisman. "Shadow Warrior; The CIA Hero of 100 Unknown Battles". (New York. Simon and Schuster, 1989)

الفصل الثانى:

١- لمعلومات تفصيلية عن هذه العملية المصرية انظر كتاب ستيفن كينـزر«*كل رجال الشاه: الانقلاب الأمريكي وجذور الإرهاب في الشرق الأوسط*».
Stephen Kinzer. "All the shah's Men: An American Coup and the Roots of Middle East Terror" (Hoboken, NJ : John Wiley& Sons, Inc., 2003)

٢- راجع جين ماير «*التنافس على العقود: ماذا فعل نائب الرئيس الأمريكي من أجل شركة هاليبرتون؟*».

Jane Mayer, Contract Sport: What Did the Vice-President Do for Halliburton? (New yorker, February 16 & 23, 2004, p83)

الفصل الثالث:

١ - لمزيد من المعلومات عن إندونيسيا وتاريخها انظر جيلمان تايلور: «*إندونيسيا: شعوبها وتاريخها*»
Jean Gelman Taylor "Indonesia: Peoples and Histories" (London and New Haven. Yale University Press, 2003)

وانظر أيضا ثيودور فريند. «*أقدار إندونيسيا*».
Theodore Friend. "Indonesian Destinies" (Cambridge MA and London: The Belknap Press of Havard University)

الفصل السادس:

١ - ثيودور فريند. أقدار إندونيسيا. المرجع السابق.

الفصل العاشر:

١ - انظر ديفيد ماك كلوف : الممر بين البحار : إنشاء قناة بنما ١٨٧٠ ـ ١٩١٤.
David McCullough .The Path between the Seas: The Creation of the Panama Canal 1870- 1914. (New York, Simon and Schuster. 1999)

وانظر أيضا : وليام فرير «*صورة قناة بنما: من إنشائها حتى القرن الحادي والعشرين*».
William Friar. "Portrait of the Panama Canal: From Construction to the Twenty-First Century" (Graphic Arts Publishing Company1999)

وراجع أيضا كتاب جراهام جيرن «*محادثات مع الجنرال*».
Graham gerrne. "Conversations with the General" (New York Pocket books 1984)

٢- انظر «شركة زاباتا للبترول» .Zapata Petroleum Corp دورية فورتشين Fortune أبريل ١٩٥٨ صفحة ٢٤٨ ، وراجع كذلك داروين بين، مبادرات في الطاقة: الصناعات المساعدة ١٨٨٠-١٩٧٨
Darwin Payne. "Initiative in Energy: Dresser Industries Inc. 1880-1978 (New York, Simon and Schuster. 1979)

وراجع أيضا ستيف بيزو وآخرون «*في قلب العمل: نهب المدخرات والقروض الأمريكية*».
Steve Pizzo. "Inside Job: The Looting of America's Savings and Loans". (New York, McGraw Hill)

وفي نفس الموضوع انظر: جارى ويب «*تحالف الشر: السي آي إيه، والكونترا، والانفجار المدوي لتجارة الكوكايين*».

Gary Webb. "Dark Alliance: The CIA, The Contras, and the Crack Cocaine Explosion". (New York. Seven Stories Press. 1999)

وراجع كذلك جيرارد كولبي وشارلوت دينيت «*هذا ما سيحدث: غزو الأمازون: نيلسون روكفيلر والتبشير في عصر البترول*»

Gerard Colby & Charlotte Dennet. "The Will Be Done, the Conquest of the Amazon: Nelson Rockfeller and Evangelism in the Age of Oil". (New York. HarperCollins, 1995)

٣- مانويل نورويجا وبيتر إيزنر «*مذكرات مانويل نورويجا سجين أمريكا*».

Manuel Noriega with Peter Eisner. The Memoirs of Manuel Noriega, America's Prisoner. (Random House. 1997).

وانظر كذلك عمر توريخوس هيريرا «*الأيديولوجيا*» (منشورات جامعة أمريكا الوسطى، ١٩٨٣).

Omar Torrijos Herrera, Ideario (Editorial Universitaria Centroamericano, 1983)

٤- جراهام جرين «*محادثات مع الجنرال*» مرجع سبقت الإشارة إليه. وانظر كذلك مانويل نورويجا وبيتر إيزنر. مذكرات مانويل نورويجا سجين أمريكا. مرجع سبقت الإشارة إليه.

٥- ديريك جنسين «*لغة أقدم من الكلمات*» صفحتا ٨٦ و٨٨ .

Derrick Jensen. "A Language Older than Words". (New York. Context Books 2000).

٦- جراهام جرين «*محادثات مع الجنرال*» مرجع سبقت الإشارة إليه. وراجع كذلك مانويل نورويجا وبيتر إيزنر مذكرات مانويل نورويجا سجين أمريكا. مرجع سبقت الإشارة إليه.

الفصل الثالث عشر:

١- راجع وليام شاوكروس «*الموكب الأخير للشاه: مصير أحد الحلفاء*»

William Shawcross. The Shah's Last Ride : The Fate of an Ally (New York, Simon and Schuster, 1988).

وانظر كذلك ستيفن كينزر «*كل رجال الشاه*» مرجع سبقت الإشارة إليه.

٢- كتب الكثير عن آربنز Arbenz، وشركة يونايتد فروت United Fruit، وتاريخ جواتيمالا العنيف، انظر على سبيل المثال ما كتبه هوارد زين أستاذ العلوم السياسية في جامعة بوسطون (والذي تتلمذت على يديه) تحت عنوان «التاريخ الشعبي للولايات المتحدة»

Howard Zinn. "A People's History of the United States" (New York, Haper & Row, 1980)

وانظر أيضا ديان ستانلي «*إنجاز قياسي: ست وستون عاما لشركة يونايتد فروت في جواتيمالا*».

Diane K. Stanley. "For the record: The United Fruit Company's Sixty- Six Years in Guatemala" (Guatemala City: Centro *Impresor Piedra Santa*, 1994)

ولمراجعة سريعة للموضوع انظر «*جمهورية الموز: شركة يونايتد فروت*» على الموقع التالي على شبكة الإنترنت Htpp:www.mayaparadise.com/ufcle.html; ، وبالمثل انظر «*المخابرات الأمريكية متورطة في انقلاب جواتيمالا عام ١٩٥٤*» وذلك على الموقع التالي :

http://wwwenglish.upenn.edu/~afilreis/50s/guatemala.html

وللمزيد من المعلومات عن تورط عائلة بوش انظر «*شركة بترول زاباتا*» مرجع سبقت الإشارة إليه .

الفصل الرابع عشر:

١- روبرت مكنمارا : وزير الدفاع الثامن للولايات المتحدة الامريكية.

http://www.defenslink.mil

الفصل الخامس عشر:

١- للمزيد من المعلومات عن الأحداث التى أدت إلى عملية حظر البترول في عام ١٩٧٣ وتأثير ذلك الحظر، انظر توماس ليبمان «*في قلب السراب: شراكة أمريكا الهشة مع المملكة العربية السعودية*»

Thomas W. Lippman. "Inside the Mirage: America's Fragile Partnership with Saudi Arabia" (Boulder Co : Westview Press 2004)

وانظر كذلك دانيال يرجين. «*الجائزة: الحاجة الأسطورية للبترول*» مرجع سبقت الإشارة إليه.

وراجع أيضا ستيفن سكيندر «*ثورة أسعار البترول*»

Stephen Schneider. "The Oil Price Revolution". (Baltimore: John Hopkins University Press 1983)

وانظر كذلك إيان سيمور «*أوبك: آداة التغيير*»

Ian Seymour. " OPEC: Instrument of Change " (London: MacMillan, 1980)

٢- وماس ليبمان «*في قلب السراب*» مرجع سبقت الإشارة إليه.

٣- ديفيد هولدين وريتشارد جونز «*بيت آل سعود: الصعود والحكم لأكبر أسرة ملكية في العالم العربي*».

David Holden and Richard Johns. "The Rise and Rule of the Most Powerful Dynasty in Arab World" (Holt Rinehart and Winston 1981) p 359.

٤- توماس ليبمان «*في قلب السراب*» مرجع سبقت الإشارة إليه.

الفصل السادس عشر:

١ - روبرت بير *«النوم مع الشيطان: كيف باعت واشنطن مبادئنا من أجل بترول السعودية»*
Robert Bear. "Sleeping with the Devil: How Washinton Sold Our Soul for Saudi Oil" (New York. Crown Publishers, 2003) p. 26

٢- توماس ليبمان *«في قلب السراب»* صفحة ١٦٢، مرجع سبقت الإشارة إليه.

٣- توماس ليبمان *«في قلب السراب»*، المرجع السابق. صفحة ٢.

٤- هنري واسوا *«وفاة عيدى أمين دكتاتور أوغندا الدموي»*
Henry Wasswa. Idi Amin, Murderous Ugandan Dictator, Dies. *Associated Press*.

٥- انظر مجلة يو إس نيوز آند ورد ريبورت *U.S. News & World Report* *«العلاقات مع السعودية»* The Saudi Connection بتاريخ ١٥ ديسمبر ٢٠٠٣ صفحة ٢١.

٦- لمصدر السابق، صفحات ١٩ و ٢٠ و ٢٦

٧- كريج أونجر Craig Unger *«إنقاذ السعوديين»* Saving the Saudis في فانيتي فير *Vanity Fair* أكتوبر ٢٠٠٣. وللمزيد من التفاصيل عن تورط عائلة بوش وشركة بكتل وغيرها، انظر *«شركة زاباتا للبترول»* مرجع سبقت الإشارة إليه. وراجع في هذا الصدد أيضا داروين بين *«مبادرات في الطاقة: الصناعات الساحقة»* مرجع سبقت الإشارة إليه.

وراجع كذلك ناثان فاردى Nathan Vardi *«عاصفة الصحراء: مجموعة شركات بكتل تسيطر على الصفقة»*. Desert Storm: Bechtel Group Is Leading the Charge واتصالات من أجل العقود Contacts for Contracts ونشر كليهما في مجلة فوربس Forbes بتاريخ ٢٣ يونيو ٢٠٠٣ صفحة ٦٣ ـ ٦٦.

ويوصى أيضا في هذا المجال بمراجعة مقال جرايدون كارتر Graydon Carter *«التعليق في سماوات صديقة»* Editor's Letter : Fly the Friendly Skies في دورية فانتي فير Vanity Fair بتاريخ أكتوبر ٢٠٠٣، وانظر أيضا ريتشارد أوبل وديانا هينريكيز *«أمة في حرب: إعادة البناء. الولايات المتحدة تمنح شركة بكتل عقدا ضخما في إعادة بناء العراق»*
A Nation at War : Reconstruction. U.S. Gives Bechtel a Major Contract in Rebuilding Iraq مقال بقلم إليزابيث بيكر " Elizabeth Becker وريتشارد أوبل

Richard A. ppel(٢٠٠٣ بتاريخ ١٨ أبريل

http://www.nytimes.com/2003/o4/18/international/worldspecial/18REBU.html.

الفصل السابع عشر:

١- انظر على سبيل المثال: جون م بيركنز John M. Perkins *«لم يعد للاستعمار في بنما مكان في ١٩٧٥»*، Colonialism in Panama Has No Place in 1975 في جريدة بوسطن إيفنينج جلوب Boston Evening Globe بتاريخ ١٠ مايو ١٩٧٦.

٢- من أمثلة المقالات التى نشرها جون بيركنز وزملاؤه في الدوريات المتخصصة، انظر تطبيقات نماذج ماركوف على التوقعات الاقتصادية، الجزء الأول، التنمية الاقتصادية
John M. Perkins et al. "A Markov Process Applied to Forecasting, Part 1- Economic Development."

وتطبيقات نماذج ماركوف على التوقعات الاقتصادية الجزء الثاني: الحاجة للطاقة الكهربائية
John M. Perkins et al. "A Markov Process Applied to Forecasting Part 11- The Demand for Electricity"

وكلاهما نشر في معهد الهندسة الكهربائية والإلكترونية The Institute of Electrical and Electronics Engineers, أوراق مؤتمر ، البحث رقم C 73 475-1 بتاريخ يوليو ١٩٧٣ والبحث رقم C 74 146-7 بتاريخ يناير ١٩٧٤.

وراجع في هذا الصدد أيضا جون بيركنز وناديبورام براساد : نموذج لوصف العلاقات الداخلية التبادلية المباشرة وغير المباشرة بين الاقتصاد والبيئة. أبريل ١٩٧٣
John M. Perkins and Nadipuram R. Prasad. "A Model for Describung Direct and Indirect Interrelationships Between the Economy and the Environment Consulting Engineer, April 1973)

وبالمثل يمكنك الرجوع إلى إيلدوين فينارد وجون بيركنز و روبرت س إيندر *«الاحتياجات الكهربائية من الأنظمة التبادلية»*. ١٩٧٤
Edwin Vennard , John M. Perkins, and Robert C. Ender. "Electric Demand from Interconnected Systems" TAPPI Journal Technical Association of the Pulp and Paper Industry. 28th Conference Edition, 1974

وراجع كذلك جون بيركنز *«صناعة الصلب في إيران: الآثار الاقتصادية والاحتياجات الكهربائية»*
John M. Perkins Iranian Steel: Implications for Economy and the Demand for Electricity.

وانظر أيضا تطبيق منهج ماركوف في التخطيط Markov Method Applied to Planning والذي تم عرضه في المؤتمر الإيراني الرابع للهندسة ، جامعة بهلوى، شيراز، إيران ١٢- ١٦ مايو ١٩٧٤. وراجع في ذات الموضوع *«نظريات الاقتصاد وتطبيقاته»* مجموعة بحوث متخصصة، مصحوبة بمقدمة لجون بيركنز. ١٩٧٥

Economic Theories and Applications : A Collection of Technical Papers with a Foreward by John M. Perkins. (Boston : Chas. T. Main, Inc., 1975)

٣- انظر جون بيركنـز «*لم يعد للاستعمار في بنما مكان في ١٩٧٥*» مرجع سبقت الإشارة إليه.

٤- جرهام جرين «*تعرفت على الجنرال*» صفحتا ٨٩ و ٩٠.

. Graham Greene. "Getting to Know the General" (New York: Pocket books, 1984)

٥- المصدر السابق.

الفصل الثامن عشر

١- وليام شاوكروس «*الموكب الأخير للشاه*» مرجع سبقت الإشارة إليه. وللمزيد عن وصول الشاه للسلطة، انظر جرين واى H. D. S. Greenway المؤامرة الإيرانية The Iran Conspiracy (نيويورك ريفيو أوف بوكس New York Review of Books بتاريخ ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٣، وكذلك ستيفن كينـزر Stephen Kinzer كل رجال الشاه، مرجع سبقت الإشارة إليه.

٢- للمزيد عن شخصية يمين Yamin ومشروع تخضير الصحراء، ولتفاصيل إيران انظر جون بيركنـز "*Shapeshifting*" والصادر عن Rochester, VT :Destiny Books 1997

الفصل العشرين:

١- للمزيد عن وصول الشاه للسلطة، انظر جرين واى «*المؤامرة الإيرانية*»، مرجع سبقت الإشارة إليه. وانظر أيضا ستيفين كينـزر «*كل رجال الشاه*» مرجع سبقت الإشارة إليه.

٢- انظر مجلة تايم TIME موضوعات الغلاف عن آية الله روح الله خوميني بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٧٩، و٧ يناير ١٩٨٠ ، و١٧ أغسطس ١٩٨٧.

الفصل الحادى والعشرين

١- جيرارد كولبي وشارلوت دينيت «*هذا ما سيحدث: غزو الأمازون: نيلسون روكفيلر والتبشير في عصر البترول*» مرجع سابق، صفحة ٣٨١.

الفصل الرابع والعشرين

١- لمعلومات تفصيلية عن SIL «المعهد الصيفى للغويات» وتاريخه وأنشطته وعلاقاته مع شركات البترول وروكفيلرز Rockefellers انظر جيرارد كولبي وشارلوت دينيت «*هذا ما سيحدث: غزو الأمازون*» مرجع سبقت الإشارة إليه. وانظر في الموضوع نفسه جو كين «*البدائيون*» نيويورك. دار ألفريد نوبف. ١٩٩٥.

Joe Karie. Savages. Alfred A. Knopf, 1995

وللمزيد من المعلومات عن راشيل سانت Rachel Saint انظر الصفحات ٨٥ و١٥٦ و٢٢٧ من ذلك الكتاب.

٢- جون مارتـز «*السـياسة والبترول في الإكوادور*».

John D. Martz. "Politics and Petroleum in Ecuador. (New Brunswick and Oxford: Transaction Books) p. 272

٣- جوزيه كاندال «*أهداف وسياسات سيب CEPE*» (كويتو، الإكوادور، بريمير سيمناريو، ١٩٧٩) ص ٨٨.

Jose Carvajal Candall. "Objectivos y politicas de CEPE" (Quito, Ecuador: Premer Seminario, 1979) p 88.

الفصل السادس والعشرين

١- جون مارتـز «*السـياسة والبترول في الإكوادور*» صفحة ٢٧٢، مرجع سابق.

٢- جيرارد كولبي وشارلوت دينيت «*هذا ما سيحدث: غزو الأمازون*» مرجع سابق.

٣- جون مارتـز «*السياسة والبترول في الإكوادور*» صفحة ٣٠٣، مرجع سابق.

٤- جون مارتـز «*السـياسة والبترول في الإكوادور*» المرجع السابق صفحة ٣٨١-٤٠٠.

الفصل السابع والعشرين

١- جراهام جرين «*تعرفت على الجنرال*» صفحة ١١، مرجع سابق.

٢- عمل جورج شولتـز George Shultz وزيرا للمالية، ورئيسا لمجلس السياسات الاقتصادية في عهدي نيكسون وفورد بين عامي ١٩٧٢ و١٩٧٤، ورئيسا لشركة بكتل بين عامي ١٩٧٤ و١٩٨٢، ثم وزيرا للخارجية في عهدي ريجان وبوش، منذ عام ١٩٨٢ حتى عام ١٩٨٩.

أما كاسبر وينبرجر Casper Weinberger فكان مديرا لمكتب الإدارة والميزانية، وتقلد وزارات الصحة والتعليم والخدمة الاجتماعية في عهدي نيكسون وفورد بين عامي ١٩٧٣ و١٩٧٥، كما عمل نائبا لرئيس ومستشارا عاما لمجموعة شركات بكتل عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٨٠، ووزيرا للدفاع في عهدى ريجان وبوش منذ عام ١٩٨٠ حتى عام ١٩٨٧.

٣- أثناء تحقيقات فضيحة ووترجيت Watergate عام ١٩٧٣، كان جون دين John Dean في شهادته أمام مجلس الشيوخ أول من كشف خطط الولايات المتحدة لاغتيال توريخوس، وفي عام ١٩٧٥ وأثناء تحقيقات مجلس الشيوخ التي ترأسها السيناتور فرانك تشيرش Frank Church ومثل خلالها بعض رجال السي آي إيه أمام التحقيق عرضت شهادات ووثائق

إضافية كشفت خطط قتل كل من توريخوس ونوروبجا ،انظر على سبيل المثال: مانويل نورويجا وبيتر إيزنر «*مذكرات مانويل نورويجا*» مرجع سبقت الإشارة إليه.

الفصل الثامن والعشرين

١- لمزيد من المعلومات عن شركة IPS ، وتبعيتها السابقة لشركة Archbald Power Corporation وعن رئيسها التنفيذي السابق جون بيركنز، انظر جاك دالي وتوماس دفي «*مخلفات حرق الفحم في آركبالد*» دورية الهندسة المدنية يوليو ١٩٨٨ .

Jack M. Daly and Thomas J. Duffy. "Burning Coal's Waste at Archbald " *Civil Engineering*, July 1988.

وانظر كذلك فينيس كوفيلسكي «*محطات توليد الكهرباء من نفايات الطاقة*» دورية سكرانتوم تايمز، ١٧ اكتوبر ١٩٨٧

Vince Coveleskie. Co-Generation Plant Attributes Cited. *Scrantom Times*.

وراجع أيضا روبرت كاران Robert Curran مرافق متخصصة في آركبالد Archbald Facility Dedicated في دورية سكرانتون تريبيون *Scranton Tribune* بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٨٧. وفي ذات الموضوع انظر أيضا «محطات كهرباء آركبالد ستحول الفحم إلى طاقة نافعة».

Archibald Plant Will Turn Coal Waste into Power. *Citizen's Voice*, Wilkes-Barre, PA . June 6, 1988.

وفي الصدد نفسه راجع «*تحويل العوائق إلى منافع: من النفايات إلى الضوء والطعام*».

Liabilities to Assets: Culm to Light, Food (editorial, *Citizen's Voice*, Wilkes-Barre,PA, June 7, 1988.

٢- جو كوناسون Joe Conason «قصة نجاح جورج بوش» The George W. Bush Success Story مجلة هاربرز Harpers . فبراير ٢٠٠٠. وراجع في نفس الموضوع كريج أونجر «*إنقاذ السعوديين*» مرجع سبقت الإشارة إليه.

٣- كريج أونجر «*إنقاذ السعوديين*» مرجع السابق ، ص ١٧٨ .

٤- انظر جورج لاردنر ولويس رومانو «*نقطة التحول بعد النضوب*» في واشنطن بوست. ٣٠ يوليو ١٩٩٩.

George Lardner Jr. & Lois Romano. The Turning Point After Coming Up Dry. Washington Post. July 30, 1999

وانظر كذلك سام بري «ثراء النخبة البترولية في عائلة جورج بوش – الجزء الثاني: الجيل الثالث».

Sam Parry. The Bush Family Oiligarchy- Part Two: The Third generation
http://www.newnetizen.com/presidential/bushoiligarchy.htm

٥- أخذت هذه النظرية أبعادا جديدة من الاهتمام وبدت قاب قوسين أو أدنى من الذيوع والانتشار، حين أصبح من الواضح بعد سنوات تالية أن شركة آرثر أندرسن Arther Andersen التي تحظى باحترام كبير قد تآمرت مع المديرين التنفيذيين لشركة إنرون من أجل الاحتيال على مستهلكي الطاقة والعاملين في الشركة والشعب الأمريكي لكسب بلايين الدولارات. لكن حرب العراق في ٢٠٠٣ صرفت الانظار عنها. وخلال الحرب لعبت البحرين دورا حاسما في استراتيجية جورج و. بوش.

الفصل التاسع والعشرين

١- جيم جاريسون Jim Garrison «*الإمبراطورية الأمريكية: قيادة للعالم أم قوة وحشية؟*» *American Empire: Global or Rogue Power?* (سان فرانسيسكو: دار نشر بيريت كوهلر Berrett- Koehler Publishers,Inc 2004) صفحة ٣٨.

الفصل الثلاثين

١- مانويل نورويجا وبيتر إيزنر Manuel Noriega with peter Eisner «*مذكرات مانويل نورويجا سجين أمريكا*» *The Memoirs of Manuel Noriega, America's Prisonar* (نيويورك: راندوم هاوس ١٩٩٧ Random House) صفحة ٥٦.

٢- ديفيد هاريس David Harris «*إطلاق النار نحو القمر: القصة الحقيقية لقناص أمريكي ليس له مثيل*» *The True Story of an American Manhunt Unlike Any other, Ever* (بوسطن : براون الصغير وشركاه ٢٠٠١ Boston: Little, Brown and Company) صفحة ٣١ - ٣٤.

٣- ديفيد هاريس David Harris «*إطلاق النار نحو القمر: القصة الحقيقية لقناص أمريكي ليس له مثيل*» *The True Story of an American Manhunt Unlike Any other, Ever* (بوسطن: براون الصغير وشركاه ٢٠٠١ Boston: Little, Brow and Company) صفحة ٤٣.

٤- مانويل نورويجا وبيتر إيزنر Manuel Noriega with peter Eisner «*مذكرات مانويل نورويجا سجين أمريكا*» *The Memoirs of Manuel Noriega, America's Prisonar* (نيويورك: راندوم هاوس ١٩٩٧ Random House) صفحة ٢١٢.

انظر أيضا كريج أونجر Craig Unger «*إنقاذ السعوديين*» *Saving the Saudis* في فانيتي فير Vanity Fair أكتوبر ٢٠٠٣ صفحة ١٦٥.

٥- مانويل نوروبجا وبيتر إيزنر Manuel Noriega with peter Eisner «مذكرات مانويل نورويجا سجين أمريكا» The Memoirs of Manuel Noriega, America's Prisonar (نيويورك: راندوم هاوس ١٩٩٧ Random House) صفحة ١١٤.

٦- انظر الموقع التالي: www.famoustexans.com/georgebush.htm صفحة ٢.

٧- مانويل نورويجا وبيتر إيزنر، مصدر سبق ذكره، صفحة ٥٦-٥٧.

٨- ديفيد هاريس David Harris «إطلاق النار نحو القمر: القصة الحقيقية لقناص أمريكي ليس له مثيل» The True Story of an American Manhunt Unlike Any other, Ever (بوسطن: براون الصغير وشركاه ٢٠٠١ Boston: Little, Brow and Company) صفحة ٦.

٩- www.famoustexans.com/georgebush.htm صفحة ٣.

١٠- ديفيد هاريس David Harris «إطلاق النار نحو القمر: القصة الحقيقية لقناص أمريكي ليس له مثيل» The True Story of an American Manhunt Unlike Any other, Ever (بوسطن: براون الصغير وشركاه ٢٠٠١ Boston: Little, Brow and Company) صفحة ٤.

١١- مانويل نورويجا وبيتر إيزنر Manuel Noriega with peter Eisner «مذكرات مانويل نورويجا سجين أمريكا» The Memoirs of Manuel Noriega, America's Prisonar (نيويورك: راندوم هاوس ١٩٩٧ Random House) صفحة ٢٤٨.

١٢- مانويل نورويجا وبيتر إيزنر Manuel Noriega with peter Eisner «مذكرات مانويل نورويجا سجين أمريكا» The Memoirs of Manuel Noriega, America's Prisonar (نيويورك: راندوم هاوس ١٩٩٧ Random House) صفحة ٢١١.

١٣- مانويل نورويجا وبيتر إيزنر Manuel Noriega with peter Eisner «مذكرات مانويل نورويجا سجين أمريكا» The Memoirs of Manuel Noriega, America's Prisonar (نيويورك: راندوم هاوس ١٩٩٧ Random House).

الفصل الحادي والثلاثين:

١- موريس باريت Morris Barrett «شبكة العالم الخطر» The Web's Wild World (تايم Thme ٢٦ أبريل ١٩٩٩ صفحة ٦٢).

الفصل الثاني والثلاثين:

١- للمزيد من المعلومات عن قبائل هيوراني Huaoranis انظر: جو كين Joe Kane «الهمج» Savages (نيويورك: ألفريد أ نوبف ١٩٩٥ Alfred A. Knopf).

الفصل الثالث والثلاثين

١- «فنـزويلا على شفا الهاوية» *Venezuela on the Brink* المقال الافتتاحي في نيويورك تايمز ١٨ ديسمبر ٢٠٠٢.

٢- فيلم «الثورة لن تعرض على شاشة التلفزيون» The Revolution Will Not Be Televised أخرجه للتلفزيون كيم بارتلي Kim Bartley ودوناتشا أوبريان Donnacha O'Briain (بالاشتراك مع مؤسسة السينما الأيرلندية Irish Film Board ٢٠٠٣).
انظر: www.chavezthefilm.com

٣- «رئيس فنـزويلا يرغم على تقديم استقالته» Venezuelan President Forced to Resign وكالة أسوشيتيد بريس Associated Press ١٢ أبريل ٢٠٠٢.

٤- سيمون روميرو Simon Romero «هدنة مؤقتة في فنـزويلا للحكومة وشركات البترول التي تملكها» Tenuous Truce in Venezuela for the State and its Oil Company (نيويورك تايمز ٢٤ أبريل ٢٠٠٢).

٥- بوب إدواردز Bob Edwards «ماذا حدث لحلم البترول في فنـزويلا» *What Went Wrong with the Oil Dream in Venezuela* محطة الإذاعة القومية National Public Radio نشرة الصباح ٨ يوليو ٢٠٠٣.

٦- جينجر تومسون Ginger Thompson «العمال المضربون عن العمل في فنـزويلا يواصلون ضغطهم على شافيز ومكتشفي البترول» *Venezuela Strikers Keep Pressure on Chavez and Oil Exports* (نيويورك تايمز ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٢).

٧- للمزيد من المعلومات عن الثعالب، وغيرهم من أنماط قراصنة الاقتصاد، انظر: ب.و. سينجر، P.w. Singer, «المحاربون المتحدون: نهضة الصناعات العسكرية المتخصصة» *Corporate Warriors: The Rise of the Privatized Military* (Ithaca,NY and London: Cornell University Press, 2003).

جيمس ر. دافيز James R. Davis «ثروات المحاربين: الجيوش الخاصة ونظام العالم الجديد» *Fortune's Warriors: Private Armies and the New World Order*.
(فانكوفير وتورونتو: دوجلاس ومكلنتير ٢٠٠٠ Vancouver and Toronto: Douglas & McIntyre).

فيلكس ا. روديجيس وجون ويزمان Felix I.Rodrigues and John Weisman «ظلال المحاربين: بطل المخابرات الأمريكية المركزية لمائة معركة غير معروفة» *Shadow Warrior; The CIA Hero of 100 Unknown Battles* (نيويورك : سيمون وشستر ١٩٨٩ Simon and Schuster).

٨- تيم وينر Tim Winer «إنه انقلاب مهما تخفى وراء أسماء أخرى» *ACoup by Any Other Name* (نيويورك تايمز ١٤ أبريل ٢٠٠٢).

٩- «زعيم فنزويلا يعارض سجن العمال المضربين ٢٠ عاما» *Venezuela Leader Urges 20 Years for Strike Chiefs* (وكالة أسوشيتيد بريس ٢٢ فبراير ٢٠٠٣).

١٠- بول ريشتر Paul Richter «الولايات المتحدة أجرت مباحثات حول خلع شافيز من منصبه» *U.S. Had Talks on Chavez Ouster* (لوس أنجلوس تايمز ١٧ أبريل ٢٠٠٢).

الفصل الرابع والثلاثين

١- كريس جوشنيك Chris Jochnick «نجاح محفوف بالمخاطر» *Perilous Prosperity* (نيو إنترناشيوناليست يونيو ٢٠٠١ New Internationalist).

http://www.newint.org/issue335/perilous.htm

٢- هيئة الأمم المتحدة، برنامج التنمية البشرية United Nations.Human Development Report (نيويورك: الأمم المتحدة ١٩٩٩).

٣- للمزيد من المعلومات الإضافية عن موقف الرهائن المحتجزين، نظر آلان زيبيل Alan Zibel «المواطنون يبحثون عن طريقة لمعالجة التلوث» *Natives Seek Redress for Pollution* (أوكلاند تريبيون Oakland Tribune ١٠ ديسمبر ٢٠٠٢).

هوى Hoy (Quito, Ecuador daily newspaper) مقالات من ١٠ ـ ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٣.

قبائل الأشوار تطلق سراح ثمانية رهائن من العاملين في شركات البترول، El Commercio (Quito daily newspaper) ١٦ ديسمبر ٢٠٠٢ (وأيضا في جريدة Reuters) شركة الإكوادور للبترول توقف العمل بسبب القبض على العاملين، ويطالبون الحكومة باتخاذ موقف.

ساراييجو «مجموعات المواطنين المحليين تناقش إطلاق سراح رجال البترول المخطوفين»، El Universo (Guayaquil, Ecuador daily newspaper)

http://www.eluniverso.com ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٢.

جوان فريرور Juan Forero «البحث عن التوازن: مقابل النمو في ثقافة الأمازون» *Seeking Balance: Growth vs. Culture in Amazon*، (نيويورك تايمز ١٠ ديسمبر ٢٠٠٣)، أما المعلومات الحالية المجددة عن شعب الإكوادور في منطقة الأمازون فيمكن الاطلاع عليها في الموقع التالي: http://www.pachamama.org.

الفصل الخامس والثلاثين

١- إحصائيات الديون القومية الصادرة عن مكتب الديون العامة، التقرير موجود على الموقع التالى:

www.publicdebt.treas.gov/oopd/opdpenny.htm;

إحصائيات الدخل القومى الصادرة عن البنك الدولى، على الموقع التالى:
www.worldbank.org/data/databytopic/GNIPC.pdf.

٢- إليزابيث بيكر Elizabeth Becker وريتشارد أ أوبل Richard A. Oppel *«أمة في حرب: إعادة البناء. الولايات المتحدة تمنح شركة بكتل عقدا ضخما في إعادة بناء العراق» A Nation at War : Reconstruction. U.S. Gives Bechtel a Major Contract in Rebuilding Iraq* (نيويورك تايمز ١٨ أبريل ٢٠٠٣).

http://www.nytimes.com/2003/o4/18/international/worldspecial/18REBU.html.

٣- ريتشارد أ أوبل Richard A. Oppel وديانا ب هنريكس Diana B. Henriques *«أمة في الحرب: المتعاقدون شركة لها علاقات في واشنطن والعراق» A Nation at War : The Contractor , Company has ties in Washington, and to Iraq* (نيويورك تايمز ١٨ أبريل ٢٠٠٣).

.http://www.nytimes.com/2003/04/18/international/worldspecial/18CONT.html

٤- http://money.cnn.com/2003/04/17/news/companies/war-bechtel/index.htm

شريف دلاور

- استاذ الإدارة الزائر بكلية الدراسات العليا للإدارة - الأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيا و النقل البحرى.
- تخرج من كلية الهندسة جامعة الإسكندرية فى عام ١٩٦٢ ومارس العمل التنفيذى فى أنشطة متنوعة (البترول والبتروكيماويات - الصناعات التحويلية - التشييد والبناء) كما عمل مستشاراً لمنظمة الأمم المتحدة فى الدول العربية و إفريقيا و أمريكا اللاتينية ورئيساً لقسم إدارة الأعمال بجماعة سنجور الفرنسية .
- وقد انخرط فى النشاط العام و إختير عضواً بمجلس إدارة الصندوق الإجتماعي للتنمية , والشركة القابضة للصناعات الكيماوية , وهيئة ميناء دمياط والجمعية العربية للإدارة وجمعية رجال أعمال الإسكندرية , ومركز أبحاث الإسكندرية والمتوسط لمكتبة الإسكندرية , وتم تعينه أول قنصل فخرى للهند بالإسكندرية .
- شريف دلاور عضو المجلس الأعلى للثقافة وأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا , وهو عضو مجلس أمناء جماعة الإدارة العليا وايضا جامعة فاروس بالإسكندرية .

منافذ بيع مكتبة الأسرة
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم
١١٩٤كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة
ت: ٢٥٧٧٥٠٠٠٠ ـ ٢٥٧٧٥٢٢٨
٢٥٧٧٥١٠٩ داخلى ١٩٤

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ش ٢٦ يوليو ـ القاهرة
ت: ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو ـ القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف
٣٦ش شريف ـ القاهرة
ت: ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى ـ التوفيقية ـ القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين
مدخل ٢ الباب الأخضر ـ الحسين ـ
القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان
١٣ش المبتديان ـ السيدة زينب
أمام دار الهلال ـ القاهرة

مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو ـ حلوان خلف مبنى
الجهاز

مكتبة الجيزة
١ ش مراد ـ ميدان الجيزة ـ الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة
خلف كلية الإعلام ـ بالحرم الجامعى
بالجامعة ـ الجيزة

مكتبة رادوبيس
ش الهرم ـ محطة المساحة ـ الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون
ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة ـ الهرم
مبنى أكاديمية الفنون ـ الجيزة

مكتبة ساقية عبدالمنعم الصاوى
الزمالك ـ نهاية ش ٢٦ يوليوو
من أبوالفدا ـ القاهرة

مكتبة الإسكندرية
٩٤ ش سعد زغلول ـ الإسكندرية
ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية
التمليك ـ المرحلة الخامسة ـ عمارة ٦
مدخل (أ) – الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس
مبنى الملحق الإدارى ـ بكلية الزراعة ـ
الجامعة الجديدة ـ الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد
بجوار مدخل الجامعة
ناصية ش ١١، ١٤ ـ بورسعيد

مكتبة أسوان
السوق السياحى ـ أسوان
ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط
٦٠ش الجمهورية ـ أسيوط
ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا
١٦ ش بن خصيب ـ المنيا
ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)
مبنى كلية الآداب ـ جامعة المنيا ـ
المنيا

مكتبة طنطا
ميدان الساعة ـ عمارة سينما أمير ـ
طنطا
ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى
ميدان محطة السكة الحديد
عمارة الضرائب سابقًا ـ المحلة

مكتبة دمنهور
ش عبدالسلام الشاذلى ـ دمنهور
مكتب بريد المجمع الحكومى ـ توزيع
دمنهور الجديدة

مكتبة المنصـــورة
٥ ش السكة الجديدة ـ المنصورة
ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكـتـبـة مـنـوف
مبنى كلية الهندسة الإلكترونية
جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية
مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام
ميدان التحرير ـ الزقازيق
ت : ٠٥٥/٢٣٦٢٧١٠
ت: ٠١٠٠٦٥٣٣٧٣٣٢

إنسانيات

مجموعة الحقول المعرفية التى تعنى بدراسة الإنسان وتاريخه وبيئته وواقعه الاجتماعى والثقافى والسياسى، وما ينشغل به البشر من إشكاليات حياتهم ومجتمعهم وأنساق ثقافتهم وقيمهم فى علوم مثل: التاريخ والأنثروبولوجيا والاقتصاد والنقد الأدبى.

الاغتيال الاقتصادى للأمم

اعترافات قرصان اقتصاد

قراصنة الاقتصاد هم خبراء محترفون مهمتهم أن يسلبوا ملايين الدولارات من دول كثيرة فى سائر أنحاء العالم. يحولون المال من المنظمات الدولية التى تقدم القروض والمساعدات ليصبوه فى خزائن الشركات الكبرى وجيوب حفنة من العائلات الثرية التى تسيطر على الموارد الطبيعية للكرة الأرضية. وسائلهم لتحقيق ذلك تشمل اصطناع التقارير المالية، وتزوير الانتخابات والرشوة والابتزاز والجنس والقتل، يلعبون لعبة قديمة قدم الإمبراطوريات لكنها تأخذ أبعادا جديدة ومخيفة فى هذا الزمن ... زمن العولمة.

جون بركنز

خبير اقتصادى دولى. ولد فى ولاية نيوهامبشير بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٥ . حصل على درجة البكالوريوس فى كلية إدارة الأعمال بجامعة بوسطن عام ١٩٦٨. تطوع فى فيالق السلام بالإكوادور فى الفترة من ١٩٦٨_ ١٩٧٠. حصل على وظيفة رجل اقتصادى فى شركة استشارات دولية (١٩٧١_ ١٩٨٠)، تعرف من خلالها على العالم السرى للمؤسسات المالية الدولية وكيفية استغلالها للدول الفقيرة. أسس جماعة «الحالمون بالتغيير» لمساعدة السكان الأصليين بمختلف بلدان العالم فى الحفاظ على القيم الثقافية لمجتمعاتهم.


ISBN# 9789772072019

